ابو اسحاق الصابي

الكاتب والشاعر

اعداد

ندى ابو رسلان

رسالة مقدمة الى دائرة اللغة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت، لنيل شهادة الماجستير . بيروت، لبنان، ايار ١٩٨٧.

ابو اسحـــــاق الصابـــــي

ابو رســـــلان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Abu Ishak al-Sabi' as a Writer and a Poet

ابو اسحاق الصابي ـ الكاتب والشاعر

By

Miss Nada Abu-Rislan
(Name of student)

Approved:

Prof. Sami Makarem — Advisor

Prof. Nadeem Naimy — Member of Committee

Prof. Ramzi Baalbaki — Member of Committee

Member of Committee

Member of Committee

Date of Thesis Presentation: May, 1987

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Release Form

I, Nada Abu-Rislan ....

______________ authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

✓ do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

Signature: Nada Abu Rislan

Date: 10/6/1987

توطئـــــة

بســم اللــه الرحمـــن الرحيـــم

ابو اسحـاق ابراهيم بن هلال الصابي ، احد اكبر كتاب الدواوين في القــرن الرابـــع الهجـرى، صابئـي النحلة ،حرانـي الاصـل ، تولـى ديوان الرسائـل للخليفـة المطيـــع لله العباسي وللملك معز الدولـة البويهي وتقلده تقليدا سلطانيا ،عرف بالتشدد في احكام دينـــه، وبالوقت نفسه كان حافظا للقرآن متبحرا في العلوم الاسلامية ،بالاضافـة الى سواهـا من علـوم عصـره كالفلسفـة وعلم النجـوم . كانت علاقاته جيدة مع معاصريه من المسلمين وخاصـة مع جماعة من كبرائهم، لكن منصبه الرفيع وعلمه الغزير وسلوكـه الحسن لم تحل دون تعرضه للنكبات والمحن التي عانى منهـا الكثير فكثرت آلامـه وشكواه . اما ادب الصابي فهو الادب المبني على الثقافـة الغزيرة المتنوعـــة، الاسلاميـة منها خاصة ،وذلك في الجانب الرسمي من هذا الادب او الرسائل الديوانيـة ،وكان المعبر عن مآسيـة وآلامـه في الجانب الخاص منه او الرسائل الشخصيـــة وبعض شعره .

لم تتناول ابا اسحاق الصابي اية دراسـة مستقلـة ،مع انه يستحق ان يفرد بدراسة وافيـــة كونـه يمثل نموذجا عاليا للكتابـة الانشائيـة في القرن الرابع الهجرى ،كما تتمثل في حياتـه مأساة الكاتب في هذا القرن ،لذلك رأيت ان اجعل " ابا اسحاق الصابي الكاتب والشاعـر " موضوعـا لاطروحتـــي للماجستيـر . وقد عمدت اولا الى التعريف بالصابئـة في مقدمـة لهذا البحث لانها الدين الذى ينتمي اليه ابو اسحاق ويؤمن بعقائده ، وكان لهذا اثره في سلوكـه واخلاقـه كما في اتجاهاتـه العلميـة وفـي مركـــزه في الدولـة ، وعلاقاته مع الآخرين وفي نتاجه الادبي ايضا ، ثم لأن الدين الصابئي غير معروف للنـاس قديمـا وحديثا وهذا ما يتضح من اضطراب المصادر القديمة في التعريف به ،فجماعـة الصابئـة

كانت من رعايا الدولة الاسلامية ، تبوأ الكثير من افرادها المراكز العالية في الدولة ،والصابي احدهم ، مع انهم لا ينتمون الى دين كتابي • هذه الامور مجتمعة دفعتني الى محاولة التعريف بعدة امور حول الصابئة : عقائدهم ،ومجيئهم الى بغداد ،واتصالهم بالدولة ،والموقف الشرعي منهم وغير ذلك •

بعد هذه المقدمة يتناول الفصل الاول عرض حياة الصابي وآثاره بدءا بالتعريف بأصله ومولده ، ثم يرافق تطور حياته منذ الحداثة وبداية اتجاهاته العلمية ،ثم صعود نجمه وذلك باتصاله بالمهلبي وحظوته لديه ، ثم توالي النكبات بعد وفاة المهلبي التي اتبعت بحزنه لوفاة ابنه ثم مرضه وعجزه الى حين وفاته سنة ٣٨٤ هـ • خلال هذه الحياة المديدة المتقلبة تعرف الصابي الى شخصيات عصره المعروفة وربطته بها علاقات مختلفة منها ما هو واضح صريح ومنها ما هو مبهم مثير للاستغراب والتساؤل وقد عرضت لعلاقاته باثنين من هذه الشخصيات هما الشريف الرضي والصاحب ابن عباد ، استخلصت بعدها اهم ملامح شخصية الصابي واهم آرائه ، ثم انهيت الفصل الاول بالتعريف بمؤلفاته •

اما الفصل الثاني وعنوانه الصابي الكاتب فهو مقصور على دراسة ادب الصابي النثري المتمثل في ناحيتين : رسائله بشكل اساسي ثم كتاب التاجي • اما رسائل الصابي فقد عرضت لانواعها ويمكن قسمتها الى رسائل ديوانية واخرى شخصية وتتفرع من هذين القسمين تفريعات عدة • ثم عرضت لاهم السمات التي تميز الرسالة لدى الصابي ،عمدت بعدها الى تحليل اثنتين منها : الاولى ديوانية وهي رسالة فتح بغداد والثانية هزلية وهي عهد التطفيل • اما كتاب التاجي فهو كتاب في التاريخ حاولت ابراز الوجه الادبي له لان الصابي كتب التاريخ بديباجة ادبية • وقد ارتأيت نظرا لتعدد

الشواهد ولطول الرسائل التي اعتمدتها في ابراز السمات العامة للرسالة " الصابية " ان اجعل هذه الرسائل وبعض الشواهد الاضافية في ملحق خاص في نهاية الاطروحة وذلك تخفيفا على القارئ •

اما الفصل الثالث وعنوانه الصابي الشاعر فقد تناول اولا الشعر عند الصابي في بابين : موقف الصابي من الشعر اعتمادا على رسالة له في تفضيل النثر على النظم ، ثم التعريف بموضوعات شعره يذكر فيه كل نوع شعري كتب فيه مع اعطاء نماذج على هذا النوع مرفقة بالتحليل والتعليق في احيان كثيرة ، ثانيا قيمة شعره وذلك من نواح عدة : فنية وشخصية وادبية واجتماعية • اخيرا ينتهي هذا البحث بخاتمة تعد خلاصة موجزة لاهم ما ابرزته هذه الدراسة •

فهـــرس المحتويـــات

		الصفحـــة
توطئـــة		
مقدمـــة	: الصابئـــة	
الفصل الاول	: حياة الصابي وآثاره	١
	اصلـه ،مولده ،حداثتـه	٢
	صعـود نجمـه	١١
	محنتـه ونهاية امره	٤٣
	علاقاته بشخصيات العصر :	
	الشريف الرضي والصاحب بن عباد	٩٩
	شخصيتـه وآراؤه	١٤٥
	مؤلفـاتـه	١٦٧
الفصل الثاني	: الصابـي الكاتـب	١٧٢
	رسائـل الصابـي	١٧٤
	انواعهـا	١٧٤
	السمات العامة للرسالة لدى الصابي	١٧٨
	نماذج من نثر ابي اسحاق الصابـي	٢٢٥
	كتـاب التاجـي	٢٧٥

الصفحة

الفصل الثالث : الصابي الشاعر	٢٨٨
الشعر عند الصابي	٢٨٩
موقف الصابي من الشعر	٢٨٩
موضوعات شعره	٢٩٧
قيمة شعر الصابي	٣٢٨
خاتمة	٣٤٢
ثبت بأسماء المصادر والمراجع التي ترجمت للصابي او ذكرت اخباره	٣٤٤
لائحة بأسماء المصادر والمراجع المعتمدة في البحث	٣٤٨
ملحق الشواهد النثرية	٣٦١

المقــــدمـــــة

======

الصـــــابئــــــة

الصابئة اسم (١) لديانة قديمة ورد ذكرها في القرآن الكريم ، كما تحدثت فيها المصادر العربية القديمة ، وكتبت حولها دراسات حديثة متعددة ، ولايزال عدد كبير من اتباع هذه الديانة يعيشون في العراق وجنوب ايران حتى اليوم (٢) ، يمارسون طقوسهم وشعائرهم الدينية ، محافظين على لغتهم الخاصة وكتبهم المقدسة (٣) .

ورد ذكر الصابئة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع (٤) . وقد اختلف المفسرون

---

(١) انظر التفسير اللغوى القديم لهذا الاسم في المصادر التالية : محمود بن عمر الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (القاهرة ،مطبعة بولاق ، ١٢٨١ هـ) ،ج ١ ،ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ . ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، الملل والنحل (تحقيق محمد سيد كيلاني ،بيروت، تصوير دار المعرفة ، ١٤٠٢/١٩٨٢) ،ج ٢ ،ص ٥ وشمس الدين ابن خلكان ، وفيات الاعيان (تحقيق احسان عباس ، بيروت ،دار الثقافة ، ١٣٨٨/١٩٦٨) ج ١ ، ص ٥٤ وابا الفضل جمال الدين ابن منظور ، لسان العرب (بيروت ،دار صادر ، دون تاريخ) ، مادة: صبأ وابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب (مصر ، مكتبة القدسي ، ١٣٥٠هـ) ،ج ٣ ،ص ١٠٧ وابا الفيض محمد بن عبد الرزاق الزبيدي ، تاج العروس (مصر ، المطبعة الخيرية ،الطبعة الاولى، ١٣٠٦هـ) مادة : صبأ . وانظر في التفسيرات الحديثة : الليدي دراور ، الصابئة المندائيون (تعريب نعيم بدوي وغضبان رومي ، بغداد ، مكتبة الاندلس ، ١٩٦٩) ، مقدمة المعربين ،ص ٨ ورشدي عليان ،الصابئون حرانيين ومندائيين (بغداد ،مطبعة دار السلام، ١٩٧٦) ،ص ٢٦ و ٢٨ .

(٢) هنالك احصاءات رسمية تذكر عددهم . انظر كتاب السيد عبد الرزاق الحسني ،الصابئون في حاضرهم وماضيهم (دون مكان ، ١٣٩٨/١٩٧٨) ،ص ١٩٤ ــ ١٩٥ .

(٣) ر. عليان ،الصابئون ،ص ١٦ . يعرف الصابئة المعاصرون بالمندائيين . انظر حولهم كتاب عليان السابق الذكر . ودراور ،الصابئة المندائيون والحسني ، الصابئون في حاضرهم وماضيهم وناجية مراني ،مفاهيم صابئية مندائية (بغداد ، مطبعة شركة التايمس ، ١٩٨١) .

(٤) الايات: ٦٢ من سورة البقرة و ٦٩ من سورة المائدة و ١٧ من سورة الحج .

في تعريف هذه الجماعة (١) ، وليس ادل على ما دار حولهم من اختلافات ما ذكره ابن كثير في تعريفه بهم حين عرض لذكر اختلاف اراء العلماء والمفسرين حولهم (٢). هذه الاختلافات ادت بالتالي الى اختلافات الفقهاء في كيفية التعامل معهم بين من يحلل ذبائحهم والزواج منهم وبين من يفتي بقتلهم (٣).

وقد ميزت بعض الدراسات الحديثة بين فرقتين من الصابئة هما صابئة البطائح في العراق ،ويعرفون بالمندائيين ،وصابئة حرّان الوثنيون (٤) ، واعتبرت ان صابئة البطائح هم المقصودون في القرآن الكريم وان ذكرهم فيه ليدل على انهم أهل دين كتابي كاليهودية

---

(١) قيل انهم يعبدون الملائكة وانهم نوع من النصارى . الكشاف ، ج ١ ،ص ٥١ و ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٢) انظر عماد الدين ابن كثير ، تفسير الحافظ ابن كثير (مصر ،مطبعة المنار ،١٣٤٣) ، ج ١، ص ١٨٩ ــ ١٩١ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٩٠ ــ ١٩١ . وقد جاءت بعض التفسيرات الحديثة مختلفة عن القديمة ايضا انظر في ذلك ، سيد قطب ، في ظلال القرآن (بيروت ، دار الشروق ، الطبعة العاشرة ،١٤٠٢/١٩٨٢) ، ج ١ ،ص ٧٥ و ج ٢ ص ٩٤٢ .

(٤) الحسني ،الصابئون في حاضرهم وماضيهم ،ص ٦٠ و ٦٢ و ٦٣ وكارادو فو ، " الصابئة " ، دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) ج ١٤ ،ص ٨٩ ــ ٩٢ . وقد تنبه المسعودي في مروج الذهب (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، الطبعة الرابعة ١٣٨٤/١٩٦٤) ، ج ١ ،ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ ،الى وجود فئتين من الصابئة: الحرانيين والكيماريين ، اظهرها رجل واحد يقال له " بوداسف" وقال ان الكيماريين نوع من الصابئة " مباينون للحرانيين في نحلتهم ، وديارهم بين بلاد واسط والبصرة من ارض العراق نحو البطائح والاجام " . ولابي اسحاق الصابي وصف للسكن في البطائح يقول : " محل خسيس لايطيب مساوه لثاويه والاصباح ليس بصابح " القصيدة في بهجة المجالس لابي عمر بن عبد البر (تحقيق محمد مرسي الخولي ومراجعة عبد القادر القط ، القاهرة ،دار الكاتب العربي ،١٩٦٧/١٩٦٩) ، ج ٢ ،ص ١٠٢ ــ ١٠٣ . اما حرّان فمدينة قديمة في ديار مضر ،بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان ،وتقع على طريق الموصل والشام والروم . يقال بناها هاران اخو ابراهيم الخليل (ويقال عمه ابو زوجته) فنسبت اليه ، وعربت فقيل حرّان . والنسبة اليها حرّاني وكذلك حرناني على غير قياس . وحرّان مدينة الصابئين ، لهم فيها اماكن مقدسة ،وتتصف هذه المدينة بقلة الماء والشجر . انظر حولها : ابن حوقل النصيبي ،صورة الارض (ليدن ، بريل ، الطبعة الثانية ،١٩٦٧) ، ص ٢٢٦ وابراهيم***

والنصرانيـــة (١) ،في حين ان الحرانيين اتخذوا لانفسهم اسم الصابئـة ليستفيـدوا من التسامح الاسلامي المفروض للصابئـــة (٢) .

اما المصادر العربيـــة القديمـة فقـد اختلفـت في تعريف هذه الفئـة (٣) نقتصر هنـا على عرض ما جاء في الفهرسـت لابن النديـم والملل والنحل للشهرستـاني لانهما من اهـم

***) ابن محمد الاصطخري ، المسالـك والممالك (تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة ،١٣٨١/١٩٦١) ، ص٥٣ وابن الفقيـه ابا بكر احمد بن محمد الهمذانـــي ، كتاب البلدان (ليدن ،بريل ،١٩٦٧) ،ص١٣٢ وابا عبد اللـه المقدسي البشارى، احسن التقاسيـم (ليدن ،بريل ،الطبعة الثانية ،١٩٦٧) ص١٤١ وابن جبيـر ، رحلـــة ابن جبير (تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، مكتبة دار مصر ،دون تاريـــخ) ص ٢٣٢ ووفيـات الاعيان ،ج ١ ،ص ٣١٥ وياقوت الرومـي ،معجم البلدان (بيـروت ، دار صادر ، ودار بيروت ١٣٧٥هـ/١٩٥٦) ،ج ٢ ،ص٢٣٥ ، ومحمد بن عبد المنعـــم الحميـرى ، الروض المعطـــار، (تحقيق احسـان عباس ،بيروت ، مكتبة لبنان ،١٩٧٥) ص ١٩١ .

(١) داور ، الصابئـة المندائيـون ، مقدمة المعربين ،ص ٨ و ١٨ وكاراده فـــو " الصابئـة " ، ومراني ،مفاهيـم صابئيـــة ،ص ٥٢ و ٧٤ .

(٢) داور ،الصابئـة المندائيـون ، مقدمـة المعربين ،ص ١٨ وكاراده فـــو " الصابئـــة " دائرة المعارف الاسلاميـــة ، ج ١٤ ،ص ٨٩, D.S. Margoliouth, "Harranians", Encyc. of Religion and Ethics, vol.6.pp.519-520(Newyork, Scribner,1955-56).

وقد اعتمد اصحاب هذا الرأي في ذلك على حكاية الصابئـــة مع المأمون التي ستذكرفيمابعد .

(٣) من هذه المصادر: الراغـب الاصفهاني ، محاضرات الادباء (بيروت ،دار مكتبـة الحيـاة ، ١٩٦١) ج ٤ ،ص ٤٢٢ ولسـان العرب ، مادة : صبأ واحمد بن محمد الفيومـي ، المصباح المنير (مصر، المطبعـة البهية المصرية ، ١٣٠٢هـ) ج ١ ،ص ٢٠٥ وتاج العـروس، مادة : صبأ .

المصادر (١) التي تناولت الصابئة بدراسة مستفيضة فامدتنا بفوائد كبيرة ومعلومات جيدة عنهم .

يعرض ابن النديم لذكر غير فئة من الصابئة منهم "الصابئة الابراهيمية" الذين آمنوا بابراهيم وحملوا عنه الصحف المنزلة (٢) . ثم يذكر حكايتين عن الصابئة توضح الاولى معتقدهم الاساسي ومافرض عليهم من عبادات (٣) ، ولايخرج ماذكر فيها عما وصفه الشهرستاني مفصلا عن معتقداتهم ،وسنعود اليه فيما بعد . اما الحكاية الثانية فيقول انها نقل عن ابي يوسف ايشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرانيين المعروفين في عصرنا بالصابئة تقول الحكاية "ان المأمون اجتاز في اخر ايامه بديار مضر يريد بلاد الروم للغزو فتلقاه الناس يدعون له ،وفيهم جماعة من الحرنانيين ، وكان زيهم اذ ذاك لبس الاقبية ، وشعورهم طويلة بوفرات كوفرة قره جد سنان بن ثابت . فانكر المأمون زيهم وقال لهم : من انتم من الذمة ؟ فقالوا : نحن الحرنانية . فقال : انصارى انتم ؟ قالوا : لا ، قال : فيهود انتم ؟ قالوا : لا ، قال فمجوس انتم ؟ قالوا : لا ،قال لهم:افلكم كتاب ام نبي ؟ فجمجموا في القول ،فقال لهم: فانتم اذا الزنادقة ،عبدة الاوثان ،واصحاب الرأس (٤) في

---

(١) يلي هذين المصدرين في الاهمية مروج الذهب للمسعودي ورسائل اخوان الصفاء ونهاية الارب للنويري ،بالاضافة الى المصادر التي ترجمت لاعيان الصابئة كتاريخ الحكماء للقفطي وطبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة .

(٢) ابو الفرج ابن النديم ، الفهرست (تحقيق رضا تجدد ،طهران ، ١٩٧١) ص ٢٤ .

(٣) انظر المصدر نفسه ،ص ٣٨٣ .

(٤) ينقل ابن النديم عن ايشع النصراني صاحب هذه الرواية حكاية في الرأس غريبة وفظيعة خلط فيها مؤلفها او راويها بين ايمان الصابئة بالنجوم وبين تضحيتهم بالقرابين البشرية ،وربما كانت هي المقصودة بكلام المأمون هنا . انظر الفهرست ، ص ٣٨٦ .

ايام الرشيد والدى وانتم حلال دماؤكم ، لاذمة لكم ، فقالوا : نحن نؤدى الجزية ، فقال لهم : انما تؤخذ الجزية ممن خالف الاسلام من اهل الاديان الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه ولهم كتاب ... " وخيّر المأمون هؤلاء ، كما تقول الرواية ، بين الدخول في الاسلام او في احد الاديان الكتابية وبين القتل ، ثم رحل الى بلد الروم ، فغير هؤلاء زيهم وتنصّرت منهم طائفة واسلمت اخرى ، وبقيت فئة منهم في حيرة من امرهم واضطراب ، حتى اشار عليهم فقيه من حرّان ان يقولوا للمأمون اذا رجع من سفره انهم الصابئون ، " فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه في القرآن " . ثم ان المأمون توفي في سفرته تلك وانتحل هؤلاء هذا الاسم " لانه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة " (١)

والملاحظ في هذه الرواية عدة امور : اولها ان المأمون لم يكن يعلم بوجود هذه الفئة من الناس مع ما كان عليه من ثقافة ومعرفة وعلم ، ثانيا ، ان هؤلاء القوم عرّفوا انفسهم باسم الحرنانية ، وهي نسبة الى حرّان ، اى انهم لم ينتسبوا الى دين معين بل الى مدينة ، ثالثا ، حاول الراوى ان يوحي بان صابئة بغداد ومنهم سنان بن ثابت ، هم من عبدة الاوثان بقوله ان لهم " وفرات كوفرة قرة جد سنان بن ثابت " ، رابعا ، قوله انه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة . يضاف الى هذه الملاحظات حقائق اخرى منها ان ابن النديم انما ينقل ماوقع اليه لانه هو نفسه لايعرف حقيقة الصابئة كما يظهر من طبيعة عرضه لخبرهم ، ثم انه كان هنالك بعض الفئات تتعمد الاساءة الى الصابئة والنيل منهم لما كانوا يتمتعون به من حرية ولما برز فيهم من نوابغ في الفكر والعلم (٢) ، يضاف الى ذلك جهلنا

---

(١) الفهرست ، ص ٣٨٥

(٢) مراني ، مفاهيم صابئية ، ص ٧٨ .

بأيشـــع النصراني الذي ينقـــل ابن النديـم عنه . كل هذا يجعلنا نضع علامة استفهـام كبيـــرة حول هذه الروايـــة ،خاصـة اذا علمنا ان الصابئة الاصليين هاجروا من القدس الى حرّان ابتداء من القرن الاول الميلادي (١) ، كما سوف نرى بعد قليل . يبقى ان اهم ضعـف في هذه الروايـة هو ماتتركـه من سؤال : هـل كان كل الخلفاء المسلمين من عمر الى المأمون جاهليـن بهذه الطائفـة ،يقبلون منها الجزيـــة دون ان يكونوا من اهل الكتاب ؟

ثم يذكـر ابن النديـم طائفـة ثالثـة من الصابئـــة يسميها المغتسلة او صابئة البطائـح ،يقولون بالاغتسال ويعظمون النجوم ولهم اصنام ،ويضيف : " وهم عامة **الصابئـة المعروفين بالحرنانييـن** ،وقد قيل انهم غيرهم جملـة وتفصيـلا " (٢) .

هكـذا يتضح لنا كم في عرض ابن النديم ،وهو مجرد ناقل ،من اضطراب بالنسبة لتحديد طائفة الصابئة . على ان مـا ذكره الشهرستـاني عن معتقد الصابئـة ،وماتوصل الى معرفته الدارسون المحدثون عنهم ،يشكل حلا لما يضطرب في اذهاننا من معلومات متضاربـــة بشأنهم ، فالدراسات الحديثـــة ترفع العلاقـــة بين الصابئـة الاصليين او الموحديـــن وبين الحـــرنانيين عـــن مستوى التسميـة الواحدة الى العلاقـة الحقيقيــة التي نتجت عن هجرة الصابئة الحقيقييـــن عن موطنهـم الاول في فلسطيـن الى مدينة حرّان حيث جاوروا اهلها واثروا فيهم وتأثروا بهم (٣) . فقـد جمعـت حرّان بين هاتيـن الفئتيـــن ، فتعرف الحرانيـون على دين الصابئـة كما تعـرف هؤلاء على دين الحرانيين وفلسفتهـم ، خاصة الافلاطـونية الحديثـة (٤) هذا التمازج ادى الى

---

(١) مرانـي ،مفاهيم صابئيـــة ، ص ٦٦ .

(٢) الفهرست ،ص ٤٠٣ــ ٤٠٤ .

(٣) دراور ، الصابئـة المندائيـون ، مقدمة المعربين ،ص ١٣ و١٥ و ١٦ . وانظر: مراني ،مفاهيم صابئيـة ،ص ٦٣ و٦٥ و٦٦ و ٧١ .

(٤) دراور ،الصابئـة المندائيـون ، مقدمة المعربين ،ص ١٦ ــ١٧ . وقد ذكر في رسائل اخوان الصفاء (بيروت ،دار صادر ،دون تاريخ) ج ٤ ،ص ٢٩٥ . ان من اسماء الصـابئة المعروفة لدى الناس اليونانيون ، والحراسون ، والحتوفون ،وتسميتهم باليونانيين دليل وثيق على معرفتهم بالفلسفـة اليونانية ،ويعرف المسعـودي في مروج الذهب (ج ١ ،ص ٩٥) الحرانيين بالقـول : " هـم عوام اليونانيين وحشويـة الفلاسفـــة المتقدمين " . ويقول ايضا انه راى على " باب مجمـع الصابئـــة بمدينة حران مكتوبا على مدقة الباب بالسريانيةقولا لافلاطون فسره مالك بن عقبـون **

وجود وجوه شبه كثيره بين الديانتين ، حتى ان الشهرستاني اعتبر الحرنانية احدى فرق الصابئه .

اما الشهرستاني فقد اعاد الصابئة الى زمن ابراهيم الخليل حين اعتبر ان الفرق في زمانه كانت اثنتين : الصابئة والحنفاء (١) . ويقول ان الصابئة كانوا ينسبون عقيدتهم الى اثنين من الانبياء هم عاذيمون وهرمس وهما شيث وادريس (٢) . وقد جعل الشهرستاني الصابئة في اربع فرق تتبع عقيده واحده ولكن بتدرج في فهمها واتباعها بين الروحانية والماديه ، ولاندري ان كان هذا التدرج زمنيا وان كانت جميع هذه الفرق فرقة واحدة كانت في ابتداء امرها تؤمن بعقيده روحيه تدرجت شيئا فشيئا الى عبادة الاصنام او عبادة الله من خلالها (٣) كما عبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى﴾(٤)

= وغيره منهم وهو " من عرف ذاته تأله " . (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨) ويرى بعض المحدثين ان الحرانيين جمعوا في ديانتهم بين الدين البابلي والهليني وبين الفلسفة الافلوطينيه .
(D.S.Margolioth, "Harranians")

(١) الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤ . يقول الشهرستاني عن الحرنانية انهم ينسبون مقالتهم الى عاذيمون وهرمس واعيانا واواذى ، ومنهم من ينتسب الى سولون جد افلاطون لامه . (الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٥٦ - ٥٧) وقد ذكر ابن النديم سولون هذا ايضا (الفهرست ، ص ٣٨٣) . وقد ذكر لهم علي بن احمد ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والاهواء والنحل (مصر ، المطبعة الادبيه ، الطبعة الاولى ، ١٣١٧) ، ج ١ ، ص ٣٥ ، انبياء اخرين كايلون واسقلانيوس ويود اسف ، وغيرهم . ويقول محمد باقر الخوانساري في روضات الجنات (تحقيق اسد الله اسماعيليان ، طهران ، مكتبة اسماعيليان ، وبيروت ، دار المعرفة ، ١٣٩٠ - ١٣٩٢) ، ج ٢ ، ص ١٦٣ ان لهم كتبا واحكاما ينسب بعضها الى شيث وبعضها الى يحي بن زكريا .
(٣) يقول ابن حزم (في الفصل ، ج ١ ، ص ٣٥) ما يقرب من هذا : " وكان الذى ينتحله الصابئون اقدم الاديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا الى ان احدثوا فيه الحوادث وبدلوا شرائعه بما ذكرنا فبعث الله عز وجل اليهم ابراهيم خليله صلى الله عليه وسلم بدين الاسلام " .
(٤) سورة الزمر ، (٣٩) : ٣ .

الفرقـــة الاولى يسميها الشهرستاني اصحاب الروحانيات(١) . ويرى هؤلاء ان للعالم صانعا حكيما مقدسا عن سمات الحدثان وانه من الواجب معرفة العجز عن الوصـــول الـــى جلالـــه لذا يتقرب اليـــه بالمتوسطات ، وهم الروحانيون المطهرون والمقدسون عن القوى الجسدانيـة والمواد الجسمانية (٢) . هذا المعتقد يحتم ضرورة تطهير النفوس عن الشهوات الطبيعية والقـوى الشهوانيـة والغضبيـة حتى يحصل مناسبـة بينهم وبين الروحانيات فيسألون حاجتهم منها .

الفرقـة الثانيه يسميهم الشهرستاني اصحاب الهياكل ،وهؤلاء لما لم يستطيعـوا التقرب الى الروحانيات باعيانها لجأوا الى هياكلها وهي السيارات السبع وبعض الثوابت (٣) ، فدرسـوا احـوال الكواكب وتعرفوا بيوتها ومطالعها ومغاربها ، وعملوا العزائـم والدعوات (٤) . وكان من معرفتهم بالنجوم ان شهروا بالسحر والطلسمات والتنجيـم والتعزيـم (٥) .

---

(١) يسميها شهاب الدين النويري "عبـاد الروحانيات" ، انظر كتابه نهاية الارب في فنون الادب (القاهرة ،دار الكتب المصريـة ،الطبعة الثانية ١٣٤٧/١٩٢٩)، ج ١ ،ص ٥٧ ـ ٦٠.

(٢) الملل والنحل ، ج ٢ ،ص ٦ .

(٣) المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٢٣١.

(٤) اخوان الصفاء ،ج ٤ ،ص ٢٩٨ والملل والنحل ،ج ٢ ،ص ٤٩ .

(٥) الملل والنحل ،ج ٢ ،ص ٥٠ ، وانظر اخوان الصفاء ،ج ٤ ،ص ٢٩٥.

الفرقـــة الثالثـة : اصحاب الاشخاص رأت ان الكواكب التي يتقرب بها الـــى الروحانيـــات تظهر وتغيب فشعروا بحاجة الى اشخاص وصور قائمـة يعكفون عليها ويجعلونها وسيلتهم الى الكواكب ،فيتقربون بها الى الروحانيات ويتقربون بالروحانيات الى الله • فاتخذوا اصناما على مثال الكواكب السبعه (١) وبنوا اخرى على اسماء الجواهر الروحانية (٢) •

الحرنانيـه هي الفرقـة الرابعـــة من فرق الصابئـة التي ذكرها الشهرستاني وهؤلاء يؤمنون بالحلول والتناسخ ويقولون ان المعبود واحد ومتعدد " اما واحد ففي الذات ،والاول ، والاصل والازل ،واما كثير فلانـه يتكسر بالاشخاص في رأى العين ، وهي المدبرات السبعة والاشخاص الارضيـة الخيره ،العالمـة ، الفاضلـــة ،فانه يظهر بها ،ويتشخص باشخاصها ،ولاتبطل وحدته في ذاته "(٣) ، وانه هو الذى ابدع الفلك ومافيه من الاجرام والكواكـــب • وتقول هذه الفرقة ايضا بالتناسخ الناتج عن فكره حدوث طبيعه الكل في نهاية كل ستة وثلاثين الف واربعمائـة وخمس وعشرين سنـــة زوجين من كل نوع من الحيوانات والانسان ذكرا وانثى ،فيبقى هذا النوع هذه المده حتى اذا انقضت انقطـع نسل الازواج وتوالدها وابتدأ دور اخر (٤) • وهذه هي القيامـة الموعودة عندهـم ولا ايمـان لهم بالبعث واحياء الموتـى (٥) •اما الثواب والعقـاب ففي هذه الدار لافي دار اخرى (٦) •

---

(١) الملل والنحل ،ج ٢ ،ص ٥٧ ،وقد ذكر النويرى في نهاية الارب (ج ١ ،ص ٦١ ـ ٦٢) هذه الهياكل واماكنها في العالم كالهند واليمن والصين وغيرها •

(٢) الملل والنحل ،ج ٢ ،ص ٥٧ ،وقد ذكرت ايضا في مروج الذهب ،ج ٢ ،ص ٢٤٧ ،وهي هيكـــل العلـــة الاولى ،والعقل والسياسـة والصورة والنفس •

(٣) الملل والنحل ،ج ٢ ، ص ٥٤ •

(٤) المصدر نفسه ،ص ٥٥ •

(٥) المصدر نفسه

(٦) المصدر نفسه •

ومما يجدر بنا معرفته عن الصابئة ايضا كتمانهم امور دينهم حيث لا يعرف اصول عقيدتهم الا فئة قليلة منهم " قوم مخصوصون او واحد في كل زمان يحيط بذلك علما ، ويتيسر له عملا " اى العلم بحركات الكواكب والافلاك وتصرف الروحانيات فيها ، والعمل بصنعة الاشخاص في مقابلة الهياكل (١) . وتتحدث احدى رسائل اخوان الصفاء عن كيفية ادخال الاحداث من الصابئة في الدين واسماعهم السر فتذكر ان من هذا السر نوعين : سر الرجال ويسمعه الرجال وسر النساء وتسمعه النساء ، وتقول انه يتألف من هذين السرين تأليفات كثيرة من جملتها اربعة يتضمن كل واحد منها قوانين وبراهين علم من العلوم الاربعة : الطب ، والكيمياء ، وعلم النجوم ، وعلم الطلسمات (٢) . وكأن الرسالة تعطي تعليلا لبراعة ابناء هذه الطائفة في العلوم المذكورة .

اما بالنسبة للفروض الدينية فالصابئة يتفقون على اداء ثلاث صلوات يوميا (٣) ، ويحرمون لحم الخنزير والكلب والحمام وما له مخلب من الطير ، وينهون عن السكر والاختتان . ويتم الزواج عندهم بولي وشهود ولا يجمعون بين امرأتين ، ولا يبيحون الطلاق (٤) . وقد فرض عليهم الصيام ثلاثين يوما متفرقة خلال السنة ويتنفلون ما يزيد على الاربعين يوما (٥) .

---

(١) الملل والنحل ، ص ٣٣ . ويذكر ان الصابئة المعاصرين يكتمون امور دينهم حتى ليكاد الصابئي لا يعرف شيئا من اسرار الدين ، كما انهم لا يدخلون احدا من الناس في دينهم . الحسني ، الصابئون في حاضرهم وماضيهم ، ص ١١ - ١٢ .

(٢) اخوان الصفاء ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

(٣) الفهرست ، ص ٣٨٣ والملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٧ ، ويقول ابن حزم في الفصل (ج ١ ، ص ٣٤) بأنها خمس صلوات يوميا .

(٤) الفهرست ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ والملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٥) انظر الفهرست ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ ، ويقول ابن حزم انهم يصومون شهر رمضان ويستقبلون الكعبة في صلاتهم (الفصل ، ج ١ ، ص ٣٤) .

هذه فكرة مجملة عن الصابئة : فرقها ومعتقداتها اعتمد فيها ايضاح ما امكن من معتقداتها واظهار طريقة تعامل المصادر معها والتي تعكس اختلاف الرأى حولها نظرا لسرية تعاليمها ولمحاولات التشويه التي تعرضت لها . لكن ما لا خلاف عليه هو ان لهذه الفرقة اهمية كبيرة بالنسبة لنبوغ عدد غير قليل من ابنائها في مجالات علمية مختلفة . وقد كان معظم هؤلاء في بغداد عاصمة الدولة على صلة مباشرة مع الخليفة او الوزراء . هذه الفئة من الصابئة التي سكنت بغداد قدمت اليها من حران . ويقال ان ثابت بن قرة هو الذى وضع حجر الاساس لوجود الصابئة في بغداد (١) . فقد كان ثابت هذا صيرفيا بحران اتى بمقالة في مذهبه انكرها عليه قومه ، فاستتابوه فتاب ، ثم عاد الى القول بها مجددا ما جعلهم يمنعونه من دخول الهيكل ، فخرج من حران ونزل كفرتوثا (٢) . واقام بها مدة الى ان التقاه احد القواد وهو في طريق عودته من بلاد الروم الى بغداد فاعجب بعلمه وفضله واستصحبه معه ووصله بالخليفة المعتضد (٣) .

لكن مع احتلال الصابئين مراكز مرموقة في الدولة ، وكون هؤلاء ينتمون الى ديانة غريبة ، اصبح الموقف الشرعي منهم غير واضح او ثابت ما جعل وجودهم مهددا بالزوال غير مرة . فيذكر ان الخليفة القاهر (٤) استفتى بأمرهم الامام ابا سعيد الاصطخرى قاضي قم (ت ٣٢٨هـ)

---

(١) الفهرست ، ص ٣٣١ وجمال الدين القفطي ، تاريخ الحكماء (تحقيق جوليوس ليبرت ، ليبسك ، ١٣٢٠/١٩٠٣) ، ص ١١٥ وموفق الدين ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء (تحقيق نزار رضا ، بيروت ، مكتبة الحياة ، ١٩٦٥) ، ص ٢٩٥ ومحمد بن احمد الذهبي ، سير اعلام النبلاء (تحقيق علي ابو زيد ، اشراف شعيب الارنؤوط ، بيروت . مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى ١٤٠٣/١٩٨٣) ج ١٣ ، ص ٤٨٥ .

(٢) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٣١٣ ، ويذكر ان كفرتوثا قرية كبيرة بالجزيرة الفراتية بالقرب من دارا .

(٣) المصدر نفسه والفهرست ، ص ٣٣١ وتاريخ الحكماء ، ص ١١٥ وطبقات الاطباء ، ص ٢٩٥ واعلام النبلاء ، ج ١٣ ، ص ٤٨٥ . وقد دامت خلافة المعتضد من تاريخ مبايعته سنة ٢٧٩ هـ حتى وفاته سنة ٢٨٩ هـ .

(٤) كانت خلافة القاهر من تاريخ مبايعته سنة ٣٢٠ هـ حتى خلع وسمل سنة ٣٢٢ هـ .

فافتاه بقتلهم لانه رأى انهم يخالفون اليهود والنصارى في دينهم ويعبدون الكواكب . ولم يثن الخليفة عن عزمه الا جمعهم لمبلغ ضخم من المال كفه عنهم (١). ويذكر ايضا ان القاهر اجبر سنان بن ثابت على الاسلام (٢) . وقد صدر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري مرسوم عن امير المؤمنين كتبه ابو اسحاق الصابي يقضي بصيانة الصابئة وحراستهم والتخليه بينهم وبين مواريثهم وعدم مشاركتهم فيها (٣) .

من ابرز علماء الصابئة واعيانها من عرف من عائلتي زهرون وقره . اما عائلة زهرون التي ينتسب اليها ابو اسحاق ابراهيم الصابي ، فسيتم التعريف بعلمائها وادبائها خلال دراسة حياة ابي اسحاق . واما المنتسبون الى عائلة قره فنذكر منهم اولا : ابا الحسن ثابت بن قره (ت ٢٨٨ هـ) وكان في جملة منجمي المعتضد وحظي بمكانة مرموقة في مجلسه ، وله مؤلفات (٤) . ثم ابنه ابا سعيد سنان بن ثابت (ت ٣٣١هـ) وكان اديبا

---

(١) تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعيه الكبرى (مصر ، المطبعة الحسينية ، الطبعة الاولى دون تاريخ) ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، وقد حدد ادم متز هذه الحادثة بحوالي سنه ٣٢٠ هـ . آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (تعريب محمود عبد الهادي ابو ريده ، القاهره ، مكتبة الخانجي ، وبيروت ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الرابعة ، ١٣٧٨/١٩٦٧) ، ج ١ ص ٨٥ .

(٢) الفهرست ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ وتاريخ الحكماء ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ وطبقات الاطباء ، ص ٣٠١ ، وقد كان ابو سعيد سنان بن ثابت (ت ٣٣١ هـ) اديبا ومؤرخا وطبيبا ماهرا عمل في خدمة الخلفاء المقتدر فالقاهر ثم الراضي ، توفي مسلما وله مؤلفات وقد مهر في مهنة الطب لدرجة انه لم يكن يحق لطبيب ان يزاول مهنته الا بعد ان يمتحنه سنان ، وذلك ابتداء من سنه ٣١٩ هـ . انظر ترجمته بالاضافه الى المصادر السابقة في احمد بن محمد مسكويه ، تجارب الامم (تحقيق هـ . ف . امدروز ، مصر ، مطبعة شركه التمدن الصناعيه ، ١٣٣٢/١٩١٤ ـ ١٣٣٤/١٩١٦) ، ج ١ ، ص ٤١٧ وياقوت الرومي ، معجم الادباء (مصر ، دار المأمون ، بعناية احمد فريد رفاعي ، ١٩٣٦/١٣٥٥) ، ج ١١ ، ص ٢٦٢ .

(٣) كارادي فو ، "الصابئة" . وينقل ادم متز الخبر عن رسائل الصابي المخطوطة بمكتبة ليدن بهولنده رقم ٧٦٦ ، الورقة ٢١١ أ ـ ب (الحضارة الاسلاميه ، ج ١ ، ص ٧٧ ـ ٧٨) .

(٤) كان في بدايه امره صيرفيا . له رساله في مذهب الصابئين واخرى في الطب . انظر ترجمته في : الفهرست ، ص ٣٣١ وتاريخ الحكماء ، ص ١١٥ وطبقات الاطباء ، ص ٢٩٥ ووفيات الاعيان =

ومؤرخـــا وطبيبـــا ماهرا (١) وابا اسحاق ابراهيم بن سنان بن ثابت (ت ٣٣٥ هـ) وكان بارعا في الهندســـه وعلم النجوم وله مؤلفـات (٢) • اخوه ابوالحسن ثابت بن سنان بن ثابت (ت ٣٦٥) طبيـــب بارع فاضل وكتابـه في التاريخ مشهور (٣) • ويذكر القفطي من افراد هذه العائلة ايضـــا ابـا الحسن بن سنان الصابي ،وكان موجودا في حدود سنة ٤٣٩ يعمل في البيمارستان ،ولـــه اصـابات في الطب والعلاج • كما يذكر له اخا يعرف بابي الفضل بن سنـان (٤)•

بالاضافـه الى هذه العائلـه لابد من ذكر البتاني (ت ٣١٧ هـ) بين علماء الصابئـــة وشهير برصد الكواكب والهندسـه وحساب النجوم (٥) • وغير هؤلاء كثيـرون (٦) •

(**) ج ١ ،ص ٣١٣ واعلام النبلاء ،ج ١٣ ،ص ٤٨٥ وروضات الجنات،ج ٢ ،ص ١٦٢ •

(١) سبقــت ترجمته في هامش الصفحه ١٢ من هذا البحث •

(٢) انظر ترجمته في : الفهرست ،ص ٣٣٢ وتاريخ الحكماء ،ص ٥٧ وطبقات الاطباء ،ص ٣٠٧•

(٣) خدم المتقي ثم المستكفي ثم المطيع • وكتابه في التاريخ المذكور في المتن يبدأ من سنة ٢٩٥ هـ والى حين وفاتــه • انظر ترجمته في الفهرست ،ص ٣٦٠ ومعجم الادباء ،ج ٧ ،ص ١٤٢ وتاريخ الحكماء ،ص ١٠٩ وطبقات الاطباء ،ص ٣٠٤ ووفيات الاعيـان ،ج ١ ،ص ٣١٤•

(٤) انظر تاريخ الحكماء ،ص ٣٩٧ ـ ٤٠٢ •

(٥) هو ابو عبد الله محمد بن جابر بن سنان • له تآليف في علم النجوم والهندسه ككتاب الزيج وكتـاب مطالع البروج ، وشرح اربع مقالات لبطليموس • انظر ترجمته في الفهرست ص ٣٤٨ وتاريخ الحكماء ،ص ٢٨٠ ووفيـات الاعيان ،ج ٥ ،ص ١٦٤ •

(٦) نذكر منهم : ابن وصيف الصابي ، وكان طبيبـا خبيرا بطب العين ورحل اليه من الاقطـار (تاريخ الحكماء ،ص ٤٣٦ وطبقات الاطباء ،ص ٣١١) وهارون بن صاعد الطبيب ، وكـان يعمـل في البيمارستان العضدي في وقته ،وتوفي سنة ٤٤٤ هـ (تـاريخ الحكماء ،ص ٣٣٨) •

الفصل الاول

حياة الصابي وآثاره

اصلـــــه ، مولـــده ،حداثتـــــــه

ابو اسحاق ابراهيم بن هلال (١) بن ابراهيم بن زَهْرُون بن حَبُّــون (٢) سليل عائلـــة زهـرون الصابئيــــة التي قدمت من حرّان في زمن لم تحدده المصادر لكنه تـال بالطبــع لقـدوم ثابــت بــن قرة اول من قدم بغـداد من الصابئـــة ومهد لتمكنهـم فيهـا (٣) والذى يقدر مجيئـه اليهـا بحوالـــى سنـة ٢٥٩ هـ.(٤)

اقـدم من تذكره المصادر من عائلـــة زهرون ابو اسحاق ابراهيم بن زهرون جد ابـي اسحـاق ابراهيـم الكاتب (٥) . كـان هـذا طبيبـــا مشهـورا ،ترجـم لـه القفطـــي في تـاريخ الحكماء وقـال : " اظنـه جد ابراهيـم بن هلال الكاتب " (٦)، فيما لم يذكــر

---

(١) المصادر التي ترجمت للصابي او ذكرت بعض اخبـاره مثبتـة في نهاية البحث .

(٢) ضبط ابن خلكـان اسمـه بالشكـل الظاهر في المتن (وفيـات الاعيـان ، ج ١ ص ٥٢) ، وورد في بعض المصادر اسم هـرون بدل زهرون (الفهرست ، ص ١٤٩ وابو منصـــور الثعالبـــي ،يتيمـة الدهر (مكـة المكرمـــة ،دار الكتب العلميـة ودار البـاز للنشر ، الطبعـة الاولى،١٩٧٩/١٣٩٩) ، ج ٢، ص ٢٤١ . ومن المفيد الاشارة الى ان اسـم زهـرون من الاسماء المقدســـة لدى الصابئـــة المندائيين وتستدل دراور (الصابئة المندائيـون ، ص ٢٦) من وجود اسـم زهـرون بين اسماء علماء البلاط العباسي على وجود صلـة بين الحرانيين والمندائيين .

(٣) راجع ص ١١ من مقدمـة هذا البحـــث .

(٤) كاراده فو ، " الصابئـــــة " .

(٥) ترجمـــته في تاريخ الحكمـــاء ، ص ٧٦ وطبقـات الاطبـاء ، ص ٣٠٧ و ف،كرنكـو ، "ابـو اسحاق ابراهيـم بن زهرون"، دائرة المعارف الاسلاميـــة (الطبعة العربيـــة) ، ج ١٤ ،ص ٨٨ .

(٦) تاريخ الحكمـــاء ،ص ٧٦ .

ابن ابي اصيبعة في ترجمته اى علاقة له بابي اسحاق الكاتب ، لكن هلال بن المحسن الصابي ذكر في رسوم دار الخلافة حديثا عن جدّه ابي اسحاق الكاتب يفيدنا في هذا الموضوع . يقول هلال : " وحدثني ابراهيم بن هلال جدى ،قال : حدثني هلال ابي ، قال : حدثني ابراهيم ابي ،قال : كنت واقفا بين يدى المكتفي بالله ، صلوات الله عليه ، وهو يفاوضني في بعض الامور ،اذ جرى ذكر ثابت بن قرة ،وسلامة طرائقه ،وما كان فيه من ادب النفس ... " (١) . هذه الرواية تشير الى ان ابراهيم ابن زهرون الطبيب هو جدّ ابي اسحاق الكاتب وذلك انه كان حيا في فترة خلافة المكتفي التي امتدت من سنه ٢٨٩هـ وحتى سنة ٢٩٥هـ (٢) ، وقد توفي سنة ٣٠٩ هـ ببغداد (٣) . ثم انه ماكان لابراهيم بن زهرون الصابي هذا ان يكون له هذه المكانة لدى المكتفي فيقف بين يديه يفاوضه ببعض الامور لولا انه لم يكن بارعا في علم من العلوم اوصله الى هذه المكانة ثم ان الحديث الذي يتفاوضون فيه هو ذكر احد الاطباء فهو يتحدث عن سلامة طرائقه اى في الطب . هكذا يتأكد لدينا ان جدّ ابي اسحاق الصابي طبيب بارع خدم المكتفي بالله وقد وصف بحسن المعاملة وجودة الاخلاق (٤)، ويبدو انه كان ايضا على معرفة بعلم المنطق لذلك وصفه القفطي ، نقلا عن تاريخ ثابت بن سنان، بالحراني المنطقي (٥) .

---

(١) هلال بن المحسن الصابي ،رسوم دار الخلافة (تحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ، مطبعة العاني ١٣٨٣/١٩٦٤)ص ٨٨ .

(٢) مروج الذهب ،ج ٤ ،ص ٢٧٥.

(٣) تاريخ الحكماء ،ص ٧٦ وطبقات الاطباء ، ص ٣٠٧.

(٤) طبقات الاطباء ،ص ٣٠٧ .

(٥) تاريخ الحكماء ، ص ٧٦ .

ويبدو ان لهذه العائلة قدما راسخة في الطب وانها تتوارث هذا العلم جيلا بعد جيل فنجد ان لابراهيم هذا ابنا هو ابو الحسن ثابت (١) وهو عم ابي اسحاق وكان هذا طبيبا ماهرا وافر العلم (٢) وله في الطب مؤلفات . اما ابن ابراهيم الثاني وهو ابو الحسين هلال (٣) والد ابي اسحاق الكاتب فقد كان " طبيبا حاذقا عاقلا صالح العلاج متفننا خدم الناس بصناعته وتقدم عند اجلاء بغداد وخالطهم بصناعته" (٤) وقد عمل ابو الحسين في خدمة توزون (٥) التركي . وسنأتي على ذكر والد ابي اسحاق فيما بعد .

---

(١) ولد بالرقة سنة ٢٨٣ هـ . وتوفي في بغداد سنة ٣٦٥هـ ، وقيل ٣٦٩ . انظر في ترجمته : الفهرست ، ص ٣٦ وتاريخ الحكماء ، ص ١١١ وعز الدين ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (بيروت ، دار صادر ودار بيروت ١٣٨٦ / ١٩٦٦) ج ٨ ، ص ٧١١ وطبقات الاطباء ، ص ٣٠٧ وف.كرنكو " ثابت بن ابراهيم بن زهرون " دائرة المعارف الاسلامية ، (الطبعة العربية) ، ج ١٤ ، ص ٨٨ .

(٢) يروى له القفطي وابن ابي اصيبعة اخبارا تدل على براعة في الطب تقرب من حد المعجزة . انظر تاريخ الحكماء ، ص ١١١ - ١١٥ وطبقات الاطباء ، ص ٣٠٧ - ٣١٠ .

(٣) انظر ترجمته في تاريخ الحكماء ، ص ٣٥٠ وف.كرنكو " هلال بن ابراهيم بن زهرون ابو الحسين " دائرة المعارف الاسلامية ، (الطبعة العربية) ، ج ١٤ ، ص ٨٨ .

(٤) تاريخ الحكماء ، ص ٣٥٠ .

(٥) ابو الوفاء توزون قائد تركي رقاه المتقي لله الى رتبة اميرا لامراء سنة ٣٣١ فغلب على الامر في خلافته ثم خلعه وسمل عينيه سنة ٣٣٣هـ ، وبايع للمستكفي بالله . توفي توزون سنة ٣٣٤هـ . اخباره في مروج الذهب ، ج ٤ ص ٣٤ وما بعدها وتجارب الامم ، ج ١ ، ص ٣١٥ وج ٢ ، ص ٦ و ١٦ و ٢٣ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٦ و ٤٢ و ٤٤ و ٤٦ و ٤٨ و ٨١ و ٨٠ . والكامل ، ج ٨ ص ٣٩٩ و ٤١١ - ٤١٢ و ٤١٨ - ٤٢١ و ٤٤٨ .

اذا ،ابو اسحاق الصابي هو ابن عائلة الاطباء هذه ، اختلف في تحديد سنة ميلاده ، فذكر في ذلك تاريخان : الاول سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة (١) وذكره ياقوت معتمدا ماجاء في كتاب التاريخ لابي الحسين هلال بن المحسن حفيد ابي اسحاق . اما التاريخ الثاني فهو سنة نيف وعشرين وثلاثمائة وقد ذكره ابن النديم اولا ونقلته كتب التراجم عنه من بعد . (٢) والرأى الاول هو الارجح لكونه التاريخ الذى ذكره حفيده ، ثم لتاكد تاريخ وفاته سنة ٣٨٤ هـ وانه كان في هذه السنة قد جاوز السبعين وسنعود لذكر ذلك في الحديث حول وفاته .

لسنا نعلم من هي والدته اذ لم تذكر المصادر عنها شيئا باستثناء ماذكره ياقوت في ترجمة ثابت بن سنان حين قال : " وقال ابو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي يرثي خاله ابا الحسن ،ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة : (٣) .

اسامع انت يامن ضمه الجدف	نشيج بــاك حزين دمعه يكف
وزفرة من صميم القلب يبعثهـا	يكاد منها حجاب الصدر ينكشف
اثابت بن سنان دعوة شهدت	لربها انه ذو غلـة اسف
مابال طبك مايشفي وكنت به	تشفي العليل اذا ما شفه الدنف
غالتك غول المنايا فاستكنت لها	وكنت ذائدها والروح تختطف
فارقتني كفراق الكف صاحبها	اطنها ضارب من زندها نطف

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ،ص ٢١ وتاريخ الحكماء ، ص ٧٦ وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، (القاهرة ،طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ،١٩٢٩ ــ١٩٥٦) ج ٤ ،ص ١٦٧ .

(٢) الفهرست ، ص ١٤٩ ووفيات الاعيان ، ج ١ ص٥٣ ، وصلاح الدين الصفدى ، الوافي بالوفيات (باعتناء س. ديدرينغ ، فسبادن ،فرانز شتاينر ،١٣٩٢/١٩٧٢) ج ٦ ،ص ١٦٣ .

(٣) معجم الادباء ،ج ٧ ،ص ١٤٣ .

فتت في عضدى يا من غنيت به ... افت في عضد الباغي وانتصف
ثوى بمغناك في لحد سكنت به ... الدين والعقل والعلياء والشرف
لهفي عليك كريما في عشيرته ... ممهدا جسمه من نعمة ترف
قد اسلموه الى غبراء يشملـه ... فيها التراب فمنها الغرش واللحف" (١)

نلاحظ انه لا ذكر للرابط الدموى الذى يجمع بين الاثنين فتبدو الابيات رثاء وتأبينا لصديق كريم،على ان هذا لا يكفي دليلا لنفي صلة القرابة بين الاثنين كما انه لا يؤكدها قول ياقوت ان ثابتا خال ابي اسحاق اذ انه ورد في مصادر اخرى (٢) ان ثابتا بن سنان هو خال هلال حفيد ابي اسحاق وليس لدينا اي اثباتات ترجح لنا رأيا دون آخر (٣).وبناء على ذلك نحن لا نعرف حقا ان كانت ام ابي اسحاق ابنة سنان بن ثابت او انها امرأة اخرى . ومن المؤسف ايضا اننا لا نجد فيما كتبه ابو اسحاق ذكرا لوالدته باستثناء بيتين من الشعر فيهما اشارة الى الوالدين يقول :

" اسرة المرء والداه وفيما ... بين حضنيهما الحياة تطيب

---

(١) معجم الادباء ، ج ٧ ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

(٢) تاريخ الحكماء ، ص ١١٠ وطبقات الاطباء ، ص ٣٠٧ .

(٣) في مقدمة رسوم دار الخلافة لهلال بن المحسن الصابي جمع محقق الكتاب ميخائيل عواد ما جاء في المصادر حول هذا الموضوع ولم يصل الى نتيجة واضحة . انظر مقدمة رسوم دار الخلافة ص ٢٥ - ٢٨ .

فاذا ماطواهما الموت عنه فهو في الناس اجنبي غريب" (١)

ولسنا ندرى في اى مناسبة شعر الصابي بالغربة لفقده والديه ، ايكون ذلك حين افتقد اباه عندما كان في خدمة المهلبي (٢) وكان قد افتقد والدته من قبل ،ام ان والده قد سبق والدته الى الموت ونراه يتألم لفقدهما في زمن لانعرفه • المهم ان هذين البيتين يحويان الاشارة الوحيدة في كلام الصابي الى والدته ، وتبدو فيهما صورة الام مرتبطة بالاسرة وبفكرة الاحتضان والاطمئنان والعيش الطيب المناقضة لفكرة الغربة والوحشة •

يحيط الغموض طفولة ابي اسحاق المبكرة ولكننا نتصورها هانئة • فهو حين تحدث حول فقد والديه في البيتين السابقين تحدث حول فقد الحضن الدافئ والعيش الطيب والغربة الناتجة عن ذلك • ثم ان والده كان طبيبا على اتصال بالدولة وله مكانة فمن الطبيعي ان تكون حالته المادية جيدة بحيث يؤمن لابي اسحاق حياة كريمة ويرعاه بعلمه وماله ويروى عن ابي اسحاق حادثتان تعودان الى حداثته وترتبطان بوالده ، سنثبتهما لاهميتهما في تبيان شخصية الوالد وحياة الابن • يقول ابو اسحاق في الرواية الاولى :

" رأيت ابا الحسين والدى في يوم من ايام خدمته لتوزون وقد خلع عليه وحمله على بغل حسن بمركب ثقيل ووصله بخمسة الاف درهم وهو مع ذلك مشغول القلب منقسم الفكر ،فقلت له مالي اراك ياسيدى مهموما ويجب ان تكون في مثل هذا اليوم مسرورا ، فقال : يابني هذا الرجل — يعني توزون — جاهل يضع الاشياء في غير موضعها

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ وروضات الجنات ، ج ٢ ، ص ١٦٦ •

(٢) ابو محمد الحسن بن محمد بن هارون المهلبي الوزير (٢٩١ — ٣٥٢ هـ) كان في بداية امره في ضيق من العيش فاتصل بمعز الدولة البويهي وتولى له الوزارة سنة ٣٣٩ هـ • كان محبا للادباء والعلماء • انظر اخباره في : تجارب الامم ،ج ١ ص ٣٨٢ و ج ٢ ، ص ٣٤ و ٨٤ و ١٢٣ — ١٢٥ والمحسن بن علي التنوخي ،نشوار المحاضرة (تحقيق عبود الشالجي المحامي ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٩١/١٩٧١ — ١٣٩٣/١٩٧٣) ج ١ ، ص ١٣٨ واليتيمة ، ج ٢ ،ص ٢٢٣ ومعجم الادباء ،ج ٩ ، ص ١١٨ ووفيات الاعيان ج ٢ ، ص ١٢٤ •

ولست افرح بما ياتيني منه من جميلة من غير معرفة ٠٠ ولست آمن ان يستشعر فيّ السوء من غير استحقاق فتلحقني منه الاذية " (١) ٠ فالرجل حكيم يعرف ان من يعطي بغير استحقاق يسيء بغير حق ، ويعلم ان التعامل مع الكبراء يعلي تارة ويخفض اخرى ،وقد كان على حق في حذره ،اذ ان توزون قد نكبه فيما بعد ٠ (٢) ويمكن تحديد تاريخ هذه الحكاية بين سنة ٣٣١ و ٣٣٤ اى في سني امارة توزون اذ كان قبلها مجرد قائد من قواد الاتراك البجكمية ، ولايتصور ان يهب بهذا الشكل الا من كان في منصب كبير كالامارة مثلا ، وحتى لو حصلت هذه الحادثة قبل تسلم توزون للامارة فلا يكون قبلها بكثير ٠ كما انه يكن تحديد النكبة بفترة الامارة ايضا ٠

اما الحكاية الثانية التي يرويها ابو اسحاق فتفسر لنا اتجاه الصابي الى الكتابة وتركه لمهنة الطب ، مهنة اسلافه بالرغم من حرص والده على تعليمه الطب وتوجيهه اليه ٠ يقول الصابي : (٣) "كان والدى ابو الحسن (٤) يلزمني في الحداثة والصبى (كذا) قراءة كتب الطب والتحلي بصناعته ،وينهاني عن التعرض لغير ذلك ،فقويت فيها قوة شديدة ،وجعل لي برسم الخدمة في البيمارستان عشرون دينارا في كل شهر ، وكنت اتردد الى جماعة من الروءساء خلافة له ،ونيابة عنه ،وانا مع ذلك كاره للطب ومائل الى قراءة كتب الادب ، كاللغة والشعر ، والنحو والرسائل والادب ، وكان اذا احس بهذا مني ،يعاتبني عليه ،وينهاني عنه ، ويقول : يا بني لاتعدل عن صناعة اسلافك ، فلما

---

(١) تاريخ الحكماء ، ص ٣٥٠ ٠

(٢) المصدر نفسه ٠

(٣) معجم الادباء ، ج ٢ ،ص ٥٤ — ٥٦ ،يروى ياقوت الحادثة نقلا عن المحسن بن ابراهيم الصابي وعن الهلال بن المحسن حفيده ٠

(٤) ربما الاصح " ابو الحسين " ٠

كان في بعض الايام ، ورد عليه كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن اشياء كثيرة ، كلفه اياها ، ومسائل في الطب وغيره ، سأله عنها ، وكان الكتاب طويلا بليغا ، قد تأنق منشئه وتغارب ، فاجاب عن تلك المسائل ، وعمل جملا لما يريده ، انفذها على يدى الى كاتب ، لم يكن في ذلك العصر ابلغ منه ، وسأله انشاء الجواب عنه ، قال : فمضيت ، وانشأت انا الجواب ، واطلته وحررته ، وجئت به اليه ، فلما قرأه قال : يابني سبحان الله ، ما افضل هذا الرجل وابلغه ، فقلت له : هذا من انشائي فكاد يطير فرحا وضمني اليه وقبل بين عيني ، وقال : " قد اذنت لك الان ، فامض ، فكن كاتبا " . وهكذا نجد ان التحول في حياة الصابي وانصرافه عن الطب الى الكتابة كان انصياعا لطبعه المحب للادب والشعر والنحو ، وكان ايضا برضوخ للامر الواقع من قبل والده الذي تخلى عن امنيته بان يخلفه ولده في الطب ازاء ما رآه من بلاغته ومهارته في الكتابة .

جرت هذه الحادثة في حداثة الصابي وقبل نكبة توزون للعائلة . اذ اننا نرى انه بعد نكبة توزون قد اصبح الامر معكوسا . فالنكبة اتت على اموال هذه العائلة مما دفع ابا اسحاق الى الانقطاع الى النظر في العلوم لحاجته الى المال . في هذا الوقت بالذات وصف ابو اسحاق للوزير المهلبي فاستدعى عمه ابا الحسن ثابت ابن ابراهيم وطلبه منه فوعده ابو الحسن خيرا وكلم ابا اسحاق في الموضوع (١) فامتنع لانشغاله بالعلوم كما ذكرنا ، ويروي ابو اسحاق الحادثة فيقول : " فلم يزل بي ابي ، حتى حملني اليه ، فلما رآني تقبلني ، واقبل علي ، ورسم لي الملازمة "(٢) هنا نقف على منعطف في حياة الصابي يمثل تحوله الفعلي عن ممارسة الطب والعلوم

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

الــــى معالجـــة الكتابــة والادب وكــان اول اتصــال له في هذا المجال بالوزير المهلبي الـــذي عرف عنــه تقديره للادب واكــرامـــه لاصحابـــه ، فقــد جمع في مجلســه نخبـــة من اهل الادب والكتابـــة ٠(١)٠

(١) يتحدث ابو حيان التوحيدي في الامتاع والموانســـة (نسخة مصورة عن نسخة حققهـــا احمد امين واحمد الزين ،بيروت وصيدا ، منشـورات المكتبة العصرية ، مطبعـــة لجنــة التاليـــف والترجمـــة والنشر ،١٣٧٣/١٩٥٣) ج ٣ ،ص ٢١٢ ـ ٢١٣ عن مجلس المهلبي فيقول : " واخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع ، واستحلى الصنائع ، وارتاح للذكر الطيب ، واهتز للمديح ،وطرب على نغمة السائل ،واغتنم خلة المحتـــاج وانتهب الكرم انتهابا ، والتهب في عشق الثناء التهابا ،ابو محمد المهلبي ، فانـــه قـــدم قوما ونوه بهم ، ونبـه على فضلهم واحوج الناظريــن في امر الملـك اليهـم ، والى كفايتهم ، منهم ابوالفضـــل العباس بن الحسين ومنهم ابن معروف القاضي ،٠٠٠ ومنهم ابو اسحاق الصابي ،٠٠٠ وفلان وفـــلان " ٠

صعـــود نجمــــــه

في الفترة الاولى لدخول ابي اسحاق الصابي في خدمة المهلبي اثبت تميزه في البلاغة والعلم ما جعل المهلبي يرفعه على جملة كتابه ويثير حسدهم له وسخطهم عليه ،" فلما كـــان في بعض الايام ، وردت عليه عدة كتب من جهات مختلفة،فاستدعاني،وسلمها الي . وذكر لي المعاني التي تتضمنها الاجوبة، واطال القول،فمضيت واجبت عن جميعها ، من غير ان اخل بشيء مـــن المعاني التي ذكرها ،فقرأهـا حتى اتى على آخرها ، وتقدم الي في الحال باحضار دواتي،والجلوس بين يديه متقدما على الجماعة،فلزم بعضهم منزله وجدا وغضبا،واظهر بعضهم التعالل ،فلم ازل اتلطف واداري ، واغضي على قوارص تبلغني ،حتى صارت الجماعة اخـواني واصدقائي " (١) .

ابو اسحاق الذى ابتدأ حياته العملية طبيبا في البيمارستان انتقل الى الادب والكتابة وفتح المجال امامه باتصاله بالمهلبي . تاريخ اتصال الصابي بالمهلبي غير معروف تحديدا ولكنـــه كما ذكـــر في روايته للحادثة انها كانت في زمن قريب العهد بنكبة توزون،والمهلبي يخاطـــــب بالاستاذ (٢) ،فاذا افترضنا ان الحد الاقصى لنكبة توزون كان سنة وفاته سنة ٣٣٤ او ماقبلهـــا بقليل ،علينا ان نفترض اذا ان اصطناع المهلبي للصابي كان في الفترة الاولى من تعيينه وزيـــــرا اى سنة ٣٣٩ هـ (٣) او مابعدها بقليل لان الفترة بين الحادثتين ، نكبة توزون والاتصـــال بالمهلبي، كانت قريبـــة كما جاء في رواية الصابي .

---

(١) معجـم الادباء،ج ٢ ،ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) المصـــدر نفســـه،ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) تولى المهلبي الوزارة لمعز الدولة سنه ٣٣٩ هـ. تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ١٢٣ والكامل ،ج ٨ ، ص ٤٨٥ ووفيات الاعيـان ، ج ٢ ، ص ١٢٤.

حكايـة تفوق الصابي المذكورة سابقـا ،قد تكررت غير مرة ، فنجده يروي حادثة اخرى مشابهـة وقعت سنة ٣٤٩ (١) فقد كان الصابي يحضر مجلس انس للمهلبي ضم جماعة من كتـاب المهلبي وخلفائـه ، وقد اخذت الجماعة نشـوة الخمر ،فـورد رسول من الامير معـز الدولـة (٢) يطلـب كتابـة رسالـة في الحال ،فاعتـذر المهلبي بسبب سكر الكتـاب وعـدم قدرتهم على ذلـك في الوقـت ثم سأل بعض الكتـاب ان كان بامكانـه الكتابة فاعتذر ، " ورآنـي الوزير مصغيـا الى القول متشـوفـا لما يرسمـه لي في ذلـك ،فقـال : تكتبـه يا ابـا اسحـاق ؟ قلـت : نعم " . فكتب ابو اسحاق الكتاب في الحال واعطاه للمهلبـي فقراه معجبا بما فيـه وقـال للجماعة : " هذا كتـاب حسن ،دال على الكفايـة المبرزة، ولـو كتبـه صاحيا مرويـا لكان عجبـا ،فكيـف اذ يكتبـه منتشيـا ، ولكنـه كاتبي وصنيعتي ،قـم يا ابـا اسحاق من موضعـك ، واجلس ههنـا ، حيث اجلستـك الكفايـة ،واومأ الى جانـب ابـي الغنائـم ابنـه ،فقبلـت يده ورجلـه ،وشكرتـه ودعـوت لـه ،وجلست بحيث اجلسني وشـرب لي سـارا ،ثم استدعـى حاجبـه وقـال : تقدم دابتـه الى حيث تقدم دواب خلفائـي ، ويوفـى من الاكبـار والاكـرام ما يوفونـه ، فحسـدني على ذلـك كل من كان حاضرا ووفوني مـن الغـد حكم المسـاواة في المخاطبـة والمعاملـة ، واستشعـروا عندها اسباب العـداوة والمنافسـة ثم قلدنـي دواوين الرسائـل والمظالـم والمعاون ، تقليـدا سلطانيـا ، كتب

---

(١) ينقـل ياقـوت الحادثـة عن ابي علي المحسن بن ابراهيـم وعن كتـاب الـوزراء لابنـه هـلال بن المحسـن والروايـة في معجـم الادبـاء ، ج ٢ ، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) هو ابو الحسين احمد بن ابي شجاع بويـه الملقب بمعـز الدولـة (٣٠٣ ـ ٣٥٦) .وهو احد ملـوك الديلـم استولى على بغـداد سنة ٣٣٤ في خلافـة المستكفـي واستمر حكمـه لهـا احدى وعشريـن سنة . ولما توفي خلفـه في الملـك ابنه عز الدولـة بختيـار . (تجارب الامم ، ج ٢ ، صفحـات متفرقـة بين ص ١٤٦ وحتى ١٨٣ ووفيـات الاعيـان ، ج ١ ، ص ١٧٤) .

بـــه عن المطيـــع لله الى اصحـاب الاطـــراف " (١) .

وينقـل لنا القلقشنـــدى (٢) روايـة مماثلـة طلب فيها المهلبي من كتـابــه وبينهم الصابـــي انشاء كتـاب عن المطيع لله بنقــل سنة خمسيــن الخراجيــة الى احدى وخمسين(٣)، وعندما عرضـــت النسخ على الوزيـر اختـار كتاب ابي اسحاق مما اثار حسد الكتـاب ايضا (٤) .
وتنقـــل الروايــة عن المهلبي قولـه يصف أبا اسحـاق : " هو واللــه في هذا الفن اكتب اهل زمانــــه " . (٥) .

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٦٠ ـ ٦٢ ، وقـد ذكر خبر تقليد الصابي لديوان الرسائـل تقليدا سلطانيا سنة ٣٤٩ في المصدر نفسـه ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ ووفيات الاعيـان ، ج ١ ، ص ٥٢ . وكـان على ديوان الرسائـــل حتى ذلـك الوقـت آل ثوابة يتوارثـون هــــذا المنصـــب واخر من تولاه منهم احمد بن محمد الذى مات وهو متوليـــه فولي بعده الصابي (معجم الادبـاء ، ج ٤ ، ص ٢٤٣) وانظر حول آل ثوابة : الفهرسـت ، ص ١٤٣ ومعجم الادبـــاء ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ وج ٧ ، ص ١٨٧ و ج ١٨ ، ص ٩٦ .

(٢) ابو العباس احمد القلقشنـــدى ، صبح الاعشى في صناعـة الانشا (القاهرة ، المطبعـــة الاميريــة ، ١٩١٣/١٣٣١ ـ ١٩١٩/١٣٣٨) ج ١٣ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٣) يقول القلقشنـــدى (صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٥٩) انه تم نقل السنة الخراجية ست وثلاثمائة الى سبع وثلاثمائـة وقد وافق ذلـك خلافـة المطيع لله ووزارة المهلبـــي ، وفي هذا التاريخ خطأ واضح لانه لا يوافق خلافـة المطيع ووزارة المهلبي . اما الرسالـة المعنية ، فقد كتبـت عن المطيع بنقل سنة خمسين وثلاثمائـة الخراجيـة الى سنة احدى وخمسين وثلاثمائة وهي فـــي المختـار من رسائل ابي اسحاق الصابي (تنقيح شكيب ارســلان ، بيروت ، دار النهضـــة الحديثـــة ، دون تاريخ) ص ٣٠٥ وقد جاء في تجارب الامم (ج ٢ ، ص ١٨٩) تحـت سنـة احدى وخمسيـن وثلاثمائـة ان المهلبي نقل سنة خمسيـن الخراجيـة الى سنة احدى وخمسيـــن .

(٤) صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .
(٥) المصدر نفســـه ص ٦٠ .

هـذه الروايـات تظهـر تفـوق الصابي الذى قابلـه المهلبي بالاكـرام والانعـام مما اثـار حول ابي اسحاق موجـة من الحسـد من سائر الكتـاب ، حاول بليونتـه ومرونتـه ان يخفـف منها ويمتص عداوة هوءلاء الحاسدين ،وقد عبر الثعالبـي عن اعجاب المهلبـي بالصابـي بالقـول : " وكان المهلبي لايرى الا بـه الدنيـا ، ويحن الى براعتـه ، وتقـدم قدمـه ،ويصطنعـه لنفسـه ،ويستدعيـه في اوقـات انسـه "(١) .

لكـن مع ان الصابي نال اعجـاب المهلبي منذ بدايـة خدمتـه له حين اجلسه بيـن يديـه وقدمـه على جماعـة الكتـاب ،كما في الروايـة الاولى ،يلاحظ ان ترقيتـه الى مرتبـة صاحـب الديوان لم تكن سريعة . فالفتـرة الزمنيـة التي تفصـل بين دخوله في خدمـة المهلبـي وبين تقليـده الديوان هي عشر سنوات تقريبـا ، كان المهلبي يزداد خلالهـا اعجابـا بالصابـي واقتناعـا بتميـزه مما يدل عليـه قولـه في الروايـة الثانيـة " ولكنـه كاتبي وصنيعتـي ،" فهل اخر تقليـد الصابـي لديوان الرسائـل حداثـة سنـه في ذلـك الوقـت ، ام كونـه صابئـا ، ام توارث آل ثوابـه لولايـة هذا الديـوان وكأنهم مختصـون بـه ، حتى اذا توفي متوليـه منهم يومئـذ ، احمد بن محمد ،استطاع المهلبي التعبير عـن اعجابـه بابـي اسحاق وتوليتـه هذا المنصـب ؟

علـى كـل حال ، لـم يكن الصابي ليجهـل قيمـة ما توصل اليـه من مكانة ،فهو يعلـم جيـدا مايعنيـه ان يكـون الفرد كاتبـا للسلطان وفي ذلـك يقول مفتخـرا من قصيدة (٢) :

---

(١) اليتيمة ،ج ٢ ، ص ٢٤٣ . ونقلها ياقوت في معجم الادباء (ج ٢ ،ص ٢٩) كما يلي : وكـان المهلبي لايرى الا بـه الدنيا ،ويحن الى براعتـه ويصطنعـه لنفسـه ،ويستدعيـه في اوقـات انسـه " .

(٢) اليتيمـة ، ج ٢ ، ص ٢٧١ـ٢٧٢ ومحمد بن الحسن ابن حمدون ، التذكرة الحمدونيـة (رئيس الكتاب رقم ٧٦٩) ، الورقـة ١٤٨أ (يوجد في المصدر المذكـور ثلاثـة ابيـات فقـط) . وعبد الرحيم بن احمد العباسي ، معاهد التنصيص (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، عالـم الكتب ،ومصر ، المكتبة التجارية الكبرى ،١٣٦٧/١٩٤٧) ج ٢ ، ص ٧٢ .

" وقد علم السلطان اني لسانه (١) | وكاتبه الكافي السديد الموفق
اوازره فيما عرى وامده | براي يريه الشمس والليل اغسق
يجدد بي نهج الهدى (٢) وهو دارس | ويفتح بي باب النهى (٣) وهو مغلق
فيمناي يمناه ولفظي لفظه | وعيني له عين بها الدهر يرمق
ولي فقر تضحى الملوك فقيرة | اليها لدى احداثها حين تطرق (٤)
ارد بها راس الجموح فينثني | واجعلها سوط الحرون فيعنق
فان حاولت لطفا فماء مروق (٥) | وان حاولت عنفا فنار تالق
يسلم لي قس وسحبان وائل | ويرضى جرير مذهبي والفرزدق
فيغضي لنثرى خاطب وهو مصقع | ويعنو لنظمي شاعر وهو مفلق "

هكذا الصابي يقدر نفسه ، والمهلبي يعرف له هذه القيمة ، فتمكنت العلاقة بين الاثنين الى حد ان يزور المهلبي ابا اسحاق للتعزية بوفاة والده . ولنثبت هنا ما اخبر به الصابي من ذلك لانه ابلغ في تصوير هذه الزيارة . قال ابو اسحاق (٦) : " لما توفي ابو الحسين هلال ابي ، جاءني ابو محمد المهلبي معزيا به ، فحين عرفت خبره ...

---

(١) في معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٧٢ : " امينه " .
(٢) المصدر نفسه : " العلا " .
(٣) في المصدر نفسه : " الهدى " .
(٤) هذا البيت والبيتان التاليان هي فقط ماجاء في التذكرة الحمدونية (٧٦٩) ، الورقة ١٤٨ أ من هذه القصيدة .
(٥) في التذكرة الحمدونية (٧٦٩) : " مرقرق " .
(٦) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣١ ـ ٣٢ ينقل الخبر عن كتاب اخبار الوزراء لهلال بن المحسن.

بادرت لتلقيه واستعفيته من الصعود ، فامتنع من الاجابة الى ذلك ، وصعد ، وجلس ساعة يخاطبني فيها بكل مايقوي النفس ، ويشرح الصدر ، ويصف والدي ، ويقرظه لي بقوله : " ما مات من كنت له خلفا ، ولافقد من كنت منه عوضا ، ولقد قررت عين ابيك بك في حياته ، وسكنت مضاجعه الى مكانك بعد وفاته . فقبلت يده ورجله ، واكثرت من الثناء عليه والدعاء له . وحضرتني في الحال ثلاثة ابيات انشدته اياها ، وهي :

لو وثقنا بان عمرك يمتد	د باعمارنا قتلنا النفوسا
قد تركت الموت الزؤام مغيظا	يتلظى لجرحه كيف يوسا
فغدت عندنا المصيبة نعمى	باياديك وهي من قبل بوسا

ثم نهض ، واقسم علينا الا يتبعه احد منا ، وانفذ الي في بقية ذلك اليوم خمسة الاف درهم ، فقال : استعن بهذا على امرك ، ولم يبق احد من اهل الدولة الا جاءني بعده معزيا ، ثم اجتاز بي من الغد في طيارة ووقف واستدعاني وامرني بالنزول معه ، فبعد جهد ماتركني بقية اليوم " .

تصرف المهلبي هذا يتجاوز علاقة وزير بكاتب ديوان الى علاقة صديق بصديق . فقد مكن الصابي لنفسه في قلب هذا الرجل وعقله ببراعته وفنه وخلقه حتى اصبح بمثابة صديق له يسراه في الملمات قريبا منه يتصرف معه تصرف النظير لاتصرف ولي الامر .

واعتمادا على الاخبار التي حملتها المصادر منتشرة هنا وهناك، لم نجد اى حادثة تؤثر في العلاقة بين الاثنين وكأن الحظ ابتسم للصابي منذ اتصاله بهذا الوزير

فصارت ايامه صفوا لايكدرها مكدر وصار المهلبي في هذه الفترة موضوعا لاشعار الصابي ، فيقول في مدحه : (١) .

" قل للوزير ابي محمد الذى قد اعجزت كل الورى اوصافه
لك في المحافل (٢) منطق يشفي الجوى ويسوغ في اذن الاديب سلافه
فكأن لفظك لؤلؤ (٣) متنخل وكأنما آذاننا اصدافه "

وقال يمدحه ايضا : (٤) .

" وتعلقت بالرئيس الذى صر ت رئيسا مذ عدني في العبيد
والوزير الذى غدا وزراء الـ ملك ركنا لعزه الموطود
اريحى مهلبي سعيد الـ جد صافي الجدوى كريم الجدود
واذا استنطق الانامل جادت ببيان كالجوهر المنضود
في سطور كأنما نشرت يمـ ناه منها عصائبا من برود
فقر لم يزل فقيرا (٥) اليها كل مهدى بلاغة (٦) ومعيد
يهتدى البارع المفيد لديها (٧) لاحقا بالمقصد (٨) المستفيد
ببيان شاف ولفظ مصيب واختصار كاف ومعنى سديد "

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ وابو اسحاق الحصرى ، زهر الاداب وثمر الالباب (تحقيق زكي مبارك ، مصر ، ١٩٢٥) ج ١ ، ص ١٢٥ ومعاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٧٣ .
(٢) في زهر الاداب : " المجالس " .
(٣) في المصدر نفسه : " جوهر " .
(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، والابيات الثلاثة الاخيرة في التذكرة الحمدونية (٧٦٩) ، الورقة ، ١٤٨ ا .
(٥) في التذكرة الحمدونية (٧٦٩) : " اليها فقيرا " .
(٦) في المصدر نفسه : " فصاحة " .
(٧) في المصدر نفسه : " اليها " .
(٨) في المصدر نفسه : " بالمقصر " .

وقال مهنئا المهلبي بعيد الفطر قصيدة منها (١) :

" أسيدنا هنئت نعماك بالفطر | ووقيت ماتخشاه من نوب الدهر
مضى الصوم قد وفيته حق نسكه | ووفاك مكتوب المثوبة والاجر
كلفت بذكر الله فيه فلا تزل | من الله فيما ترتجيه على ذكر
هجرت هجود الليل فيه تهجدا | وصبرا على طول القراءة للفجر
فلو نطقت ايامنا باعتقادها | لناجتك لفظا بالدعاء وبالشكر "

وقد كان المهلبي يباد له الشعر احيانا فقد كتب له يوما : (٢) .

" برد مصيفك وافرشه بميثرة | فانني لمقام الخل ارتحل
الذكرى وان اضحى ويعجبني | ان تستريح وان تكتنك الظلل "

ويخبرنا ابو اسحاق عن بعض نوادره مع المهلبي والتي تدل على جو التفاهم والتبسط بين الاثنين فيقول : " واجلسني معز الدولة لاكتب بين يديه وابو محمد المهلبي قائم فحجبني عن الشمس فقال : كيف ترى هذا الظل ؟ فقلت : ثخين . فقال :واعجبا احسن وتسيء ، وضحك" (٣).

وكان الصابي في هذه الفترة ولما استشعره لنفسه من مكانة قد طمحت نفسه ليكون ممدوحا من كبير شعراء العصر ،المتنبي ،شأنه في ذلك شان الوزراء والروساء فراسل ابا الطيب ،موسطا احد كبار التجار ،في ان يمدحه بقصيدتين مقابل ان يعطيه خمسة

---

(١) اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٢٣٩ .
(٣) معجم الادباء ،ج ٩ ،ص ١٣٤ .

الاف درهم ، فكان جواب المتنبي الامتناع وكان في اعتذاره للصابي مادحا اذ قال :
" والله مارأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولا اوجب علي في هذه البلاد احد من الحق ما اوجبت ، وان انا مدحتك ، تنكر لك الوزير ، يعني ابا محمد المهلبي ، وتغير عليك لانني لم امدحه ، فان كنت لاتبالي هذه الحال فانا اجيبك الى ما التمست وما اريد منك منالا ولا عن شعري عوضا " ، فاقتنع الصابي بكلامه ولم يعاود الطلب (١).

هذه رواية نقلها ياقوت من خط ابي علي المحسن بن ابي اسحاق الصابي نقلا عن ابي اسحاق نفسه ، ولكن مع ذلك نلاحظ انها تحمل في ذاتها مايدعو الى الشك في صحتها فقد سبق للمتنبي ، بعد ان عاد من مصر الى بغداد (٢) ، ان امتنع عن مدح المهلبي الوزير ترفعا عن مدح غير الملوك فما كان من المهلبي الا ان اغرى به شعراء بغداد فتباروا في هجائه ، والتماجن به ، والتندر عليه ، ففارق بغداد واتصل بابي الفضل ابن العميد ليزيد في حنق المهلبي (٣) . كما ان الصاحب بن عباد (٤) قبل ان يستوزر

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٦٨ .
(٢) كانت عودته سنه ٣٥٠ بعد ان يئس من عطاء كافور الاخشيدي وهجاه . (وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ١٢٢ .
(٣) اليتيمة ، ج ١ ، ص ١٢٠ — ١٢٢ .
(٤) اسماعيل بن عباد بن العباس الملقب بالصاحب كافي الكفاة ابو القاسم (٣٢٦ — ٣٨٥ هـ) كان من صغار الكتاب في بادئ الامر ، كتب لابي الفضل ابن العميد ثم لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة . ثم تولى له الوزارة بعد ابي الفتح ابن العميد . بعد وفاة مؤيد الدولة سنة ٣٧٣ وزر الصاحب لاخيه فخر الدولة الذي استولى على مملكته . ضم بلاط الصاحب عددا ضخما من مشاهير الادب والعلم والشعر في ذلك العصر . وللصاحب مؤلفات عديدة في اللغة والادب والشريعة ، ترجمته واخباره في نشوار المحاضرة ، ج ٥ ، ص ١٦ و ٢٢ — ٢٣ والصاحب بن عباد ، الروزنامجة (تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ملحق بكتاب الامثال السائرة من شعر المتنبي للصاحب ، بغداد ، مكتبة النهضة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٥/١٩٦٥) والفهرست ، ص ١٥٠ أ وابو حيان التوحيدي ، مثالب الوزيرين (تحقيق ابراهيم الكيلاني ، دمشق ، دار الفكر ١٩٦١) وتجارب الامم ، ج ٢ ، ص ١٦٨ واليتيمة ، ج ١ ، ص ١٢٢ وج ٣ ، ص ١٨٨ وابو شجاع الروذراوري ، ذيل تجارب الامم (ملحق بكتاب التجارب) ص ١٠ — ١١ و ١٦٣ — ١٦٤ و ١٧١ و ٢٦١ — ٢٦٤ ، ومعجم الادباء ، ج ٦ ، ص ١٦٨ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٢٢٨ ، واعلام النبلاء ، =

طمع في زيارة المتنبي له في اصفهان ، فكتب اليه مستدعيا ، عارضا عليه مشاطرته جميع ماله ،فلم يأبه المتنبي له ولا اجابه على كتابه او حقق له مراده ، بل قصد حضرة عضد الدولة بفارس ، تلك الزيارة التي قتل في طريق عودته منها .(١) .

هذه الرواية ترجح لدينا اسبقية طلب الصابي المدح من المتنبي على استدعاء الصاحب له ، فان كان العكس هو الصحيح وان كان الصابي الكاتب لم يهتم لما فيه طلبه هذا من منافسة للصاحب الذي كان كاتبا في الوقت ايضا ، فكيف يغفل انه بهذا الطلب يستعلي على وزيره وولي نعمته ، المهلبي ، بل كيف يجرؤ ابان خدمته لهذا الوزير ان يتصل بالمتنبي بعد ان كان المهلبي قد اثار عليه الشعراء يهجونه ؟ صحيح انه نسب الى الصابي قوله في ختام الرواية : " فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمت انه قد نصح ،فلم اعاوده " (٢) . وكانه كان غافلا ، لكن هل يعقل ان يغفل الصابي هذا الامر بعد ان صار المتنبي مضغة تلوكها افواه شعراء بغداد المجان ؟ ثم هل يجرؤ الصابي ايضا على ان يتعالى بنفسه على جميع من بالعراق من الرؤساء والوزراء ليقول نقلا عن المتنبي انه لم يسر بالعراق من يستحق المدح غيره . والاستعلاء لم يكن يوما من صفات ابي اسحاق بل لقد عرف دائما بالتواضع للكبراء ولارباب نعمته بحيث كان يعد مركزه دونهم امرا واقعا ، بالاضافة الى حذره مما قد يثيرغضبهم او استياءهم منه ،هذه الامورمجتمعة تضعف من رواية ياقوت هذه ، وتبعث الشك

**) ج ١٦ ،ص ٥١١ (تحقيق اكرم البوشي واشراف شعيب الارنؤوط ، وروضات الجنات ، ج ٢ ، ص ١٩ ،وخليل مردم ، الصاحب بن عباد (دمشق ،مطبعة الترقي ،١٣٥١/١٩٣٢) ومحمد حسن آل ياسين ، الصاحب بن عباد حياته وادبه (بغداد ،دار المعارف ، الطبعة الاولى ،١٣٧٦/١٩٥٣) وبدوي طبانة ، الصاحب بن عباد الوزير الاديب العالم (مصر ،المؤسسة المصرية العامة ،١٣٨٣/١٩٦٣) .

(١) اليتيمة ،ج ١ ،ص ١٢٢ .

(٢) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

فيها ، ومهما يكن من امرها او امر واضعها يبدو ان القصد منها اظهار مكانة الصابي العالية .

لكن القدر بدأ يرسم نهاية لوجود الصابي في كنف المهلبي ، فقد حدث في سنة ٣٥٢ هـ ان انحدر المهلبي الى عمان لافتتاحها (١) بعد الحاح واصرار من معز الدولة ومدافعة ومداورة من المهلبي (٢). وكان المهلبي قد عين ابا اسحاق خليفة له على ديوان الوزارة بالاضافة الى توليه ديوان الرسائل (٣). وكان ان اصيب المهلبي في هذه الحملة بالعلة التي ثقلت عليه حتى اودت بحياته (٤) وما ان ورد الخبر الى معز الدولة بمرض المهلبي حتى بعث احد ثقاته يستطلع خبره واوصاه ان وصل ولقيه قد مات ، ان يقبض على امواله وعماله وكتابه ويحمل جميع ذلك الى بغداد (٥) . وهكذا جرى ، فقبض على عياله وولده ومن دخل يوما اليه مثلا

---

(١) ذكرت هذه الحادثة في تجارب الامم ج ٢ ص ١٩٦ والكامل ج ٨ ص ٥٤٦ فقيل ان المهلبي سار في جيش لفتح عمان دون ذكر اية تفاصيل ، لكننا نجد في المصدرين المذكورين (تجارب الامم ، ج ٢ ص ١٤٤ والكامل ج ٨ ، ص ٤٩٦) تحت احداث سنة ٣٤١ هـ ان يوسف بن وجيه صاحب عمان سار الى البصرة ليفتتحها مستعينا بالقرامطة فحاربه المهلبي الوزير ورده عنها واسر جماعة من اصحابه ، لذا يرجح ان يكون المهلبي قد حاول في هذه الحملة السيطرة على عمان وانتزاعها من صاحبها هذا .

(٢) معجم الادباء ، ج ٩ ، ص ١٢٤ ومابعدها .

(٣) اليتيمة ج ٢ ص ٢٤٣ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٤) تجارب الامم ، ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٨ ومعجم الادباء ، ج ٩ ، ص ١٢٦ - ١٢٩ والكامل ج ٨ ، ص ٥٤٦ - ٥٤٧ .

(٥) تجارب الامم ، ج ٢ ص ١٩٧ ومعجم الادباء ج ٩ ، ص ١٢٨ .

وصودروا حتى المكارين والملاحين الذين كانوا يخدمون حاشيته وجرى ما لا جرى مثله الا على عدو مكاشف واستفظع الناس ذلك واستقبحوه لمعز الدولة (١) ٠ وكان قد سبق وفاة المهلبي ملابسات ومكائد كانت ستؤدي به وباصحابه الى الاعتقال والمصادرة لو لم يمت ، فكانت وفاته سببا لصيانته عن عاجل ابتذالهم له" (٢) ٠ ولما كان الصابي كاتب المهلبي وخليفته في الوزارة،كان نصيبه الاعتقال في جملة عماله (٣) ٠

وقد تولى الامور بعد المهلبي ابو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي ، وابو الفرج محمد بن العباس بن فسانجس دون تسمية احدهما بالوزارة (٤) ٠ فخلا الاثنان في الديوان يعاقبان اصحاب المهلبي ومنعا الناس من الاقتراب من الباب بان امرا بتلويث ثياب

---

(١) تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ١٩٧ ــ ١٩٨ ٠

(٢) معجم الادباء ، ج ٩ ،ص ١٣٠ ٠ وقد جاء في المصدر نفسه (ص ١٢٤ــ١٢٩) انه سنة ٣٥١ لهج معز الدولة بذكر عمان وحدث النفس باخذها وقد اغراه بذلك بعض النقباء فامر المهلبي بالخروج اليها فدافعه ووضع عليه من يزهده فيها ،فازداد الحاحا ٠ فعرض عليه المهلبي ان يستخرج له اموالا كثيرة من حاشيته تساعده على الخروج مقدرا انه سيمكنه من مصادرة بقية الحاشية فيعفيه من الخروج ،فلم يفعل بل لح عليه في المضي ،فانحدر المهلبي في جمادى الاخرة سنة ٣٥٢ وبقي فترة في البصرة يستعد للخروج ، وحدث ان امتنع العسكر من ركوب البحر مما جعل معز الدولة يتهم المهلبي بانه بعث العسكر على الشغب فكاتبه منكرا عليه توقفه في البصرة ٠ وهنا وجد اعداء المهلبي طريقا للطعن عليه لتنكر معز الدولة له ،فأثاروا حوله الاتهامات من انه يريد السيطرة على البصرة وان العسكر هناك والعشائر على طاعة له ،فاقتنع معز الدولة باقاويلهم ثم اشاروا عليه بالقبض على المهلبي والاعتياض باموالهعما يقدر حصوله من عمان ،فمال الى قولهم وبعث الى المهلبي يأمره بالعود الى مدينة السلام ،وعلم المهلبي بالحال ورأى ان يتولى هو مصادرة نفسه واصحابه وخصومه ، هنا اصابته العلة فانفذ معز الدولة احد ثقاته على ظاهر العيادة له وباطن الاستظهار على ماله وحاشيته فلما توفي قبض على اسبابه وحرمه واولاده وصودروا جميعا فلم يظهر للمهلبي مال ولا ذخيرة وبان لمعز الدولة صدقه ٠

(٣) اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٤٣ ، ومعجم الادباء ،ج ٢ ،ص ٢٩،

(٤) تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ١٩٨ والكامل ،ج ٨ ، ص ٥٤٧ .

من يقترب بالنفط (١) • ومن الطبيعي ان يكون الصابي قد خضع لهذه التجربة الصعبة • لكن مع ان هذه النكبة قد جاءت عقب فترة من الاستقرار الا انها ربما لم تفاجيء الصابي الذي كان يعلم ان مهنة الكتابة لابد ان ترتبط بالفقر والتعب • وقد كان قبل هذه النكبة يعجب من غناه ، واستقراره مع كونه كاتبا اديبا :

" قد كنت اعجب من مالي وكثرته   وكيف تغفل عنه حرفة الادب
حتى انثنيت وهي كالغضبى تلاحظني   شزرا فلم تبق لي شيئا من النشب
فاستيقنت انها كانت على غلط   فاستدركته وافضت بي الى الحرب
الضب والنون قد يرجى التقاؤهما   وليس يرجى التقاء اللب والذهب "(٢)

اذا ،حدث ماتوقعه الصابي من ارتباط مهنته بالفقر ومعاداتها للغنى وكان نصيبه بالاضافة الى ذلك ان يودع السجن وهو صاحب ديوان الرسائل الذي عمد دائما الى اداء مهمته بامانة وصدق ،فيطلق الصابي صرخة قوية يوجهها الى الرؤساء واصحاب الامر طالبا العدالة واضعا اياهم امام ضمائرهم ،قائلا : (٣) •

" يا ايها الرؤساء دعوة خادم   اوفت(٤) رسائله على التعديد
ايجوز في حكم المروءة عندكم   حبسي وطول تهددي ، ووعيدي ؟
قلدت ديوان الرسائل فانظروا   اعدلت في لفظي عن التسديد ؟
اعليّ رفع حسام(٥) ما انشأته   فاقيم فيه ادلتي وشهودي ؟

---

(١) اليتيمة ، ج ٣ ،ص ٧٨ •

(٢) اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٩١ ،والبيت الاخير ورد في زهرالاداب ،ج ١ ص ٢٤١ • تاريخ كتابة هذه القصيدة غير مذكور في المصادر لكن الارجح انه بعد هذه النكبة لانها اول نكبة فعلية له والمعاني الواردة في الابيات مطابقة لوضعه هذا •

(٣) اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٤٣ • ومعجم الادباء ، ج ٢ ،ص ٢٩–٣٠ ، وقد وردت بعض ابيات هذه القصيدة في معاهد التنصيص ،ج ٢ ،ص ٦٣ •

(٤) في معجم الادباء : " اربت ".

(٥) في المصدر نفسه : " حساب ".

انسيتم كتبا شحنت فصولها	بفصول د ر عند كم . (١) منضود ؟
ورسائلا نفذت الى اطرافكم	عبد الحميد بهن غير حميد ؟" (٢)

ثم يصف الصابي في هذه القصيدة اخوانه الذين اوثقتهم القيود فيسمهم بالاحرار الصناديد الذين يذلون للموكلين بهم وكأنهم عبيد، ثم ينهي قصيدته بالطلب من معتقليه نسيان الاحقاد مذكرا اياهم بان الحكم لا يخلد لاحد بل يتنقل وكأنه يضمن كلامه انذارا :

" فتفضلوا وتعطفوا وهبوا لنا	عفوا قديم حفائظ و حقود
وتعلموا ان الولاية عندكـــم	عارية ليست بذات خلود " (٣)

يلاحظ ان روح الصابي في هذه القصيدة قوية فهو لا يضمن كلامه تذللا او خضوعا ، انما يبدو صاحب حق يدافع عن حقه ، ويجاهر بالقول ان احتجازه غير جائز لانه لم يقم باى ذنب بل خدمهم ببلاغته وفصاحته فهو لا يستحق هذا بالمقابل ، ثم لا يلبث ان ينذرهم بعدم دوام الولاية لاحد . نبرة الصابي هذه ربما تعود الى روح الشباب الذى يسيطر على نفسه والذى يأبى الذل والهوان وقد كان يومها في التاسعة والثلاثين من عمره، وسنجد فيما بعد تلاشي هذه الروح بعد توالي النكبات عليه .

وسرعان ماانتهت ايام الصابي في السجن وها هو يعود الى عمله مجددا ، (٤) فنجده

---

(١) في معاهد التنصيص : " عنكـم " .

(٢) هنا تنتهي الابيات التي نقلها ياقوت في معجم الادباء .

(٣) اليتيمة ، ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٤) المصدر نفســه .

يكتب رسالة الى الوزير ابي الفرج محمد بن العباس معتذرا عن خطئه ، شاكرا الوزير على كرمه في العفو عنه ، واصفا حاله وحال اهله ابان الاعتقال وبعده ، طالبا المزيد من افضال الوزير عليه ، من هذه الرسالة : (١)

" اعرف الناس ، اطال الله بقاء الوزير ، (بحاجة) (٢) من وجدها بعد فقدها ، وبفضل العافية من لبسها بعد التعرى منها ، وهذه حالي فيما كنت عليه عند اعراض الحظ عني باعراضه ، وفيما صرت اليه عند اقبال السعادة علي باقبالها ، وما كنت قطعا يد الله الوزير ، على كثرة ما في من العيوب البشرية ، مأفونا في الرأى ، ولامسيئا في الاختيار ، لكن الثانية اضلتني في السبيل التي كنت دليلها ، وعدلت بي عن المحجة التي كنت هاديها وتعاضدت علي اتفاقات مردية ، وافكار مغوية ، واقوال اوحشتني بما فيه الملك ، وآنستني بما فيه الهلك ، فزللت ، وقد يزل العالم الذى لا اباريه ، وعثرت وقد يعثر الجواد الذى لا اجاريه ، ثم احسست بالغلطة وقد اتيتها ، والورطة وقد اشفيت عليها ، فظننت لبقية من انعكاس طالعي وتراجع حظي ، ان التلافي قد فاتني والاستدراك قد جاءني ، واستمررت في مضرتي استمرار الجموح ، وتوقفت عن مصلحتي توقف الحرون ، حتى اوردتني المحنة محذور غايتها ، واسلمتني الى مكروه عاقبتها ، وتقشتني باشراكها وحبائلها ، وفرستني بانيابها ومخالبها ، تداركني من سيدنا الوزير ، ايده الله ، عطفه الكريم ، وخلقه الرحيم ، وقلبه الشريف ، وقدره المنيف فصفح الصفح الجميل ، ووهب الذنب الجليل ، وعفا عن قدرة واقال اعظم عثرة . . . . . " (٣)

---

(١) الرسالة كاملة في لقاح الخواطر لعلي بن يحي بن علي (مخطوطة جامعة كمبردج رقم ١٣٩ Q 9) الورقة ٩٢ ب - ٩٣ أ .

(٢) كلمة ناقصة في الاصل ، وضع مكانها ما يناسب النص .

(٣) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٢ ب .

ونستغرب هنا موقف الصابي هذا واعترافه بالزلل والخطأ ، ونظنه نوعا من المجاملة او التواضع بغية الخلاص ، لان هذا الموقف يتعارض مع موقفه في الابيات الشعرية المذكورة سابقا والتي يثور فيها على معتقليه ، والتفسير الممكن لذلك هو العامل الزمني بين الحالين ففي اول عهده بالسجن كان ثائرا متهددا ، وقد كان لايام السجن اثرها في تليينه واخضاعه فبدا علـــى شيء من الذلة في هذه الرسالة .

وجاء في هذه الرسالة ايضا : "ووحق من وهب لي رضاه ، واعادني الى ذراه مافي قلبي مرض ولا في اخلاصي شوب ، ولا امسي واصبح الا في ذمامه وحماه ، وتحت ظله وكنفه ولا يخطـــو لي قدم الا الى بابه ، ولا يتعلق لي امل باحد من المخلوقين غيره وان المنزل الذى انزلنيـــه امتنانه وبوأنيه امانه ليعج عجيجا بالدعاء له من اصاغر واكابر كانوا مستوحشين فأنسوا وسكنـــوا ومنزعجين فقروا واطمأنوا ، وقد رأيت بهم في هذه النكبة من تغير العادة وانقطاع المـــادة ، وقلوص ظل النعمة ، والخروج من كل ملك وذخيرة ، ماصاروا به قذى في عيني وشجى في حلقـــي وغصة في صدرى . وانا وهم الآن واثقون بالخلف ، منتظرون للعوض ، قد حسن عزاؤنا عـــن المأخوذ واستحكمت بغيتنا بالمأمول ، وتراءينا آثار الاقبال لائحة واعلامه واضحة فتمم اللـــه على الوزير النعم ، ووقاه النقم ، ولقاه في نفسه النفيسة وذريته الطيبة ، مالقانيه في نفســـي وذريتي من سكون الجأش واجتماع الشمل ، ووفقه في الدنيا لما يديم فوائدها ، وفي الآخـــرة

لما يؤمن عواقبها ، فان رأى الوزير ، ادام الله عزه رب النعمة التي اولاها ، والعارفة التي اسداها ، وان يظهر من جميل رأيه ما يغسل به درن الموجدة عني ، وآمن به شماتة عدوى ومساءة صديقي ، فان كرمه طرق لي سعة الامل ورأيه اعلى " . (١)

لنتعرف الآن على حياة الصابي العائلية . فنحن لا نعلم تاريخ زواجه كما لا نعرف زوجه وكل ماتفيدنا اياه المصادر انه كان لابي اسحاق ثلاثة ابناء : ابوسعيد سنان وابو العلاء صاعد وابو علي المحسن (٢) . وتفيدنا ايضا ان ابا سعيد سنانا كان اسن اولاده وقد توفي سنة ٣٨١ في حياة ابيه (٣) وان ابا سعيد هذا لم يكن نبيها . (٤)

---

(١) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٣أ .

(٢) معجم الادباء ، ج ١٧ ص ٨٢ . اما كنية الصابي "ابو اسحاق" فيرجح انها لا تعود لوجود ولد له بهذا الاسم ، اذ انه من الملاحظ ان الاسماء في هذه العائلة ، كما في سواها تتردد مع الكنى فجد ابي اسحاق ابراهيم الكاتب اسمه ابو اسحاق ابراهيم ولم يذكر له ولد باسم اسحاق واسم حفيده ابي الحسين هلال مطابق لاسم والده ، وهكذا .

(٣) رسائل الصابي والشريف الرضي (تحقيق محمد يوسف نجم ، الكويت ، سلسلة التراث العربي ، ١٩٦٠ / ١٣٨٠) ص ٦٣ ومعجم الادباء ، ج ١٧ ، ص ٨٢ .

(٤) معجم الادباء ، ج ١٧ ص ٨٢ .

اما ابنه المحسن اصغر اولاده (١) فكان اديبا فاضلا ،لقي الادباء والعلماء واخذ عنهم، وكان يعرف بصاحب الشامة لوجود شامة حمراء في وجهه (٢).ورزق المحسن سنة ٣٥٩ ابنا سماه هلالا ،اتجه ناحية الادب ايضا وسمع من العلماء ،فكان كاتبا شهيرا ومؤرخا ثقة . اسلم في آخر عمره وله مؤلفات في الادب والتاريخ (٣) . اما ابنه الثالث صاعد فلم يرد في المصادر حوله اى ذكر باستثناء عده بين ابناء ابي اسحاق .

---

(١) التذكرة الحمدونية (رئيس الكتاب رقم ٧٧٠) . الورقة ٨١ ب .

(٢) توفي سنة ٤٠١ هـ .انظر ترجمته في : معجم الادباء ،ج ١٧ ،ص ٨١ واعلام النبلاء ، ج ١٦ ،ص ٥٢٤ وهلال بن المحسن الصابي ،غرر البلاغة (تحقيق اسعد ذبيان ، بيروت، دار الكلمة ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣) مقدمة المحقق ،ص ٢١ .

(٣) توفي سنة ٤٤٨ هـ . انظر ترجمته في معجم الادباء ،ج ١٩ ص ٢٩٤ ووفيات الاعيان ج ٦ ،ص ١٠١ واعلام النبلاء ،ج ١٦ ص ٥٢٤ ورسوم دار الخلافة ،مقدمة المحقق ص ٧ وغرس النعمة الصابي ،الهفوات النادرة (تحقيق صالح الاشتر ،دمشق ،مجمع اللغة العربية ،الطبعة الاولى ،١٣٨٧/ ١٩٦٧) ،مقدمة المحقق م ص ١٤ وغرر البلاغة ، مقدمة المحقق ، ص ٢٣ . ولهلال بن المحسن ولد نبيه هو غرس النعمة بن هلال وكان اديبا ومؤرخا وله مؤلفات .

انظر ترجمته في : وفيات الاعيان ج ٦ ، ص ١٠١ والصفدى ،الوافي بالوفيات (باعتناء س . ديدرينغ ،فسبادن ،فرانز شتاينر، ١٣٨٩/ ١٩٧٠) ج ٥ ،ص ١٦٨ ،ورسوم دار الخلافة،مقدمة المحقق ،ص ٢١ والهفوات النادرة،مقدمة المحقق ، ص ١٨ .

هذه المعلومات تلقي لنا بعض الضوء على حياة الصابي فنتصور انه تزوج حوالي العشرين من عمره اى بحدود سنة ٣٣٣ تقريبا ، لاننا افترضنا انه ولد له المحسن اصغر ابنائه بعد اربع او ست سنوات من زواجه وان المحسن تزوج في حوالي العشرين ايضا فولد له هلال سنة ٣٥٩ كل اعتمادنا في هذه الاستنتاجات على تاريخ ميلاد هلال ، وعلى كون المحسن اصغر ابناء ابي اسحاق كما ذكر سابقا .

يبقى ان هنالك امرا لابد من عرضه مفصلا بالنسبة لابناء ابي اسحاق وهو : هل حقا كان لابي اسحاق ثلاثة ابناء كما ذكر ؟ نستعرض الآن جملة من الحقائق :

١ — لم تذكر المصادر حول ابنه ابي العلاء صاعد غير اسمه .

٢ — سنرى فيما بعد انه عندما قبض علي ابي اسحاق سنة ٣٦٧ قبض معه على ولديه ابي سعيد سنان وابي علي المحسن (١) . لم استثني صاعد ؟

٣ — سنة ٣٨١ توفي ابو سعيد سنان بن ابراهيم الصابي ، فكتب ابو اسحاق والده قصيدة في رثائه نذكر مما قاله فيها : ولئن كان في اخيك واولا دكما مايغض من برحائي" (٢)

وهو يحدد هنا اخا واحدا لسنان الذى هو المحسن . لم غاب عنه ذكر صاعد ؟ وان لم يذكر ابناءه الثلاثة في هذا البيت فلم لم يذكر صاعدا في بيت آخر من قصيدة كتب بها من السجن الى ابنه المحسن بين سنتي ٣٦٧ و ٣٧١ ويقول :

---

(١) معجم الادباء ج ١٧ ، ص ٨٢ والتذكرة الحمدونية (٧٧٠) ، الورقة ١٨١أ .

(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ومعاهد التنصيص ، ج ٢ ص ٧١ .

" دع المحسن يحيا فهو جوهرة   جواهر الارض طرا عندها عرض
اتركه لي واخاه ثم خذ سلبي   ومهجتي فهما مغزاى والغرض" (١)

هذه الحقائق تدخل الشك في اذهاننا حول وجود ابن للصابي باسم صاعد خاصة اذا قرأنا ما ذكره ياقوت نقلا عن ابي علي المحسن بن ابراهيم : "ومن خطه (اى المحسن): لابي الحسن بن سكرة الهاشمي (٢)، من قصيدة الى والدى وعمي ابي العلاء رحمهما الله :

آمنوا يا بني هلال جميعا   نوب الدهر والزمان المعاند
وارتقوا كيف شئتم في المعالي   واذلوا واهبطوا كل حاسد
لكم في ابي العلاء علو   وصعود ببدره التم صاعد
زاد في عزكم ومازال منكم   كل يوم يزيد في الصيد واحد" (٣)

كلام المحسن عن ان ابا العلاء عمه يؤكده ما جاء في الابيات من عدّ صاعد من بني هلال وهنا نجد انفسنا امام احتمالين : الاول ان صاعدا ابن ابي اسحاق والثاني انه اخوه، ونحن لا نملك ان نرجح رأيا على آخر انما يلفتنا ما ذكره الصفدي عن ابي اسحاق حين قال :

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧١ ومعجم الادباء، ج ٢ ص ٧٨ وروضات الجنات، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) ابو الحسن محمد بن عبد الله (ت ٣٨٥ هـ) شاعر مشهور يعود بنسبة الى الخليفة ابي جعفر المنصور العباسي، شهر بقول الطرف والمجون والسخف، وكان يقال ببغداد : "ان زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جدا وما اشبههما الا بجرير والفرزدق في عصريهما". انظر ترجمته في اليتيمة، ج ٣ ص ٣ ووفيات الاعيان ، ج ٤ ص ٤١٠ .

(٣) معجم الادباء، ج ٢ ، ص ٩٠ .

" وهو كبير بيته ، واهل بيته جماعة فضلاء نبلاء " (١) وهذا يثير في ذهننا فكرة كون صاعد هذا اخا الصابي الصغير الذى كان بوصفه كبيرا للبيت،يرعاه حتى اختلط الامر على المترجمين في عدة ابنا له . هذه مجرد فكرة والحقيقة غير معلومة ، لكن يمكن ان يضاف الى ماذكر احتمال آخر وهو ان يكون صاعد قد توفي قبل سجن والده واخويه وبالتالي قبل وفاة اخيه . لكن عدم ذكره في اى من شعر الصابي يضعف هذا الاحتمال فوفاة اخيه مثلا ، كانت مناسبة لتذكره من قبل والده وتذكر المه به ومع ذلك فلم يات على ذكره فيها .

وتغيب عنا اخبار الصابي فترة حتى سنة ٣٦٠ لانعرف فيها عنه شيئا الا انه يتابع عمله اعتياديا ، يدلنا على ذلك ما نراه من رسائل مؤرخة في هذه المرحلة .

ثم نجد الصابي يكتب رسالة الى عضد الدولة (٢) يهنئه فيها بفتح حققه ويشكره على مال

---

(١) الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٦٣ .

(٢) ابو شجاع فنا خسرو بن ركن الدولة (ت ٣٧٢ هـ) تسلم فارس بعد وفاة عمه عماد الدولة ثم بلغ من سعة الملك والسيطرة على الملوك مالم يبلغه احد . وكان الى جانب اهتمامه بالسياسة يتفرغ للادب . انظر في ترجمته واخباره: اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ورسوم دار الخلافة ، ص ٨٠ ــ ٨٥ و ٩٤ ــ ٩٥ ووفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٥٠ . وصفحات متفرقة من تجارب الامم وخاصة ج ٢ ، ص ٣٦٣ ــ ٣٩٥ وصفحات متفرقة من ذيل التجارب خاصة ص ٣٩ ــ ٦٧ .

انفذه اليه من فارس وصله سنة ٣٦٠ هـ ،(١) نقتطع منها بعض المقاطع المتعلقة بحياة الصابي والتي تظهر علاقته بعضد الدولة :

" كتابي ،اطال الله بقاء مولانا الامير الجليل عضد الدولة ،من واسط ، يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر ربيع الاخر ، والامور التي يراعيها مستقيمة منتظمة ، والنعمة في ذلك تامة عامة ،وانا لابس من جميل رأيه وشريف اصطناعه ،شعارا ضامنا للصيانة ،كافيا بالوقاية ،حائلا بين النوائب وبيني ،دافعا لاحداثها عني ،آسيا لما سلف من كلومها ، جابرا لما سبق من ثلومها ، واعدا باخلاف ما اخذت ،واضعاف ما سلبت ،والحمد لله كما هو اهله ، وشخصت الى هذا الموضع ، اطال الله بقاء مولانا الامير الجليل عضد الدولة ،متوجها الى اعمال الاهواز للخدمة فيما رسم لي والتسكع في بقية بقيت من مغارم محنتي ، ... " (٢) .

" ووصل كتاب مولانا الامير الجليل عضد الدولة ،اطال الله بقاء ، جوابا وفهمته ، وما اقترن به ثوابا وقبضته ، ووقع مني موقع الماء من ذي الغلة ، والشفاء من اخي العلة ، واعظمت قدر ما اختصني به ايده الله من عنايته ،وابانه من رعايته ، وجعلت ذلك جنة بيني وبين الزمان ، واثرة لي على الاضراب والاقران ،وشكرت انعامه مجتهدا محتفلا ،وادرعته مفتخرا متجملا ،وتضاعف اغتباطي بقوة الحرمة به ،ووثاقة العصمة لديه ، وجرى ذلك عندي مجرى الغرس الذي استقر

---

(١) الرسالة في رسائل الصابي ،ص ٩٥ ـ ٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ،ص ٩٥ .

اصله ، واستطال فرعه ، وثبت عرقه، وقـويت شعبه، واراني نفسي بصورة من استحكم في الجملـــة نسبه وصار اليها منتسبه، وحصل فيها رهنه، وتوفر منها حظـه، وامضاني ان انبسط مكاتبا مواصـــلا ، وقضـى لي ان ابسط مأمورا متهيئا، والى الله رغبتي في اطالة بقاء مولانا ، . . . والا يزيل عني ظله ، ولا يسلبني طوله ، ولا يفجعني بالموهوب من رأيه الذى هو عوض عن كل مسلوب، ونريحتي الى كـــل مطلوب بقدرته. ومولانا الامير الجليل عضـد الدولة ، اطال الله بقاءه ، ولي ما يراه ويأمربه، لا زال صائب الرأى، نافذ الامر، من تشريفي بالمكاتبة وتصريفي في عوارض الخدمة، ان شاء الله " . (١)

هذه الرسالة تظهر لنا امورا مهمة في حياة الصابي منها :

اولا : العلاقة بين الصابي وعضد الدولة الذى كان آنذاك بفارس علاقة جيـدة، فعضد الدولـــة يستخدم الصابي في بعض الامور ويرفده بالمال، والصابي يتمسك بهذه العلاقة مع عضد الدولة لانه يرى في هذا الرجل القوى ملجأ له وعصمة من الاذى، فيحمل اليه مشاكله ومتاعبه .

ثانيا : تظهر الرسالة الصابي رجلا مجربا ذاق مر الحياة وآلامها ، فروح الشباب القوى تختفـي هنا نهائيا ليظهر الصابي رازحا تحت كلاكل الدهر ، فتطالعنا في الرسالة كلمات : النوائب ، الاحداث ، الكلوم ، الثلوم ، التسكع ، المغارم ، المحنة ، ذى الغلة ، اخي العلة ،

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٩٨ - ٩٩ .

مسلوب ، ونجد بالمقابل تركيزا على فكرة العصمة والملجأ من جانب عضد الدولة : الصيانة ، الوقاية ، حائلا بين النوائب وبيني ، دافعاء آسيا ، جابرا ، واعداه جنة بيني وبين الزمان ، قوة الحرمة ، وثاقة العصمة ، واستحكم في الجملة نسبته . . هاتان الفكرتان : فكرة الجرح او المحنة او الالم تقابلها فكرة العزاء او العصمة او اللجوء ، هما المسيطرتان على الرسالة ، وتوضحان لنا الحالة التي يعاني منها الصابي في هذه الفترة ، والهدف الذى يريد بلوغه ، يريد هذا الرجل الهروب من واقعه الاليم ليعيش في كنف رجل يحترمه ويقدر اده ويحميه . هذه الحالة لم يكن عرفها الصابي من قبل ، ولم تبد في رسالته الى الوزير ابي الفرج ، اذا ، اما ان شخصية عضد الدولة هي التي اوحت له بهذه المعاني ، واما ان الصابي قد عرف بعد محنته مع عمال المهلبي سنة ٣٥٢ محنا جديدة وهذا هو الرأى الارجح والذى تدل عليه الرسالة حين يقول : "متوجها الى اعمال الاهواز للخدمة فيما رسم لي والتسكع في بقية بقيت من مغارم محنتي." وهنا نسأل : من نكب الصابي مجددا ؟

اذا حاولنا ان نستوحي الجواب من التاريخ نجد انه سنة ٣٥٦ هـ ثار الديلم والترك على عز الدولة (١) مطالبين بالاموال والمناصب كل فئة لنفسها ، مما اضطر عز الدولة بختيار ان يضمن لهم ما طلبوا ، ولما لم يكن يستطيع ذلك عمد الى الطلب من وزرائه العمل على جمع

---

(١) ابو منصور بختيار عز الدولة بن معز الدولة البويهي ، ولي مملكة ابيه بعد وفاته سنة ٣٥٦ ، قتل سنة ٣٦٧ بعد معركة دارت بينه وبين ابن عمه عضد الدولة وكان في السادسة والثلاثين من عمره . انظر اخباره في صفحات متفرقة من تجارب الامم واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

هذا المال كيفما اتفق . فضمن ابو الفضل العباس ارضاء الجند على ان تكون الوزارة من نصيبه (١) ، " فاخـــذ في مصادرة الحاشية والزمهم اموالا علم انهم يفون بها ولا يجحف بهم " ودبــــر الامر وارضى الترك والديلم (٢). والسؤال هو : الا يجوز ان يكون الصابي من ضمن هذه الفئة التي صودرت ؟ والارجح ان يكون، لان امر النكبة هذه مرجح لذا كان يسعى سنة ٣٦٠ لتمد يـد ماعليه من مغارم . ونتصور انه في هذه الفترة بالذات كتب الصابي قصيدة يشكو فيها الايام الـــتي تمر عبثا دون ان يحقق فيها رغباته، كما يألم لفقره في حين يظنه الناس غنيا - وهذا شبيه بما ذكـــر اعلاه من ان الوزيـــر الزم الناس اموالا علم انهم يفون بها . ويضع الصابي اللائمة على الحـــظ الذى يتفوق على الجد والعمل فيلقى الانسان حظه لا ما قدمت يداه . يقول الصابي :

" وايام تعد علي عدا	وحظي من رغائبها يفوت
يظن الناس لي فيها ثراء	وحسبي من ظنون الناس قوت
كأني من تخاصمهم مكيـــن	وحالي من خصاصتها تموت
ولم آل اجتهادا واحتفالا	ولكن اعيت الحيل البخوت
اذا رام الكريم شكاة بـــث	فغايته التحمل والسكـــوت " (٣)

---

(١) تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٣) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

ثم ان الجو العام المسيطر على الرسالة المذكورة سابقا ، يذهب بنا الى الظن بان الصابي ربما عانى من غير نكبة في هذه الفترة وفي ذلك يقول الثعالبي انه لما خلي عنه بعد نكبته سنة ٣٥٢ هـ مع عمال المهلبي " لم يزل يطير ويقع وينخفض ويرتفع الى ان دفع في ايام عضد الدولة الى النكبة العظمى والطامة الكبرى ." (١) فحياة الصابي بعد وفاة المهلبي لم تعرف الاستقرار ، وانما كانت تسير في خط يعلو ويهبط ، ونجد نقطة مميزة على هذا الخط لشدة انحدارها هي نكبته على يد عضد الدولة سنة ٣٦٧ هـ والتي حددت مسير حياته بعدها في خط شبه مستقيم مع اتجاه نزولي عام .

فقد عرفنا من الرسالة المثبتة سابقا ان الصابي كان يكاتب عضد الدولة في فارس ويخدمه وعضد الدولة كان يرعاه بالمال والحماية وهذا ما تؤكده المصادر ايضا . (٢) ونجد رواية ذكرها ياقوت (٣) تشير الى خدمة الصابي لعضد الدولة سنة ٣٦١ . تقول الرواية : " كان ابو اسحاق الصابي واقفا بين يدي عضد الدولة وبين يديه كتب قد وردت عليه من ابن سمجور ، صاحب خراسان ، وعلى رأسه غلام تركي ، حسن الوجه ، جميل الخليقة وكان مائلا اليه ، ورأيت الشمس اذا وجبت عليه حجبه عنها ، الى ان استتم قراءة ما كان في يده ، ثم التفت اليه ، وقال له : هل قلت شيئا يا ابراهيم ؟ فقال :

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) ذيل التجارب ، ص ٢١ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٣) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

" وقفت لتحجبني عن الشمس | نفس اعز عليّ مـن نفسـي
ظلت تظللنـي ومن عجـب | شمس تقنعني عن الشمس

فسر بذلك ، وطوى الكتب وجعله مجلسا للقرب ، والقي على الجواري الستائر ، ففنـوا به في ذلك اليوم ، وهو في الخامس من شوال سنة احدى وستين وثلاثمائة " .

بورود عضد الدولة الى بغداد سنة ٣٦٤ ازدادت العلاقة به وثوقا فزاد اختصاص الصابي به وقربه منه (١). فقد اكرمه عضد الدولة وحاضره، ولابد من الاشارة الى ان لقـب عضد الدولة الثاني وهو تاج الملة قد اختاره له ابو اسحاق فيروي هلال بن المحسن عن جده ابي اسحاق قوله : "لما ورد عضد الدولة في سنة ٣٦٤ للمعاونة على الاتراك، قال لي فـي بعض ما تجاذ بنيه ، قد عرفت يا ابا اسحاق ما كان من العم معز الدولة في منعنا من اللقب بتاج الدولة ، وردنا عنه ، ولو جئنا نتلقب الان به لقبح ان يقال عضد الدولة وتاج الدولة ، فقلت ولم لا يقال : وتاج الملة فيجمع في اللقبين بين الدولة والملة. قال : صدقت ، فاكتم هذا الامر الـى ان يحضر وقته، فلما عاد في سنة ٣٦٧ تلقب به " (٢).

لكن هذه العلاقة الوطيدة والخدمة المخلصة حملت في ثناياها سلبيات للصابي الذي كان بصفته كاتبا ، مرتبط المصير بالعلاقات بين الامراء . فالعلاقات بين عضد الدولة وعز الدولة لم تكن على ما يرام في هذه الفترة، فقد كان عضد الدولة يطمع من وراء مساعدتـه

---

(١) ذيل التجارب ، ص ٢١ ومعجم الادباء، ج ٢، ص ٣٥.
(٢) رسوم دار الخلافة، ص ١٣١ - ١٣٢ .

لعز الدولة في فتنة الاتراك سنة ٣٦٤ الاستيلاء على العراق وبسط سيطرته عليه (١). وكان عز الدولة قد ابتدأ في معاداة عضد الدولة من قبل بان منع صاحبه من شراء الالآت والدواب التي كان يطلبها من بغداد (٢)، وربما ان الصابي كان يأمل ببقاء عضد الدولة ببغداد حتى تمادى في الاختصاص به مع علمه بما بينه وبين عز الدولة، ولسوء حظ الصابي لم يحدث هذا . ولهذا السبب خاف الصابي من البقاء في بغداد بعد خروج العضد منها فعمل على الخروج معه (٣)، وقيل : ان عضد الدولة طلب منه الخروج معه فعزم الصابي على ذلك ووعده به (٤) . لكن يبدو انه فكر في امره مليا ورأى انه ان مضى الى فارس سيخلف اهله في بغداد فيكون قد تسبب لهم بما اراد لنفسه النجاة منه (٥) هنا وقع

(١) تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٦ .

(٣) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٤) تاريخ الحكماء ، ص ٧٥ .

(٥) معجم الادباء ج ٢ ، ص ٣٥ وتاريخ الحكماء ، ص ٧٥ . جاء في معجم الادباء (ج ٢ ، ص ٣٥) " ثم علم انه متى فعل ذلك (اى خرج الى فارس) اسلم اهله وولده وتعجل منهم ما عسى الله ان يدفعه عنه" وفهم الخبر في دائرة المعارف الاسلامية انه يخاف من ان يسلم اهله وولده اى يدخلوا في الاسلام، وليس هذا المقصود بدليل ماجاء في الجملة التي تليه. كرنكو "الصابي ابو اسحاق ابراهيم بن هلال" دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة العربية ، ج ١٤، ص ٨٣ - ٨٥ .

الصابي في حيرة من امره بين البقاء او الذهاب وهو يتصور النكبة نصب عينيه . لكن عضد الدولة ، العصمة والملجأ، حل له هذه القضية بان ذكره في الاتفاق واليمين التي كتبت بينه وبين عز الدولة وعمدة الدولة اخيه ، فشرط عليهما حراسته في نفسه وماله (١) .

لكن ذلك لم يكن ليطمئن الصابي لعز الدولة ووزيره ابن بقية (٢)، فما ان مضى عضد الدولة الى فارس حتى استتر ابو اسحاق واستمر على ذلك مدة (٣)، وكتب ابو اسحاق مصورا نفسه في الاستتار من قصيدة : (٤) .

---

(١) ذيل التجارب ، ص ٢١ ومعجم الادباء ، ج ٢ ص ٣٦ الخبر في ذيل التجارب : "بينه وبين عز الدولة وعمدتها اخيه واليمين التي حلفا بها " وفي معجم الادباء " بينه وبين عز الدولة وعهد به اليه ، واليمين التي حلفا بها وشرط عليهما ". وواضح ان "عهد به اليه" تحريف لعمدتها اخيه لان سياق الجملة " حلفا بها وشرط عليهما " يدل على ان المقصود اثنان لا واحد. وعمدة الدولة هو ابو اسحاق ابراهيم بن معز الدولة ، لقب سنة ٣٦٢ . (تجارب الامم ج ٢، ص ٣١٢).

(٢) ابو طاهر محمد بن محمد بن بقية، لقب نصير الدولة ، وزر لعز الدولة سنة ٣٦٢ . وكان قبل ذلك صاحب مطبخ معز الدولة. عمل على تأجيج الخلاف بين عز الدولة وعضد الدولة فسملت عيناه سنة ٣٦٦ ولما ملك عضد الدولة بغداد القي تحت ارجل الفيلة حتى قتل ثم صلب . انظر ترجمته في وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ١١٨ وفي صفحات متفرقة من تجارب الامم خاصة ج ٢ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ و ٣١٠ ـ ٣١٤ و ٣٥٤ ـ ٣٥٨ .

(٣) ذيل التجارب ، ص ٢١ ومعجم الادباء ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٤) اليتيمة ، ج ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ والبيتان الثاني والثالث في معاهد التنصيص ج ٢ ص ٧٤.

" ليس لي منجد على ما اقاسي | من كروبي سوى العليم السميع
دفتري موءنسي وفكري سميري | ويدي خادمي وحلمي ضجيعي
ولساني سيفي وبطشي قريضي | ودواتي غيثي ودرجي ربيعي
اتعاطى شجاعة ادعيها | في القوافي لقلبي المصدوع
بمقال اعز من ليث غاب | وفعال اذل من يربوع
كلما هر في جواري هر | كاد يفضي الى فوءادي المروع
واذا اجتاز في السطوح فمن قبـ | ـل قبوع الجرذان منه قبوعي "

وهكذا استمر الصابي في استتاره هذا حتى توسط ابو محمد بن معروف القاضي بامره ، واستأمن له من عز الدولة بختيار ووزيره ابن بقية واخذ عليهما العهد بعدم التعرض له (١)، وقد كتب له الامان ابن بقية بيده (٢) فظهر الصابي وترك مدة قصيرة ثم قبض عليه بسعاية ابن السراج به (٣) . ويبدو ان ابن بقية وعد ابا اسحاق بالافراج عنه ثم اخر ذلك ، (٤) فكتب ابو اسحاق ابياتا شعرية وانفذها اليه وهو في حضرة الامير عز الدولة .

---

(١) ذيل التجارب ، ص ٢١ ومعجم الادباء ، ج ٢، ص ٣٦ .

(٢) معجم الادباء ، ج ٢، ص ٦٦ . ينقل عن الهلال بن المحسن .

(٣) ذيل التجارب ، ص ٢١ ، وابن السراج هو ابو نصر ابراهيم بن يوسف " وهو من الاشرار المعروفين بالسعاية ، قد جمع المكسب الخبيث مالا عظيما واعقد ضياعا جليلة " تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٤) نشوار المحاضرة ، ج ٣ ، ص ٢١٢ ، والتنوخي يروي الخبر نقلا عن ابي اسحاق . وقد علل =

قال فيهـــا : (١)

"الا يانصير الدين والدولة الذى (٢) رددت اليها العز اذ فات رده

ايعجزك استخلاص عبدك بعد ما تخلصت مولاك الذى انت عبده ؟" (٣)

هذه النكبة كانت قاسية على الصابي حيث جرى له فيها " خطوب اشفى فيها على ذهـــاب النفس" (٤) .

لكن امر ابن السراج قد فسد مع ابن بقية،وكان في ذلك الفرج لابي اسحاق فقبض على ابن السراج " ونقل القيد من رجل ابي اسحاق الى رجله ". (٥) وحكاية ذلك ان ابـــن بقية مرض مرضا شديدا حتى فقد الامل من شفائه،فكان ابن الســـراج يوغر صدر بختيار عليـــه

**) هلال بن المحسن اهمال ابن بقية للصابي " لحق كان قد أوجبـــه عليه ايام كون عضد الدولة ببغداد ". معجم الادباء ، ج ٢ ص ٦٦ .

(١) الابيات في نشوار المحاضرة ، ج ٣ ص ٢١٢ ومعجم الادباء ، ج ٢، ص ٦٦ .

(٢) في نشوار المحاضرة : ايا ناصرا للدين والدولة التي ".

(٣) في هذا البيت اشارة الى استخلاص ابن بقية لبختيار حين اعتقله عضد الدولة سنة ٣٦٤.

(٤) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٥) ذيل التجارب، ص ٢١ - ٢٢ ومعجم الادباء، ج ٢ ، ص ٣٦ .

ويزيــن له القبض على عماله ومصادرتهم .فلما تماسك ابن بقية بعد عدة ايام من مرضه علم مافعل ابن السراج فقبض عليه وعرض لاصناف العذاب حتى مات ،وكان ذلك سنة ٣٦٤(١) .

عاد الصابي بعد هذه الازمة الى خدمة عز الدولة ، (٢) بعد ان استحلفه ابن بقية لدى الافراج عنه بان يعرفه مايرد عليه من كتب عضدالدولة ويسلم اليه من يجيئه من رسلــه (٣) . وهكذا استمرت حياة الصابي تسير بشكلها العادى حتى سنة ٣٦٧وهي السنة التي احتل فيها عضد الدولة بغداد ، والتي تشكل منعطفا خطيرا في حياة الصابي ، انها سنة المحنة وبداية الطريق نحو النهايــة .

---

(١) تجارب الامــــم ،ج ٢ ،ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٢) ذيل التجـارب،ص ٢١ - ٢٢ ومعجم الادباء ج ٢ ،ص ٣٦ .

(٣) معجم الادبــاء،ج ١٧ ،ص ٨٤ .

محنتـــه ونهايـــة أمـــــــره

كان الصابي وثيق الارتباط بعجلة السياسة لكونه كاتبا للديوان ،كما ذكرنا من قبل وها هي الموازين تنقلب الان،ففي سنة ٣٦٥ مرض ركن الدولة (١)، فخاف ابنه عضدالدولـــة ، بعد الوحشة بينه وبين ابيه الذى لم يرض عن استيلائه على بغداد سنة ٣٦٤ وانتزاعها من ابن عمه عز الدولة،انه ان مات والده توزع ملكه وضاع،فوسط لديه ابا الفتح ابن العميـــــد (٢) في ان يزيل الوحشة بين الاثنين وان يجعله ولي عهده نظرا لانه اكبر اولاده واقدرهـــــم وانجبهم ، فاقتنع ركن الدولة بذلك ،وقر رأيــه عليه . فمضى ركن الدولة الى اصفهـــان واستدعى ابناءه الثلاثة : فخر الدولة (عليا) ومؤيد الدولة (بويه) وعضد الدولـــة (فناخســـرو) ، وجرى احتفال حضره الامراء والقواد والحاشية واعلن ركـن الدولـــة

---

(١) ابو علي الحسن بن بويه الديلمي الملقب ركن الدولة ، صاحب اصفهان والرى وهمذان كان ملكا جليل القدر ،عالي الهمة استوزر ابا الفضل بن العميد ولما توفي استوزر ابنه اباالفتح توفي سنة ٣٦٦ هـ ترجمته في صفحات متفرقة من تجارب الامم ووفيات الاعيـــان ج ٢ ،ص ١١٨ .

(٢) علي بن محمد بن الحسين،ابو الفتح بن العميد،ملقب بذى الكفايتين،وزر لركن الدولة ثم لابنه مؤيـد الدولة . كان اديبا فاضلا بليغا . قبض عليه سنة ٣٦٦ فسمل وعـــذب ثم قتل . انظر ترجمته في صفحات متفرقة من تجارب الامم واليتيمة ج ٣ ،ص ١٨١ ومعجم الادباء ،ج ١٤ ،ص ١٩١ .

فيه عضد الدولة وليا لعهده وخليفته على ممالكه واخوته خلفاء في الاعمال التي رتبهم فيها . وقد اعترف له الاخوان بذلك . لكن عز الدولة بختيار عمد اولا الى اصلاح امره مع عضد الدولة بوساطة عمه ركن الدولة،ثم عمل سرا على تجميع القوى لمكاشفة عضد الدولة العداء والاستقلال عنه يساعده في ذلك وزيره ابن بقية. ولما اعلن بختيار الحرب على عضد الدولة ، انفض من حوله من كان وعده بالنصرة،فهزم،وخير بين الطاعة لعضد الدولة المقرونة بالسلامة او الحرب،فاختار السلامة وخلع عليه عضد الدولة وزوده بالنفقة ، لكنه عاد وانقلب عليه فحاربه مجددا في شوال سنة ٣٦٧ في موقعة قصر الجص ، فاسر بختيار فيها ثم قتل،ومضى عضد الدولة بعد المعركة الى الموصل لافتتاحها . (١) هذا الاستطراد في ذكر العلاقة بين عضد الدولة وعز الدولة ضروري لفهم المسرح او الارضية التي يتحرك عليها ابو اسحاق،والتي تتميز بتعقيد لم يستطع تجاوزه ، مما ادى الى سقوطه .

اذا،بعد حرب مع بختيار ورد عضد الدولة بغداد.صحيح ان ابا اسحاق كاتب بختيار كان على علاقة جيدة سابقا مع عضد الدولة،وانه كان مكرما لديه،الا ان الخوف دب في قلبه من امكان نكبة عضد الدولة له . فلما حصل عضد الدولة بواسط خرج الصابي الى ابي سعد بهرام بن اردشير كاتب عضد الدولة فسأله اجراء ذكره عنده وطلب امان له ، تسكن اليه نفسه وكتب على يده كتابا الى عضد الدولة (٢) ، جاء في جوابه :

---

(١) انظر تفصيل ذلك في تجارب الامم،ج ٢ ، ص ٣٦١ - ٣٨٢ .

(٢) ذيل التجارب ، ص ٢٢ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

" . . . ومن كانت به حاجة الى اقامة معذرة ، واستقالة من عثرة او الاستظهار في مثل هذه الاحوال بوثيقة فانت مستغن عن ذلك ، بسابقتك في الخدمة ، ومنزلتك من الثقة ، وموقعك لدينا من الخصوص والزلفة وذكر ابو سعد - اعزه الله التماسك امانا ، فقد بذلناه لك على غناك عنه ، وانت آمن على نفسك ، ودمك وشعرك وبشرك ، واهلك ، وولدك وسائر ما تحويه يدك ، حال في كل حال بكنف الاثرة والخصوص ، والاحسان والقبول عندنا ، محروس في جاهك وموقفك ، وحالك فاسكن الى ذلك واعتمده ، ولك علينا الوفاء به عهد الله وميثاقه " . (١)

هكذا ارتاحت نفس ابي اسحاق قليلا وقد هيأ له هذا الامان ان يخرج بنفسه لاستقبال عضد الدولة وخدمته . (٢) واصبح ابو اسحاق الان خائفا على داره الشاطئة (٣) ان يدخلها الترك لانه من حواشي بختيار فطلب من عضد الدولة ان يرسل من يحرسها فانفذ معه نقيبا ، يتحدث ابو اسحاق عن ذلك قائلا : "وتقدمت عائدا ، والنقيب معي ، فكان يمضي اكثر النهار في اشغاله ، فاتفق ان هجم على الدار احد القواد الاكابر وطرح اصحابه احمالهم وفرشوا فرشهم

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

(٢) ذيل التجارب ، ص ٥٣ .

(٣) يقول هلال بن المحسن في تاريخ الوزراء (بيروت مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٤) ص ٢٨٨ : " وكان ابو اسحاق ابراهيم بن هلال جدي ابتاع دار عبيدالله بن القاسم من ابي الحسن ابن عمرو الشرابي حاجب الخلافة بخمسة الاف دينار ، وكانت مسناتها طاعنة في دجلة لا يفارقها الماء في سائر اوقات السنة " .

وربطوا دوابهم وتقدموا الينا بالانتقال ، فأيسنا من دورنا، ومضى غلماني يطلبون النقيب فلما حضر سلم على القائد وقبل يده ووقف بين يديه واخذ يحادثه ثم قال له الديلمي : فيم جئت ؟ قال : انفذني الملك لاحفظ هذه الدور ممن يتعرض لها فقال له : هذا كاتب من اصحاب بختيار فأي شيء بينه وبين الملك ؟ قال : كان يخدمه وله موضع عنده . قال ابو اسحاق : فوالله ما استتم النقيب كلامه حتى نهض القائد الديلمي ورمى بكرسي كان جالسا عليه ، وقال لغلمانه : ارفعوا . وركب في الحال وخرجوا بعده ....". (١)

وظلت مكانة الصابي محفوظة وحظه من العيش موفورا ، فيروى عنه حكايته لمجلس انس حضره مع عضد الدولة بعد وقعة قصر الجص ومقتل عز الدولة ، ووصفه لما غني فيه ولطرب عضد الدولة للغناء . (٢) ثم ان عضد الدولة وبعد مضيه الى الموصل لمحاربة صاحبها عدة الدولة ابي تغلب بن حمدان ، (٣) حليف بختيار في حربه ضد عضد الدولة كتب الى ابي اسحاق مخبرا بانتصاره في المعركة . نستدل على ذلك من وجود جوابين كتبهما ابو اسحاق

---

(١) ذيل التجارب ، ص ٥٣ .

(٢) الهفوات النادرة ، ص ١٤ - ١٥ .

(٣) هو الغضنفر بن ناصر الدولة ، صاحب الموصل ، اراد احتلال بغداد لما رأى ضعف بختيار فخالفه ابوه في ذلك وانتثر نظام عائلتهم ، لما حاربه عضد الدولة سنة ٣٦٧ هـ هرب الى الشام ثم قتل في السنة نفسها . ترجمته في صفحات متفرقة من تجارب الامم ووفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

الى عضد الدولة (١) مهنئا بالظفر، طالبا العفو لنفسه . بعض المقاطع من هاتين الرسالتين تفيدنا في فهم الموقف الذى اتخذه ابو اسحاق ظانا ان فيه نجاة له، وذلك حين يهاجم اعداء عضد الدولة الذين كانوا اولياءه سابقا :

" ووصل كتاب مولانا الملك السيد ولي النعم عضد الدولة وتاج الملة، ادام الله علو امره، وعز نصره، في معسكره بظاهر الموصل . مبشرا بالفتح الذى املأت له آفاق السماء نورا، وارجاء الارض سرورا ، فتلقيته ساعيا على قدمي، وقبلته بكلتا يدى ، وسجدت شكرا لله على مستودعه ، ولمولانا ، كبت الله اعداءه على تأهيلي للمطالعة به ، وتصرفت في تأمل معناه الجزل، ومنطقه الفصل ، تصرف المعجب به لا المتعجب منه ، واقول في ذلك ما قاله ارسطوطاليس للاسكندر في مفتتح بعض رسائله اليه : اما التعجب من مناقبك فقد اسقطه تواترها فصارت كالشيء المألوف قد انس به ، لا كالغريب يتعجب منه، فاما ما شرحه مولانا الملك السيد، ادام الله علاءه وتمم نعماءه، من تقسيم اعدائه بين قتيل صار الى النار، وهزيم تقنع بالعار ، فأيديهم اوكت ، وافواههم نفخت ، ولولا الشقاء المكتوب عليهم ، والخزى المصبوب بهم، لا تعظوا بغيرهم ممن مضى قبلهم، وسلموا الامر لمستحقه دونهم ، وعرفوا حق المعرفة انفسهم ، ووقفوا بها عند حدهم وقدرهم ، فقد قيل انه لا ضيعة على من عرف قدره ، وكذلك لا نجاة لمن عدا طوره ، ولكن الحين

---

(١) الجوابان في رسائل الصابي ، ص ١٠٠ - ١٠٩ و ١١٠ - ١١٣ .

يصم ويعمي ، ويوبق ويردى ...

" واما خضوع الخاضع له ونزوعه من الامر الذى اورده ، وما يصدره ويبذله في افتداء هشاشة النفس ، وشميلة الحال ، فبالتذلل لمولانا يعز العزيز ، وبالتعزز عليه يذل الذليل ، وان صحت منه البصيرة ، وخلصت السريرة فستكسوه المراجعة شعارا من الطاعة ، تتلافاه من السقطة ، وتنقذه من الورطة ، ومولانا الملك السيد ، ادام الله دولته وبسط قدرته ، اعلم بالمخايل ، واهدى الى الدخائل ، وليس بمدلول على قبول الانابة من النادم المقر ، ولا على اباتها من المداهن المصر ، وله ، ايده الله ، عادة جارية بالعفو عن الهفوة الاولى ، التي لم تسبقها قرينة ولا تقدمتها نظيرة ، فان عفا فعلى سنته الماضية ، وبعد قدرته القاهرة ، وبالرأى الموضوع موضعه ، والاختيار الذى لا اضطهاد معه ، وان سطا فبالله ما تحل سطوته الايمن لا مطمع في انتياشه ، ولا سبيل الى إنتعاشه ، ولن يعدمه الله صواب العزم وصريمة الحزم ، اى المذهبين ذهب ، واى الغرضين طلب ، ... " ثم يختتم الصابي رسالته بالطلب من عضد الدولة ان يأمر بتضمين ما اكاتب به من ابتداء وجواب ، طرفا من الاستخدام ، لائقا بما غمرني من الانعام ، في صغير يوازى قدرى او كبير يجذب اليه بضبعي ... "(١)

ثم نرى ان الصابي قد غير من نبرته في الرسالة الثانية وكأن شيئا ما حدث زاد في اطمئنانه كأن يكون عضد الدولة مثلا قد بعث اليه جوابا على رسالته ، يشير باستخدامه ، فنلاحظ انه في الرسالة الثانية يتكلم معتبرا نفسه ضمن الدولة ، فيقول متحدثا عن اعداء عضد الدولة

---

(١) الرسالة كاملة في رسائل الصابي ص ١٠٠ - ١٠٩ .

اى بختيار وابي تغلب الحمداني .

" فلم يرض الله فيهم ما رضيناه، ولم يمض لهم ماارد ناه ، للسابق من جرائمهم ، والسالف من جرائرهم ، والمستسر لنا في قضائه جل وعز ، من تخويلنا نعمهم واموالهم وتمليكنا ديارهم واعصارهم " (١) . ولاشك اننا لاحظنا ضمير المتكلم " نا " وما يمكن ان يعنيه في هذا المجال . ثم يخاطب ابو اسحاق عضد الدولة شعرا : وعبد مولانا الملك السيد الاجل المنصور عضد الدولة وتاج الملة اطال الله بقاءه . يقول مرتجلا ومذكرا :

قل للهمام المستطيل	بقدره السامي الجليل
يذكر ابياتي التي	انشدته قبل الرحيل
فقد ضمنت له الذى	قد نال من راع كفيل
لولا اتقاء البغي قد	بشرته يردى القتيل
وكذاك يمضي من نجا	من سيفه عما قليل
مازال ذلك بينا	للعين متضح الدليل
فالحمد لله الذى	نقع الصدور من الغليل " (٢)

وينهي الصابي رسالته بما يدل على انه رسم له ممارسة عمله كاتبا في الديوان لعضد الدولة او لمن ينوب عنه ويخلفه اثناء غيابه :

---

(١) الرسالة في رسائل الصابي ، ص ١١٠ - ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٢ . القصيدة مجزوء الرجز وصدر البيت الثالث من الكامل .

" وانا اطال الله بقاء مولانا الملك السيد ولي النعم ،عضد الدولة وتاج الملة ، ملازم للخدمة في الدار المعمورة، ومواظب على مجلس الاستاذ ،(١) ادام الله عزه ،تصرفا من الامر العالي على ما سبق ، وانتظارا منه لما يرد ، ومن الله استمد التوفيق لما زادني عند مولانا حظوة وزلفى ، وكسبني لديه اثرة وقربى ، وهو حسبي ونعم الوكيل " . (٢)

لكن الحظ عاد وانقلب على الصابي ، فبعد ان استأمن المسكين ، وهنئت نفسه او كادت ، عاد الى المحنة من جديد . اذ ان عضد الدولة بعث من الموصل امرا الى وزيره ابي القاسم المطهر بن عبد الله (٣) بالقبض على ابي اسحاق .(٤) ويروى في ذلك انه فيما كان ابو اسحاق جالسا بحضرة وزير عضد الدولة ابي القاسم المطهر ، ورد البريد من الموصل وفض

---

(١) المقصود بالاستاذ وزير عضد الدولة ، وكان في ذلك الوقت المطهر بن عبد الله وتبين لنا رواية القبض على الصابي المذكورة اعلاه صحة ذلك ، اذ ان الصابي كان حاضرا في مجلس المطهر حين ورد الامر من عضد الدولة بالقبض عليه .

(٢) رسائل الصابي ، ص ١١٣ .

(٣) هو وزير عضد الدولة عرف بشراسة الاخلاق وخشونتها ، وحدث ان مضى لمقاتلة الحسن ابن عمران بن شاهين سنة ٣٦٩ ولما احس بامكان اخفاقه في الحملة قطع شرايين يديه جميعا حتى مات من النزف، وذلك خوفا من انخفاض منزلته ، انظر اخباره في تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ - ٤١٢ وصفحات متفرقة اخرى ، والحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٧٩ .

(٤) ذيل التجارب ، ص ٢٢ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣٩ ، ينقل ياقوت الرواية عن هلال ابن المحسن الذى ينقلها عن جده ابي اسحاق .

بين يديه ، فابتدأ بقراءة كتاب عضدالدولة حتى اذا بلغ مبلغا منه بان عليه الوجوم فقام الصابي من مجلسه يريد الانصراف ، فتبعه بعض اصحاب الوزير وعدل به الى غرفة في الدار وارسل يقول له : " لعلك قد عرفت مني الانزعاج عند الوقوف على الكتاب الوارد من الحضرة اليوم ، وكان ذلك لما تضمن من القبض عليك ، واخذ مائة الف درهم منك وينبغي ان تكتب خطك بهذا المال ، ولا تراجع فيه ، فوالله لاتركت ممكنا في معونتك وتخليصك الابذلته، وقد جعلت اعتقالك في داري ، ومقامك في ضيافتي ، فطب نفسا بقولي ، وثق بما يتبعه من فعلي " (١) .

هذا كل مايستطيع هذا الوزير ان يخدم الصابي به ، اعتقال جميل في منزله شبيه بالاستضافة ، يخلصه به من عذاب المستخرجين ، ومن ايقاع المكروه به .

وكأن القبض على ابي اسحاق لم يكن كافيا حتى قبض على ولديه ابي سعيد سنان ، وابي علي المحسن . (٢)

حكاية نكبة الصابي سنة ٣٦٤ على يد عزالدولة بختيار ، او سنة ٣٦٧ على يد عضد الدولة مرتبطة بعلاقة ابي اسحاق بكل من هذين الرجلين وعلاقتهما احدهما بالآخر. فالصابي كاتب يمارس مهنة محددة ، ولسوء حظه ان مهنته هذه مرتبطة بالسياسة اشد ارتباط ، الكاتب يؤمر بالكتابة فيكتب مايعجب السياسي الذى يأمره ، فهو ان كتب لعزالدولة كان لابد وان

---

(١) معجم الادباء ج ٢ ، ص ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٠ — ٤١ .

يكتب كما يعجبه وكذلك الامران كتب لعضدالدولة مثلا اولغيرهما.صحيح ان لشخصية السياسي دورها الكبير في عمل الكاتب بحيث تؤثر بشكل او باخر في مايكتبه ،وهذا ما سنلاحظه في رسائل الصابي ،الذى لم يستطع رسم صورة جيدة لعزالدولة ، بل كان احيانا يحصل على عكس مايريد ، فيما تبدو صورة عضد الدولة كأحسن مايكون عليه الملوك او القواد . هذا في الرسائل الديوانية ،اما في الرسائل الخاصةاوالشعر ،فليس في مالدينا من ذلك اى بيت شعرى او رسالة كتبت في عزالدولة مدحا او تهنئة ، فيما نجد انه كتب الكثير فيعضد الدولة ، ربما هذا دليل يظهر لنا ميل الصابي الى الصدق في ادبه،ونستدل من ذلك ان عضدالدولة كان يعني شيئا كثيرا للصابي مما لم يكن يعنيه غيره كعزالدولة مثلا . فالصابي كان يحذر عزالدولة ووزيره فنراه يستتر حتى بعد كتابتهما امانا له ، بينما لم يحذر من العضدولم يستتر ،وهذا دليل ثقته بعضد الدولة وثقته بمكانته عنده هذه المكانة التي تبدو جلية في نسخة الامان التي كتبها له عضدالدولة ، وفي حراسة منزله من الجند .

اذا بالمقارنة بين علاقة الصابي بكل من عزالدولة وعضدها نجد علاقته بعضد الدولة اوثق ،وقد كان اخلاصه له سببا في نكبته الاولى . وحفظ له عضد الدولة سابقة الخدمة والاصطناع ،وكتب له امانا وحرس داره، لكنه ،وفجأة ،عمد الى اعتقاله . وهكذا نلاحظ ان عملية اعتقال الصابي في الاولى والثانية ،لاتعود اليه مباشرة بقدر ماتعود لارتباطه بالعلاقة بين الاثنين ،فالصابي كتب في اثناء الخلاف بين عزالدولة وعضدها جميع الرسائل التي كانت تطلب منه ،وهذا طبيعي فهو في عمله هذا يؤدى واجبه كما كان

يمكن ان يفعل اى كاتب آخر. اين المشكله اذا ؟

تذكر المصادر ان ابا اسحاق كتب في هذه الرسائل ما اثار حفيظة عضدالدولة وجعله ينقم عليه ويعزو معظمها (١) سبب غضبته الى رسالة كتبها سنة ٣٦٦ عن الطائع لله الى اصحاب الاطراف بتكرمة بختيار، (٢) وخاصة ما جاء فيها من قوله : "وقد جدد لـــــه امير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق ، والمعالي السوامق ،التي تلزم كل دان وقاص وعام وخاص ، ان يعرف له حق ما كرم به منها ويتزحزح عن رتبة المماثلة فيها " . (٣) وتقول المصادر ان عضدالدولة انكر هذا الكلام اشد الانكار واعتبره تعريضا به . (٤)

ويعيد هلال بن المحسن في رسوم دار الخلافة (٥) غضب عضد الدولة بسبـــب الرسالة ،الى تقديم عز الدولة وتعظيمه وانه قرر له الدعاء في صدرها " بأطـال الله بقاءك ، وأدام عزك وتأييدك ،وامتع امير المؤمنين بك وبالنعمة فيك ،وفي الفصول والذكر بأيده اللــــه" ويقول هلال انه لما ملك عضدالدولة العراق طلب من الطائع ان يزيده على ذلك ، فزاده

---

(١) اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٤٤ ورسوم دار الخلافة ،ص ١١٣ و ١٢١ ومعجم الادباء ج ٢ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) الرسالة في رسائل الصابي ،ص ٣١٥ - ٣٢٥ ورسوم دار الخلافة ،ص ١١٣ - ١٢١ .

(٣) النص منقول بحرفيته عن اليتيمة، ج ٢ ،ص ٢٤٤ ونجده مع اختلاف بسيط في الالفاظ في رسائل الصابي ،ص ٣٢٢ ومعجم الادباء ،ج ٢ ص ٣١ .

(٤) اليتيمة ،ج ٢ ص ٢٤٤ ومعجم الادباء ،ج ٢ ،ص ٣١ .

(٥) رسوم دار الخلافة ،ص ١١٣ و ١٢١ .

" وسعادتك ونعمتك ، وامتع امير المؤمنين بك ، وبالنعمة فيك وعندك ، وجعل الدعاء له في الفصول وعند الذكر بادام الله عزه ، وبدىء بذلك في الكتاب اليه بتلقيبه تاج الملة مضافا الى عضد الدولة " (١)

ويلفتنا بالطبع ان القبض على ابي اسحاق كان بعد مضي عضد الدولة الى الموصل وبعد ان امنه واستخدمه . وهذا يعني وجود رابط بين كون عضد الدولة بالموصل وبين القبض على الصابي . وتفسيرا لذلك ، يروى انه لما مضى عضد الدولة الى الموصل اخرج الى الديوان ما وجد في قلاع ابي تغلب من الكتب ، فكان فيها ما كتبه عز الدولة الى ابي تغلب بخط ابي اسحاق . (٢) وكان الناظر في الموصل (٣) ، يحمل عداوة للصابي فجمع الشيء الكثير مما فيه ذكر عضد الدولة وحمله اليه . (٤) ولا يستبعد ان يكون لهذا الناظر في الموصل المعادى للصابي دور في توغير صدر عضد الدولة على الصابي يتعدى احالة الرسائل اليه .

ونجد سببا آخر لانتقام عضد الدولة من ابي اسحاق ذكره القفطي (٥) ويتعلق

---

(١) رسوم دار الخلافة ، ص ١١٢ و ١٢١ . والرسالة المشار اليها هي في رسائل الصابي ، ص ٢٧٩ ، و يلاحظ عدم وجود جميع الادعية المذكورة في المتن في الرسالتين في رسائل الصابي مع وجود نسبة اكبر منها في رسالة تكرمة بختيار في رسوم دار الخلافة ، ص ١١٣ .

(٢) ذيل التجارب ، ص ٢٢ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٣) ذكر باسم ابي عمرو ولم نتوصل الى معرفة اسمه كاملا وبالتالي ترجمته .

(٤) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٥) تاريخ الحكماء ، ص ٧٦ .

بنسخة الصلح الذى عقد بين عضد الدولة وعز الدولة وذلك ان عز الدولة تقدم الى الصابي بانشاء نسخة يمين، فأنشأها واحكمها فلم يجد عضد الدولة له مجالا في نكثها والتزم الحلف بها، وهكذا لما اخذ العراق سجن ابا اسحاق لهذا السبب . وقد مر بنا ان صلحا عقد بين الاميرين العضد والعز سنة ٣٦٤، وان عضد الدولة اشترط فيه امان الصابي وعدم ايذائه، فهل يمكن ان يقوم الصابي بما يؤذى عضد الدولة في الوقت الذى يعمل الآخر على حمايته ورعايته ؟ وان كان هذا صحيحا ، ألم يكن بامكان عضد الدولة القبض على الصابي حال دخوله العراق ؟ فلم يؤمنه ويحرسه ثم يغدر به ؟ وربما ماقصده القفطي غير الصلح الذى كتب سنة ٣٦٤ اوانه يعني رسالة اخرى .

فالمصادر اتفقت على ان سبب القبض على الصابي هو المكاتبات الفجة التي كان يرسلها عز الدولة بانشائه الى عضد الدولة او عنه ، (١) وهكذا سجن الصابي سنة ٣٦٧ هـ ودفع الى " النكبة العظمى والطامة الكبرى " .

ويبدو ان الصابي لم يترك وحيدا في محنته ، فقد تدخل البعض للشفاعة به والتعريف بفضله فقيل لعضد الدولة : " مثل مولانا لا ينقم على مثله ماكان منه، فانه كان في خدمة قوم لا يمكنه الا المبالغة في نصحهم . ولو أمره مولانا بمثل ذلك اذا استخدمه في ابيه ،

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢١ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٥٢ والوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٥٨ وابو الفداء عماد الدين اسماعيل ، المختصر في اخبار البشر (القاهرة ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٥) ج ٢ ، ص ١٢٩ وشذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٠٦ .

ما امكنه المخالفة . فقال عضد الدولة : قد سوغته نفسه فان عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا اطلقته " . (١)

ومثلما وجد من يشفع للصابي وجد ايضا من يشمت به ويعيره ، وفي ذلك قال : (٢)

" يعيرني بالحبس من لو يحله ... حلولي لطالت واشمخرت مراكبه

ورب طليق اطلق الذل رقه ... ومعتقل عان وقد عز جانبه

ومن مد نحو النجم كيما يناله ... يدا كيدى لاقته ايد تجاذبه

ولابد للساعي الى نيل غاية ... من المجد من ساع تدب عقاربه

واني وان اودت بمالي نكبة ... نظيرى فيها كل قرم اناسبه

فما كنت كالقسطار يثرى بكيسه ... ويطلق ان انحى على الكيس سالبه

ولكن كليث الغاب ان رام ثروة ... حوتها له انيابه ومخالبه

يبيت خميصا طاويا ثم يغتدى ... مباحا له من كل طعم اطايبه

كذلك مثلي نفسه رأس ماله ... بها يدرك الربح الذى هو طالبه

ولي بين اقلامي ولبي ومنطقي ... غنى قلما يشكو الخصاصة صاحبه"

يمكن تقسيم الفترة التي قضاها ابو اسحاق الصابي في السجن الى قسمين :

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

الاول يبدأ من تاريخ القبض عليه سنة ٣٦٧ وينتهي سنة ٣٦٩ ، حين اطلق ولداه وامر بكتابة تاريخ للدولة البويهية ، والقسم الثاني ، يمتد من سنة ٣٦٩ وحتى اطلاقه سنة ٣٧١ وقد اعتمد في ذلك رواية تقول : انه لما اراد عضد الدولة من وزيره ابي القاسم المطهر ان ينحدر لقتال الحسن بن عمران بن شاهين (١)، طلب الوزير منه اطلاق ابي اسحاق واستخلافه بحضرته ، فقال له : "اما العفو عنه فقد شفعناك فيه وعفونا له عن ذنب لم نعف عما دونه لاهلنا (يعني الديلم)، ولا لاولاد نبينا صلى الله عليه (يعني ابا الحسن محمد ابن عمر وابا احمد الموسوى) (٢). ولكنا وهبنا اساءته لخدمته وعلينا المحافظة فيه على الحفيظة منه ، واما استخلافك له بحضرتنا فكيف يجوز ان ننقله من السخط عليه والنكبة له الى النظر في الوزارة ؟ ولنا في امره تدبير وبالعاجل فاحمل اليه من عندك ثيابا ونفقة واطلق ولديه وتقدم اليه بعمل كتاب في مفاخرنا " (٣) وهكذا جرى فقد حمل المطهر ثيابا ونفقة

---

(١) عندما توفي عمران بن شاهين صاحب البطيحة سنة ٣٦٩ ، خلفه ابنه الحسن بن عمران . تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ .

(٢) قبض عضد الدولة على الشريفين محمد بن عمر العلوى وابي احمد الحسين الموسوى سنة ٣٦٩ هـ ، ولكن نظن ان محمد بن عمر ليس مقصودا هنا لانه لم يكن قد قبض عليه قبل انحدار المطهر الى البطيحة بل بعد ذلك لان محمد بن عمر انحدر مع المطهر وقبض عليه بعد موت المطهر . تجارب الامم ، ج ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٢ .

(٣) الرواية في ذيل التجارب ، ص ٢٢ - ٢٣ ومعجم الادباء ، ج ٢ ص ٤١ - ٤٢ والنص الحرفي عن الذيل .

واطلق سراح ولديه وبلغه بوجوب تأليف كتاب في الدولة الديلمية ، ومضى المطهر الى البطيحة (١) يوم السبت للنصف من صفر سنة ٣٦٩ . (٢)

ويبدو ان اطلاق ولدى الصابي لم يتم دفعة واحدة ، فقد امر عضد الدولة ابا القاسم المطهر وزيره بالافراج عن ابن ابي اسحاق صاحب الشامة . اى المحسن لقديم خدمة له ففعل مما اثار تذمر اخيه سنان ، وشكواه ، ودمدمته على والده الذى قال له : "اى امرلنا يابني في نفوسنا ؟ ام اى ذنب لي فيما لطف به لاخيك وحرمته ؟" (٣) وارتأى ابو اسحاق حينذاك التناوب في السجن بين الاثنين وعرض الامر على المحسن فامتنع واصر عليه حتى استحيا واجاب ، (٤) فكتب ابو اسحاق الى المطهر قائلا :

" ابناى عيناى كف " الحبس لحظهما ... وعزّ حسهما عن منظر النور

اطلقت لي منهما عينا وقد بقيت ... عين قصرت عن الابنين كالعور

فسوّ بينهما في فك اسرهما ... مستوفرا منهما من اجر مأجور

يفديك بالانفس التي مننت بها ... ابوهما وهما من كل محذور " (٥)

---

(١) ذيل التجارب ، ص ٢٢ - ٢٣ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٣) معجم الادباء ، ج ١٧ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(٥) المصدر نفسه .

" فقال المطهر : آلامر الى الملك ، والذى رسم لي اطلاق ولدك صاحب الشامة . ولو كنت مستطيعا للجمع بينهما لفعلت ، بل لم اقنع حتى تكون انت المطلق ، فعاوده وشكره وقال : اذا كان قد اخذ في تخلية واحد فيجوز ان يتناوبا في الخروج وفسح المطهر في ذلك" ، (١) ويروى عن ابي علي المحسن ان الخدمة التي رعاها له عضدالدولة وتسببت في اطلاقه هي انه ساعد رسول عضد الدولة الذى سلمه والده ابو اسحاق الى ابن بقية بعد ان شرط عليه ان يسلمه رسل عضد الدولة وكتبه. ويلفتنا من الرواية ما جاء فيها من ان المحسن جهد بوالده الا يفعل " فخاف واشفق ولم يقبل" وحمله الى ابن بقية " الذى ضربه واعتقله" . (٢) ويظن المحسن ان الرسول اخبر عضد الدولة بهذه الحادثة فحفظها له . (٣)

ورأينا اثبات هذه الحادثة لاهميتها في ناحيتين : اولا ، مثلما يمكن ان يكون قد بلغ عضد الدولة معاونة المحسن للرسول يمكن ايضا ان يكون قد بلغه تسليم ابي اسحاق له وربما هذه ليست الحادثة الوحيدة من هذا النوع وهذا ما يمكن ان يضاف الى بواعث القبض على الصابي لدى عضد الدولة والتي ربما كانت مترسبة في اعماقه قبل استشارته بالرسائل . ثانيا : توضح الحادثة

---

(١) معجم الادباء ، ج ١٧ ، ص ٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ - ٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

صفة مهمة لدى ابي اسحاق وهي ايثاره السلامة والبعد عن المخاطرة لذا " خاف ، واشفق ولم يقبل " بعدم تسليم الرسول كما جاء في الرواية . (١)

خلاصة ماذكر هنا انه قبل اطلاق ولدى الصابي سنة ٣٦٩ ، مرت فترة تناوب الاثنان فيها الخروج من السجن .

تتميز الفترة التي قضاها ابواسحاق في السجن بالخصوبة الادبية اذ انه انصرف الى معالجة مايمسه شخصيا من امور فهو رسميا غير معني الا بانجاز كتاب في التاريخ ، لـــذا نجده يصرف اهتمامه الى نفسه ومعاناته .

في السجن بعيدا عن اهله واصدقائه يحاول الاعتذار الى عضد الدولة واسترضائــه ، وينتظر المساعدة والعون من رؤسائه . وهكذا يعيش حالة معاناة حقيقية حيث تتعاضــد عليه امور كثيرة كالسجن والغربة والفقر .

الموضوع الرئيسي الذى كتب فيه الصابي هو عضد الدولة . عضد الدولة ممدوح ابي اسحاق سابقا اصبح اليوم شيئا آخر في ذاكرته ، مع استمرار كونه ممدوحا . كان امل الصابي وملجأه واليوم اصبح سبب شقائه وبؤسه مع استمرار كونه الامل والملجأ . لقد خاب امل الصابي بــه في حين يعلم انه لاامل له في غيره . هكذا كان عضد الدولة محور نتاج ادبي كبير ، فيقــف الصابي احيانا بذل امام هذا الرجل القوى القاسي ، وتختلط في نفسه مشاعر كثيرة حولــه ثم حول الحياة بشكل عام بما فيها من معان وقيم ، فيميل الى الشكوى بعد ان ملّــا

---

(١) معجم الادباء ، ج ١٧ ، ص ٨٤ .

تهيئه له الحياة من نكبات متوالية ،فتراءى له الدهر وكأنه مغيظ من صبره يحاول الانة قناتـــه لكنه يثبت له منتظرا الفرج ، يقول : (١)

" كأن الدهر من صبرى مغيظ — فليس تغبني منه الخطوب
يحاول ان تلين له قناتي — ويأبى ذلك العود الصليب
تلوح نواجذى والكأس شربي — واشربها كأني مستطيـــب
ففوق السر لي جهر ضحـوك — وتحت الجهر لي سر كئيـب
ساثبت ان (٢) يصادفني زماني — بركنيه كما ثبت النجيـــب
وارقب ماتجيء به الليالـــــي — ففي اثنائه الفرج القريب " (٣)

ويعترى الصابي شعور بالغبن ، ويرى ان الدهر لم يعطه مايستحق ، وليس ذلك لقصور منه او لنقص فيه وانما انقلاب في المقاييس ، يقول : (٤)

" اذا جمعت بين امرأين صناعة — واحببت ان تدرى الذى هو احذق
فلا تتفقد (٥) منهما غير ماجـــرت — به (٦) لهما الارزاق حين تفـــرق

---

(١) اليتيمة، ج ٢ ، ص ٢٩١ — ٢٩٢ ، والابيات الاربعة الاخيرة في معاهد التنصيص، ج ٢، ص ٧٣ .
(٢) في معاهد التنصيص : " اذ " .
(٣) في المصدر نفسه : " فرج قريـب " .
(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ومعجم الادباء ، ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦ وبهجة المجالس ، ج ١ ص ١٩٤ .
(٥) في بهجة المجالس : " تتأمـل " .
(٦) في المصدر نفسه : " به جـرت " .

(٢)	(١)
وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق "	فحيث يكون النقص فالرزق واسع

كان الصابي قد جعل عضد الدولة قبلته يوسل اليه الشعر والرسائل، مذكـــرا اياه بحاله . وصار همه الآن ان ينجو من النكبة وان يكون مايعيشه محنة عابرة لاتلبـــث ان تزول ليعود بعدها الى سابق حياته ،فله من كتاب : " انا اعتصم بالله الذى يسلم من استرجع اليه تائبا ، ولا يخذل من استنصر به منيبا وبمولانا الملك المنصور عضد الدولة وتاج الملة ،اطال الله بقاءه ،الذى لا تبور عنده حرمة ولا يحقن في فنائه ذمة . ولا تكون بلية مثلـي من الخدم المخلصين ، والعبيد المطيعين ، في ايامه المشرقة الا اصلاحا لا اطراحـــــا ، وتهذيبا لا اجتياحا ، ومجازا الى نعم سابغة يوليها ، وعوارف صادقة يسديها " . (٣)

وكان يحاول استعمال اساليب مختلفة في ترقيق عضد الدولة ، فأهدى اليه يومـــا درهمين خسروانين وكتاب المسالك والممالك في دفترين (٤) . وكتب اليه :

لي في الخصاصة درهمين	" اهدى اليك بحسب حا
ن هما جميع الخافقيـــن	وبحسب قدرك دفتري
ت بيان ذاك بلحظ عين " (٥)	فاذا فتحتهما رأيــ

---

(١) في بهجة المجالس: " النوك " .

(٢) في المصدر نفسه : " الحذق " .

(٣) لقاح الخواطر ، الورقة ٩١ ب .

(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٥) المصدر نفسه .

وله اليه ايضـــا :

" تعذر ديناري علي ودرهمي — فلاطفت مولانا ببيتين من شعري

وكم بيت شعر زاد بالشكر قـدره — على بيت مال من لجين ومن تبـر" (١)

يلفت انتباهنا في الابيات المذكورة ذكره للخصاصة ورقة الحال ،في حين يضع في الجهـــة المقابلة العلم والادب ويفضلهما على المال وكأنه يشير الى ان لديه ما هو افضل من المـــال الذى يحاولون استخراجه منه فلم لا يستفيدون مما لديه من ثروة علمية وادبية ؟

ثم نرى الصابي بعد ثلاث سنوات من سجنه يستعطف عضدالدولة بقصيدة وجدانية واصفـا له حالة اهله في غيابه وما يعانون نتيجة فقده ،ويقال انه ما رقق عضدالدولة شيء كـهــــذه القصيـــــدة (٢) .

يبدأ الصابي قصيدته باجراء مقارنة بين عضدالدولة وابنائه واصفا اجتماع شملهـــم والنعمى بهم ،وبينه هووابنائه ،المتفرقين عنه على حال من الاسى والحزن ،ثم يطلـــب من عضد الدولة الرثاء لحاله والتصدق عليه بمثل ما اعطي من نعمة . ويلاحظ في هذا المقطع ذكره لابنة له وزوجة :

" اجل في البنين الزهر طرفك انهم — حووا كل مرأى للاحبة مؤنق

وتمت لك النعمى بقرب كبيرهـــــم — فاهلا به من طارق خير مطرق

---

(١) اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٨١ .

(٢) معجم الادباء ،ج ٢ ،ص ٤٤ .

موال لنا مثل النجوم مطيفة ... بمولى موال منك كالبدر مشـــرق

وقد ضمّهم شمل لديك مؤلف ... فارث لذى الشمل ا لشتيت المفرق

وان كنت يوما عنهم متصدقـا ... فمن مثل ما خولت فيهم تصـــدق

فلي مقلة تقذى اذا ما مددتها ... الى حلة ممن اعول ود ورق

اناث وذكران ابيت من اجلهم ... على كمد بين الحجا بين مقلـــق

رسائلهم تأتي بما يلدغ الحشا ... ويصدع قلب النازع المتشــــوق

فباكية ترثي اباها ولم يمت ... وباكئة من بعلها لم تطلـــــق

وزغب من الاطفال ابناء منزل ... شوارد عنه كالقطا المتمزق " (١)

في ذكر الاطفال هنا ربما اشارة الى احفاده . بعد هذا الوصف ينتقل الصابي الى ذكر العلاقة بينه وبين عضد الدولة فيمدحه ويعتذر اليه من ذنبه، ويذكره بسابق خدمته : (٢)

" شهدت لئن انكرت انك صنتني ... ولم ارع ما اوليتني من ترفق

لقد ضيّع المعروف عندى واصبحت ... ودائعه مودوعة عند احمق

وحبسك لي جاه عريض ورفعة ... وقيدك في ساقيّ تاج لمفرقي

خلا ان اعواما كملن ثلاثة ... تعرّقت البقيا اشد تعـــرق

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٥ – ٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٦ – ٤٧ .

وقد ظمئت عيني التي انت نورها   الى نظرة من وجهك المتألق (١)

فيا فرحتي ان القه قبل ميتتي   ويا حسرتي ان مت من قبل نلتقي (٢)

خدمتك مذ عشرون عاما موفقا   فهب لي يوما واحدا لم اوفق

فان يك ذنب ضاق عندى عذره   فعندك عفو واسع غير ضيق "

وكتب اليه سنة ٣٧١ قصيدتين احداهما حين توجهه الى زيارة مشهد الامام علي في الكوفة، والثانية عندما اوشكت جيوشه على احتلال جرجان (٣)، فمن بعض ما يقوله في الاولى : (٤).

" توجهت نحو المشهد العلم الفرد   على اليمن والتوفيق والطائر السعد

تزور امير المؤمنين فيا له   ويا لك من مجد منيخ على مجد

امولاى مولاك الذى انت ربه   اليك على جور النوائب نستعدى

وهذى يدى مدت اليك بقصة   اعيذك فيها من اباء ومن رد

فلا تبعدني عنك من اجل عثرة   فان جياد الخيل تعثر اذ تخدى

ولو كنت تنفي كل من جاء مخطئا   اذا لعممت الناس بالنفي والطرد

---

(١) هذا البيت والذى يتلوه ذكرا في الوافي والوفيات ج ٦، ص ١٦١.
(٢) في الوافي بالوفيات: " فيا فرحتا ان القه قبل ميتتي   ويا حسرتا ان مت من قبل نلتقي ".
(٣) تم احتلال جرجان سنة ٣٧١ هـ بواسطة مؤيد الدولة المزود بجيش قوى من عضد الدولة. ذيل التجارب، ص ١٥ - ١٧.
(٤) القصيدة كاملة في اليتيمة، ج ٢، ص ٢٩٥ - ٢٩٧.

تموالت سني اربع ومدامعي ... لها اربع كالسلك سلّ من العقد

فيا ايها المولى الذى اشتاق عبده ... اليه اما تشتاق يوما الى العبد ؟

فان كان لم يبلغ الى رتبة الرضا ... فبلغه فيما قبله رتبة الوعد

وامر امرك العالي بتغيير حاله ... وتخفيف ما يلقى من البوءس والجهد

فقد يجبر العظم الكسير وربما ... تزايد بعد الجبر شدة مشتد "

ومن الثانية قوله مهنئا بعيد المهرجان : (١)

" تصبح بعز واعتلاء جدود ... وابشر بخير واطراد سعود

وقل مرحبا بالمهرجان وحيه ... بطلعة بسام اغر مجيد

الى ان يقول :

" وقد نزلت منه اليك هدية ... بجرجان ما محصولها ببعيد

وما بيننا الا المسافة فانتظر ... ورود بشير فوق ظهر بريد

ولما رأيت الله يهدى وخلقه ... تجاسرت واستفرغت جهد جهيد

---

(١) القصيدة كاملة في اليتيمة ، ج ٢ ص٢٨٠ - ٢٨١ والابيات الاربعة الاخيرة في معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٨٣ . والمهرجان هو في السادس والعشرين من تشرين الاول من شهور السريان (كذا في صبح الاعشى وربما المقصود الشهور الميلادية) مدته ستة ايام، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الاكبر ، ويقال انه ذكرى لليوم الذى عقد فيه التاج على رأس اول ملوك الفرس الساسانية وللفرس تقاليد وعادات في هذا اليوم تتعلق بالملابس والطقوس الدينية . صبح الاعشى، ج ٢ص ٤١٠ - ٤١٢ ويصف متز هذا العيد في الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

فكان احتفالي في الهدية درهما | يطير من الانفاس يوم ركود
وجزءا لطيفا ذرعه ذرع محبسي | وتقييده بالشكل مثل قيودي
الا طف مولانا وكالماء طبعه | تسلسل من عذب النطاف برود

ونجد الكثير مما كتبه الصابي في عضد الدولة نثرا ، والارجح ان ذلك بعد اسره نظرا لتركيزه على فكرة العقوبة والعفو ، وجرائم الاولياء وتوبة المذنب ، . . . وقد جاءت هذه النبـذات على شكلين الشكل الاول وصف مباشر لعضد الدولة،سلوكه ،اخلاقه ،مجالسه ، حكوماته ،عطاياه . . وهو في كل ذلك يمدحه ويظهر محاسنه . ونورد من ذلك الامثلة التالية :

" . . . هو لطيف الحس ،صدوق الحدس ،ذكي الالحاظ ،مسدد الالفاظ عفيف الجوارح ،نظيف (الجوانح) (١)، قابض يده عن مفارقة الامام،مقيد لسانه عن هجـر الكلام ،ناظر الى العواقب من بعد ،متناول للغايات عن قرب ،غليظ على اهل العنـاد ، متعطف لاهل الوداد ،حليم اذا غضب،(رصين) (٢) اذا طرب ،متعاص على التعنـف منقاد مع التلطف ، له من مروءته عين على خلوته ، ومن دينه رقيب على نفسه " . (٣)

ومنها : " . . . بعقله المسلط المطلق ، وغضبه الاسير الموثق،وربما نازعته النفس الى وطر

(١) بياض في الاصل ،وقد وضعت الكلمة المناسبة للمعنى .
(٢) بياض في الاصل ، وقد استعملت كلمة مناسبة للمعنـى .
(٣) من قطعة من كلامه في وصف عضد الدولة في لقاح الخواطر ، الورقة ٩٨ أ .

يقضيه ، او غيظ يشفيه ، فيمتنع عليها حتى يكرر عليهما فكره ، ويشاور فيهما غيره . طلبــا لاغراض الصواب ، وتطبيقا لمفاصل السداد ، وذهابا الى الامر الاحزم ، والحديث الاجمل " (١) .

ومنها " واما (٢) ونقماته مختلفة باختلاف المجرمين والجرائم ، فاذا كانت في الاولياء والاداني ، فيقابلها العقاب والتوقيف ، فان اغنت ، والا فالاغلاظ في التعنيف ، فان كفيـا ، والا فالاعذار والانذار ، فان كفيا ، والا فالابعاد الى حد الاصلاح لا الى حد الاطراح ، فليس يفضي الى الغايات الا مترقيا في درجات ، هوفي جميعها مائل مع العفو وكاظم على جرة الغيظ ... " (٣) .

وفي وصفه ايضا : " واما عطاياه فعلى المراتب في الاقدار ، وبحسب الاعمال والآثار ، فليس فيها محاباة مقصر ولا بخس لمجتهد ، ولا يرى على بساطه ولا في اطرافه مبرز محروم ولا عاجز محظوط ، فالميزان عادل والجزاف زائل ، والواصل الى (حضرته) (٤) شاكر ، والمبعـد عنها عاذر ، وقد علم من وصل اليها انه متى فارق ما اوجبهـا فارقها " . (٥)

---

(١) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٨ ب .
(٢) بياض في الاصل بمقدار كلمـة .
(٣) من قطعة له في لقاح الخواطـر ، الورقة ٩٨ ب .
(٤) بياض بمقدار كلمة ، وضعت الكلمة المناسبة .
(٥) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٨ ب .

وهكذا يصف ابو اسحاق عضد الدولة من نواح كثيرة حتى اننا نجد له وصفا لكيفية تناوله الطعام ومحاولته ترويض نفسه والسيطرة على شهوته (١). ولا يستبعد ان تكون هذه النماذج التي حفظتها لنا بعض المصادر متفرقة، قد انتزعت من كتاب "التاجي" تاريخ الدولة البويهية الذى امره عضد الدولة بكتابته في السجن، وذلك لبعدها عن لهجة الخطاب فلا يمكن ان تكون رسالة موجهة، ثم نجد دليلا آخر فيما قاله الثعالبي في اليتيمة تحت ترجمة عضد الدولة": ثم من اراد ان ينظر في اخبار عضد الدولة ويقف على محاسن آثاره، فليتأمل الكتاب التاجي من تأليف ابي اسحاق الصابي، لتجتمع له مع الاحاطة بها بلاغة من قد تسهل له حزونها، ولانت له متونها، واطاعته عيونها".(٢) وسنعود لذكر التاجي في موضعه.

اما الشكل الثاني فهو ما يرجح انه قيل في عضد الدولة دون اشارة مباشرة اليه، وذلك بوصفه للملك وما يجب ان يكون عليه، وسنعرض مقتطفات من ذلك :

" الملك بمن غلط من اتباعه فاتعظ، اشد انتفاعا منه بمن لم يغلط ولم يتعظ، لان الاول كالقارح الذى ادبته العثرة واصلحته الندامة والثاني كالجذع الذى هو راكب الغرة وراكن الى السلامة، والعرب تزعم ان العظم اذا جبر من كسر، عاد صاحبه

---

(١) " من كلامه في ذكر مطاعم عضد الدولة"، لقاح الخواطر، الورقة ٩٨ ب.

(٢) اليتيمة، ج ٢، ص ٢١٧.

اشـد بطشـا واقوى ايدا". (١)

ومن ذلك : " الملك القادر اولى بالتأني في حكوماته، والتثبت في عزماته لانه ان اخذهـا على شبهة وامضاها على غير بينة لم يكن له دافع عنها، ولم يخل ايضا من مساعـد عليها." (٢)

ومن ذلك : " الملك المنعم اذا افاض المكارم واغتفر الجرائم، ارتبط بذلك خلـوص نية من قرب منه وهم الاقل، وانفساح الامل ممن بعد عنه وهم الاكثر، فيستخلص حينئـذ ضمائر الكل من حيث لم يصل معروفه الا الى البعض." (٣)

ومنه : " الملك اذا وعد وفى، واذا اوعد عفا". (٤)

وغير ذلك كثير، مقاطع ادبية تبدو كلاما عاما في سياسة الدولة واخلاق الملوك، انما المرجح ان الصابي كتبها لملك معين هو عضدالدولة، يعزز هذا الرأى عدة امور منها انه يتحدث حول " ملك " وهذا غريب عن المفهوم الاسلامي الشرعي لنظام الحكم والـذى

---

(١) النص بحرفيته عن لقاح الخواطر، الورقة ٩٨أ . ونجده مع اختلاف قليل في الالفـاظ في زهر الاداب، ج ٣، ص ٨ وابن حمدون، التذكرة الحمدونية (تحقيق احسان عباس، بيروت، معهد الانماء العربي، الطبعة الاولى، ١٩٨٣) ج ١، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج ١، ص ٢٩٧ .

(٣) المصدر نفسـه .

(٤) المصدر نفسـه .

تجلى بوضوح في رسائل الصابي الديوانية التي سنراها فيما بعد . والمعلوم ان عضدالدولة هو اول من تلقب بالملك في الاسلام ،وسمي شاهنشاه او ملك الملوك . فاعتماده في ذكر الامور اللازمة للملك لا يرتبط بالمفهوم الاسلامي الشرعي ولا يعتمد آيات قرآنية انما هو كلام حكيم يعتمد العقل ،وقد ذكر ابن حمدون عند ايراده بعض هذه الفقرات ان الصابي جمعها من كلام الحكماء . (١)

يلاحظ ايضا التركيز على مسألة العقوبة واغتفار الجرائم وتوبة المذنب . والتي يمكن تلخيصها انه باغتفار الملك ذنب من اذنب وتاب او قدم عذرا لذنبه ، ينتفع الملك به ، فاولى للملك التأني في حكمه . ونعلم ان التركيز على فكرة العقوبة والعفو يمس الصابي شخصيا فهو يريد من ملكه اقالة عثرته والاستفادة منه من جديد .

يمكن القول اذا،ان هذه الافكار خامرت ذهن الصابي واختمرت فيه ،ثم وجدت طريقها الى الظهور مع وجود ملك على العرش ،عانى الصابي من قسوته ماعانى.انما لا نعرف في اى مجال تسنى للصابي اظهار افكاره هذه على شكل قواعد للحكم والسياسة .

على ان الصابي لم يكن يوفق دائما في ما يبغيه وكان احيانا يصل الى نقيض ما يأمل، فيروى انه حين كان يكتب التاجي ،دخل عليه صديق فرآه منشغلا بالكتابة والتعليق،فسأله عما يعمل، فقال : " اباطيل انمقها واكاذيب الفقها "، (٢) فما كان من هذا الرجل الا ان

---

(١) التذكرة الحمدونية ،ج ١ ص ٢٩٠ و ٢٩٧ .

(٢) اليتيمة ،ج ٢،ص ٢٤٤ ومعجم الادباء ،ج ٢ ص ٢٢ ووفيات الاعيان، ج ١ ،ص ٥٢ والمختصر في اخبار البشر ،ج ٢ ،ص ١٢٩ واعلام النبلاء ،ج ١٦ ،ص ٥٢٤ والوافي بالوفيات، ج ٦ ، ص ١٥٩ وشذرات الذهب ،ج ٣ ،ص ١٠٦ .

انهى ذلك الى عضد الدولة " (١) . فزادت من غضب العضد وسخطه ، فأمر بان يلقى ابو اسحاق تحت ارجل الفيلة (٢) . عندئذ اكب نصر بن هارون وعبد العزيز بن يوسف (٣) على الارض يقبلانها شافعين في امره حتى عاد عن عزمه على قتله وامر باستصفاء امواله وابقائه في السجن . (٤)

طبيعي ان نسأل عند الاطلاع على هذه الرواية : كيف يمكن للصابي ان ينطق بمثل هذه الكلمات بحضور من لا يأمنه وهو الرجل الحكيم الحذر ، الذى ذاق من الويلات ما ينبغي ان يقوى

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه والبيتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٣) نصر بن هارون وزر لعضد الدولة ثم شورك في الوزارة بينه وبين المطهر بن عبد الله حتى اذا توفي المطهر سنة ٣٦٩ انفرد بالوزارة وهو نصراني . اخباره في صفحات متفرقة من تجارب الامم . اما عبد العزيز بن يوسف فكان كاتب عضد الدولة وصاحب ديوانه المعتبر في عداد وزرائه . بعد وفاة عضد الدولة سنة ٣٧٢ وزر لابنائه على دفعات . اخباره في صفحات متفرقة من ذيل التجارب وترجم له الثعالبي في اليتيمة (ج ٢ ، ص ٣١٢) مثنيا على ادبه .

(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٢ . وفي اليتيمة ان المطهر بن عبد الله استشفع له مع نصر بن هارون وعبد العزيز بن يوسف وهذا احتمال بعيد نظرا لان الصابي كما ذكرنا ، بدأ بعمل الكتاب بعد مضي المطهر الى البطيحة في الدفعة التي مات فيها . وفي اعلام النبلاء (ج ١٦ ، ص ٥٢٤) لا يوجد ذكر للشفاعة ، بل يقول انه بعد ان بلغه هذا الكلام عن الصابي " طرده ومات " .

نزعته الى الحذر والتستر ، بالاضافة الى ما يعلمه من وجود حساد حوله يكيدون له . وقد لاحظنا توخيه السلامة والبعد عما يثير الشبهة في رواية تسليمه رسول عضد الدولة الى ابن بقية، والتعامل مع الكبراء فن اتقنه ابو اسحاق ولو ان حظه السيء احيانا كان يغلب على تدبيره. هذه الملاحظات حول الرواية التي نسبت الى الصابي قوله " اباطيل انمقها واكاذيب الفقها " ، تدفعنا الى الشك بانها من اقوال الصابي ، وانما وضعت عليه لايقاعه بما لا تحمد عقباه وقد تكون من وضع بعض حساده . اما اذا كانت صحيحة النسبة فنجد امامنا احتماليين اما ان الصابي يثق بالرجل كليا وليس لديه ادنى شك به ، واما انه شعر بالاشمئزاز تجاه مايفعله ، خاصة انه كان كلما انهى جزءا من الكتاب حمل الى عضد الدولة فيقرأه " ويزيد فيه وينتقص منه " (١) مما اثار الصابي ، ودفعه الى قول ماروى عنه .

زاد هذا الحادث في احراج الصابي وصعوبة موقفه الذى كان بغنى عن المزيد من الصعوبة والتعقيد . فمجمل ايام الصابي في السجن كانت صعبة وقاسية ، وقد حاول كما رأينا الخلاص مما هو فيه او الهروب فكانت وسيلته الى ذلك تتخذ اتجاهات عدة اهمها : التوجه الى عضد الدولة بالاعتذار والاستعطاف ، وقد رأينا امثلة وافية حول ذلك ، ثم طلب المساعدة من الاخوان والاصحاب ، وهذان الاتجاهان يمثلان الناحية الايجابية ، ناحية الامل . اما اليأس فكان يتخذ اتجاه الاستياء من الواقع القاسي وتمنى الموت ،

---

(١) ذيل التجارب ، ص ٢٣ و معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

والثورة على بعض القيم والعلاقات الاجتماعية والانسانية .

اذا بالاضافة الى محاولاته استرضاء عضد الدولة اتجه ابو اسحاق شطر اصدقائه يتفقدهم ، خاصة من يمكنه مساعدته منهم ، ان لم يكن بشفاعة لدى الملك فبالمال الذى يسد به المغارم المفروضة عليه ، فكتب الى عبد العزيز بن يوسف قصيدة يمدحه فيها ثم يذكره بنفسه وبالامّه وامله بان تكون محنته تهذيبا له وصقلا ليعود اكثر اخلاصا في عمله ، ولا تختلف هذه القصيدة عن قصائده لعضد الدولة باغراضها ، والفرق انه يتبسط في مخاطبة عبد العزيز فيتحول الاستعطاف الى معاتبة ومطالبة ، مع عدم اغفال موقع عبد العزيز في بلاط عضد الدولة . من هذه القصيدة : (١)

" كفاني علاء حين افخر انني — اضاف الى عبد العزيز وانسب
حنته علي الحانيات فصرت في — كفالته كالابن وهو له اب
عممتم جميع الناس حسنا لمحسن — وعفوا لذى جرم فغيثوا واخصبوا
فمابال ابراهيم اذ ليس قبله — ولي عراقي غدا وهو مجدب
مجليهم في حلبة حين ارسلوا — وسكيتهم في رتبة حين رتبوا
ومالك ياعيني البصيرة غضت — جفونك عني حين ابكي واندب
وكيف استطبت العيش في ظل نعمة — غلامك عنها بالعراء يعذب "

الى ان يقول :

---

(١) القصيدة كاملة في اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

* اذا منصل بالفتم في مقاله — فما هو الا المشرفي المجرب
ويا سوء حالي لو جريت لديكم — بمجرى الذى لا يصطفى فيهذب
فصبرا على بوءسى قليل بقاوءها — لنعمى لنا فيها مراد ومرحــب
لئن غمني التأنيب فيكم وساءني — لقد سرني ان كنت ممن يوءنب
وعلمي باستحكام حقي لديكم — يحقق ظني ان جرمي سيوهب
وانك للحر الذى لي عنـده — ودیعة ود خبوها مترقــب *

ولاندرى ماذا لقي الصابي من استنجاده بعبد العزيز بن يوسف واستعطافه، فالمصادر لاتذكر شيئا من ذلك كما ان في موقف عبد العزيز بن يوسف من الصابي بعض الغموض ففي حين يذكر ياقوت انه عندما امر عضد الدولة بان يلقى الصابي تحت ارجل الفيلة اكب عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون يقبلان الارض شفاعة له حتى امر بتركه حيا (١) . ينقل ياقوت ايضا عن الهلال بن المحسن ما اخبر به الوزير ابو الريان حامد بن محمد (٢) جده ابا اسحاق بعد الاعتقال من انه لما انفذ الصابي قصيدته اللامية لتهنئة عضد الدولة عند عودته من الزيـارة اختار ابو الريان عرضها على عضد الدولة في وقت لم يكن فيه عبد العزيز بن يوسف حاضرا وبحضور

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) حامد بن محمد الاصبهاني ، استخلف على الوزارة وتدبير الاعمال وجمع الاموال بعد مضي ابي القاسم المطهر بن عبد الله الى البطيحة سنة ٣٦٩ هـ . (تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٤١٠) .

عبد الله بن سعدان (١) الذى كان ابو الريان يأمنه على ابي اسحاق لان اعتقاده بابي اسحاق يوافق اعتقاد الوزير كما جاء في الرواية (٢). وقد نقل الثعالبي في اليتيمة (٣) مقتطفات من اجوبة رسائل كتبها عبد العزيز بن يوسف الى الصابي يصف في معظمها بلاغته ويقول في احدها ردا على رسالة وقصيدة وصلته من ابي اسحاق يبدو انها في الشكوى :

" ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الايام في انحرافها ومكاره احداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، واستعديت عليها لاستعدائه وشايعت المهجنين لآثارها ، والزارين على احكامها لانحرافها دون آماله ، وقدحها في احواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لاهله دهر اناخ على مولاى بصرفه واختزله دون واجب حقه ، ..." (٤) ثم يجيب عن القصيدة شعرا مادحا ابا اسحاق بحفظ العهود والتفرد بالمكرمات والادب، وينهي قصيدته بالقول :

" ضلالا لدهر انت من حسناته ولم تكن في نيل احسانه الفردا

لعا انه الدهر العثور وانه لسيان من اجدى عليه ومن اكدى

يميل على ذى الفضل للجهل ضلة يجرعه سما ويبدى له شهدا

---

(١) وزر لصمصام الدولة سنة ٣٧٣ ثارت عليه العامة لما حصل في عهده من غلاء وهجموا على داره.قتل سنة ٣٧٥ بمكيدة دبرها عليه عبد العزيز بن يوسف الذى تولى الوزارة بعده . اخباره في صفحات متفرقة من ذيل التجارب وقد سجل التوحيدى جلساته مع هذا الوزير في كتاب الامتاع والمؤانسة.

(٢) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٣) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ - ٣٢٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢١ .

على انه سلم لمن حل بالحمى   حمى الملك المدعو للدولة العضدا" (١)

ومن المرجح ان تكون رسالة الصابي قد كتبت من السجن لان الصابي ،كما يبدو ، يشكو من المكاره التي حلت به وذلك في عهد عضد الدولة ـ كما تبين الابيات ـ الذى كان بمجمله شؤما على الصابي وقد امضى معظمه في السجن . ويلاحظ من الابيات ان ابن يوسف يدعو الصابي الى الدخول في حمى عضد الدولة حيث يجد السلام ، وكأنه يدعوه الى التوبة اليه والافياء الى كنفه . على انه ليس من صفات عبد العزيز بن يوسف المساعدة والاخلاص في الود والنصيحة ، فقد شهر بانه رجل مؤامرات ومكائد .(٢) وان كنا لا نفهم الدور الذى لعبه تجاه ابي اسحاق الا ان التجاءه اليه ،كما يبدو ، لم يأت باية نتيجة .

لكن صرخات ابي اسحاق الى اصدقائه لم تذهب كلها ادراج الرياح ، فقد كان احيانا يجد من يهتم به ويراعي اموره . من اهم هؤلاء الوزير المطهر الذى احسن اليه منذ بدء اعتقاله بان اعتقله في منزله ووعده بالعون ثم سمح بالمناوبة بين ولديه في الخروج ،

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٢) انظر في ذيل التجارب (ص ٩٧ و ١٠٢ و ١٠٤ - ١٠٧) ما فعله عبد العزيز بن يوسف في افساد حال ابن سعدان لدى صمصام الدولة حتى تم القبض عليه ثم قتله سنة ٣٧٥ والمؤامرة التي اضطلع فيها لاخراج الحكم من يد صمصام الدولة . وفي الامتاع (ج ٣ ، ص ١٤٨ - ١٥٠) حديث حول عبد العزيز بن يوسف يبين سوء اخلاقه وصغارته .

واستمر في الاهتمام به حتى نجده قد استشفع له في اطلاقه ، ومن الطبيعي ان يقدر ابواسحاق مساعدة هذا الوزير في وقت عز فيه الصديق والمعين .

وحدث مرة ان تفقد المطهر حال ابي اسحاق فرأى خللا في مطعمه ومشربه استاء منه فضرب الطباخ ومنع المستخرج من مطالبته ببقية من مال كانت عليه (١) . وكانت نوبة المحسن آنذاك خارج السجن فكتب ابواسحاق اليه رسالة (٢) يخبره فيها عن النعمة الجديدة التي حلت به وبابنه سنان المسجون معه ، ويشرح حالتهما الجيدة بعد ان اصبحا ينالان وفرة من الطعام الجيد ، وبعد ان تخلصا من مطالبة المستخرج السيئة . وفي الرسالة وفي جواب المحسن عليها وصف للمستخرج بما يدل على لؤمه وقسوته وقد كانت لهذه الحادثة دلالة كبيرة لدى الصابي على العناية به من قبل الوزير ، ومن قبل السلطان ، بما يصل الى حد الانقلاب من اهماله الى المحافظة عليه وصونه ، ولا بأس من ذكر ما جاء في جواب المحسن على كتاب والده من وصف للمستخرج . (٣)

" . . . والانقياد من ملكة المستخرج ، القصير النسب ، الدقيق الحسب ، الذى لا يراقب ولا يخاف العواقب ، ولا تدركه هزة ، ولا تعطفه اريحية ، والخروج من يده الكزة الاصابع ، القليلة المنافع ، اللئيمة الظفر ، الكثيرة الضرر ، التي لا مخلص لمن وقع بين اناملها ،

---

(١) التذكرة الحمدونية (٧٧٠) ، الورقة ٨١ أ – ب .
(٢) الرسالة كاملة في المصدر نفسه ، الورقة ٨١ ب – ٨٢ ب .
(٣) المصدر نفسه ، الورقة ٨٤ أ .

ولا منتزع لمن نشب في مخا لبها ، فالحمد لله الذى كفها عنا بعد الانبساط وقصـــرهـــا بعد الاستطالة " .

وربما كان الصابي يصف هذا المستخرج عند ما كتب الى المحسن من السجن قائلا : (١)

" كتبت اقيك السوء من محبس(٢) ضنك وعين عدوى رحمة منه لي تبكي
وقد ملكتني كف فظ(٣) مسلط قليل التقى ضار على الفتك والافك
صليت بنار الهم فازددت صفوة كذا الذهب الابريز يصفو على السبك"

وقد كان يسلي ابا اسحاق عن همومه واحزانه رسالة تصله من صديق او محب ، فقد كتب اليه ابنه المحسن يوما مواسيـــا :

" لا تأس للمال ان غالته غائلة ففي حياتك عن فقد اللهى عوض
اذ انت جوهرنا الاعلى وما جمعت يداك من طارف او تالد عرض" (٤)

فكتـــب الصابي مجيبـــا : (٥)

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩١ .
(٢) في معجم الادباء : " مجلـــس " .
(٣) في المصدر نفســه : " فــظ " .
(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٧٧ وروضات الجنات ، ج ١ ، ص ١٦٤ ، وفي اليتيمة وروضات الجنات : " تالد او طارف " .
(٥) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧١ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٧٧ - ٧٨ وروضات الجنـات ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

"يادرة انا من دون الردى(١) صدف | لها اقيها المنايا حين تعترض
قد قلت للدهر قولا كان مصدره | عن نية لم يشب اخلاصها مرض
دع المحسن(٢) يحيا فهو جوهرة | جواهر الارض طرا عندها عرض
فالنفس لي عوض عما اصبت به | وان اصبت بنفسي فهو لي عوض
اتركه لي واخاه ثم خذ سلبي | ومهجتي فهما مغزاي والغرض"

ومن طريف ما حصل للصابي في السجن ما دار بينه وبين ابي الفرج الببغاء (٣) من مكاتبة شعرية يقال انها انتهت الى عضد الدولة فأعجب بها واستظرفها ، وكانت احد اسباب اطلاق ابي اسحاق من سجنه. (٤)

الراحه التي تسببها زياره احد الاصدقاء الى سجن الصابي، او رسالته اليه، تجعله

---

(١) في معجم الادباء وروضات الجنات : "الورى".

(٢) في روضات الجنات : "المحبس".

(٣) ابو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي من اهل نصيبين ، خدم سيف الدولة الحمداني ، حتى اذا توفي تنقل في البلاد . توفي سنه ٣٩٨هـ. ولقب بالببغاء لحسن فصاحته وقيل للثغة في لسانه. ترجمته في اليتيمة ج ١، ص ٢٣٦ ووفيات الاعيان ، ج ٣، ص ١٩٩ واعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٩١ (تحقيق شعيب الارنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي) والمكاتبة التي دارت بين الاثنين في اليتيمة، ج ١، ص ٢٥١ - ٢٥٢ ووفيات الاعيان ، ج ٣، ص ٢٠٠ - ٢٠١ وبهجة المجالس، ج ٢، ص ١٠٩ - ١١١ .

(٤) وفيات الاعيان ، ج ٣، ص ٢٠١ .

يفتقد هذه المحاولات من اصدقائه ، وما يرتبط بها من خبر يستعلمه ورأى يرشده ، وايناس يخفف عنه الوحشة . فنجد رسالة (١) عتاب وتوبيخ لابن عم له لتقصيره معه في الزيارة تبين حالته ، ونظرته الى الناس :

" فان كان هذا شيئا يقودك الى سلوة عني ، وجفوة لي ، فما استحقه منك ، ولا اتيت ما يقتضي وجودها . وان كان عن توان تذهب فيه على سجية وخليقة ، فما احوج محاسنك الى ان تهذبها ، وتزحزح هذه القذاة عن جوهرها ، وانا اترك الاغراق في هذا القول ، لجهات منها كراهية الغلظة في استعتابك ، اما تراني جعلت فداك ، واملاكي مأخوذة ، وطعمي مأكولة ، ومنافعي محسومة ، ومضاري معتمدة ، والالسن بما اكره منطلقة ، وعما احب معتقلة ، وزادي غير مبلّغ ، ومسكتي غير لائنة ، واعلام الصواب علي دارسة ، وابوابه دوني مغلقة ، . . . والمحسن المجمل من كان مثلك لا يقول هجرا ، ولا يتعهد قبيحا ، ولا يسعف برأى يرشد ، ولا بسعي يعضد ، ولا يكون منه الا الجواب الواحد ، بعد الايام المتطاولة ، عن الرقاع الكثيرة ، ولا يتعلق عليه ولا منه سفيه من يأس صريح ولا اجتهاد صحيح ، فان كان أحنى الناس علي هذا نعته ، واغلظهم ذاك وصفه ، هل اجد بينهما من اتخذه معولا واسميه معقلا ، وهل ههنا الا رفع الطمع من المخلوقين قاطبة وصرف الامل الى من لا تحجب عنه الظلامة ولا يتأخر منه الادالة ."

---

(١) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٠ب – ٩١أ .

اما الاتجاه الثالث الذى سلكه ابو اسحاق فهو اليأس وتمني الموت وفقدان الثقة بالناس والاصدقاء . وله وصف بليغ للاشرار المنافقين من الناس في رسالة كتبها الى بعض اصدقائه : (١)

" ولو حملت نفسي على الاستشفاع والسؤال ، لضاق علي فيه المرتكض والمجال ، لان الناس عندنا ـ ما خلا الاعيان الشواذ الذين انت بحمد الله اولهم ـ طائفتان : مجاملة ، ترى انها قد وفتك خيرها اذا كفتك شرّها ، واجزلت لك رفدها اذا جنبتك كيدها ، ومكاشفة ، تنزو الى القبيح نزو الجنادب ، او تدبّ دبيب العقارب ، (فان عوتبوا ، حسروا قناع الشقاق ، وان غولظوا ، تلثموا بلثام النفاق) (٢)

والفريقان في ذلك كما قلت منذ ايام :

ايا ربّ ، كل الناس ابناء علة	اما تعثر الدنيا لنا بصديق (٣)
وجوه بها من مضمر الغل شاهد	ذوات اديم في النفاق صفيق
اذا اعترضوا عند اللقاء فانهم	قذى لعيون او شجا لحلوق
وان اظهروا برد الودود وظلّه	اسرّوا من الشحناء حرّ حريق

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٥٧ — ٥٨ .
(٢) ما بين قوسين ورد في لقاح الخواطر الورقة ٨٨ ب .
(٣) هذا البيت والذى يليه في محاضرات الادباء ج ٣ ص ٢٠ ، وقد جاء فيها البيت الاول على الشكل التالي : " ايارب ، كل الناس اولاد علة   اما تغلط الدنيا لنا بصديق " .

اخو وحدة قد آنستني كأنني ... بها نازل في معشر ورفيق

فذلك خير للفتى من ثوائه ... بمسبعة من صاحب وصديق"

ويصف الصابي وحدته وتمنيه الموت قائلا :

" هجرت دواتي بعد تصريف حليها ... وواصلت كالوراق قارورة الحبر

وعاشرت من دون الاخلاء دفترا ... يحدّث عما مرّ في سالف الدهر

فطورا يسليني التعلل بالمنى ... وطورا يكون الموت مني على ذكر" (١)

يبدو من الابيات انها كتبت بعد سنة ٣٦٩ وان الدفتر الذى يعنيه هو كتاب التاريخ الذى كان يؤلفه . وهكذا تراءى الموت للصابي ورآه نهاية لابد منها ، فشعر بعبثية الحياة وتساوى الشقاء والسعادة فيها ان كانت النهاية واحدة ، لكن الفرق ان الموت يبدو سهلا اذا جاء منقذا من نكد العيش :

" اذا لم يكن للمرء بد من الردى ... فاسهله ما جاء والعيش انكد

واصعبه ما جاءه وهو راتع ... تطيف به اللذات والحظ مسعد

فان اك شرّ (٢) العيشتين اعيشها ... فاني الى خير المماتين اقصد

وسيان يوما شقوة وسعادة ... اذا كان غبا واحدا لهما الغدْ (٣)

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

(٢) في معاهد التنصيص ج ٢ ، ص ٧٤ : " سوء " .

(٣) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ و معجم الادباء ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٣ ومعاهد التنصيص ج ٢ ص ٧٤ .

احيانا كان الصابي يبلغ قمة اليأس فيتمنى ان يستريح مما يلاقيه بتقديم نفسه فداءً احد اصدقائه (١) :

" نفسي فداؤك غير معتد بها	اذ قد مللت حياتها وبقاءها
ولو ان لي مالا سواها لم اكن	ارضى لنفسك ان تكون ازاءها
لكن صفرت فلم اجد الا التي	قد آن لي ان استطيل ذماءها
فاذا شكرت لمن فداك فانني	لك شاكر ان قد قبلت فداءها
وكأنني المفدى حين ارحتني	من نائبات ما اطيق لقاءها " .

وكأن الصابي قد لاحظ ما يبدو في شعره من يأس فيعجب له وقد عرفه بالامس وكله جذل وسرور . فيضع اللائمة على الدهر وحوادثه ونكباته ويقرر ان العيش مر والموت حلو كالعسل ، يقول (٢) :

" عهدي بشعري وكله غزل	يضحك عنه السرور والجذل
ايام همي بحبة (٣) بهم ال	قلب عن النائبات مشتغل (٤)
فالآن شعري في كل داهية	نيرانها في الضلوع تشتعل

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩١ - ٩٢ .
(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ومعاهد التنصيص ج ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ .
(٣) في معاهد التنصيص : " احبة " .
(٤) في المصدر نفسه : " يشتغل " .

اخرج من نكبة وادخل في — اخرى فنحسي بهن متصل
كأنها سنة مؤكدة — لا بد من ان تقيمها الدول
فالعيش مر كأنه صبر — والموت حلو كأنه عسل"

لكن لكل حال نهاية، وقد آن لعذابات ابي اسحاق ان تنتهي، وكأن القدر اشفق عليه اخيرا، فحسن لمحتجزيه اطلاقه. وقد تحدثت المصادر حول هذه الحادثة وحملت في ذلك روايات عديدة، فقيل انه تخلص في ايام صمصام الدولة ابن عضد الدولة (١) وقيل انه " تخلص في آخر ايام عضد الدولة وقد رزحت حاله وتهتك ستره". (٢) وقيل انه افرج عنه سنة ٣٧٠ هـ. (٣) وقد نقل ياقوت عن الهلال بن المحسن انه قبض على جده يوم السبت لاربع بقين من ذى القعده سنة سبع وستين وثلاثمائة وافرج عنه يوم الاربعاء لعشر بقين من جمادى الاولى سنة احدى وسبعين وثلاثمائة، فكانت مدة حبسه ثلاث سنين وسبعة اشهر واربعة عشر يوما (٤). وجاء في رسوم دار الخلافة ان مدة حبسه كانت اربع سنين

(١) معجم الادباء، ج ٢، ص ٢٣. وصمصام الدولة هو لقب ابي كاليجار المرزبان بن عضد الدولة الذى تولى الحكم بعد وفاة ابيه سنة ٣٧٢ لكن اخاه شرف الدولة استولى على بغداد سنه ٣٧٦ واعتقله. اخباره في صفحات متفرقة من ذيل التجارب.

(٢) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٣) ذيل التجارب، ص ٢١ ووفيات الاعيان، ج ١، ص ٥٢ واعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٥٢٤.

(٤) معجم الادباء، ج ٢، ص ٣٥.

وشهـــــورا (١) .

وكما اختلفت المصادر في ذكر تاريخ الافراج عنه ، اختلفت كذلك في ذكر اسبـــاب اطلاقه ، فيروى ياقوت عن هلال بن المحسن انه سمع ابا الريان حامد بن محمد الوزير ، يقول لجده ابي اسحاق ، وكانوا جميعا في مجلس انس ، انه لما انفذ ابو اسحاق القصيدة اللامية بالتهنئة بقدوم عضد الدولة من الزيارة (٢) ، عرضها ابو الريان عليه في وقت لم يكن عبـــد العزيز بن يوسف حاضرا فيه فقرأها ثم رفع رأسه الى ابي الريان والى عبد الله بن سعدان ، الذى كان يوافق ابا الريان في رأيه بالصابي وقال : " قد طال حبس هذا المسكين ومحنتـــه " فقبلا الارض عند ذلك ، فقال لهما : " كانكما توءثران اطلاقه؟ فقالا " ان من اعظـــم حقوقه علينا ، وذرائعه عندنا ، ان عرفناه في خدمتك وخالطناه في ايامك " ، قال : " فاذا كان رأيكما فيه ، فانفذا وافرجا عنه وتقدما اليه عنا بملازمة منزله ، الى ان يرسم له ما يليق بمثلـــه " . (٣)

فاسرع ابو الريان وابن سعدان بارسال الامر بالافراج عن الصابي ولما كان ابو الريـــان يعلم ان من عادة عضد الدولة ان يســـأل عن الامـــر فان رآه قد فعل امضاه ، وربما عـــرض

---

(١) رســـوم دار الخلافة ، ص ١٢١ .

(٢) القصيدة كاملة في معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٢ – ٤٤ والابيات الاربعة الاولى منهـــا في المتمة ج ٢ ، ص ٢٧٤ . مطلع هذه القصيدة :

" اهلا باشرف اوبة واجلها لأجلّ ذى قدم يلاذ بنعلها " .

(٣) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٧ – ٤٨ .

له خاطر بعدم امضائه ان تأخر ، فلما دخل عليه يطالعه في امر قال له : "سمع الله في مولانا مادعي له" . فقال : "ماتجدد ؟" قال : " شاهد الناس ابا اسحاق الصابي وقد اخرج من محبسه ومضى الى داره، فاكثروا من الدعاء والشكر ." (١) وتتابع الرواية ان عضد الدولة شغل بعلته عن النظر في هذا الامر الا ان الصابي قد اتصل بسببه في ايام متفرقة بين اطلاقه وبين اشتداد العلة على عضد الدولة فاعطاه العضد ثيابا ونفقة عدة مرات . (٢)

تثير هذه الرواية عدة اسئلة : لم اختار الوزير ابو الريان عرض قصيدة ابي اسحاق على عضد الدولة في وقت لم يكن فيه عبد العزيز بن يوسف حاضرا في حين يقول عن ابن سعدان في الرواية : "وكنت آمنه عليك ، واعلم ان اعتقاده يوافق اعتقادي فيك" لم لم يكن ابو الريان يأمن عبد العزيز بن يوسف على ابي اسحاق في حين وجدنا انه في احدى المراحل كان عبد العزيز هذا قد خلص ابا اسحاق من الموت تحت ارجل الفيلة ؟ لا جواب لدينا . وقد ذكر من قبل ان موقف عبد العزيز بن يوسف تجاه ابي اسحاق كان محاطا بالغموض . (٣) واما بالنسبة لصحة هذه الرواية فانه لاشك لدينا بها لانها اولا ، منسوبة

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٨ — ٤٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩ ، وينقل ابو شجاع الرواية مختصرة في ذيل التجارب ، ص ٤٢ .
(٣) راجع ص ٧٥ — ٧٧ من هذا البحث .

الى هلال بن المحسن حفيد ابراهيم ،كما اننا نجد موءشرا آخر يدل على صحتها وهو شعر كتبه ابواسحاق الى الوزيرابي عبد الله بن سعدان مطلعه :

" ثنائي لو طولته لك قاصر   وطولك لو قصرته لي باهر

ويقول فيه : وما زلت من قبل الوزارة جابرى   فكن رائشي اذ انت ناه وآمر

أمنت بك المحذور اذ كنت شافعا   فبلغني المأمول اذ انت قادر" (١)

ونجد شافعا آخر للصابي في رواية حول اطلاقه تقول : " ان الصاحب دخل على عضد الدولة بهمذان (٢) وعضد الدولة مكب على دفتر يقرأه ،فقال : ياابا القاسم بهذه رسالة لك في بعض فتوحنا ،نحن نأخذها باسيافنا وانت تجعلها باقلامك ،فقال : المعنى مستفاد من مولانا وان كانت الالفاظ لخادمه ، ثم انشده :

" وانت اكتب مني في الفتوح وما   تجرى مجيبا الى شأوى ولا امدى" (٣)

فقال : لمن البيت ؟ فقال : لعبدك ابي اسحاق الصابي محبوسا ببغداد ،فأمر بالافراج عنه والخلعة عليه ، فكان ذلك سبب خلاصه وتقدمه ." (٤)

---

(١) اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٧٥ والبيتان الاخيران في معجم الادباء ج ٢ ،ص ٨٠ – ٨١ وفي التذكرة الحمدونية (رئيس الكتاب ،رقم ٧٧١) بالورقة ١٧٦ ب .

(٢) ورد الصاحب بن عباد همذان والتقى عضد الدولة فيها سنة ٣٧٠هـ (ذيل التجارب، ص١٠)

(٣) هذا البيت من قصيدة للصابي مطلعها :
" ياراكب الجسرة العيرانة الاجد   تدمي مناسمها في الحزن والجدد"
انظر القصيدة ومناسبتها في معجم الادباء ،ج ٢ ،ص ٦٢ – ٦٥ .

(٤) محاضرات الادباء ،ج ١ ص ٩١ .

ان صحة الرواية الاولى لاتطعن في صحة هذه الرواية حول الصاحب ، فيمكن ان تكون عدة عوامل قد تضافرت للافراج عن الصابي منها شفاعة جماعة من بينهم الصاحب ابن عباد ، والوزيران ابو الريان وابن سعدان ، ثم رقة عضد الدولة عليه بعد كتابة عدة قصائد يستعطفه ، ثم انه قد انهى ما طلب منه من كتابة التاريخ .

المهم ان ايام السجن قد انتهت ، وان ابا اسحاق قد نال ماسعى لاجله من حرية لكن الحرية لم ترجع له مافات ، وآثار النكبة لم تكن لتزول بسهولة، فأيام السجن كانت محكا لحقائق كثيرة ، خرج ابو اسحاق منها بقلة في المال وخيبة في الناس والحياة،فكثرت شكواه من وضعه هذا ، فيروى عن الهلال بن المحسن قوله : " قلت لجدى ابي اسحاق، تجاوز الله عنه ، وهو يشكو زمانه : ياسيدى ، مانحن بحمد الله تعالى الا في خير وعافية ونعمة كافية ، فما معنى هذه الشكوى التي تواصلها ويضيق صدرك بها ، ويتنغص عيشك معها ؟ فضحك وقال : يابني نحن كدود العسل ،قد نقلنا منه الى الخل فهوذا نحس بحموضته، ونأسى ونحزن على ماكنا فيه من العسل ولذته ، وانتم كدود الخل ، ماذقتم حلاوة غيره ، ولا رأيتم طلاوة ضده " . (١)

بعد وفاة عضدالدولة عرضت على الصابي فرصة للاستقرار والعمل فقد ارسل الصاحب ابن عباد يستدعيه الى حضرته بالرى باذلا له نفقة واسعة،(٢) فكتب اليه معتذرا من قصيدة

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩٣ - ٩٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٠٠ .

يدو فيها انها كتبت سنة ٣٧٢ﻫ نذكر منهـا :

" نكصت على اعقابهن مطالبي — وتقاعست عن شأوهن مآربي
وتبدلت مني القريحة بعد ما — كانت نوافذا كالشهاب الثاقب
وبكيت شرخ شبيبتي، فدفنتها — دفن الاعزة في المذار الشائب
فلو ان لي ذاك الجناح لطاربي — حتى اقبل ظهر كف الصاحب
كثرت عوائقي التي تعتاقني — من غيث راحته الملث الساكب
ولد لهم ولد وطن ثالث — هو رابعي وعشيرتي، واقاربي
والسن تسع بعدها خمسون قد — شامت بوارق يومها المتقارب
فالجسم يضعف عن تجشم راجل — والحال يقصر عن ترفه راكب
وعلي للسلطان طاعة مالك — كانت على المملوك ضربة لازب
وتعطلي مع شهرتي كتصرفي — كل سواء في الحساب الحاسب"(١)

هكذا بقي ابو اسحاق في بغداد فتولى ديوان الانشاء لصمصام الدولة (٢) ابن عضد الدولة وخليفته في الحكم . ونجد له شعرا كتبه في صمصام الدولة من ذلك ما كتبه حين اهداه اصطرلابا :

" يعز علي ان اهدى نحاسا — الى من فيض راحته نضار

---

(١) معجم الادباء، ج ٦، ص ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٢) رسوم دار الخلافة، ص ١٢٥ وتاريخ الوزراء، ص ١٥١ ، والهفوات النادرة، ص ٣٠٨ .

ولكن الزمان اجتاح حالي وانت عليه لي ان جار جار" (١)

ويقال ان ابا اسحاق استمر على ديوان الانشاء في ايام اولاد عضد الدولة ووزرائهم حتى وفاته (٢) ،فيما يقال ايضا انه استمر متعطلا الى ان مات (٣) ، وسنحاول استقراء المصادر لترجيح احدى الروايتين . ففي رسالة كتبها ابو اسحاق جوابا على مذكرة بعثها الشريف الرضي (٤) يطلب منه فيها انشاء عهد له بتقليده نقابة الطالبيين والنظر في امور المساجد وخلافة والده في النظر في المظالم والحج بالناس وذلك سنة ٣٨٠ هـ (٥) ،قال ابو اسحاق : "**على ان عهدي بالعمل بعيد ،وذهني بعد المضاء كليل ،**

---

(١) اليتيمة ،ج ٢ ،ص٢٨٢ والاصطرلاب كلمة يونانية معناها ميزان الشمس ،قيل ان اول من وضعه بطليموس. (وفيات الاعيان ،ج ٦ ،ص ٥٢) .

(٢) تاريخ الحكماء ، ص ٧٦ .

(٣) معجم الادباء ،ج ٢ ،ص ٤٩ .

(٤) ابو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب ابي احمد الحسين بن موسى ،يعود بنسبه الى الحسين بن علي بن ابي طالب، ولد ببغداد سنة ٣٥٩ وابتدأ يقول الشعر بعد ان جاوز العاشرة بقليل . وصف بأنه اشعر الطالبيين . خلف والده في ولاية نقابة الطالبيين والنظر في المظالم والحج بالناس. توفي سنة ٤٠٦ ببغداد ،وله مؤلفات عديدة . انظر ترجمته في اليتيمة ،ج ٣ ،ص ١٣١ ووفيات الاعيان ، ج ٤ ،ص ٤١٤ والوافي بالوفيات ،ج ٢ ،ص ٣٧٤ (باعتناء س. ديدرينغ، استانبول ،مطبعة وزارة المعارف، ١٩٤٩) واعلام النبلاء ،ج ١٧ ،ص ٢٨٥ وروضات الجنات ،ج ٦ ،ص ١٩٦ وعبد الحسين الحلي ،حياة الشريف الرضي (بغداد ،مطبعة الحرية، ١٣٨٨ / ١٩٦٨) واحسان عباس، الشريف الرضي (بيروت، دار بيروت ودار صادر، ١٩٥٩ / ١٣٧٩) .

(٥) رسائل الصابي والرضي ،ص ٧٣ واليتيمة ،ج ٣ ،ص ١٣٢ ووفيات الاعيان ،ج ٤ ،ص ٤١٥، يذكر ابن خلكان سنة ٣٨٨ تاريخا لذلك وهو خطأ .

وخاطري بعد الصحة عليل ، وقلبي بعد الفراغ مشغول" (١) ثم هل يمكن ان نقول ان الصابي، قد تولى ديوان الانشاء حتى آخر حياته اذا علمنا انه مرض في آخر حياته حتى لم يعد يستطيع حركة ؟

ومهما يكن من امر، فهو لم يعدم عملا يقوم به فنجده سنة ٣٧٨ يمارس ناحية اخرى من نواحي معرفته وهو علم التنجيم، فقد امر شرف الدولة الذى كان قد استولى على بغداد واخرج اخاه صمصام الدولة من العراق (٢) ، برصد الكواكب السبعة في سيرها ، وتنقلها في بروجها كما جرى في زمن المأمون ، واختار لهذه المهمة عالما منجما اسمه ويجن بن رستم الكوهي (٣) ، فبنى من اجل ذلك بيتا في دار المملكة وعمل فيه آلات للرصد ، وكتب فيما توصل اليه محضرين ، كتبت فيهما خطوط الحاضرين بما شاهدوا واتفقوا عليه (٤) . وكان ابو اسحاق بين الحاضرين وكتب خطه بذلك (٥) .

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ٧٦ . وشرف الدولة هو ابو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة ، تولى بغداد سنة ٣٧٦ وتوفي سنة ٣٧٩ . اخباره في صفحات متفرقة من ذيل التجارب .

(٢) انظر خبر استيلاء شرف الدولة على العراق في ذيل التجارب ، ص ١٢٣ وما بعدها .

(٣) ويجن بن رستم ابو سهل الكوهي ، عالم بعلم الهيئة وصناعة آلات الارصاد . ترجمته في تاريخ الحكماء ص ٣٥١ - ٣٥٤ .

(٤) تاريخ الحكماء ، ص ٣٥١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٥٢ .

ويبدو ان المصائب لم تكن تسمح لابي اسحاق بالارتياح، بل تستمر في ملاحقته فها هو يفقد ابنه الاكبر سنانا سنة ٣٨٠ هـ، ويبكي الصابي ابنه بلوعة، وحرقة ويرثيه قائلا :(١)

أسعداني بالدمعة الحمراء جلّ ما حل بي عن البيضاء

هدّ ركني مثوى سنان وقدكا ن يهد الاركان من اعدائي

كنت مني، وكنت منك اتفاقا والتئاما مثل العصا واللحاء

وكنت في اليتم فيّ اجمل مني فيك للثكل في اوان فنائي"

جاءت هذه المصيبة لتهد ما بقي من قوة وجلد لدى ابي اسحاق، فنراه يصف حالته في جواب لرسالة تعزية بعثها اليه الشريف الرضي في شهر ربيع الآخر سنة ٣٨٠، قائلا :" وصلت الرقعة، . . . بالفضل الذي زاد واوفى، والقول الذي نفع وشفى، والتعزية التي غمرني احسانها وبهرني استحسانها، فصادفت مني قلبا عليلا وخاطرا كليلا، ونفسا قدا تخنتها الرزية، وولتها المصيبة، واحالتها المحنة عما كانت عليه من جلد وقوه وتماسك ومعرفة، . . . (٢).

هكذا صارت حال ابي اسحاق تزداد سوءا مع تقدم الايام، فبعد ان كانت معاناته نفسية، اضيفت اليها آلام جسدية، وصار سنة ٣٨١ يشكو المرض في جسمه، فقد جاء في رسالة كتبها الى الشريف الرضي قوله :

---

(١) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٧٠ وبعض ابيات القصيدة في معاهد التنصيص، ج ٢، ص ٧١.

(٢) رسائل الصابي والرضي، ص ٧١.

" ولولا العلة التي قد اخذت بمخنقي ، وجثمت على مدارج نفسي . لما اخللت بقصد حضرته والمواظبة على خدمته " . (١)

ونجد للصابي الكلام الكثير في وصف آخر امره وما آلت اليه حاله من الكبر ، فقد زمن وظهرت عليه علامات الكبر كالشيب ، والصلع ، ثم ابتلى بالمرض الذى اقعده ، فاصبح يحتاج الى الجلوس في المحفة اذا اراد الانتقال لقضاء حاجة . فيقول في الصلع :

" لقد اخلقت جدتي الحادثات ومن عاش في ريبها يخلق

وبدلنني صلعا شاملا من الشعر الفاحم الاغسق

وقد كنت اصلع من عارضي فقد صرت اصلع من مفرقي " (٢)

وقيل (٣) انه اراد ذات يوم ان يبرهن للحاضرين في مجلسه ، وهم كثر ، انه يستطيع الكتابة فشخصت الابصار اليه لما فتح الدواة ليكتب ، فوضع القلم وقال : (٤)

" وجع المفاصل وهو أيسر ما لقيت من الاذى

جعل الذى استحسنته واليأس من حظي كذا (٥)

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ٨٠ .

(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ ومعاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) الخبر في معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

(٤) الابيات في اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩٣ ومعاهد التنصيص ج ٢ ، ص ٧٦ .

(٥) معجم الادباء " والناس " .

والعمر مثل الكأس ير   سب في اواخره القـذى " (١)

وقد ظلت حال الصابي محتملة حتى سنة ٣٨٤ وهي سنة وفاته ، وكان المرض والعجز قد اخذا منه كل مأخذ ، فصار شبح الموت مسيطرا على تفكيره وقد رأى انه صار قريبا جدا ، فهو عاجز كليا عن الحركة لا يستطيع تحريك يدا و رجل فكتب الى الشريف الرضي ، يشكو الكبر من قصيدة في مدحه نذكر منها : (٢)

" اذا ما تقدّت بي وسارت محفة   لها ارجل يسعى بها رجلان

وما كنت من فرسانها غير انها   وفت لي لما خانت القدمان

فقد حملت مني ابن سبعين سالكا   سبيلا عليها يسلك الثقلان

ولي بعدها اخرى تسمى جنازة   جنيبة يوم للمنية دانى

واني على عيث الردى في جوانبي   وماكفّ من خطوى وبطش بناني

لاعلم اني ميّت عاق دفنه   ذماء قليل في غد هو فاني "

لكن الصابي في هذه القصيدة ، يلتفت الى الماضي فيرى ان ما حرمه اليوم كان يملكه بالامس وكان الزمان قد اعطاه الكثير حين بز الاقران وتفوق عليهم فيعتريه شعور بالافتخار،

(١) معجم الادباء : " اواخرها " .
(٢) رسائل الصابي والرضي، ص ١٥ - ١٦ . واليتيمة، ج ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .
(٣) في اليتيمة : " تعمدت " .
(٤) في المصدر نفسه : " تسعين " وهو خطأ .

فيقــول : (١)

" وان اخرتني اليوم سن تقدم فقد اسلفتني حوز كل رهان

ليالي طارت بي عقاب بلاغتــــي وبذ ت بغاثا ماستطاع يراني

(٢)
ابابيل خابت دون ادراك غايتي على انها لم تأ ل في الطيران "

وللصابي كلام بليغ ،ضمن رسالة كتبها الى الشريف الرضي ، يصف حالته في آخـــر امره مشبها نفسه بالرديف على ظهر زمان (٣)، يقول : " اصبحت ، . . محمولا حمل الرديف على ظهر زمان ،ان حث الى مصلحة جنح او ثني عن مضرة جمح ،الامر كله اليه ، والعنــان والسوط في يديه ،فانا الراكب وهو الضارب ، وانا المملوك وهو المالك،قد انزلني منزلـــة الاسير ،وتحكم علي تحكم الاميرثم قذف بي الى الفراش ،وباعدني عن الانتعاش ،وحص جناحي بعد الرياش ،ونكبني في المال والمعاش ،فهو الغشوم الظلوم ،والمذمم الملوم ، الذى ان اطعم لم يشبع وان اكل لم يشبع،وان اعطى خفف ،وان اخذ اجحف واسرف ،عجزت عن مداراة خلائقه ايام جلدى ،فكيف اثبت لها في اوان اودى " .

هكذا كان ابو اسحاق في اواخر ايامه يقاسي المرض والعجز الى ان وافته المنية

---

(١) رسائل الصابي والرضي ،ص ٢٠ واليتيمة ،ج ٢ ،ص ٣٠١ .
(٢) اليتيمة : " جايت " .
(٣) الرسالة كاملة في رسائل الصابي والرضي ،ص ٩٥ - ٩٦ .

في شوال سنة ٣٨٤ هـ . (١) وقد اجمعت المصادر على هذا التاريخ باستثناء ابن النديم الذي ذكر ان ابا اسحاق توفي قبل الثمانين وثلاثمائة . (٢) وقد نقلت بعض المصادر هذا التاريخ فأوردته على سبيل الرواية مع ذكرها التاريخ الاول (٣). وسياق حياة ابي اسحاق وما حملته لنا المصادر، من ذكر كتاباته وحالته خلال السنوات ٣٨٠ - ٣٨٤ خاصة منها ما كان يدور في هذه الفترة بين ابي اسحاق و الشريف الرضي من مكاتبات (٤) تدحض هذا القول . انما الخلاف الحقيقي بين المصادر هو في تحديد عمر ابي اسحاق حين وفاته

---

(١) رسائل الصابي والرضي، ص ٤٥ واليتيمة، ج ٢، ص ٣٠٦ ومعجم الادباء، ج ٢ ص ٢٠ والكامل، ج ٩، ص ١٠٦ وتاريخ الحكماء، ص ٧٦ ووفيات الاعيان، ج ١ ص ٥٣ والمختصر في اخبار البشر، ج ٢، ص ١٢٩ واعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٥٢٤ والذهبي، العبر في خبر من غبر (تحقيق فؤاد السيد، الكويت، ١٩٦١) ج ٣، ص ٢٤ والوافي بالوفيات، ج ٦، ص ١٥٩ وعماد الدين ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ (مصر، مطبعة السعادة، ١٣٤٨ - ١٣٥٨/ ١٩٢٩-١٩٣٩) ج ١١، ص ٣١٣ وابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩ - ١٩٥٦) ج ٤، ص ١٦٧ وشذرات الذهب، ج ٣، ص ١٠٧ واسماعيل البغدادى، هدية العارفين (استانبول، طبعة وكالة المعارف، ١٩٥١) ج ١، ص ٧ .

(٢) الفهرست، ص ١٤٩ .

(٣) وفيات الاعيان، ج ١، ص ٥٣ والوافي بالوفيات، ج ٦، ص ١٥٩ وشذرات الذهب، ج ٣، ص ١٠٧ .

(٤) راجع ما ذكر ص ٩٣ - ٩٦ من هذا البحث وللمزيد من التفاصيل انظر ما دار بين الاثنين من مكاتبات نثرية وشعرية في رسائل الصابي والرضي .

فقيل انه في الحادية والسبعين (١) ، وقيل في الحادية والتسعين (٢) ، والفارق بين الرأيين عشرون سنة تزيد في عمر الرجل اى ان الرواية الثانية تجعل ولادته سنة ٢٩٣ هـ . وما ينقض هذا الرأى لدينا امران : الاول ترجيح المصادر للرأى الاول في حين لم يأخذ بالرأى الثاني الا قلة . والثاني تحديد ابي اسحاق لعمره في قصيدة كتبها جوابا على استدعاء الصاحب له الى حضرته بالرى وذلك بعد وفاة عضد الدولة (٣) (ت ٣٧٢) . يقول في القصيدة معتذرا عن القبول :

" والسن تسع بعدها خمسون قد — شامت بوارق يومها المتقارب

فالجسم يضعف عن تجشم راجل — والحال يقصر عن ترفه راكب " (٤)

فاذا كانت بعض المصادر قد حددت سنة ولادته بـ ٣١٣ هـ وانه كان في الحادية والسبعين حين توفي سنه ٣٨٤ ، وطالما ان هذه الابيات قد كتبت بعد وفاة عضد الدولة ، فلا بد اذا ان تكون قد كتبت سنة وفاته تحديدا ، فيثبت تماما ما جاء في المصادر ، وحتى لو انها كتبت بعد ذلك بسنة او اكثر فنحن نبتعد اكثر عن احتمال كونه جاوز التسعين حين توفي .

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ٤٥ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢١ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٥٣ واعلام النبلاء ، ج ١٦ ، ص ٥٢٤ وشذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ والكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٦ والمختصر في اخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

(٣) معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٣٠٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .

عـــــــلاقـــاتـــه بشخصيــــات العصـــر

ادب الصابي وفنه يضاف اليهما شخصية محببة لطيفة تنم عن خلق كـــريــم وفكر نيـر، مؤهـلات كفيلـة بجعل ابى اسحاق ممن تكثر معـارفـه واصدقـاؤه وان يكـون معظـم هؤلاء من اهل الادب والسياسة وممن تضمهم بلاطات الامراء من شعراء وكتاب وقضاة (١)،

---

(١) نذكر من هؤلاء : القاضي ابن معروف وله اليه ابيات شعرية ورسائل (انظر اليتيمة ج ٢، ص ٢٩٤ وج ٣، ص ١٠٨) وابن سكرة الهاشمي (انظر محاضرات الادباء، ج ١، ص ٢٩٧ ابيات مدح كتبها ابن سكرة للصابي) وابن الحجاج الشاعر وله في الصابي مدائح (انظر الجزء الثامن من كتاب التاريخ لهلال بن المحسن المنشور ملحقا بتاريخ الوزراء ص ٤٣٢ - ٤٣٣) والسرى الرفاء وبينهما مكاتبات شعرية (انظر اليتيمة، ج ٢، ص ١٣٢ و ١٤٦-١٤٨ و ١٧٤) وابو محمد جعفر ابن ورقاء الشيباني واخوه ابو احمد عبد الله وهما من رؤساء عرب الشام وقوادها (اليتيمة، ج ١، ص ٩٥) وكان بين ابي محمد وابي اسحاق مودة وتزاور ومكاتبات شعرية (انظر اليتيمة، ج ١، ص ٩٧ - ٩٨ وروضات الجنات، ج ١، ص ١٦٥ ولابي احمد مديح للصابي في اليتيمة، ج ١، ص ٩٨) والشاعران الخالديان : ابو بكر محمد وابو عثمان سعيد (للصابي قصيدة في مدحهما في اليتيمة ج ٢، ص ١٨٣ واعلام النبلاء، ج ١٦ ص ٣٨٧) وابو الفرج الببغاء وبينهما مكاتبات ايضا (انظر اليتيمة، ج ١، ص ٢٥١ - ٢٥٥) وقد مدحه التوحيدي في الامتاع (ج ١، ص ٦٨) وقال عنه في مثالب الوزيرين (ص ٢٧٤) : "كان كاتب زمانه، لسانا وقلما وشمائل وكان له مع ذلك يد طويله في العلم الرياضي". هذا بالاضافة الى علاقاته بالوزراء الذين كتب لهم كالمهلبي، والذين لم يكتب لهم كابن العميد، الذي اشاد بابي اسحاق في احد مجالسه حين قدم بغداد سنة ٣٦٤ قائلا : "ذاك رجل له في كل طراز نسج، وفي كل فضاء رهج، وفي كل فلاة ركب، ومن كل غمامة سكب، الكتابة تدعيه باكثر مما يدعيها، والبلاغة تتحلى به بأكثر مما يتحلى هو بها.

امتن هذه العلائق كانت مع اثنين من اعيان القرن الرابع الهجرى ادبا ورئاسة نعني بهما الشريف الرضي والصاحب بن عباد . (١)

علاقته بالشريف الرضي :

ربطت ابا اسحاق والشريف الرضي علاقة متينة بالرغم من فارق السن بين الاثنين ومن اختلاف الملة . ولسنا ندرى بالتحديد تاريخ بداية هذه العلاقة الا ان اقدم ما ورد في الكتاب الذى ضم المراسلات الشعرية والنثرية (٢) بينهما هي ابيات اربعة من الشعر مؤرخة بسنة ٣٧٦ ومطلعها :

" اقعدتنا زمانة وزمان عائق عن قضاء حق الشريف" (٣)

---

(١) يمكن ان يضاف اليهما الزير المهلبي الذى عمل الصابي في خدمته فترة طويلة وكان اثيرا لديه، وقد مر بنا ان علاقة وثيقة كانت تربط بينهما لكن عدم دراسة هذه العلاقة ضمن علاقاته بشخصيات العصر عائد الى انها درست مفصلة ضمن حياة الصابي ثم انها كانت واضحة وخالية ،كما يبدو،من اية ابعاد سياسة او اى تعقيد او غموض .

(٢) هو كتاب رسائل الصابي والرضي .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧ - ٨ وديوان الشريف الرضي (بيروت،دار صادر ودار بيروت ، ١٣٨٠/ ١٩٦١) ج ٢، ص ٢٦ .

يعتذر فيها ابو اسحاق عن عدم قدرته على زيارة الشريف بالزمانة والضعف اللذين يصيبانه فالصابي كان في ذلك الحين في الثالثة والستين يعاني العلة ، فيما الرضي فتى يافع في السابعة عشرة . ثم امتدت العلاقة بين الاثنين على مايسجله كتاب رسائل الصابي والرضي ، حتى وفاة ابي اسحاق ، فقد كتب الشريف ردا على الابيات المذكورة قصيدة مطلعها :

" كم نميل اليكم ووجيف　　　　وصدود عنا لكنم وصدوف "

يشيد فيها بفضل الصابي وصبره ويمدح بلاغته (١). ثم نجد الشريف يكتب للصابي طلبا بانشاء عهد عن الخليفة الطائع لله سنة ٣٨٠ وقد رسم له عن الطائع تقليد نقابة نقباء الطالبيين والنظر في امور المساجد وخلافه والده في ولاية المظالم والحج بالناس . (٢)

سنة ٣٨٠ توفي سنان بن ابي اسحاق فكتب اليه الشريف رسالة تعزية (٣) بعد ان كان لقيه بنفسه معزيا . وفي رجب من سنة ٣٨٤ كتب ابو اسحاق الى الشريف قصيدة يمدحه فيها ويشكو اليه زمانته وعجزه (٤) . وكان آخر ماكتبه للرضي تهنئة بعيد الفطر سنة ٣٨٤ وكان

---

(١) القصيدة في رسائل الصابي والرضي ، ص ٨ - ١٤ وفي ديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٢٧ - ٣٠

(٢) رسائل الصابي والرضي ، ص ٧٣ - ٧٥ وجواب الصابي في المصدر نفسه ، ص ٧٥ - ٧٦ . وقد تكرر هذا الطلب سنة ٣٨١ بتقليد الشريف عملا آخر . انظر المصدر نفسه ، ص ٧٧ — ٧٩ و ٨٠ - ٨١ .

(٣) رسائل الصابي والرضي ، ص ٦٣ - ٧٠ والجواب عليها في المصدر نفسه ، ص ٧١ - ٧٢

(٤) القصيدة في رسائل الصابي والرضي ، ص ١٥ - ٢٠ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ - ٣٠١ ومطلعها :

" اذا ما تعدت بي وسارت محفة　　　　لها ارجل يسعى بها رجلان " .

والجواب عليها قصيدة مطلعها :

" ظمائي الى من لو اراد سقاني　　　　وديني على من لو يشاء قضاني "

(رسائل الصابي والرضي ، ص ٢١ - ٢٦ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣) .

بين ارسالها اليه وبين موته اثنا عشر يوما وربما كانت آخر ماكتبه . (١)

هذا باختصار مسار الرسائل التي تبادلها الصابي والرضي بين سنتي ٣٧٦ و ٣٨٤ وهي وسواها مما لم يعرف تاريخه تساعدنا على تفهم العلاقة التي يمكن ان تربط فتى من الاشراف بشيخ من الصابئة . ومن خلال هذا النتاج الادبي الرائع من النثر والشعر تبدو هذه العلاقة متينة ونبيلة وتتخذ عدة اوجه :

الوجه الاول : الصداقة والود ، حيث يصف الشريف صديقه في رسالة تأبين كتبها بعد وفاته " بالصديق الصادق والحميم الموافق " . (٢) وفي رد على رسالة تهنئة بالفطر كتبها الصابي سنة ٣٨٤ معتذرا عن عدم قدرته على موافاة الشريف بنفسه ، يقول الشريف واصفا مكانة الصابي لديه : " وقد قبلت عذره ، ادام الله عزه ، في التأخير عني ، وكيف لااقبله وانا احق به واولى بمثله ، لانني الناهض السارح وهو القاعد الرازح ، وانا المطلق المحلول وهو المزموم المعقول . وانا الاقدر على الخطوات وهو الاضعف عن الحركات . وانا طليق السن النامية وهو اسير

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ بعض هذه التهنئة شعر وبعضها نثر . الشعر قصيدة طويلة مطلعها :

" اباكل شيء قيل في وصفه حسن الى ذاك نحو من كناك ابا الحسن "

وهي في رسائل الصابي والرضي ، ص ٢٧ - ٣١ وفي اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٥ والنثر في رسائل الصابي والرضي ، ص ٥٩ - ٩٧ والجواب على الشعر في المصدر نفسه ، ص ٣٢ - ٣٩ واليتيمة ج ٢ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ وعلى النثر في رسائل الصابي والرضي ، ص ٩٨ - ١٠٢ .

(٢) رسائل الصابي والرضي ، ص ١٠٥ .

السن العالية ، والشوق يجذبني اليه كما يجذ به الي ، والنزاع يهفو بـي نحوه كما يهفو به نحوي، فتالله انه الحقيق بالعذر وانا الخليق باللوم والعذل ، ان لم يشهد لـي قلبه بصدق الطوية ويحملني على باطن النية، ولم لا وقد وضعنا قدمينا في قبال واحد ، واستهمنا في طارف من الادب وتالد ، ووالله انني لاتمنى ان ينفرج له صدري انفراجة فيرى فيه مكانه المكين وود ه المصون ، اللذين لا يشاركه فيهما مشارك ولا يملك موضعه منهما مالك " (١) . وفي قصيدة كتبها الشريف ردا على شكوى الصابي من العجز ، يقول واصفا علاقة الاخاء التي تجمعهما : (٢)

" فلولا ابو اسحق قل تشبثي	بخل ، وضربي عنده بجران
هو اللافتي عن ذا الزمان واهله	بشيمة لا وان ، ولا متوان
اخاء تساوى فيه انسا والفة (٣)	رضيع صفاء ، او رضيع لبان (٤)
تمازج قلبانا مزاج اخوة (٥)	وكل طلوبي غاية اخوان
وغيرك ينبو عنه طرفي مجانبا	وان كان مني الاقرب المتداني

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) القصيدة في ديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٥٣٩ ورسائل الصابي والرضي ، ص ٢١ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٣) في اليتيمة : " ودا " .

(٤) في المصدر نفسه : " لا " .

(٥) في المصدر نفسه : " تمازج اخوة " .

(١)

ورب ،قريب بالعداوة شاحط ورب بعيد بالمودة داني

ولو ان لي ، يوما على الدهر امرة وكان لي العدوى على الحدثان

خلعت على عطفيك برد شبيبتي جوادا بعمرى واقتبال زماني

وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي وان فل من غربي وغض عناني"

والرسائل الشعرية والنثرية المتبادلة بين الاثنين تزخر بأمثلة هذا الكلام من وصف للصداقة والمحبة بينهما ،خاصة منها ماكتبه الشريف الرضي بعد وفاة الصابي من تأبين ورثاء مما سنعود لذكره فيما بعد .

ولو ان قصائد ورسائل الشريف اصدق واقوى في تصوير هذه العلاقة الا انه لا بد من ذكر بعض كلام الصابي في الشريف : "ولولا العلة التي قد اخذت بمختقي وجثمت على مدارج نفسي ،لما اخللت بقصد حضرته والمواظبة على خدمته ،فالله سبحانه يعلم ان عيني ما تكتحل بغرة هي اعز علي من غرته ،ولقد اهدى اليّ يوم تجشمه العناء الى داره التي انا ساكنه فيها بمشاهدة ضياء وجهه ومناسمة شريف خلقه ،تحفة لا يكاد الزمان يسمح لي بمثلها ، ولا يمكنني من اهتبال غرتها ".(٢) ويبدو من الامثلة المذكورة اتسام عاطفة الشريف بالوجدانية والصدق وعدم التكلف ،اما الصابي فقد وسم وصفه للشريف بالاحترام والتشريف نسبة لمكانته الدينية الكريمة .

---

(١) في اليتيمة : " ساخط " وفيها يأتي هذا البيت قبل البيت السابق .
(٢) رسائل الصابي والرضي ،ص ٨٠ .

ثم ان هذه الصداقة   - كانت تترجم اعمالا ، فنرى

الرضي مثلا الى جانب صديقه حين وفاة ابنه سنان ، فلم يكفه ان يمضي اليه معزيا حتى كتب له رسالة فيها كل مايقال مما يقوى النفس ويعزز الايمان (١) ، ويطلب منه في نهايتها ان يجيبه عليها كي يطمئن الى انها لاقت صدى في نفسه وانه عاد الى السلوة والعزاء .

ولابد ان يكون موقف ابي اسحاق منه مماثلا حتى نجد الشريف يقول في رسالة بعد وفاة الصابي : " ان فقده اعرى ظهرى على كثرة حماتي وانصارى واوحدني على اقاربي وعشائرى ، وجرعني من ثكله غصة لاازال اجد مرارتها في لهواتي ، واحس بالمها ما بين اضلاعي ابدا " . (٢)

ويمكن ان نحدد لهذه الصداقة بين الاثنين اسبابا معينة منها اعجاب كل منهما بمناقب الآخر وفضله ، فالرضي يرى ان الصابي متكامل الصفات والفضائل والاخلاق حتى لو طلب فيه عيب او نقص لما وجد باستثناء الاسلام ، حيث ان فضائله دنيوية " فلعمرى لو طلب فيه عائبه خلة تحتاج الى ان تتمم ونقيصة يجب ان تتمم من الفضائل الدنياوية والمناقب الاكتسابية ، لاعجزه ماطلب واعياه ماارام والتمس " (٣) وفي كتاباته اليه الكثير من الوصف لفضله ومناقبه . اما ابو اسحاق فيضاف الى اعجابه بصفات الشريف وخلقه

---

(١) الرسالة في رسائل الصابي والرضي ، ص ٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

اعجابه بنسبه الكريم . فقد كتب قصيدة في مدحه ،(١) كانت مدحا لهذه الجماعة العلوية واعلاء لشأن الرضي من بينها، من ابياتها :

" ابا كل شيء قيل في وصفه حسن　　الى ذاك ينحو من كناك ابا الحسن
الست لها بعد الوصي ، وآله　　وانتم اناس فيكم المجد قد قطن
مناقبكم حق بدت بيناته　　ودعواه اضغاث يراهن في الوسن
توقلتم في كل هضبة سودد　　فاوفيت واستعليت منها على القنن
تقسم هذا الفضل بين طوائف　　واقسامه مجموعة فيك تختزن
غدوا لك كالأبعاض اذ انت كلهم　　كمالا عجيبا مثله قط لم يكن "

وقد كان الرضي يشعر بفارق النسب والميلاد بينه وبين صديقه ، وربما كان يلام على صداقته لهذه الاسباب ، فنراه يفتش عن علائق امتن من علائق النسب والميلاد ليبرر هذه الصداقة وهي المناسبة في الفضل ، فيقول في رثائه :

" الفضل ناسب بيننا ان لم يكن　　شرفي مناسبه ولا ميلادى " (٢)

وفي ذلك يقول نثرا : فالا يكن قريني سنا ولدة ، فانه قريبي صفاء ومودة . والا يكن موازني شرفا وحسبا ، فانه مساهمي فضلا وادبا ." (٣)

---

(١) القصيدة في رسائل الصابي والرضي ،ص ٢٧ والیتيمة ، ج ٢ ،ص ٣٠٣ .
(٢) رسائل الصابي والرضي ،ص ٥٣ وديوان الرضي ،ج ١ ص ٣٨٥ واليتيمة ،ج ٢ ،ص ٣٠٩ معاهد التنصيص، ج ٢ ، ص ٧٨ وفي رسائل الصابي والرضي واليتيمة : " اذ لم يكن " .
(٣) رسائل الصابي والرضي ،ص ١٠٧ .

ثم ان طبائع الرجلين كانت متوافقة ، فكان كل يرتاح لحديث الآخر ، اضافة الى الثقة المتبادلة . فيصف الشريف الصابي بانه " شاهد لخاطرى في المنافشة وحافظ لسرى عند المباثة " . (١) ونجد الصابي يوصي الرضى بحفظ اولاده والعناية بهم بعد وفاته :

" هنالك فاحفظ في بني اذمتي — وذد عنهم روعات كل زمان
فاني اعتد المودة منك لي — حساما به يقضون في الحدثان
ذخرت لهم منك السجايا وانها — لانفع مما يذخر الابوان
وفاء ومدا للجناح عليهم — وضنا بهم عن مس كل هوان " (٢)

الوجه الثاني للعلاقة بين الاثنين هو الوجه الادبي، اذ ان كلا الرجلين من اهل الادب ، انما يغلب النثر على ادب الصابي والشعر على الرضي، ويبدو ان كلا منهما يقدر ناحية ابداع الاخر . فالشريف يقدر نثر الصابي وفنه الكلامي لذلك رأينا انه كان يطلب منه انشاء العهود له عن الطائع لله . (٣) وقد وصف الشريف نثر الصابي بقوله : " جاريا على رسمه في ايراد الغرر وازواج الغقر والاستكثار من المعاني المضيئة والالفاظ الجلية " . (٤) وقال فيه : (٥)

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ١٠٧ .
(٢) رسائل الصابي والرضي ، ص ١٨ - ١٩ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠١ .
(٣) انظر رسائل الصابي والرضي ، ص ٧٣ و ٧٧ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٩ .
(٥) الابيات في المصدر نفسه ، ص ٥٣ وديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٥٤٤ واليتيمة ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

" مسود قصب(١) الاقلام نال بها　　نيل المحمر اطراف القنا اللدن

ان لم تكن تورد الارماح موردها　　فما عدلت الى الاقلام عن جبن

والطاعن الطعنة النجلاء عن جلد　　كالقائل القولة الغراء عن لسن ".

اما الصابي فكان يعرض على الرضي بعض ما يكتبه من شعر ليحكم له فيه ، من ذلك ما ارسله من مجموعة مقطوعات شعرية حول حفظ السر سنة ٣٨٢ هـ . (٢) ومن اقوال الصابي مما يدل على اعجابه بأدب الشريف ما جاء في جواب على طلب الشريف انشاء نسخة عهد :

" والله ياسيدي لو كتبت انت ما استكتبتنيه ، وكفيت نفسك ما استكفيتنيه ، لكنت اجرأ مني يدا ولسانا ، واطول شأوا وميدانا ، واكثر اصابة واحسانا ، لانك ترجع الى نسبك العربي الشريف، وادبك المنيف ، فتكون بهما احز مني لمفاصل الكلام واسبق الى درك المرام . (٣)

وقوله : " فوالله ماقرع الاسماع احسن من نظمه اذا نظم ، ونثره اذا نثر ، وحكمه اذا حكم ، وفصله اذا فصل ، فلو استطعت ان اسعى الى انامله التي سطرت تلك البدائع ورصفت تلك الجواهر لفعلت مسارعا حتى اودعهن عن كل حرف قبلة واستطعمهن جملة

(١) في اليتيمة : " سنسود ".
(٢) رسائل الصابي والرضي ، ص ٨٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

اذ كن للفضائل معادن وللمحاسن مكامن ." (١)

الوجه الثالث للعلاقة هو الوجه السياسي وقد تناولت هذه الناحية غير دراسة ادبية . منها كتاب حياة الشريف الرضي للشيخ عبد الحسين الحلي وكتاب الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ، بالاضافة الى اشارة بعض المصادر والمراجع ،الى هذا الامر اشارة عابرة . (٢)

تتلخص هذه المسألة بالقول ان الشريف الرضي كان ذا همة عالية وطموح كبير بلغ به حد الطمع بالخلافة والعمل من اجل تحقيق ذلك ، يعزز هذا الطموح لديه انتسابه الى بيت النبوة ومؤهلاته وقدراته العالية . وديوان الرضي يزخر بشعره الملئ بالثورة والعزم على الوصول الى غايته هذه كقوله :

" ما انا للعلياء ان لم يكن   من ولدى ماكان من والدى

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ٩٤ .
(٢) روضات الجنات ، ج ٦ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ و ٢٠٤ وزكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الاولى ، ١٣٥٢ / ١٩٣٤) ج ٢ ، ص ٢٩١ ومقدمة ديوان الشريف الرضي (شرح وتعليق كامل سليمان ، بيروت ، دار الفكر ومكتبة العرفان ، ١٩٥٦ / ١٣٧٥) ج ١ ، ص ٨ ومقدمة ديوان الرضي ، ج ١ ص ٥ - ٦ (دار صادر . وهذه النسخة هي المعتمدة في هذا البحث) والسيد محمد حسين فضل الله " تأملات حول شخصية الشريف الرضي " ، الثقافة الاسلامية ٢ (١٤٠٦ هـ) ص ١٢ .

ولا مشت بي الخيل ان لم اطأ   سرير هذا الاغلب الماجد " (١)

وقوله عن نفسه :

" هذا امير المؤمنين محمد   كرمت مغارسه وطاب المولد " (٢)

وقوله في امير المؤمنين القادر بالله سنة ٣٨٢ :

" عطفا امير المؤمنين ، فاننا   في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت   ابدا كلانا في المعالي معرق

الا الخلافة ميزتك فانني   انا عاطل منها ، وانت مطوق " (٣)

وقد سيطر هذا الطموح على شخصية الرضي وعلاقته بالملوك والخلفاء وطبعها بطابعه، كما كان له الاثر الكبير على حياته . (٤)

---

(١) ديوان الرضي ، ج ١ ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ وروضات الجنات ، ج ٦ ، ص ١٩٧ .

(٢) ديوان الرضي ، ج ١ ، ص ٤٠٩ وروضات الجنات ، ج ٦ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٣) ديوان الرضي ج ٢ ، ص ٤٢ وروضات الجنات ج ٦ ، ص ١٩٢ .

(٤) في كتاب الحلي حياة الشريف الرضي ، شرح واف لبواعث هذا الطموح ومراحله ، انظر الصفحات ٦ و ١٢ - ٢٧ و ٣٨ وخاصة ٤٧ - ١٠٥٤ اما كتاب الدكتور عباس ، الشريف الرضي ، فيرافق تقلبات هذا الطموح في نفس الشريف بين ثورة وخمود وقوة وضعف . انظر الكتاب خاصة منه الصفحات : ١٥ - ١٦ و ٧٨ - ٩٥ و ٩٨ - ١٠٩ و ١١٣ - ١٢٦ و ١٤٢ - ١٤٣ و ١٨٢ .

اما ابواسحاق الصابي ، الشيخ المحنك ، ذو الخبرة بالزمان ، والمعرفة بعلم النجوم ، فقد بشر الرضي في احدى قصائده اليه بانه سيصل الى مطامحه قائلا : (١)

"ابا حسن لي في الرجال فراسة ... تعودت منها ان تقول فتصدقا

وقد خبرتني عنك انك ماجد ... سترقى من العلياء ابعد مرتقى (٢)

فوفيتك التعظيم قبل اوانه ... وقلت اطال الله للسيد البقا

واضمرت منه لفظة لم ابح بها ... الى ان ارى اظهارها لي مطلقا (٣)

فان عشت او ان مت فاذكر بشارتي (٤) ... واوجب بها حقا عليك محققا

وكن لي في الاولاد والاهل حافظا ... اذا ما اطمأن الجنب في مضجع النقا" (٥)

والسؤال هو : هل كان لهذه الفراسة الواضحة والمؤكدة من قبل صاحبها تأثير على نفسية الشريف وحياته ؟ هنا نجد اختلافا في نظر الدارسين . لذا لابد من استعراض بعض الآراء التي قيلت في هذا الموضوع ومناقشتها بغية الاستفادة من ذلك وللمزيد من الايضاح .

(١) الابيات في رسائل الصابي والرضي ، ص ٤٠ وديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٨٩ — ٩٠ وروضات الجنات ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ .

(٢) في روضات الجنات : "الى" .

(٣) في ديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٩٠ : "اطلاقها" .

(٤) في روضات الجنات : "فان مت او ان عشت" .

(٥) في ديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٩٠ : "في موضع البقا" .

عد بعض الدارسين هذه الفراسة اسطورة او خرافة لا يمكن ان يدخل مثلها الى قلب الشريف وعقله . (١) وكأن الاخذ بهذا الكلام نوع من السخف حاشا للشريف ان ينزلق اليه . وهذا الرأى يدحضه امران : ثقة الشريف بالصابي واطمئنانه اليه ، ثم القصيدة التي اجاب الشريف بها فراسة الصابي والتي مطلعها : (٢)

" سننت لهذا الرمح غربا مذلقا   واجريت في ذا الهند واني رونقا "

وفيها يقول واعدا الصابي بالسعي لتحقيق ظنه وبنصيبه من العز الذى سيبلغه :

" لئن برقت مني مخايل عارض   لعينيك يقضي (٣) ان يجود ويغدقا

وان ترليتا (٤) لا ئذا بغريسة   يراصد غرات المقادير مطرقا

فما ذاك الا ان يوفر طعمها   عليك اذا جلى اليها وحققا

وان يرق يوما في المعالي فانه   سما ليوقّي وطء رجلك مزلقا

وان يسع في الامر العظيم ، فانما   سعى لك في ذاك الطريق مطرقا

فان راشني دهرى (٥) اكن لك بازيا   يسرك محصورا ويرضيك مطلقا

(١) مقدمة ديوان الرضي لكامل سليمان ، ج ١ ، ص ٨ .

(٢) القصيدة في رسائل الصابي والرضي ، ص ٤١ وديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٩٠ والبيتان الاولان منها في روضات الجنات ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ .

(٣) في رسائل الصابي والرضي ، ص ٤١ : " لعينك تقضي " .

(٤) في المصدر نفسه : " لابدا " .

(٥) في المصدر نفسه ، ص ٤٣ : " دهر " .

أشاطرك العز الذى استفيده — بصفقة راض ان عنيت واملقا

وان تعطني الاعظام قولا فانني — ساعطيك فعلا منه اذكى واعبقا

فوالله لاكذبت ظنك انـــــه — لعار اذا ماعاد ظنك مخفقـــا

فان الذى ظن الظنون صوادقا — نظير الذى قوى الظنون وحققـا "

فيما يعترف البعض ان لكلام الصابي نوعا من الايحاء بهذه الفكرة للشريف تحببا او تزلفـــا (١) .

اما صاحب كتاب حياة الشريف الرضي فيعبر عن هذه الفراسة " بالمماذقة والمواربة " (٢)

ويرى ان التأثير عكسي فحب الخلافة الذى مازج نفس الشريف منذ صباه هو الذى اثار شعـــور الصابي هذا (٣) وقد كان الصابي — كما يقول — يهدف من خلال ذلك الى استعادة مقامـــه الاول بعد ان افقده اياه عضد الدولة واهانــه . (٤)

اما تعليل الدكتور عباس لهذا الموضوع فيمكن اختصاره على الشكل التالي : ليـــس الصابي " خبيثا ماكرا " في "نبوءته" (٥) وهنالك عدة عوامل دفعته اليها :

— كان يظهر له من خلال قصائد الرضي طموحه الى الخلافة والمجد وتغنيه بالحرب والسلاح

(١) م. فضل الله "تأملات حول شخصية الرضى" ص ١٧ .
(٢) الحلي ، حياة الرضي ، ص ٥١ .
(٣) المصدر نفســـه .
(٤) المصدر نفســـه .
(٥) عباس ، الشريف الرضي ، ص ١١٤ .

اداة الثورة .

ــ معرفــة الصابـي بأن المتربعين على عرش الخلافة لا يمتازون عن الرضي بعقل ولا ادب ولا طمـوح .

ــ ربما لفته انتصار العلوية في كل مكان فلم يبق الا ان يكون الخليفة في بغداد علويا .

ــ السنوات تقترب من نهاية القرن حين يمكن ان يبعث الله للناس اماما ليجدد لهم دينهم (١) ويرى الدكتور عباس ايضا ان لهذا الكلام الصادر عن الصابي موقعا عميقا في نفس الرضي نظرا لاحترامه له وثقته به وبتجربته ، ثم لكونه صابئا عارفا بالنجوم . (٢) .

نلاحظ انه في الرأي الاول يرتبط التعليل بحياة الصابي وغاياته حيث يعتبر المؤلف ان رغبة الصابي في استعادة مركزه بالاضافة الى ما يعرفه من طموح الرضي للخلافة ، املت عليه هذه الفراسة ، لذا فهو موارب ومماذق ، اما الرأي الثاني فيربط الفراسة بشخصية الصابي وخبرته حيث اتخذ من معرفته بحياة الرضي وافكاره ، ومن مراقبته الوضع السياسي في عصره عامة وربمـا من معرفته بعلم النجوم دلائل على فراسته هذه ، ونلاحظ انه لا اثر في هذا الرأي لغايات خاصة للصابي وربما لهذا السبب لم يعتبره خبيثا او ماكرا . ولا بد من الانتباه الى امرين في هذا التعليل : الاول هو ان انتصار العلوية في بغداد وتسلمهم الحكم لم يكن امرا متيسرا او متوقعا لتمسك البويهيين ، اصحاب السلطة الحقيقيين ، بالخلافة العباسية . اما الامر الثاني فهو ان الاعتقاد بامكان ان يبعث الله في نهاية كل قرن اماما يجدد للناس دينهم هو اعتقاد اسلامي ، من الصعب ان يؤمن به ابو اسحاق الصابئي المعتقد . ثم ان الشريف قد لا يكون الامام الذي يصلح للناس دينهم مع سمو اخلاقه وشمائله وذلك انه لم

---

(١) عباس ، الشريف الرضي ، ص ١١٤ .
(٢) المصدر نفسه .

يتحدث عن الخلافة ،كمضمون سياسي يحقق من خلاله اهدافا اسلامية تحل مشا كل الناس ،كما انه لم ينطلق من مشاكل الامة المصيرية ـ من ظلم الحاكم وجهل المحكوم ـ ليضع برنامجا لتغيير الواقع وانما كانت مسألة الخلافة بالنسبة اليه مجرد طموح يرضي نزعة الشعور بالعظمة الذاتية لديه المكتسبة من كنايته المميزة وانتسابه الى بيت النبوة . (١)

لنلاحظ الآن بعض الحقائق المستقاة من النصوص :

اولا : نجد في بعض شعر الشريف ما يدل على نوع من المشاركة بينه وبين الصابي في نيل غاية واحدة كما في جوابه على فراسة الصابي حيث يؤكد على مشاركته فيما سيصل اليه،(٢) وفي قصيدة اخرى يقول :

" تمازج قلبانا مزاج اخوّة وكل طلوبي غاية اخوان " (٣)

فلنبق هذه الفكرة في ذهننا ، وننتقل الى نص آخر نستخرجه من رسالة في تأبين الصابي كتبها الشريف الى بعض الرؤساء :

" ان فقده اعرى ظهري على كثرة حماتي وانصاري،واوحدني على اقاربي وعشائري

(١) فضل الله "تأملات حول شخصية الرضي" ص ١٨ .

(٢) راجع الابيات المذكورة ص١١٢ - ١١٣ من هذا البحث وانظر القصيدة كاملة في ديوان الرضي، ج ٢ ،ص ٩٠ ورسائل الصابي والرضي، ص ٤١ .

(٣) رسائل الصابي والرضي ،ص ٢٤ وديوان الرضي،ج ٢ ،ص ٤١ه والبتيمة،ج ٢ ،ص ٣٠٢ . وفي البتيمة " تمازج اخوة " .

وجرعني من ثكله غصة لاازال اجد مرارتها في لهواتي ، واحس بالمها مابين اضلاعـــــي ابدا ، ما اطيل لي في الامد وروخي لي من الطول ، حتىلقد ضاقت لذلك مفاسخ قلبي و ضعفت حوامل جسمي ، وحننت الى قرب الوفاة وسئمت تكاليف الحياة " (١) ثم قوله : " لقد فجعـت منه بفص الفضائل الوريق ، ولسا ن المناقب الذليق ، والاروع الذى ماضل في مسارح الخطـوب ، ولم يظلع باعباء الامور . ولا التفت عليه العظائم الا فرجها ، ولااستبهمت دونه المضائـــق الا ولجها ، ولا جرد في مهم الا كفاه ، ولااستطب لداء الا شفاه " . (٢) وقوله : " لقد وجـدت به وجد الرؤوم ببكرها وقد فقدته ، والبغوم بطلاها وقد اضلته ، وسلبنيه الزمان آنس ماكنـت بفضله ، واحوج ماكنت الى مثله ، شا حذا لخاطرى في المنافثة وحافظا لسرى عند المباثـة" (٣)

وقوله : فياليت شعرى على ما آسى من ابي اسحاق بعد خلو مكانه وتهافت بنيانـــه : على رياسته القديمة وقدمه المتقدمة وتقلبه في الدول يستمدها من التجارب وتستمده مـــن المناقبه وتكسوه ملابس العز والفخر ، و يكسوها ملابس الصيت والذكر ، ام على انقطاعه مـن المجارين وانفراده عن المباريين ، وحصوله في البلاغة لمعة ساطعة الشعاع وغرة سائلة القناع ، وسابقا قداعجز الطالبين وامن اللاحقيـن " . (٤)

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ١٠٦ .
(٢) المصدر نفســه ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
(٣) المصدر نفســـه ، ص ١٠٧ .
(٤) المصدر نفســـه ، ص ١٠٩ .

هذه المقطوعات تبين لنا عدة امـــور :

اولا ، الصابي سند للرضي يعتمد عليه حتى يشعر بعد فقده بالضعف مع وجود الانصار وبالوحدة مع وجود الاقارب ، ولابد من الاشارة الى ان الرضي كثيرا مافضل الصابي على اقاربه في شعره (١)، وهو عامة يضيق بهؤلاء الاقارب نظرا لما بينهم من تنافس على السلطة والنقابة وغير ذلك . (٢) اذا فالتأثير الذى تركته وفاة الصابي كان كبيرا على الشريف حتى بلغ به الضعف والتأثر ان تمنـــى الموت لنفسه حين قال : " لقد ضاقت لذلك مفاسخ قلبي وضعفت حوال جسمي وحننت الى قـرب الوفاة وسئمت تكاليف الحياة ."

الامر الثاني هو ثقة الشريف بمقدرة الصابي على تدبير الامور وتسييرها ، وايجاد الحلول والتخلص من المآزق .

---

(١) من ذلك قوله : " وغيرك ينبو عنه طرفي مجانبا وان كان مني الاقرب المتداني
ورب قريب بالعداوة شاحط ورب بعيد بالمودة داني"

(ديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٥٤) .

وقوله : ان يدن قوم الى داري فانهم وشاْعني فانت الروح في البدن
فالمرء يسرح في الآفاق مضطربا ونفسه ابدا تهفو الى الوطن
والبعد عنك بلاني باستكانهم ان الغريب لمضطر الى السكن
انت الكرى مؤنسا طرفي وبعضهم مثل القذى مانع عيني من الوسن " .

(ديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٥٤٥ ورسائل الصابي والرضي ، ص ٣٦) .

(٢) عباس، الشريف الرضي ، ص ٣٦ .

ثالثا : الموت وافى الصابي حين كان الرضي بأمس الحاجة اليه يحادثه ويفضي اليه باسراره .

رابعا: ايمان الرضي بكفاية الصابي في الرئاسة وسياسة امور الدولة وذلك بتجربته الفنية وبلاغته العالية .

ثم لنترك هذا ايضا لنشير الى امر آخر مهم وهو شعور الرضي بالغبن اللاحق بابي اسحاق والظلم الذى تعرض له حين لم تعطه الايام ما كان يستحقه نظرا لما يتمتع به من فضائل . من ذلك قول الشريف :(١)

" ما قدر فضلك ما اصبحت ترزقه ... ليس الحظوظ على الاقدار والمهن

قد كنت قبلك من دهرى على حنق ... فزاد ما بك من(٢) غيظي على الزمن

وقوله : (٣) " ان شكواك للزمان مبين ... لي على قدر(٤) عقله المضعوف

ايعوم المجهول بحرا ولا يقـ(٥) ... قع غلا للفاضل المعروف

قد مت غيرك الجدود واخر ... ت ولكن انا فغير منيف"

وهنا نجد شيئا مشتركا بين الاثنين : قدرات ومؤهلات عالية وحق مهضوم ، نقمة على

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ٣٥ - ٣٦ وديوان الرضي ج ٢ ، ص٥٤٤ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٢) في رسائل الصابي والرضي ، ص ٣٦ واليتيمة : " في " .

(٣) رسائل الصابي والرضي ، ص ١٢ وديوان الرضي ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٤) في رسائل الصابي والرضي : " عن " .

(٥) في المصدر نفسه : " فيه " .

الزمن وطموحات مشتركة .

وهكذا اصبح لدينا الآن مجموعة من الحقائق يمكن تلخيصها بالقول ، ان الاثنين يسعيان لغاية مشتركة . وان وجود الصابي كان دعامة كبيرة لعمل الشريف فضعف بعد وفاته ثم ان الشريف كان مؤمنا بقدرات الصابي في سياسة الامور وتدبيرها ، معجبا ببلاغته واهميتها في تسجيل مآثر الدولة وبالاضافة الى ذلك يشعر بان الصابي لم يعط مايستحق .

بناء على ذلك لا يُستبعد ان يكون الصابي مستشار الرضي في اعماله ، يبوح له باسراره وطموحاته فيجد لديه النصيحة الحكيمة التي استمدها من حياته الطويلة في الوسط السياسي ولا يستبعد ايضا ان يكون قد اعد للصابي منصبا يتبوأه حين يتسلم زمام الامور ، كأن يكون مستشارا له يستفيد من ارائه ، او صاحبا لديوانه يرفع صيت الدولة ، او ربما وزيرا يعهد اليه بالمهم من الامور أليس لدى الصابي الكفاية التامة لتولي هذا الامر ؟ بلى وهذا مايعرفه الرضي جيدا . ويعرف ان الصابي لن ينافسه في امر بل سيكون صنيعته المطيع لذا يصح الاعتماد عليه اكثرمما لو كان احد اقربائه خاصة انه سيوفر له ما حرمته إياه الايام وحكام ذلك الزمان .

اما من ناحية ابي اسحاق ، فاغلب الظن انه لا يريد تحديدا استعادة كرامته التي اهانها عضد الدولة ، كما ذكر صاحب كتاب حياة الشريف الرضي وانما يريد ضمانة

لنفسه ولابنائه من بعده بان لا يتكرر مافعله عضد الدولة به في زمن آخر ومع اشخاص آخرين. فجماعة الصابئة في بغداد فئة قليلة العدد ضعيفة وسط المجتمع المسلم الضخم تريد العيش بسلام وسيلتها الى ذلك العلم وحسن التصرف . وليس بعيدا ان يكون قد اعتمد في فراسته على ماعرفه من طموحات الشريف ومن واقع الحال في عصره كما ذكر الدكتور عباس ، انما كان للغاية الشخصية من طلب الضمانة والحماية له ولابنائه الدافع الكبير في هذه الفراسة والا اليس غريبا ان يكون الصابي قد تنبأ ايضا للصاحب بن عباد بالرفعة والعز وطلب منه ايضا حماية ابنائه من بعده ؟

يقول الصابي في رسالة استماحة كتبها الى الصاحب بن عباد : " على انه لم يستوف بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه ، فان للدنيا مواعيد فيه لابد من ان ينجزها بمساعيه، وما اخاف في هذا القول والحمد لله من غلط الفراسة ولاكذب المخيلة، ولا بمعارضة المعارض ومناقضة المناقض ، ولا اعدم صحة الشهادة وقيام الدلالة وقبول المستمع وتشيع المتبع ، . . . . " (١)

ثم ان ابااسحاق عندما احس بقرب وفاته سنة ٣٨٤ كتب الى الصاحب كتابا يسأله فيه الاستمرار في امداد ولده من بعده بالرسم المقرر لهم (٢) وقرن الكتاب

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٤٠٦ .

(٢) معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٣٠٣ ويروى ياقوت عن هلال بن المحسن ان الصاحب بن عباد كان على اهتمامه ومراعاته لمن ببغداد والحرمين من كتاب وشعراء وادباء وزهاد . . . . . يبعث اليهم المال كل سنة مع الحاج على منازلهم فيحمل الى ابي اسحاق بن هلال خمسمائة دينار والى حفيده هلال بن المحسن الف درهم (معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٣٠٠) .

بقصيـدة يقـول فيهـا :

"اسيدنا ان المنية اعذرت الي بآيات تروع وتذعر
لها نذر قد آذنتني بهجمة على مورد ما عنه للمرء مصدر
وحق لنفس كان منك معاشها اذا غمضت عينا وعينك تنظر
ومن ورث الاولاد بعد وفاته حضانك طابت نفسه حين يقبر
أأطلب منك الرفد عمرى كله واطلبه والجنب مني معفر؟
وليست باولى بدعة لك في الندى لها موقف فيه لك الحمد ينشر" (١)

وهذا شبيه جدا بما كتبه في السنة نفسها الى الشريف الرضي من قصيدة : (٢)

"هو الاجل المحتوم لي جد جده وكان يريني غفلة المتواني
له نذر قد آذنتني بهجمة له لست منها آخذا بأمان
ولا بد منه ممهلا او معاجلا سيأتي فلا يثنيه عني ثاني
هنالك فاحفظ في بنيّ اذ مت سي وذد عنهم روعات كل زمان
فاني اعتد المودة منك لي حساما به يقضون في الحدثان
ذخرت لهم منك السجايا وانها لا نفع مما يذخر الابوان
وفاء ومدا للجناح عليهم وضنا بهم عن مس كل هوان" (٣)

---

(١) معجم الادباء، ج ٦، ص ٣٠٤ – ٣٠٥.

(٢) القصيدة في رسائل الصابي والرضي، ص ١٥ واليتيمة، ج ٢، ص ٢٩٩ ومطلعها :

"اذا ما تعدت بي وسارت محفة لها ارجل يسعى بها رجلان".

(٣) رسائل الصابي والرضي، ص ١٨ – ١٩ واليتيمة، ج ٢، ص ٣٠١.

وقد افضنا في ذكر ابيات القصيدتين لما بين معانيهما من تشابه وحتى بين الالفاظ ايضا ، ونراه يتوسل الى كل منهما بما يربطه به من علاقة فالاول يرفده بالمال لذا يطلب منه الاستمرار في ذلك والثاني تربطه به مودة يرى من مستلزماتها رعاية ابنائـــه من بعده . هذا الامر يؤكد لنا اهمية دور الجانب الشخصي في موضوع الفراســـة على ان هذا لا يعني انه يمكننا ان نسمي هذه الفراسة مواربة ومماذقة لان تحققهـــا يشكل نتيجة منطقية لطموحات الشريف وسعيــه اليهـــا .

اذا يمكن القول ان الصابي كان معينا للشريف الرضي على تنفيذ مآربه بما يقدمــه له من دعم معنوى ، ان بحفظ اسراره او بتثبيته على السعي فيما يريد ، او بمده بالمشورة والرأى وذلك لما كان يرى في الشريف من رغبـــة في هذا الامر واستحقاق له ولما كان يطوى في نفســـه من توق الى توفير السلام والامن لهولابنائه من بعده .

لكن ربما كان الامر ابعد من ذلك وان العلاقة بين الاثنين يمكن ان تفسر بنـــوع من التوافق السياسي والمصلحة المشتركة . فاذا عدنا الى حياة كل منهما وجدنا فيهـــا فترة مظلمة يمكن ان تسمى بزمن النكبة وهو عهد عضد الدولة .

فالصابي قد اهين في هذه الفترة وانـزل من مكانته العالية ليسجن ويصادر مما الجأه الى استعطاف هذا وذاك من الكبراء للشفاعة له او لمده بالمال، اما الرضـي فقد كان طفلا ابن عشر سنوات حين اعتقل ابوه وعمه في فارس . (١) ولا يستبعد ان يكونا قد صودرا ايضا ، اما احباؤه واصدقاء ابيه فقد خضعا لتدابير عضدالدولة،فهـم بين حبيس وقتيـل . (٢)

فاذا كان قد تأكد لدينا استنادا الى الرسائل المتبادلة بين الشريف والصابـي انهما كانا على علاقة جيدة سنة ٣٧٦ فهذا لا ينفـي احتمال ان تكون العلاقة اسبـق في الـزمن او ان تكون قد ابتدأت بعلاقة ماربطت بين الصابي ووالد الشريف ابي احمـد الموسوي ربما اقتصرت على المعرفة المتبادلة ،او المودة والاحترام .... المهم ان الشريف والصابي عاشا الظروف نفسها في عهد عضد الدولة وهذا ما يحصرهما في خانـة واحدة : خانة المضطهدين من قبل الحكم . وتختلف طرق التعبير عن هذه المعارضـة ، فظهر تعبير الشريف في طموحه لنيل الخلافة وسعيه العملي من اجل ذلك : امـا الصابي فانه قد وجد فتى شريفا صاحب طموح كبير فوجه اهتمامه اليه يمده بكل ما يقوى لديه آماله وطموحاته ، يريد ان يخلق به بديلا لما هو موجود على الساحة وان ينتقم بـه من البويهيين الذين اساؤوا اليه واحتقروا خدمته او ان يتوصل عن طريقه الى مركزقوة في الدولة .

---

(١) تجارب الامم، ج ٢ ،ص ٣٩٩ .
(٢) الحلي ،حياة الرضي ،ص ١٣ .

على هذا الاساس، يبدو الصابي صاحب اطماع يعلم انه لا يستطيع تحقيقها بنفسه بسبب سنه العالية ووضعه الصعب، لذلك عمد الى العمل في الخفاء بأن وقف وراء الرضي يمده بالعون والثقة. فكان الرضي الشخصية التي ترضي طموحه وتحقق له ما لم يعد قادرا على تحقيقه بنفسه، اما بالنسبة للشريف فقد كان ابو اسحاق اكثر من هذا، كان السند القوى والدعم الثابت والمحفز الدائم، لذا نجد انه افتقده كثيرا بعد وفاته، وبهذا يمكن ان نفسر الصدق في التعبير عن مشاعره نحوه ان خلال حياته او بعد وفاته والذى لا نجده بهذه القوة في كتابات الصابي الى الشريف او عنه .

هذه اهم جوانب او اوجه العلاقة التي ربطت الصابي بالشريف الرضي، وقد كانت على الاقل بالنسبة للرضي عميقة الاثر بعيدة الغور، فقد كتب في ابي اسحاق القصائد الجميلة والتي عرضنا لنماذج منها، فهو بالنسبة اليه جزء من الحلم الكبير الذى ملأ كيانه. ولما توفي ابو اسحاق رثاه الشريف بقصيدة طويلة مطلعها :

" ارأيت من حملوا على الاعواد   ارأيت كيف خبا ضياء النادى"

وكان ان عتب على الشريف فيها كونه شريفا يرثي صابئا فبرر ذلك بالقول : " انما رثيت فضله." (١) وقد كان من نصيب هذه القصيدة ان يفسرها ابن جني (٢) ضمن كتابه تفسير العلويات. وهي اربع قصائد للشريف الرضي منها هذه القصيدة وقصيدته

---

(١) وفيات الاعيان، ج ١، ص ٥٤ واعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٥٢٤ والوافي بالوفيات، ج ٦، ص ١٦١ وشذرات الذهب، ج ٣، ص ١٠٧ وروضات الجنات، ج ٢، ص ١٦٦ . ويقال ان الشريف المرتضى اخا الرضي، عندما سمع مطلع هذه القصيدة قال : نعم علمنا انهم حملوا على الاعواد كلبا كافرا صابئا عجل به الى نار جهنم. (تاريخ الحكماء، ص ٧٦) .

(٢) ابو الفتح عثمان بن جني النحوى، كان اماما في علم العربية وله مؤلفات عديدة. وفيات الاعيان، ج ٣، ص ٢٤٦ .

في رثاء الصاحب بن عباد .(١) وقد اعتبرت قصائد الشريف في رثاء الصابي من اصدق مراثيه واشجاها (٢) وهي ثلاث،الاولى المشار اليها سابقا ، (٣) ومنها :

" جبل هوى لوخر في البحر اغتدى — من وقعه متتابع الا زباد

ما كنت اعلم قبل حطك في الثرى — ان الثرى يعلو على الاطواد

طاحت بتلك المكرمات طوائح — وعدت على ذاك الجواد (٤) عوادى

---

(١) معجم الادباء ، ج ١٢ ، ص ١١٢ .

(٢) عباس، الشريف الرضي ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) القصيدة في رسائل الصابي والرضي ، ص ٤٥ وديوان الرضي ، ج ١ ، ص ٣٨١ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ وبعض ابياتها في معاهد التنصيص، ج ٢ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) في رسائل الصابي والرضي واليتيمة : " الجلال ".

ولقد كبا طرف (١) الرقاد بناظري | (٢) اسفا عليك فلالعا (٣) لرقاد
ثكلتك ارض لم تلد لك ثانيا | أني ، ومثلك معوز (٤) الميلاد
ان الدموع عليك غير بخيلة (٥) | والقلب بالسلوان غير جواد
سودت ما بين الفضاء وناظري | وغسلت من عيني كل سواد
لا تطلبي يا نفس خلا بعده | فلمثله اعيا على المرتاد (٦)
الفضل ناسب بيننا ، ان (٧) لم يكن | شرفي مناسبه ولا ميلادي
ان (٨) لم تكن من اسرتي وعشيرتي (٩) | فلانت اعلقهم يدا بودادي (١٠)

---

(١) في رسائل الصابي والرضي ، ص ٤٨ : " طيف ".

(٢) في اليتيمة ج ٢ ، ص ٣٠٧ : " منذ افتقدتك " .

(٣) في رسائل الصابي والرضي ، ص ٤٨ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ : " لرقادي ".

(٤) في رسائل الصابي والرضي ، ص ٤٩ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ : " معوز ".

(٥) في رسائل الصابي والرضي ، ص ٥٠ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ : " اما ".

(٦) في اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ : " المقتاد ".

(٧) في رسائل الصابي والرضي ، ص ٥٣ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ : " اذ ".

(٨) في رسائل الصابي والرضي ، ص ٥٣ : " الا ".

(٩) في المصدر نفسه : " وعشائري " .

(١٠) في معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٧٨ : " بفؤادي " .

ضاقت علي الارض بعدك كلها   وتركت اضيقها علي بلادى "

وفي الشهر نفسه ، شهر وفاته ، اجتاز الشريف بقبره بالجنينة من ارض كرخايا (١) فقال يرثيه في قصيدة (٢) منها :

" ايعلم قبر بالجنينة اننا   اقمنا به ننعى الندى والمعاليا

حططنا (٣) ، فحيينا مساعيه انها   عظام المساعي لا العظام البواليا

وما لاح ذاك الترب (٤) حتى تحلبت (٥)   من الدمع اوشال ملأن المآقيا

نزلنا اليه عن ظهور جيادنا   نكفكف بالايدى الدموع الجواريا "

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ٥٦ ، وكرخايا نهر ببغداد تتفرع منه انهار عدة تدخل بغداد ومنها انهار الكرخ كلها ، ويذكر ياقوت انه لم يبق لهذا النهر اثر في زمنه . انظر الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد (بيروت ، دار الكتب العلمية ، دون تاريخ) ، ج ١ ص ١١٢ - ١١٣ ومعجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤٦ - ٤٤٧ . والجنينة : تصغير جنة وهى الحديقة او البستان والجنينة : ارض . (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٧٣) .

(٢) القصيدة في رسائل الصابي والرضي ، ص ٥٦ وديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

(٣) في رسائل الصابي والرضي واليتيمة : " عطفنا " .

(٤) في رسائل الصابي والرضي : " القرب " .

(٥) في اليتيمة : " تخيلت " .

ثم يختم قصيدته بالقول :

" رثيتك كي اسلوك فازددت لوعة ... لان المراثي لاتسد المرازيا

واعلم ان ليس البكاء بنافع ... عليك ولكني امني الامانيا"

آخر ماقاله الشريف الرضي في الصابي في جمادى الاولى سنة ٣٩٣ وقد اجتاز بقبره (١) فشعر بالحنين والشوق اليه والى ذاك الزمن الذى جمعهما :

" لولا يذم الركب عندك موقفي ، ... حييت قبرك ، ياابا اسحق

كيف اشتياقك مذ نأيت الى اخ ... قلق الضمير اليك بالاشواق

هل تذكر الزمن الانيق ، وعيشنا ... يحلو على متأمل ومذاق

وليالي الصبوات وهي قصائر ، ... خطف الوميض بعارض مبراق

امضي وتعطفني اليك نوازع ... بتنفس كتنفس العشاق

واذود عن عيني الدموع ولوخلت ... لجرت عليك بوابل غيداق " (٢)

علاقته بالصاحب بن عباد :

اما علاقة ابي اسحاق الصابي بالصاحب بن عباد فهي مختلفة تماما منها مع الشريف الرضي حيث يغيب هنا الجانب الوجداني او الاخواني ، لنجد علاقة ادبية بين كاتب وآخر ، او بينه وبين وزير ، اختصرها الصابي بالقول : " ومايزال بين رغبة مولانا الصاحب الجليل

---

(١) رسائل الصابي والرضي ، ص ٦١ وديوان الرضي ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٢) المصدران نفسهما .

كافي الكفاة ، ادام الله علوه وكبت عدوه،في عبده ورغبة عبده اليه سر مكنون في الصدور ، ومستور تحت الضلوع ، فهما يتناجيان به على بعد الدار ، ويلتقيان عليه بالافكار فان يطلع من حجاب القلوب وشذ من ظهور الغيوب ، فان ظهوره يكون من جهته في نفحات الانعام ، ومن جهتي في ثمرات الكلام " . (١)

العلاقة بين الصاحب والصابي قديمة يرجح انها تعود الى سنة ٣٤٧ حين ورد الصاحب بن عباد الى بغداد برفقة الامير ابي منصور بويه من ركن الدولة (٢) - الذى لقب فيما بعد بمؤيد الدولة - وكان كاتبا له (٣) . ويروى الصاحب في الروزنامجة ان اول ما جرى لدى قدومه العراق استدعاء الوزير ابي محمد المهلبي له وجمعه بينه وبين ندمائه (٤) . في ذلك الحين كان ابو اسحاق يكتب للوزير المهلبي ولاشك انه التقى الصاحب وعرفه كاتبا ، وسنرى فيما بعد ان الصابي لم ينس انه عرف الصاحب كاتبا .

ولسنا ندرى كيف تطورت العلاقة بين الاثنين فيما بعد اذ ان رسائل الصابي الى الصاحب والتي تلقي الضوء على هذه العلاقة معظمها متأخرة . ونستدل من كلام للصابي في احدى رسائله اليه ،انه خدمه قبل ان يستوزر . يقول : " وانما خدمته ايام كانت

---

(١) صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ١٤٠ .

(٢) تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الروزنامجة ، ص ٨٧ . وفي المصدر نفسه ذكر لعدة لقاءات بين الصاحب والمهلبي .

رئاسته سرا في غمير الزمان ، ودينا في ضمان الايام فكيف لو رأيته آمرا ناهيا بيـــــــن وسادتيه ، ورآني خادما ماثلا بين يديه ". (١)

ومهما يكن من امر فان الصاحب بن عباد كان شديد الاعجاب بنثر الصابي وترسلـه وقد عبرت المصادر عن ذلك بالقول : " وكان الصاحب يحبه اشد حب ، ويتعصب له "، (٢) وكان للصاحب رغبة في رعاية من ببغداد والحرمين من الكتاب والشعراء والزهاد فيبعــــث اليهم الصلات سنويا مع الحاج فكان يرسل الى ابي اسحاق خمسمائة دينار والى حفيـــده هلال الف درهم . (٣) وللصابي رسالة (٤) يتحدث فيها حول هذا الامر فيذكر ورود اثنين من الحجاج عليه مرسلين من الصاحب ، يقول : " فعرجا الى ملمين ، وعاجا علي (٥) مسلمين فحين عرفتهما ، وقبل (٦) ان ارد السلام عليهما ، مددت اليد اليهما ، (٧) كما مدها حسان

(١) التذكرة الحمدونية (٧٧٠) ، الورقة ٧٩ب.
(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ١٩ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٣٩٢
(٣) معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٣٠٠ .
(٤) الرسالة في اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥١ وبعضها في لقاح الخواطر ، الورقــة ١٩٤أ .
(٥) في معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٩ : " الــي " .
(٦) في المصدر نفســه ، ص ٥٠ : " فقبــل " .
(٧) في المصدر نفسه : " الى ما معهما " .

ابن ثابت الى رسول جبلة بن الايهم (١) ثقة مني بصلته ، وتشوقا الى تكرمته واعتيادا لاحسانه، والفا لموارد انعامه ، وتيقنا ان خطوري بباله ، مقرون (٢) بالنصيب من ماله . وان ذكراه لي مشفوعة بجدواه، (٣) وقمت عند ذلك قائما ، وقبلت الارض ساجدا ، وكررت الدعاء والثناء مجتهدا ، وسألت الله تعالى (٤) ان يطيل له البقاء كطول يده بالعطاء، ويمد له في العمر ، كامتداد ظله على الحر (٥) ، وان يحرس هذا البدد ، القليل العدد ،

(١) يشبه ابو اسحاق نفسه مع الصاحب بن عباد بالشاعر حسان بن ثابت مع جبلة بن الايهم الملك الغساني ، وكان يمدحه قبل الاسلام فخصص له الملك قدرا من المال والثياب يدفع اليه كل عام.ابو الفرج الاصفهاني ،الاغاني (تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٩/١٣٧٩) ، ج ١٥ ، ص ١٥٨ . اما حكاية حسان مع رسول جبلة فيروى ان معاوية بن ابي سفيان وجه رسولا الى ملك الروم فلقي جبلة بن الايهم هناك وكان تنصر من بعد اسلامه والتجأ الى ملك الروم فسأله جبلة عن حسان فأخبره بانه اصبح شيخا ضريرا ، فدفع اليه بالف دينار ليوصلها اليه فلما عاد الرسول الى المدينة لقي حسانا في المسجد فقال له . " يااba الوليد ، صديقك جبلة يقرأ عليك السلام " فقال : "هات مامعك " . قال : " وما علمك ان معي شيئا " ، قال : " مارسل الي بالسلام قط الا ومعه شيء " . قال: " فدفعت اليه المال .(الاغاني ، ج ١٥ ، ص ١٦٨ - ١٦٩) وهناك رواية اخرى للخبر . انظر المصدر نفسه . ص ١٦٦ - ١٦٨ .

(٢) في معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٥٠ : " الخطرة مني على باله مقرونة " .

(٣) في المصدر نفسه : " بجدواه علي " .

(٤) " تعالى " غير موجودة في معجم الادباء وفي لقاح الخواطر .

(٥) في لقاح الخواطر : " ويمد له عن تطرق اقباله ويحرس هذا البدد . . . ."

من مشيخة الكتاب ، ومنتحلي الآداب ، (١) ماكنفهم به من ذراه ، وافاء (٢) عليهم من نسداه ، واسامهم فيه من مراتعه ، واعذ به لهم من شرائعه ، التي هم محلأون الا عنها ، ومحرومون الا منها ."

وهنا يبدو ان الصابي يكتب بصفته احد الكتاب الذين يصلهم الصاحب بالمال . ولا يخفى تواضع الصابي للصاحب في الرسالة وذلك من مد اليد لاخذ المال وتقبيل الارض والسجود . وليست هذه المرة الوحيدة التي نرى فيها ابا اسحاق يتحدث بصفته احد الكتاب متلقي الصلة من الصاحب انما نجد له رسالة اخرى (٣) يعرض فيها مشكلته ومشكلة هؤلاء الكتاب جميعاً يقول في الرسالة :

" اما بعد ، ايد الله سيدى الصاحب ، فان نوب الدهر تترد منذ سنون (كذا) علي وعلى اهل صناعتنا المنحوسة بالعراق ، منيخة بنوازلها ، ملقية بكلاكلها ، كالحة بوجوهها ، كاشرة عن انيابها ، لتعاقب الايدى الوالية علينا ، وتدرجها في الاساءة الينا ، وتزايدها في الغلاظة بنا ، وتجاوزها المنزلة الى المنزلة في الاستئصال لاحوالنا ، وقد توفر قسطي في تأثيرها بحسب ضني بعرضي وصوني نفسي ، وبذلي دونها مالي ، ووقايتي اياهما بما ملكت يدى ، حيث لم اسأل المعونة احدا ولا سمحت ان استميح مسودا ولا سيدا راجعا الى شيء

(١) في لقاح الخواطر : "الابواب" .
(٢) في لقاح الخواطر ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٥٠ : "افاء" .
(٣) رسائل الصابي ، ص ٤٠٤ .

مما يرجع اليه الناس من موروث تالد ، ومكتسب طارف ، حتى انتهت مفارمي الى نحو خمس مائة الف درهم ، لم يبق لي بعدها ضيعة ولا منزلة ، ولا باطن ولا ظاهر ..."(١)

كلام الصابي باسم الكتاب عارضا مشكلتهم يحدد وجها من اوجه العلاقة بين الاثنين ، ونظن ان هذه العلاقة ابتدأت بكون الصابي كاتبا يتلقى الهبة من الصاحب كما يتلقاها اى كاتب آخر . ثم اتخذت نوعا من الخصوصية ، اذ ان ابا اسحاق كان ارفع منزلة لدى الصاحب من بقية الكتاب ، فالصاحب شديد الاعجاب به وقد روى عنه قوله : "كتاب الدنيا ، وبلغاء العصر اربعة : الاستاذ ابن العميد (٢) ، وابو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وابو اسحاق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعني نفسه" . (٣) كما روي عنه ايضا : "مابقي من اوطاري واغراضي الا ان املك العراق (٤) واتصدر ببغداد واستكتب ابا اسحاق الصابي ويكتب عني واغير عليه" . (٥) فنقل الحديث الى ابي اسحاق فقال: "و يغير علي وان اصبت" . (٦)

---

(١) رسائل الصابي ، ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٢) يعني ابا الفضل عليا وكان الصاحب يعمل اول امره في خدمته . (معجم الادباء ، ج٦ ، ص ١٧٢ .

(٣) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٤) عرف عن الصاحب انه كان يحب بغداد والرئاسة فيها . انظر ذيل التجارب ، ص ١٦٢ - ١٦٤ .

(٥) معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٣٠٦ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(٦) المصدر نفسه .

بعد انتهاء محنة ابي اسحاق ووفاة عضد الدولة كتب الصاحب يستقدم ابا اسحاق " وبذل له النفقة الواسعة ، والمعونة الشاسعة عند شخوصه والارغاب والاكثار عند حضوره " . (١) فاجابه الصابي معتذرا بلباقة قائلا :

" نكصت على اعقابهن مطالبي — وتقاعست عن شأوهن مآربي
وتبدلت مني القريحة بعد ما — كانت نفاذا كالشهاب الثاقب
فلو ان لي ذاك الجناح لطاربي — حتى اقبل ظهر كف الصاحب
واعيش في سقيا سحائبه التي — ضمنت سعادة كل جد خائب
واعد من جلساء حضرته التي — شحنت بكل مسائل ومجاوب
فيقول : من ذا ؟ سائل عني له — متثبت فيقول هذا كاتبي
اترى اروم بهمتي مافوق ذا — انى وخدمته اجل مراتبي
كثرت عوائقي التي تعتاقني — من غيث راحته المليث الساكب
ولد لهم ولد وبطن ثالث — هو رابعي وعشيرتي واقاربي
والسن تسع بعدها خمسون قد — شامت بوارق يومها المتقارب
فالجسم يضعف عن تجشم راجل — والحال يقصر عن ترفه راكب " (٢)

ولا بأس من اثبات مقطوعات من رسائل اخرى يعتذر فيها ابو اسحاق عن اللحاق بالصاحب

---

(١) معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٣٠٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠١ - ٣٠٣ .

من ذلك قوله : " كتبت بعد الجواب ، وانا منقسم بين نية ناهضة ، وعوائق قابضة . وشوق باعث وانتشار امر حابس ، ومراقبة لابد ان يستعملها طالب السلامة وسالك الاستقامة ، ورأيه ادام الله تعالى ايامه ، في ذلك الاعلى ، ودليله الاهدى وامره الانفذ الامضى " . (١)

وكتب ايضا : قد كنت ، اطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة ، منذ ثماني سنين (٢) تحت كلكل من كلاكل المحن ، ثقل علي بركة وبلغ مني عركه ، وتقلبي بين عطلة شديدة ونبوة مديدة ، ثم رفعت عني بفضل الله وما استدار من دوائر الاقدار وحوادث الليل والنهار التي اذا اظلت اللئام قنطوا واذا انفرجت عنهم غمطوا ، كما انها اذا ساورت الكرام (صبروا) (٣) واذا هادنتهم رأفوا واحدبوا " . (٤) الى ان يقول : " قد صرت بتطاول الاذى وتباري المدى وركود الخطرات وفتور الثروات بمنزلة الريض الذلول ، القانع من الليالي باقلاع بوسها وانحراف نحوسها ، المستكثر القليل من اسعادها والزهيد من ادخارها فلذلك اقتصرت وتركت بيني وبين الغاية التي دعيت الى الخدمة فيها منزلة اتفرغ بتركها لخير اكتسبه ومعاد اصلحه وولد اوده وصديق اذاكره، وغير ذلك مما الظفر به مغنم وعصر

---

(١) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٧ ب .

(٢) يمكن تحديد تاريخ هذه الرسالة بسنة ٣٧٢ اذا اعتبرنا ان بداية محنته كانت على يد عز الدولة سنة ٣٦٤ هـ .

(٣) كلمة ممحوة في الاصل وضعت مكانها كلمة متممة للمعنى .

(٤) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٥ أ .

الشيخوخة له موسم ."(١)

اذا الصاحب يطلب الصابي وذاك يتمنع ، وقد حاولت المصادر تفسير موقف كل من الرجلين فقيل ان الصاحب كان يطلب ابا اسحاق " اما تشوقا واما تشرفا " .(٢) وقيل ان استدعاءه اياه ابان محنته دليل على الود الاكيد الذى يضمره الصاحب له " ود خالص لوجه الادب ، وبر خالص لوجه الله ، لا يريد الصاحب به جاها ولا منزلة لانه كان اذ ذاك صاحب الجاه والمنزلة ". (٣) كما قيل بالنسبة لابى اسحاق انه كان " يحتمل ثقل الخلة ، وسوء اثر العطلة ، ولا يتواضع للاتصال بجملة الصاحب ، بعد كونه من نظرائه وتحليه بالرياسة في ايامه " .(٤) وقد رأينا ما اعتذر به ابو اسحاق شعرا ونثرا ، وسنحاول عرض هذا الموضوع استنادا الى الوقائع .

عرف الصاحب بن عباد بالكبرياء والعجب ، وفي ذلك يقول الثعالبي : "لما بلغت سنوه الستين اعترته آفة الكمال . وانتابته امراض الكبر " ، (٥) وقد زخرت صفحات كتاب

---

(١) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٥ ب .

(٢) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٣) طبانة ، الصاحب بن عباد ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٥) اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

مثالب الوزيرين للتوحيدى بذكر اخبار كبريائه واعجابه بنفسه وبأدبه وازدرائه لنتاج غيره من الادباء والشعراء . (١) وهكذا كان الصاحب دائما يطلب الجاه والرفعة ويسمو الى المزيد من الرياسة والسلطة . فها هو قبل الوزارة يطمع في زيارة المتنبي له في اصفهان فيكتب اليه مستدعيا اياه بلطف ضامنا له مشاطرته جميع ماله ، فلم يجبه المتنبي الى ذلك . (٢) وهذا يوضح لنا استهانه الصاحب بنصف ماله مقابل ان يقصده المتنبي كما يقصد غيره من الرؤساء وهو الآن يستدعي الصابي ويغريه بالعطايا الكثيرة فما هو هدفه ؟

هنالك عدة امور لا يمكننا انكارها:

اولا : اعجاب الصاحب بادب الصابي وقد ذكرنا ذلك من قبل ، ويبدو ان ابن عباد كان يستدعي اجزاء من رسائل ابي اسحاق ليقرأها ، (٣) فنجد رسالة كتبها ابو اسحاق الى احد اصدقائه الذى سيحمل جزءا من رسائله لعرضه على الصاحب من المفيد اثباتها نظرا لاهميتها في تبيان الطريقة التي يخاطب بها ابو اسحاق الصاحب :

---

(١) انظر مثالب الوزيرين خاصة الصفحات ٨٢ - ٨٣ و ٩٩ و ١١٤ - ١١٥ و ١١٩ و ١٢٥ - ١٢٦ و ١٣٢ - ١٣٣ و ١٤٧ - ١٤٨ و ١٦٦ و ١٩٥ و ١٩٨ . وقد اشارت الى ذلك بعض الدراسات الحديثة . انظر مردم ، الصاحب بن عباد ، ص ٥٦ و ٦٢ و ٦٧ وآل ياسين ، الصاحب حياته وادبه ، ص ٤٨ .

(٢) اليتيمة ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(٣) لقاح الخواطر ، الورقة ٩١ ب .

" وليس مولاى ، ايده الله ، في حمل هذا الجزء الى تلك الحضرة الادبية والنفس الادبية والفضائل السيارة ، والخصائص التي تقصر عن وصفها العبارة ، الا كمن جلب الى هجر تمرا بل حشفا . (١) وحقا اقول انه كوز ماء اجاج تجهز الى بحر فرات عجاج ، فلينعم غير مأمور وليقدم امامه اعتذارا او تمهيدا ، وليعلمه ، ثبت الله وطأته وادام دولته ، انني عبده في الخدمة وتلميذه وتخريجه في الصناعة ، وان الحسنة مني وان ظهرت فهي له محسوبة واليه منسوبة . . . . ويسأله لا زال مسؤولا ان ينبه على ما يرضاه ولا يخفيه ويستر على ما يأباه ولا يبديه ، ان شاء الله تعالى ". (٢)

ويبدو ان الصاحب ، خلافا لعادته في ازدراء نتاج الآخرين ، قد تحدث عن الصابي في مجالسه معليا من شأنه ، فكتب الصابي يشكره قائلا من رسالة :

" واذا تأملت صنع الله في ان ثنى وجه النعم الي ، وعطف بها علي ، وجدت اوكد دواعيه واقوى الاسباب فيه ما حفظ على مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة وروى عنه وتردد في انديته ومحافله ، من اعلاء قدري بتقريظه ، ونعتي بما لا يثبت الا بشهادته وتقليده . فاذا شكرت فاليه ينتهي شكرى ، واذا فخرت فعليه يقف فخرى ، وما انا ملجأ مع بعد الدار اليه عرض بضائعي نظما ونثرا عليه ، وتعريض اطمارها لانها تعرض وتتصفح بين

---

(١) الحشف من التمر : مالم ينو ، فاذا يبس صلب وفسد لا طعم له ولا لحاء ولا حلاوة . (اللسان ، مادة : حشف) .

(٢) لقاح الخواطر ، الورقة ٩١ ب .

يديه ، مع العلم بانها ضعيفة الاثمان خفيفة الاوزان مضمحلة على الامتحان ، فان رزقت قبولا منه فيحسن رأيه وان نفقت على غيره فبما يتضمن من طيب ثنائه . واذا ثبت قول القائلين ان كل مجتهد مصيب ، فقد اجتهدت وما فرطت ، واعذرت وما عذرت" . (١)

ثانيا : نلاحظ في المقطوعات التي اثبتت تواضع الصابي حيال اعجاب الصاحب به . هذا التواضع الذى يبدو في مختلف رسائله للصاحب ، ان في شكره على الصلات او في الاعتذار من الالتحاق به او في طلب المال ، .... هو الذى زاد رغبة الصاحب في استقدامه اليه والذى جعله لا يتخوف من شيوع مديحه لواعجابه به ، وذلك انه بكبريائه لا يمكن ان يحتمل من يتباهى عليه ويتعجرف ، لذا رأيناه يلاحق المتنبي متتبعا سقطاته مظهرا سيئاته لانه ترفع عن الالتحاق به (٢) .

ثالثا : الصاحب كان يصل الصابي بالمال ابتداء ، ثم كان يرفده حين يمد اليد اليه في نكباته وهذا ما اشعر الصاحب بان له افضالا على هذا الكاتب وكأنه صنيعته .

رابعا : الصابي كاتب الخليفة ورئيس ديوان الرسائل في الخلافة العباسية ، صاحب مكانة عالية لا يقلل من قيمته ومن رأى الناس به فقده منصبه وتعرضه للمحن ، او كما قال هو :

" وتعطلي مع شهرتي كتصرفي كل سواء في الحساب الحاسب " (٣)

---

(١) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٥ ب .
(٢) اليتيمة ، ج ١ ، ص ١٢٢ .
(٣) معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٣٠٣ .

فالوزير الصاحب يعلم ان وجود مثل ابي اسحاق في بلاطه فيه المزيد من الرفعة له والعزة، خاصة مع ما نعلمه من تسابق امراء ووزراء ذلك الزمان على اجتذاب افضل الادباء والعلماء الى قصورهم . فالصاحب لم يكن يرعى الادباء رعاية خالصة لوجه الله كما قيل ،وانما ايضا ليشيع فيه الثناء الحسن والصيت الحميد ، ولو ان الصاحب كان يصل الادباء كعمل من اعمال البر الخالص من الكسب الذاتي لما فارقه ابو حيان التوحيدي بعد ثلاث سنين من الخدمة وليس في حوزته منه درهم واحد .(١) اما كان يمكنه ان يصل التوحيدي ببعض المال ويصرفه؟

خلاصة القول ،ان الصاحب معجب بترسل الصابي ،معجب بمكانته ، يرتاح الى طريقته في التصرف وتواضعه له ، يشعر بفضله عليه لانه كان يصله دائما بالمال هذه الاسباب مجتمعة كانت تدفع الصاحب الى طلب الصابي اليه ليمثل بين يديه بعد ان كان استكتابه له حلما قديما لديه حين كان يقول : " ما بقي من اوطاري واغراضي الا ان املك العراق ، واتصدر ببغداد ، واستكتب ابا اسحاق الصابي " (٢) . فلما توفي مخدوم الصابي وسيده ،الملك المهاب عضد الدولة ،وكان الصابي في حالة فقر،اتيحت للصاحب فرصة تحقيق حلمه القديم . لذلك استدعى الصابي وبذل له الكثير لكن حلمه لم يتحقق وابو اسحاق رفض الالتحاق به ، فهل كان رفضه نتيجة كبريائه كما ذكرام بسبب ماكان يعتذر به من فقر

(١) مثالب الوزيرين ، ص ٢٠٧ .
(٢) معجم الادباء ،ج ٦ ،ص ٣٠٦ ووفيات الاعيان ،ج ١ ،ص ٤٤٥ .

وشيخوخة واهل ام ان هنالك اسبابا اخرى ؟

الصاحب بالنسبة لابي اسحاق رجل محايد ، مستقر ، بعيد عن التقلبات السياسية التي كانت تطيح بوزير لترفع سواه ، وكان يرعاه ويمده بالمال ، فهو بالنسبة اليه الشيء المستقر الدائم الذى يمكن الاعتماد عليه في كل الاوقات ، لذا كان يقصده اذا اعوزه المال ابان محنته ويعلم انه لا يخيبه .

كما ان ثقة الصابي بالصاحب وبمكانته لديه دفعته الى ان يوصيه بالاستمرار في اجراء المال على اولاده بعد وفاته . (١) ومما يجدر ذكره ان الصابي كان كلما مدح الصاحب ادخل في مدحه صفة الكرم والعطاء ، كقوله يتحدث عن ان الدهر حرمه من جوار الصاحب وباعده عنه " وانما حماني ورود بحر زاخر ، وحجبني عن ضياء بدر زاهر ، ومنعني من بلال نوء ماطر واخرجني من عموم غيث قاطر وحال بيني وبين من اليه الشكوى له ومنه العدوى عليه حتى خلابي فافرط ظلمه وتحكم في فجار حكمه " . (٢)

اذا الصاحب مصدر عيش للصابي ، ومساعد دائم ، لم يتغير من ناحيته يوما ، لكننا لا نعلم تماما كيف يفكر ابو اسحاق بالصاحب فيما عدا ذلك . ونجد هنا رأيين نقلهما التوحيدى عن الصابي ولا نعلم مدى صحتهما . يقول التوحيدى : " وسألت الصابي ابا اسحاق عنه فقال ان صدقت في وصفه ساء قوما وان كذبت في وصفه ساءني ولان انفرد بالمساءة احب الي ، وبعد فنحن معه كما قال الشاعر :

---

(١) معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .
(٢) التذكرة الحمدونية (٧٧٠) ، الورقة ٧٩ ب ولقاح الخواطر ، الورقة ٩٥ أ .

" وتعتب احيانا عليه ولو مضى لكنا على الباقي من الناس اعتبا " (١)

كما ينقل رأى الصابي باديه :" وقال الصابي : هو مجتهد غير موفق ، وفاضل غير منطق ، ولو خطا كان اسرع له ، كما انه لما عدا كان ابطا عليه ، وطباع الجبلي مخالف لطباع العراقي يثبت مقاربا فيقع بعيدا ، ويتطاول صاعدا فيتقاعس قعيدا ". (٢)

ثم اننا لانرى في وصف الصابي للصاحب او في رسائله اليه ملامح اعجاب بشخصه باستثناء وصفه بالكرم الذى كان يغمره به ، لذا يمكن القول ان الصاحب وزيرا واديبا لا يعني الكثير للصابي والذى يبدو من عرض الحقائق فيما سبق ان عدم التحاقه به قد يكون عائدا الى اجتماع الاسباب التي ذكرها الصابي والمذكورة في المصادر . فالصابي كما قال عن نفسه قد روضته الايام حتى اصبح قانعا يرضى منها برفع البؤس عنه ، فهو لا يطمع بالكثير ، فلم اذا يتجشم مشاق الرحلة الى الصاحب تاركا اهله وابناءه ؟ فالغاية ليست على قدر كبير من الاهمية لديه كي تسهل اليها السبل ، والصاحب ليس ذاك الشخص الذى يملأ كيانه بشخصيته كي يلتحق بخدمته ، كيف وبالامس كان كاتبا في مثل مستواه .

اما اذا حاولنا البحث عن اسباب اخرى فلا نجد امامنا الا احتمال ان يكون الصابي متمسكا بالبقاء ببغداد ، ولا يعود ذلك لخوفه على اهله كما كان سنة ٣٦٤ هـ عندما

---

(١) مثالب الوزيرين ، ص ٢٠٩ .
(٢) الامتاع ، ج ١ ، ص ٦٢ .

رفض الخروج معضد الدولة الى فارس ، وانما لنيته القيام بمشروع معين ، كعمل سياسي تكون بغداد مسرحا له . فهل كان يومذاك قد تعرف الى الشريف الرضي ورأى فيه خليفة المستقبل ؟ ام هل كان بانتظار حدث كبير يغير الوضع القائم ؟ ام انه قد ارتبط بعمل ما مع الدعاة الفاطميين الذين كانوا في بغداد ؟

في هذا المجال نلاحظ امكان وجود علاقة بين ثلاثة اقطاب : الشريف الرضي والصابي والفاطميين ، ففي فترة يرجح انها سنة ٣٨٤ (١) جرت حادثة مع الرضي تدل على انه يعلق آماله بالفاطميين ، ان لم تدل على ارتباطه بعلاقة معهم . فقد رفع اصحاب الاخبار للخليفة القادر ابياتا شعرية منسوبة الى الرضي يقول فيها :

" كم مقامي على الهوان وعندي — مقول قاطع وانف حمي

البس الذل في ديار الاعادي — وبمصر الخليفة العلوي

من ابوه ابي ومولاه مولا — ي اذا ضامني البعيد القصي

ان خوفي في ذلك الربع أمن — واوامي بذلك الورد ري " (٢)

فغاظ القادر امر الابيات وعاتب والد الشريف بذلك ، ووكل امره الى ابيه الذي عاتبه عتابا وافيا فانكر نسبة الابيات الى نفسه ، لكن لما امره ابوه ان يكتب للخليفة

---

(١) عباس ، الشريف الرضي ، ص ١٠٦ .

(٢) ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدرآباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٨ هـ) ج ٢ ، ص ٢٨١ .

بذلك طاعنا بنسب صاحب مصر رفض بحجة انه يخاف الدعاة ، وتردد القول بينه وبين ابيه فحلف ابو احمد انه لايقيم معه في بلد وانتهت الحكاية ان اخذت اليمين على الرضي ، انه لم يقل هذا الشعر (١) لكن بعد فترة عزل الخليفة ابا احمد والد الشريف وابنيه من مناصبهم . (٢)

موقف الرضي من الفاطميين لم يثبت طويلا بل تغير ، فنجد انه لما كتب في ديوان الخلافة محضر بالطعن في النسب الفاطمي في ربيع الاخر سنة ٤٠٢ هـ كتب الرضي خطه فيه (٣)

هذا مايجعلنا نربط بين الموقفين فنرى في الموقف الاول : وجود الصابي (٤) وعلاقة جيدة مع الفاطميين ، وفي الموقف الثاني : غياب الصابي وانكار للحق الفاطمي .

بعد عرض مختلف الاحتمالات التي قد تكون ادت بالصابي الى رفض الالتحاق بالصاحب يمكن وصف العلاقة بينهما بانها على مستوى من المتانة والوثاقة حتى انها لم تكن لتتغير يوما او تتأثر بموءثرات خارجية . اعجاب واحترام من ناحية الصاحب يقابلهما تواضع وحسن تصرف من ناحية ابي اسحاق .

---

(١) المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٨٢ .
(٢) عباس ، الشريف الرضي ، ص ١٠٩ .
(٣) المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٥٥ .
(٤) حتى لوكان ابو اسحاق قد توفي في هذا الوقت الا ان رأى الشريف بالفاطميين لم يكن وليد ساعته انما كان سابقا في ذهنه .

شخصيتـــــه وآراؤه

ابو اسحاق الصابي انسان عرف بناحيتين : قلم بليغ وخلق رفيع . وقد وصف اهـل العصر فيه هاتين الصفتين فقيـل في ادبه :

" اصبحت مشتاقا حليف صبابة برسائل الصابي ابي اسحـــاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة سلـوة العشـــاق
طورا كمارق النسيـم وتـارة يحكي لنا الاطواق في الاعناق
لا يبلغ البلغاء شأو مبـــرز كتبت بدائعه على الاحداق " (١)

اما خلقه فنختار مما قيل فيه كلام ابي حيان التوحيدي الذى وصفه " بالظرف الناصــــع ، والتواضع الحسن ، واللهجة اللطيفة ، والخلق الدمث ، والمعرفة بالزمان ، والخبـــرة باصناف الناس ، . . " (٢) وكلام الشريف الرضي الذى قال في رسالة الى احد الرؤساء يذكر ابا اسحاق بعد وفاته : " ابو اسحاق ابراهيم بن هلال ، فلو كان اسم يوضع على جماع الفضل ويكون علما لمجموع النبل في زماننا هذا ، لكان هذا الاسم واستغنى بذكره عن ذكـر

(١) اليتيمة ج ٢ ، ص ٢٤١ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٧ ومعاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٦١ .
(٢) الامتاع ، ج ١ ، ص ٦٨ .

الثناء الجميل ، واختصرت به مسافة القول الطويل " . (١)

لم يكن ينقص ابا اسحاق بنظر الكثيرين الا الاسلام . وهذا يرسم حوله علامة استفهام اذ كيف يمكن ان يتولى ديوان الانشاء ويتقلد متقليدا سلطانيا كاتب صابئ ، في حين ان الاسلام هو من الشروط الواجبة على صاحب هذه الوظيفة (٢) اعتمادا على نصوص من القرآن والحديث واعمال الصحابة والخلفاء الاولين .

يقول تعالى في القرآن الكريم ﴿ ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ماعنتم قد بدت البغضاء من افواههم وماتخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾ (٣) . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : " انا لانستعين بمشرك" (٤). وقد حفظ من اقوال الصحابة وافعالهم مايثبت ذلك ،(٥) كما درج عليه الخلفاء ذوو الثناء الحسن في الامة . (٦) فلوظيفة كاتب الديوان اهمية كبيرة نظرا لعظم المهمات

---

(١) رسائل الصابي والرضي ،ص ١١١.

(٢) صبح الاعشى ،ج ١ ،ص ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه . سورة آل عمران (٣) : ١١٨.

(٤) شمس الدين ابن قيم الجوزية ،احكام اهل الذمة ، (تحقيق صبحي الصالح ،دمشق ، مطبعة جامعة دمشق ،الطبعة الاولى ، ١٣٨١/١٩٦١) ،ج ١ ،ص ٢٠٩.

(٥) احكام اهل الذمة ،ج ١ ،ص ٢١٠ - ٢١٢ وصبح الاعشى ،ج ١ ،ص ٦٢ - ٦٣.

(٦) احكام اهل الذمة ،ج ١ ،ص ٢١٢ : ويروى لنا ماجرى مع كل من هؤلاء الخلفاء بالنسبة لهذا الموضوع انظر المصدر نفسه ،ص ٢١٢ وما بعدها .

المتعلقة بها وهي حفظ القوانين واستيفاء الحقوق ، واثبات الرقوع، ومحاسبات العمال ، واخراج الاموال ، وتصفح الظلامات (١) ، ثم ان الكاتب يحتاج للاستشهاد بالقرآن الكريم في كتاباته ولمعرفة اوامره ونواهيه،فان كان ذميا خلت كتابته من القرآن وان حفظ شيئا منه فقد ابيحت حرمة الله تعالى الذى يقول (لا يمسه الا المطهرون) (٢) .

ومع ان الصابى لم يكن اول كاتب يستلم هذه الوظيفة من غير المسلمين الا ان شهرته الواسعة ، ربما ، دفعت بعض الدارسين (٣) الى محاولة تفسير وجوده حيث لا يحق له شرعا ان يكون ، فرأى ان ذلك دليل على العناية بديوان الانشاء لان ابا اسحاق كان اكبر المنشئين في زمانه (٤)، ويستطرد هذا الباحث مدعما رأيه بالقول ان رثاء الشريف الرضى ، نقيب العلويين ، للصابى الذى رفض الاسلام يدل على ان قيمه

(١) ابو الحسين على بن محمد الماوردى ، الاحكام السلطانية (مصر ، مطبعه الوطن ، ١٢٩٨ هـ) ص ٢٠٥ وابو يعلى الفراء ، الاحكام السلطانية (القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥٧ هـ) ص ٢٣٧ .

(٢) صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٦٣ ، سورة الواقعة (٥٦) : ٧٩ ، وقد فسرت هذه الآية بانها نفي للزعم الذى قال ان الشياطين تنزلت بالقرآن ، انما تنزلت به الملائكة المطهرون . " ولا " هنا نافية لوقوع الفعل لا ناهية . (في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٣٤٧) .

(٣) آدم متز في الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

(٤) المصدر نفسه .

الانشاء الجيد فـي نظرهـم اهـم من قيمـة العقيـدة الصحيحـة (١) . ونجـد رأيـا آخـر قريبـا من هذا يعد استخـدام أبـي اسحـاق علـى ديـوان الانشاء دليـلا علـى اعتـداد الحكـام بالكتـاب . (٢)

وكـان القلقشنـدي (٣) قـد حـاول ايضـا تفسيـر هذا الامـر، فرأى انـه لا يحتـج بالصـابي وانـه كتب للخلفـاء وملوك الديلم وهو غيـر مسلـم، لانـه من ملة " قليـل اهلهـا ، ليس لهم ذكـر ولا مملكـة، وليـس منهـم محـارب لاهـل الاسـلام ولا لهـم دولـة قائمـة فتخشـى غائلتـه وتخـاف عاقبتـه" . (٤)

لكننـا وبعد عرضنـا لحقيقـة العلاقـة بين الشريف الرضي وابي اسحاق نستطيـع ان نخطئ الرأي الذي اتخذ من رثـاء الشريـف للصابي دليلا على ان الانشاء الجيد اعلـى

---

(١) الحضارة الاسلامية، ج ١، ص ٤٤٨، ويرى السيد محمد حسين فضل الله ان موقف الرضي مـن الصابي يدل على عدلـه حيث ان الاختلاف مع الصابي في ناحية العقيدة لم يمنعـه من رؤيـة الجوانب الاخرى الايجابيـة فيه من قيمة ذاتيـة وخلقيـة وثقافيـة (" تأملات حول شخصية الرضي"، ص، (٢) .

(٢) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، (القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثامنة، ١٩٧٧) (٢) ص ٢٠٢ .

(٣) فـي، صبـح الاعشـى، ج ١، ص ٦٣ .

(٤) المصـدر نفسـه .

قيمة في نظرهم من صحة العقيدة ، اذ تبين لنا ان الادب لم يكن العامل الوحيد الذى يربط بين الرجلين، بل تربطهما علاقة من الصداقة والثقة والتوافق السياسي تخطت الاختلاف الديني بينهما.كما اننا نرى انه بالرغم من صحة الرأى القائل باعتداد الحكام بالكتاب في ذلك العصر الا ان هذا ليس السبب الوحيد في تولية الصابي ديوان الرسائل، وليس السبب ايضا ما ذكره القلقشندى بدليل وجود غير وزير نصراني في الحكم نذكر منهم مثلا ابا العلاء صاعد بن ثابت الذى استخلفه وزير عز الدولة بالحضرة سنة ٣٥٧ هـ (١) ونصر بن هارون وزير عضد الدولة ، وهؤلاء من اهل ملة كثيرة العدد ولهم ممالك ومنهم محاربون لاهل الاسلام.والذى نظن انه السبب الحقيقي هو طبيعة الحكم في الدولة العباسية في ذلك الوقت حين لم يكن التمسك بالنظام الاسلامي وما اثر عن السلف تاما ،وانما كان في معظم الاحيان شكليا ،والا فان امورا كثيرة كانت تجرى في الدولة مخالفة للشرع الاسلامي وفيها ما فيها من الظلم والتعسف كالمصادرات والاقالات والتلاعب بالخلفاء .... وغير ذلك فعدم التقيد بالنظم الشرعية اعطى نوعا من الحرية لغير المسلمين فتبوأ بعضهم المناصب العالية كابي اسحاق الصابي الذى تميز بالكفاية العالية والقدرة على العيش مع المسلمين وكأنه احدهم .

---

(١) تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

لسنا ندرى في اى وقت تعرف ابواسحاق الى الاسلام ودرس القران وفقهه وحفظه " حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه " . (١) لكن من يقرأ رسائله لا يشك لحظة في انه مسلم ، ان لم يكن يعلم ذلك ، حتى ان رسائله الخاصة كانت تحفل بالروح الايمانية الاسلامية ، لكن ابا اسحاق كان صابئا ويقال انه كان من نساك اهل دينه ، محاميا عن مذهبه متصونا عن الشهوات والهوى (٢) ، وله في ذلك شعر :

" حمتني لذتي رتب المعالي — وضني بالمروءة والوقار
ودين ضاق فيه مجال فتكي — لخوف عقوبة وحذار نار
فواشوقا الى خلع العذار — وفعلي ما اريد بلا اعتذار
ويالهفي على حل الازار — صريعا بين سكر او خمار " (٣)

ويروى ان الصابي حضر يوما مائدة الوزير المهلبي فامتنع من اكل باقلاء كانت عليها وهو محرم على الصابئة فالح الوزير عليه ليأكل فقال : " ايها الوزير لااريد ان اعصى الله في مأكول ، فاستحسن ذلك منه " (٤) وقد بلغ من تمسك الصابي بدينه ان عرض

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

عليه عز الدولة (١) الوزارة ان اسلم فرفض (٢) . لكن تدينه لم يكن من نوع التعصب الذى يعمي البصيرة عن الرؤية ، فقد كان حسن العشرة للمسلمين ، يحترم ديانتهم . فبالاضافة الى حفظه القرآن ، نجد انه كان يصوم شهر رمضان مشاركة لهم . (٣) فتمسك الصابي بدينه كان تمسكا ايمانيا عميقا . وكثيرا ما تظهر نفحات الايمان هذه في رسائله ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله يذكر النوائب التى المت به : " ولله فى اثناء ذلك سر جميل ، وصنع جزيل ، والله المحمود رب العالمين " . (٤) اوقوله : " وما رفعنا اليه من العظائم التى لا يصبر لها ولا لبعضها الا من استحكمت بالله نفسه وحسن يقينه

---

(١) فى المختصر فى اخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٢٩ : " معز الدولة " .

(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢١ ، ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٥٢ والعبر في خبر من غبر ، ج ٣ ، ص ٢٤ . واعلام النبلاء ، ج ١٦ ، ص ٥٢٣ والوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٥٨ والمختصر في اخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٢٩ وشذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٠٦ .

(٣) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٨ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٥٢ والعبر في خبر من غبر ، ج ٣ ، ص ٢٤ واعلام النبلاء ، ج ١٦ ، ص ٥٢٣ والبداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٣١٣ وشذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٠٦ . ويقول السيد عبد الرزاق الحسني ان الصابئة الحاليين يتظاهرون بالصيام فى اول رمضان مجاراة لمجاوريهم من المسلمين كما كان يفعل ابو اسحاق الصابي مع الشريف الرضي . (الصابئون ، ص ١٣٥) .

(٤) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٦ ب .

وانا احمد الله على ان انزل مع كل محنة امتحنني بها صبرا لها وشكرا عليها وقولا بما يرضيه فيها". (١)

ويبدو ان علاقته مع ابناء بلده الاول حران كانت جيدة ونرى في احدى رسائله اليهم انه كان يحترمهم وينظر اليهم كجماعة روحية صافية،فيقول :

" اما دعاؤكم، ايدكم الله، لي، فقد كنت اعتقده درعا حصينة وجنة متينة واعلم ان الله تداركني به حتى لان لي غليظ القلوب وتزحزحت عني كلاكل الخطوب، والا فلو وكلت في تلك النائبة الى نفسي وعوني بي على استحقاقي لكنت بعيدا من ادراك مطالبي والظفر بمآربي لان سهوى اكثر من تيقظي، وذهني اضعاف تحفظي ... ومن كان بهذه الصفة كانت نوائبه واقعة موقع العدل وكان مأخوذا اذا قبل منها الفضل وكان حريا بأن يقوم ويؤدب وحقيقا بأن يثقف ويهذب لكن اعتقدت منكم، ايدكم الله بالعامل المجتهد، والساهر المتهجد، والخير التقي، والصالح الزكي حفني بصلاتكم وانقذني بالرحمة لكم، ومن على بالخلاص اذ لات حين مناص". (٢)

ونحن لا نستطيع ان نستدل على التفصيلات في معتقد ابي اسحاق الا اننا نعلم انه صابئي لا يختلف في عقيدته عن جماعة الصابئة بحران لذا هو يحترم دعاءهم وتهجدهم

---

(١) لقاح الخواطر، الورقة ٩٧ أ.

(٢) المصدر نفسه . الورقة ٨٩أ.

وصلاتهم، ثم نجد له بيتا من الشعر في قصيدة غزلية يختصر عقيدة الصابئة بالتوحيد فيقول : (١)

" والصابئون يرون انك مفرد (٢) في الحسن اقرارا لفرد (٣) ساجد "

ثم ان الصابي يعرف التنجيم ويؤمن به، فيقول عن ذلك : "فان ثمرة هذه الصناعة هي تقدمة المعرفة بما يكون، والاستعداد له بما يمكن ولا اقول ان ذلك يؤدي الى دفع مقدور نازل ولا معارضة محتوم حاصل. ولكني اقول : ربما كان من سعادة السعيد ان يعلم هذا الامر فيتصدى لحيازة ما يحب، ويتوقى حلول ما يكره، وربما كان من منحسه المنحوس ان يجهله فيكون كالمسلوب بصره وسمعه، الذي لا يرى فيتحفظ، ولا يسمع فيتيقظ. وكلا الامرين لسابق قضاء الله تعالى موافق، ولمتقدم علمه مطابق". (٤) وهكذا فللصابي نظرة توفيقية بين استعلام الغيب وبين القضاء والقدر.

اذا فالصابي بقي على معتقده الصابئي، الا ان حسن تصرفه ازال هذا الحاجز بينه وبين معارفه من المسلمين، فقد كان اسلوبه في التعامل مع الناس يقرب القلوب منه

---

(١) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٥٩ ومعجم الادباء، ج ٢، ص ٨٧ وروضات الجنات، ج ١، ص ١٦٥.
(٢) في معجم الادباء وروضات الجنات : "فردة".
(٣) في روضات الجنات : "لرب".
(٤) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٤٨.

ورأينا كيف استطاع ان يحول كتاب المهلبي من حساد الى اخوان واصدقاء ." وتلك عادة لي، قد رضت نفسي عليها وسست ما بيني وبين اكثر الاخوان اليها اذ كانت المسامحة انجح فيهم واوصل بجنابهم ". (١) ثم انه كان يقدر الصداقة ويحترم هذه العلاقات الطيبة التي قد تنشأ بين انسان وآخر، فيذكر انه كان له صديق ابتعد عنه ايام عطلته (٢) فلما اثرى الصابي وكانت حال صديقه قد ساءت كتب اليه عارضا عليه المشاركة فيما جاءه من مال قائلا : "ليس يمنعني ما استحدثته، ايدك الله، من المقاطعة التي لا عذر لك فيها من رعاية ما سلف من رعاية الحقوق التي كان منك لامني اطراحها ، وقد عرفت من اخلاقي على طول الصحبة ما يسهل سبيل المراجعة وانت على احوال لا استحسن تركك عليها وخشية قد استحوذت عليك وعطلة قد غابت بك، وقد اتانا الله، وله الحمد، في هذا الوقت خيرا في الجاه والمال حظك منه ان شئت متوفر، ومرامه عليك متيسر فاحب ، ايدك الله، ان تجعل الجواب على هذه الرقعة المصير الي واثقا بأن الذي جرى مطوى لا ينشر ومنسي لا يذكر". (٣) وهذا خير مثل على الصفح والمسامحة بين الاصدقاء .

---

(١) لقاح الخواطر، الورقة ٩٢ أ .
(٢) المصدر نفسه، الورقة ٩٥ أ .
(٣) المصدر نفسه .

اما ابو اسحاق الاب، فاظهر ما يبدو من صفاته الحنان والحب فهو حدب على ابنائه جل همه رعايتهم وحراستهم والاهتمام بامورهم والسعي لارضائهم، فقد كتب الى بعض اولاده : " قد اوحشتني، جعلني الله فداك، ايحاشا شديدا، ونزلت من الولي بك منزلا بعيدا وكان جفاؤك اذا جفوت قولا لا فعلا فقد جمعتهما الآن جمعا يخالف الحقوق ويساوى العقوق . وانا في ذلك صابر عليك لا عنك، ولولا العلة التي تراءت من بعدك وتضاعفت لبعدك، لكنت مكان هذه الرقعة ستعيدا لك الى الهجرة وستعفيا من الجفوة." (١)

" وقال عاتبا على ابنه : (٢)

" ارضى على(٣) ابني اذا ماعقني حذرا (٤) | عليه ان يغضب الرحمن من غضبي
ولست ادرى بما استحققت من(٥) ولدى | اقذاء عيني وقد اقررت عين ابي "

---

(١) لقاح الخواطر، الورقة ٩٧ ب.

(٢) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٦٩ ومعجم الادباء، ج ٢، ص ٧٦ والوافي بالوفيات، ج ٦، ص ١٦٢ .

(٣) في معجم الادباء والوافي بالوفيات : " عن".

(٤) في الوافي بالوفيات : " حدبا ".

(٥) في المصدر نفسه : " لم ".

وقـــال حيـن رأى ولدا لولده المحسن مترعرعا ناشئـا : (١)

" ابو علـى محسـن كبـدى — وقد نشـأ من فتاه لـى خلب
كأن هذا وذاك اذ نسبـا — منى سواد يضمه قلـب
لا زلـت القى الخطوب دونهما — حتى كأنى عليهما حجـب"

وكان يحاول تدبير امور ابنائه ورأينا من قبل توصيته للشريف الرضى وللصاحب بن عباد بهـم بعد وفاتـه كما كـان احيانـا يلتمس اجراء الرزق لاحد هـم فيكتب الى بعض الرؤ وساء. (٢)

" وما انـا الا دوحـة قد غرستهـا — وسقيتهـا حتى تراخى بها المدى
فلما اقشعر الجلـد (٣) منها وصوحت — اتتك باغصان لها تطلب الندى "

او يكتـب الى بعضهـم قصيدة فى انفـاذ ابنـه اليه ليستخدمـه : (٤)

" بعثـت اليك ابنى والله انـه — لأحلـى من النفس المقيمة فى جنبى
وهـل انا الا نسخـة هى اصلـه — وهل هو الا كالمحرر فى الكتـب

---

(١) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٧٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٩ والتذكرة الحمدونيـة (٧٧١)، الورقـة ١٧٦ ب ومعجم الادباء، ج ٢، ص ٧٦ - ٧٧ والوافى بالوفيات، ج ٦، ص ١٦٢.
(٣) فى معجم الادبـاء، ج ٢، ص ٧٧ : " العود".
(٤) اليتيمـة، ج ٢، ص ٢٦٩.

وشتان بين العود ايبس وانحنى　　　وبين النبات الغض والغصن الرطب" (١)

ومما يدل ايضا على رعاية الصابي لابنائه واحفاده انه جعل من جملة اعتذاره عن الالتحاق بالصاحب انصرافه الى تأديب ابنائه .

هنالك بعض النواحي السلبية في شخصية ابي اسحاق كالاكثار من الشكوى والاستعطاف والتذلل ، قد تكون دفعته اليها طبيعة عمله كاتبا والتقلبات التي كان يتعرض لها صاحب هذه الوظيفة مما يجعل حياته عرضة للنكبات باستمرار ، وفي ذلك قال ابو حيان التوحيدي عندما سأله الوزير ابن سعدان لم لا يعمل كاتبا في الديوان :

" انا رجل حب السلامة غالب علي والقناعة بالطفيف محبوبة عندي " . (٢)

خط ابو اسحاق الصابي الكثير من الرسائل في الشكوى من النكبات او السجن او الفقر واراق ماء الوجه في السؤال والطلب . يقول في رسالة استماحة الى الصاحب :

" فلما صارت صروف الدهر تتوغل بعد التطرف ، وتجحف بعد التحيف . وصادف ما تجدد علي منها في الوقت اشلاء منهوكة واعظما مبرية ، وحشاشة مشفية ، وبقية مودية ، فارقت الايثار ، واطمعت دواعي الاضطرار ، وجعلت اختار الجهات ، واعتام الجنبات ، لأنحومنها

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٢) الامتاع ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

ما لا يعاب سائله اذا سأل ولا يخيب آمله اذا أمّل ، فكان سيدى ، ادام الله عزه ، اولهــا اذا عددت واولاها اذا اعتمدت .

" وكتبت كتابي هذا بيد يكاد وجهي يتظلم منها اذ تخطه اشفاقا على مائه ما يهريقه لولا الثقة بانه ، ايده الله ، يحقن مياه الوجوه ويحميها ويجمها ولا يقذيها ، . . . " (١)

ويقول في مثل ذلك : " ولما اناخت النكبة من حالي على طلل قفر ، وبلقع صفــره وعون المغارم اثقل وطأة من ابكارها ، وابلغ تأثيرا في ثلمها واضرارها ، فقد اضطرني الــى تجشم ماكنت اجمه من نداه ، والتعرض لما كنت ادخره من جدواه ، . . . " (٢)

فلم يكن الصابي يأنف من التذلل للكبراء للوصول الى مايريد ، من ذلك ماكتبه في الشكوى عامة وماكتبه من السجن في استعطاف عضد الدولة اوغيره . وغالبا ماكان يعبر عــن العلاقة بينه وبين المسؤول او المنعم بالعلاقة بين العبد والمولى . ففي قصيدة كتبهــا الى بعض الرؤساء في انفاذ ابنه اليه ليستخدمه يقول :

" فدونك فاقبله وثق منه بالذى يراد من العبد المناصح للرب " (٣)

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

او قولـــه في رسالة يشكر الوزير ابا الفرج محمد بن العبـــاس عندما اطلقـه من سجنـه بعـد نكبتـه مع عمـــال المهلبـي : " فوالله جهد القسم انني اليوم اخلص عبيده واصفاهـم طوية واصدقهـم سـريـرة ٠٠٠" (١) .

او قولـــه فـــي رسالـة الى الصاحـب : " وانفـــذت درجه كتابا الى مولانـا الامير مؤيـد الدولـــه سلكـت فيه سبيل العبد اللائذ بمولاه والخادم المحتـاج الى نـــداه ، ٠٠٠"(٢)

ومـــن امثلـــة تذللـــه قولـه يشكـر الوزيـر ابا نصر سابـور بن اردشيـــر علـى صلـة منه :

" اتتني علـى بعد المـدى منـك نعمـة تشاكل ما قدمت من نعم عندى
كتابك مطويا علـى كـل منـــــــة يمن بها المولـى الكريم على العبد
فقبلت اجلالا له الارض ســـاجـــــدا وعفرت قدام الرسول به خدى" (٣)

و هذا يشبه ما كتب في رسالة الى الصاحب ردا على صلـة منـه :

" وقمـت عند ذلـك قائمـــا ، وقبلـت الارض ساجدا ، وكررت الدعـــاء والثنـاء مجتهدا ، ٠٠٠". (٤)

---

(١) لقـــاح الخـــواطـــر ، الورقـــة ٩٣ أ .
(٢) رسائـــل الصابـــي ، ص ٤١٠ .
(٣) معجـــم الادبـــاء ، ج ٢ ، ص ٧٢ .
(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ ولقـــاح الخـــواطـــر ، الورقـــة ٤١ أ ومعجـــم الادبـــاء ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

من ناحية اخرى ، وفي اطار علاقة الصابي بالكبراء عامة من امراء او وزراء يلاحظ تميز الصابي بالليونة البالغة التي قد تتجاوز حدها لتبلغ مايمكن تسميته بالتزلق او الممالأة اذ لم يسجل للصابي طيلة حياته موقف سياسي واحد اتخذه ووقف دونه بجرأة . هذا يدل على صفة المحايدة لديه وايثار السلامة والامن ، فهو يخدم الامير حتى اذا زالت دولته خدم من يحل محله واصبح مناصرا له ، وبكلام آخر ، يتخذ الصابي جانب الغالب دائما وقد بلغ من زئبقيته وتذبذبه انه لم يكن يعطي رأيه بصراحة وصدق باحد ما . من ذلك رأيه بالصاحب الذى نقله التوحيدى ونعيد اثباته : "ان صدقت في وصفه ساء قوما ، وان كذبت في وصفه ساءني ، ولان انفرد بالمساءة احب الي" (١) هذا الموقف لاينطبق على رأى ابي اسحاق بالصاحب بالذات ، وانما يشكل قاعدة لتصرف الصابي وحكمه على الاشخاص فهو قد يجانب الصدق باعطاء رأى او باتخاذ موقف ، كي لايسيء الى احد ، اما خوفا وحذرا او تزلفا ومجاملة .

قاعدة اخرى في سلوك الصابي هي تواضعه ، وفي ذلك يقول : "ان الترفع على الناس غلط في طلب الرفعة عندهم ، والتواضع لهم حيلة في الظفر بها منهم ، لمقابلتهم كلا من الحالين بمثله" (٢). ولا حاجة الى اعطاء شواهد على هذه الصفة التي ميزت كل علاقاته والتي

---

(١) مثالب الوزيرين ، ص ٢٠٩ .
(٢) لقاح الخواطر ، الورقة ١٨٩ أ .

هي اساس الاستعطاف والتذلل لديه .

لكن هذا الجانب من شخصية الصابي المحايدة والمجاملة ربما كان يخفي جانبا اكثر خطورة وهو شخصية السياسي المتآمر الذى يعمل على الساحة السياسية بسرية وصمت وهنا تبدو عدة تصورات لدور الصابي ، لا يمكن عدها حقائق لعدم توفر الادلة الكافية عليها ، وانما هنالك مؤشرات توحي بها . هذه التصورات قادرة على قلب الكثير مما بني حول شخصية الصابي من افكار ، لانها تشكل النقيض لما جاء حوله في المصادر ولما يبدو من رسائله فحكاية نكبات الصابي المتواصلة ، قد لا تكون بسبب ظلم الحكام والرؤساء فقط وانما لتحركات سياسية معينة كان الصابي يقوم بها . ففي بدء حياته كان يخدم المهلبي وهذه العلاقة هي الوحيدة الواضحة في علاقاته مع الوزراء والملوك وكان نصيبه في نهايتها الاعتقال لوجود اسباب من الخلاف بين المهلبي ومعز الدولة . لكن علاقاته بعز الدولة وعضد الدولة تثير الاسئلة الكثيرة . فقد كان يعمل في خدمة عز الدولة ببغداد . وكان في الوقت ذاته يخدم عضد الدولة الذى كان في فارس عن بعد . ولما ساءت العلاقات بين الاثنين ، بعدما فتح عضد الدولة بغداد سنة ٣٦٤ هـ ، لم يتخذ الصابي جانب مخدومه الاساسي عز الدولة وانما استمر في علاقته بعضد الدولة حتى اذا اراد هذا الانصراف عن بغداد خاف ابو اسحاق من البقاء فيها بعد مضيه ، ولما لم يكن يستطيع مرافقته الى فارس ذكره عضد الدولة في وثيقة الصلح التي كتبت بينه وبين عز الدولة . مع ذلك استتر الصابي خوفا من عقاب عز الدولة ثم شفع له لدى عز الدولة ، فكتب له امانا ومع ذلك قبض عليه بعد ظهوره من الاستتار ، فاستتار الصابي الذى فسرناه فيما سبق بعدم ثقته بعز الدولة

ووزيره ابن بقية (١) ، يمكن ان يفسر ايضا بانه كان ضالعا في مؤامرة مع عضد الدولة الذى كان طامعا في بسط سيطرته على بغداد ، والا لم يعمل عضد الدولة على طلب الامان له قبل ترك بغداد وهو في الاصل ليس كاتبه بل كاتب الخليفة وعز الدولة ، وهذا ما يؤكد اتخاذ الصابي جانب عضد الدولة ربما لما يعرفه من قوته وقدرته واطماعه في السيطرة وبسط النفوذ . ولما يعرفه في الوقت ذاته من ضعف عز الدولة وفساد تدبيره .

ثم لما خرج الصابي من السجن عاد الى خدمة عز الدولة حتى اذا ورد عضد الدولة بغداد للمرة الثانية سنة ٣٦٧ وتغلب على عز الدولة وقتله ، قبض على الصابي بعد ان امنه ، هل اخطأ الصابي في الحساب هذه المرة فلم يتوقع عودة عضد الدولة الى بغداد فأكثر من الاختصاص بعز الدولة والوقوف الى جانبه ؟ ام انه كان ضالعا بمؤامرة جديدة مما ادى الى القبض عليه وسجنه فترة طويلة لم تقصر منها رسائله في الاستعطاف ولا شفاعات اصدقائه من المتنفذين . ثم بعد خروج **الصابي من السجن ثانية وبعد وفاة عضد الدولة بفترة غير معلومة**

---

(١) راجع ص ٩٣و٩٥ من هذا البحث : وجميع الاحداث المذكورة في المتن قد فصلت في عرض سيرة حياة الصابي .

تماما يبدأ بعلاقة مع الشريف الرضي صاحب الاطماع في مركز الخلافة، مقويا لديه هذه النزعة مادحا جماعة العلوية مشيدا بمآثرهم. (١) ولا ندري ان كانت علاقته بالصاحب بن عباد ايضا تحمل ابعادا سياسية، فنجده يقول في احدى رسائله اليه معتذرا عن الاقلال من مكاتبته : (٢)

"كنت منذ سنين كثيرة مرميا بعطلة وموسوما بعزلة فتخوفت ان يتطرق لبعض المنحرفين عني، والباغين عليّ قول ربما تطرق مثله (٣) على من نبابه زمانه وهرته (٤) اوطانه، فأكون قد ابديت لمراصده (٥) عن مقاتلي ولمجامله عن حز (٦) مفاصلي، فلزمت (٧) التقية وكرهت الاذية وانتظرت الامكان وتوقعت دورة الزمان ...".

---

(١) القصيدة في رسائل الصابي والرضي، ص ٢٧ - ٣١ واليتيمة، ج ٢، ص ٣٠٣ - ٣٠٥.

(٢) الرسالة في التذكرة الحمدونية (٧٧٠)، الورقة ٧٩ أ - ٧٩ ب ولقاح الخواطر، الورقة ٩٤ ب - ٩٥ أ.

(٣) في لقاح الخواطر، الورقة ٩٥ أ. "ربما يطرق على من نبابه" ...

(٤) في المصدر نفسه : "جفته".

(٥) في المصدر نفسه : "انتدبت لمواصله".

(٦) في المصدر نفسه : لمخاتله عن حد".

(٧) في المصدر نفسه : "فالتزمت".

فما هي الاسباب التي دعته الى التقية ابان المحنة والى التخوف من مكاتبة الصاحب او الاتصال به ، وماعلاقته الحقيقية بالصاحب ؟

يلاحظ على الصابي بالاضافة الى ذلك ، انه كان خلال كل نكبة او بعدها يعترف بانه مذنب ويعتذر ويستعطف ، فهل كان التذلل وارادة الخلاص تصل بالصابي الى حد الاعتراف بذنوب لم يقترفها ؟ ام انه كان مذنبا فعلا ؟

هذه صورة للصابي تتسم بعدم الوضوح ، فلا يمكن اتهامه صراحة بانه رجل مؤامرات ودسائس لعدم وجود الاثباتات القطعية ، كما لا يمكن الحؤول دون تسرب الشك الى الاذهان حول هذه الشخصية الظاهرة المرونة والبراءة .

آراؤه :

اذا اردنا دراسة آراء الصابي نقع في صعوبة كبيرة وذلك لان ابا اسحاق كاتب يكتب كما يجب ، وخاصة في مجال السياسة حيث لا نستطيع استنتاج فكرة عن حقيقة آرائه فهو في الرسائل الديوانية يتحدث عن نظام الحكم وصفات الحاكم كما يجب ان يكون ، بما يتوافق مع الشرع الاسلامي ، اما في حديثه عن الملك فكلامه قريب من تجربته الشخصية يمليه عليه ما يريد ان يتحقق له من عضد الدولة .

معظم آراء الصابي الاخرى جاءت نتيجة تجربته في الحياة ، فالنوائب والاحداث التي مرت به ، تركت لديه خواطر من الحكمة والتأمل يصعب صياغة فلسفة في الحياة متكاملة منها ، فهو يرى ان الانسان مركب من شيئين : شريف ودني ، النفس والجسم ، وانه كما يجب ان يتخذ للجسم الدني اطباء يعالجونه من امراضه ويغذونه بالقوت والدواء ، وجب

ان يفعل للنفس الشريفة مثل ذلك فيتعاهدها بالآداب والنواهي والمواعظ . (١)
ثم انه لاحظ تقلب الايام بالانسان وانتقاله من حال الى حال فرأى ان من شروط الدنيا اقتران الخير بالشر والنفع بالضرة "وهذا امتحان من الله للعباد ليكونوا عند السراء على اهبة الانتقال منها فلا يغبطوا ، وعند الضراء على امل الخلاص منها فلا يقنطوا ." (٢) ويتحدث في المعنى ذاته عن الدهر وتقلبه " اذ كانت الحسنة منه زائرة لا تقيم والسيئة زائلة لا تدوم "،(٣) لذا يجب ان يتبصر الانسان في معاطاته مع الايام لاختلاف ماتتعاقب به مع الثقة " بحلم الله العادل وفضله الشامل " (٤) مدار هذه الافكار كما نرى عدم الركون الى الدنيا لانها لاتبقى على حال ، ونلاحظ قرب هذه الافكار من تجربته الشخصية .

---

(١) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٨أ - ٩٨ ب .
(٢) المصدر نفسه ، الورقة ٨٦ ب .
(٣) المصدر نفسه ،الورقة ٩٧أ .
(٤) المصدر نفسه .

وهكذا نرى ان نشير الى ان بعض الظلم وقع على الصابي في قول القائل ان اثر الحكمة قليل في رسائله (١) وان القارئ لا يجد فيها " ما يلفت النفس اليه الا بعض الفقرات الوصفية التى تمثلة لنا رجلا فنانا يحكم القول، ويجيد الوصف، وهذه الفقرات قليلة ايضا، وهي غريقة في لجج اسهابه وتطويله". (٢) ونقول ان صاحب هذا الرأى قد اغفل تجربة وجدانية عميقة تمد وآثارها في رسائل الصابي وكلماته واشعاره المبعثرة في ثنايا المصادر . . صحيح انه كان فنانا يجيد سياسة القول، لكنه كان ايضا انسانا زهيف الحس، عميق التأثر ككل فنان اصيل وحتى في رسائله الديوانية والتى تتضمن احيانا مادة قانونية بحت كالعهود والتقليدات نجده يضفي عليها صبغة فنية جميلة تحولها من مادة جافة الى حياة، فنتصور الحاكم العادل يتحرك امام اعيننا بافضل ما يمكن ان يكون عليه حاكم، وسنجد خلال دراستنا لفنه النثرى انه كان غنيا بالحكمة التي استمدها الصابي من تبحره بدراسة القوانين الاسلامية، والثقافة الاسلامية عامة، حتى استطاع ان ينفذ الى روحية هذه القوانين ويجردها من ماديتها .

---

(١) زكي مبارك في النثر الفني، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٨.

مؤلفات الصابي

لابي اسحاق الصابي مؤلفات عدة في العلم الرياضي والادب والتاريخ ، منها ما ذكرته المصادر القديمة ولم يصل الينا ، ومنها ما هو مخطوط في مكتبات العالم ، والقليل منها هو المطبوع المتداول . فقد ذكر له القفطي كتاب المثلثات وعدة رسائل في اجوبة مخاطبات لاهل العلم بهذا النوع . (١) ويبدو ان احدى هذه الرسائل موجودة على شكل مخطوط وهي رسالته الى ابي سهل الكوهي وقد ذكرها بروكلمان . (٢) اما في الادب فذكرت له المصادر ديوانا شعريا (٣) وكتاب ديوان رسائل في نحو الف ورقة . (٤) وقد تتبع بروكلمان امر هذه الرسائل وفصلها على الشكل التالي : (٥)

١ـ رسائل الصابي : (أ) في المعاتبات (ب) في الشفاعات (ج) ما نفذ الى العمال والنواحي ، (٦) .

---

(١) تاريخ الحكماء ، ص ٧٥ .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الادب العربي (ترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٧) ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٣) الفهرست ، ص ١٤٩ ، ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩٤ وهدية العارفين ، ج ١ ، ص ٧ .

(٤) المصادر نفسها وتاريخ الحكماء ، ص ٧٥ .

(٥) تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٦) وهو مخطوط . المصدر نفسه .

٢ ـ منشآت الصابي . (١)

٣ ـ المختار من رسائل أبي اسحاق الصابي وقد نشر الامير شكيب ارسلان الجزء الاول منه (٢)

واما في التاريخ فله كتاب التاجي في تاريخ بني بويه ، (٣) وقد ضاع الا قليلا منه وسندرس خصائصه الادبية في الفصل الثاني . وقد نسبت بعض المصادر هذا الكتاب الى سنان بن ثابت . (٤)

وقد ذكرت المصادر عدة مؤلفات نسبتها الى الصابي في حين انها لسواء، او ان نسبتها اليه ليست ثابتة . فذكر له كتاب اخبار اهله وولد ابيه . (٥) وقد نسب الكتاب نفسه الى سنان بن ثابت . (٦) ولا علم لدينا حول هذا الكتاب طالما انه لم يصلنا .

---

(١) تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ، ص ١٢ . وهو مخطوط .

(٢) المصدر نفسه ، وهو مخطوط . وقد اعتمد الجزء المنشور منه في هذا البحث .

(٣) ذكر في الفهرست ، ص ١٤٩ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩٤ وهدية العارفين ج ١ ، ص ٧ .

(٤) معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٢٦٢ ، نسبة الكتاب الى الصابي صحيحة بدليل اجماع المصادر وما لتأليفه من علاقة مباشرة بحياته .

(٥) الفهرست ، ص ١٤٩ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٦) معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٢٦٣ وتاريخ الحكماء ، ص ١٩٥ وطبقات الاطباء ، ص ٣٠٤ .

منه شيء ولم يذكر في كتابات ابي اسحاق لكن يثير انتباهنا هنا قول ياقوت عن الصابي " وكتب من الحبس الى ابنه المحسن وقد اكثر من هذا في ترجمة ابيه " (١) ، وقوله في عدة مواضع من معجم الادباء انه ينقل من خط المحسن كما ان المصادر التي نقلت اسماء كتب سنان بن ثابت نقلتها من خط المحسن ايضا ، (٢) وقد مر بنا وجود نوع من القرابة بين ابي اسحاق وسنان ، فهل يكون المحسن هو صاحب كتاب اخبار اهله المذكور ؟

وطالما ان المصادر قد وقعت في الفوضى في نسبة المؤلفات بين الصابئة ، فقد نسبت الى سنان بن ثابت رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر (٣) ، فيما نجد لابي اسحاق رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر اشار اليها التوحيدي في المقابسات (٤) ، واثبتت في التذكرة الحمدونية (٥) ورد عليها ابن الاثير في المثل السائر

---

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(٢) تاريخ الحكماء ، ص ١٩٥ وطبقات الاطباء ، ص ٣٠٤ .

(٣) معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٢٦٣ وتاريخ الحكماء ، ص ١٩٥ وطبقات الاطباء ، ص ٣٠٤ .

(٤) ابو حيان التوحيدي ، المقابسات (تحقيق محمد توفيق حسين ، بغداد ، مطبعة الارشاد ، ١٩٧٠) ص ٢٧٢ .

(٥) التذكرة الحمدونية (٧٧٠) ، الورقة ٧٦ أ - ٧٨ أ .

بعد ان ذكر ما جاء فيهما . (١)

نسب للصابي ايضا كتاب اخبار الوزراء (٢) ومعلوم ان الكتاب المذكور هو تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لحفيده هلال بن المحسن ونسبته اليه ثابتة . (٣) كما نسب الى ابي اسحاق كتاب الهفوات النادرة (٤) وهو لغرس النعمة بن هلال الصابي (ت٤٨٠هـ) . وذكر من مؤلفات ابي اسحاق كتاب اخبار النجاة (٥) . وكتاب اختيار شعر المهلبي (٦) ولا علم لدينا عنهما حيث لم يذكرا في كتب الفهارس التي ذكرت الصابي (٧) .

---

(١) ضياء الدين ابن الاثير، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر (مصر، المطبعة البهية، ١٣١٢هـ) ص ٣٢٢ - ٣٢٤ .

(٢) هدية العارفين، ج ١ ص ٧ .

(٣) الكتاب مطبوع في مطبعة الاباء اليسوعيين في بيروت، ١٩٠٤ وقد الحق به الجزء الثامن المتبقي من كتاب التاريخ لهلال بن المحسن وقد جاء في اخبار الوزراء ما يؤكد نسبة الكتاب الى هلال حين يقول : " وعهدي وانا اوقع في قصص المتظلمين في ايام صمصام الدولة عن ابي اسحاق جدي في ديوان الانشاء ..." (ص ١٥١) ويذكر فيه ايضا منزلا ابتاعه ابو اسحاق. (ص ٢٨٨) .

(٤) خير الدين الزركلي، الاعلام (بيروت - دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠) ج ١ ص ٧٨، والكتاب مطبوع بتحقيق صالح الاشتر سنة ١٣٨٧، وقد سبق استعماله في هذا البحث .

(٥) هدية العارفين، ج ١ ص ٧ .

(٦) معجم الادباء، ج ٢ ص ٩٤ .

(٧) كتاب تاريخ الادب العربي لبروكلمان الذي ترجم للصابي، ج ٢ ص ١١٩ وكتاب :

Fuat Sezgin, Geschichte des arabischen Schrifttums (Leiden . E.J. Brill, 1975) 2: 592

اما الكتاب الذى ضم المراسلات بين الشريف الرضي وابي اسحاق فتنسب بعض المصادر جمعه الى ابي اسحاق حيث تذكر من مؤلفاته كتاب مراسلات الشريف الرضي ابي الحسن محمد الموسوي، (١) فيما تنسبه مصادر اخرى الى الشريف الرضي فتذكر بين مؤلفاته كتاب رسائله الى ابي اسحاق الصابي (٢) ومختار شعر ابي اسحاق الصابي وما دار بينهما من الرسائل. (٣) ولسنا ندرى ان كان هذان الاسمان يدلان على كتاب واحد. اما بالنسبة للكتاب الذى وصلنا فى هذا الموضوع بعنوان رسائل الصابي والشريف الرضي فالمؤكد ان الصابي لم يجمعه لتضمنه ما قاله الشريف في رثائه .

---

(١) الفهرست، ص ١٤٩.

(٢) روضات الجنات، ج ٦، ص ١٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

الفصـــــل الثـــانــــي

الصـــــابـــــي الكـــــاتــــب

" وابو اسحاق معانيه فلسفية ، وطباعة عراقية ، وعادته محمودة ، لايشب ولا يرسب ، ولايكل ولايكهم ،ولا يلتفت وهو متوجه ، ولا يتوجه وهو ملتفت ،... هذا ونظمه منثوره ،ومنثوره منظومه ، انما هو ذهب ابريز كيفما سبك فهو واحد ، وانما يختلف بما يصاغ منه ويشكّل عليه ، " .

ابو حيان التوحيدي
الامتاع ،ج ١ ،ص ٦٧ ـ ٦٨

رســـائـــل الصابـــي

انواعها

رأينا انه ضمن مؤلفات ابي اسحاق مجموعة كبيرة من الرسائل ، لا زال بعضها مخطوطا في مكتبات العالم ، مما حدا بنا الى ان نحصر دراستنا في ما نشر من هذه الرسائل ، خاصـــة في كتاب المختار من رسائل الصابـي ، وما استطعنا استخراجه من ثنايا المصادر القديمـــة ، المطبوعـــة منها او المخطوطـــة ٠

يمكن تقسيم رسائل الصابـي الى نوعين رئيسين : الرسائل الديوانيـة والرسائل الشخصيـة ٠

١ ــ الرسائـل الديوانيـة : ونعني بها كل ماكتبـــه ابو اسحاق عن الخليفة العباسي او عـــن احد الملـوك البويهيين الذين كانوا يتسلمون زمام الامـور ، او عن احد الوزراء ، ويشمل ذلك :

كتـــب الفتـــوح :

تتضمـــن اخبار الخليفـــة او احد الملوك او غيرهـم بنبأ الفتح الذي قد يكـون بالتغلب على احد الثـوار المتمردين ، او باسترجاع منطقـة كانت فـي ايدي الاعداء ، وغالبـا ما تتضمن هذه الرسائل وصفا للمعارك ودعما لموقف المنتصر بالادلـة والحجج ٠ من امثلة هذا النـــوع رسالة فتح بغداد والانتصار على سبكتكيـن المتمرد سنـة ٣٦٤ وقد كتبت عن عز الدولـة بختيار الى ركـــن الدولة (١) ٠ ورسالة اسر الدمستق التي كتبت سنة ٣٦٢ عن المطيع لله الى ركن الدولة (٢) ٠

---

(١) رسائل الصابي ، ص ١٧ ــ ٤٢ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ــ ٧٥ ٠

كتـــب مفتوحـــــة الـــى الرعيـــة :

يصدر هذا النــوع عن الخليفة او الملك لنهي الرعية عن امورحثهم على آخر او لطلب النصرة منهم • من ذلك رسالة عن الخليفة الطائع لله الى رعية خرجت عن الطاعة (١) • وعنه رسالة الى اهل البصــرة (٢) • وغيــر ذلك •

كتـــب العهـــود والتقليـــــدات :

وكانت تصدر عن الخليفة كالعهد الى احد الحكام او القضاة او تقليد اعمال النقابة او الحج او الصلاة ،او تقليد حماية منطقة معينة • وتتضمن هذه الكتب عادة الصفات التي يجب ان تتوفر فـــي صاحب التقليد او العهد ،والاعمال المتعلقة بهذا المنصب، والتوجيهات التي تحدد له تصرفه وواجباته • ويدخل ضمن هذه المراسيم السلطانية كتب الخلع والتشريف والتلقيب والتكرمة كالرسالة الى عضد الدولة بالتشريف والخلع وزيادة التلقيب بتاج الملة، (٣) والرسالة عنه ايضا بتكرمة بختيار بن معز الدولة (٤) •

كتـــب الاقطــــاعـات وما يتعلـــق بالخـــــراج :

تتعلق بشؤون اقطاعات كاقطاع ضيعة الى احد الاشخاص وذكر شروط ذلك ومن امثلتهـــــا عن المطيـــع لله الـــى فلان (٥) • واما ما يتعلق بشؤون الخراج فمنهـــــا رســـــالـــــة

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٢٨٧ ـ ٢٩١ •
(٢) المصدر نفسه،ص ٣٠١ ـ ٣٠٤ •
(٣) المصدر نفسه،ص ٢٧٩ •
(٤) المصدر نفسه،ص ٣١٥ •
(٥) ابن حمدون،التذكرة (٧٧٠) ،الورقة ٦١ ب و القلقشندى ،صبح الاعشي ،ج ١٣ ، ص١٢٣ •

عن المطيع لله في نقل سنة احدى وخمسين وثلثمائة الخراجية (١) ٠

عقود الصلح والهدنة وعهود الامان :

فأما عقد الصلح فمنه ما يكتب من جانب واحد كالصلح الذى كتبه ابو اسحاق عن الشريف ابي احمد الموسوى وابنه الرضي الى سابور بن اردشير وفيه الايمان المؤكدة على نفسيهما بالاخلاص له وصيانة ابنته التي هي زوجة الرضي ،وجعل في نسختين (٢) ٠ ومنها ما يكتب عن الطرفين كالصلح الذى جرى بين صمصام الدولة واخيه شرف الدولة سنة ٣٧٦ هـ ويذكر فيه شروط الاتفاق وما يلتزمه كل الى الآخر ، ثم حلف كل منهما على ذلك (٣) ٠

واما رسائل الهدنة فتتضمن شروط الهدنة بين الطرفين والحلف على تنفيذها وتوقيع الشهود على الكتاب ٠ منها نسخة الهدنة التي كتبت عن صمصام الدولة بأمر الطائع لله لملك الروم (٤) ٠

واما عهد الامان فهو شبيه بالهدنة وقد يكون موجها الى فرد او جماعة طلبت الامان فيعطى لها نتيجة التزامها بالطاعة والاستقامة ٠ من ذلك نسخة امان لجماعة من العرب (٥) ٠

شؤون مختلفة : العلاقات بالدول والجماعات والولاة ٠

من ذلك نسخة تذكرة الى القرامطة عن عز الدولة يؤكد فيها الصلات الطيبة بهم ويحرض بعدوه الثائر سبكتكين التركي (٦) ٠ او ما يكتب عن الخليفة الى الولاة ككتاب الطائع لله الى عضد الدولة

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٣٠٥ والقلقشندى ،صبح الاعشي ،ج ١٣، ص٦٥ ٠
(٢) القلقشندى ، صبح الاعشي ، ج ١٤،ص ٩٧ ـ ٩٩ ٠
(٣) المصدر نفسه،ص ٩٢ ـ ٩٦ ٠
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠ ـ ٢٤ ٠
(٥) المصدر نفسه ، ج ١٣، ص ٣٣٧ ٠
(٦) رسائل الصابي ، ص٣٦٠ ٠

بالدعـــوة الى الصلح بينه وبين عز الدولة سنة ٣٦٦ هـ (١) ،او ما يكتب عن الملوك الـــى القواد لاستمالتهم كما كتب عن عز الدولة الى سبكتكين (٢) ،ثم الى الفتكين (٣) .

هذه اهم الموضوعات التي تعالجها الرسائل الديوانيـة التي تعتبر المجال الذى برع فيه الصابي وعليه كانت شهرته الواسعة . ثم اننا نجد نمطا آخر من الرسائل يمكن الحاقه تجوزا بالرسائـــل الديوانية ، وهو رسائل متنوعـة كتبها ابو اسحاق عن الملـوك او الوزراء في موضوعـات مختلفـة منهـــا الجدية ومنها الهزليـة : اما في الموضوعات الجدية فنجـد له رسالـة كتبها عن عز الدولة لما نقـــل ابنتـه المزوجة بعدة الدولة ابي تغلب الحمداني اليه (٤) . ومنها في الشفاعـة كما كتب عن صمصـــام الدولة الى الصاحب بن عباد (٥) ، ومنها في الصيد كوصف رحلة صيد عن الوزير محمد بن العباس بن فسانجس الى عز الدولة بختيار (٦) ،او التهنئـة او غيرهـا من الموضـــوعــــات .

واما الموضوعـــات الهزلـية : فمنهـا عهد التطفيـل الذى كتبـه ابو اسحاق عن عز الدولة بختيـار (٧) . ومنها كتاب تعزية في ثور كتبه عن ابن بقية الى القاضي ابي بكر بن قريعـة يعزيـه عـــن

---

(١) . رسائل الصابي ،ص ٣٢٦ .
(٢) المصدر نفسه ،ص ٣٣١ .
(٣) المصدر نفسه ،ص ٣٨٤ .
(٤) اليتيمـة ،ج ١ ،ص ٥٥ ،و ابن حمدون ،التذكرة (٧٧٠) ،الورقـة ٦٠أ ، وفي الراغب الاصفهاني ، محاضرات الادبـــاء جزء من الرسالـة ،ج ٣ ،ص ٢١١ .
(٥) القلقشندى ،صبح الاعشى ،ج ٦ ،ص ٥٦٠ .
(٦) ابن حمـدون ،التذكرة (٧٦٩) ،الورقـة ١٩٢أ .
(٧) التنوخي ،نشوار المحاضرة ،ج ٧ ،ص ١٥٥ والخطيب البغدادى ، التطفيل وحكايات الطفيليين واخبارهم (تحليق كاظم المظفر ،النجف ،المكتبة الحيدرية ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦) ص ١١٢ وصبح الاعشى ،ج ١٤ ،ص ٣٦٠ .

ثور جلس للعزاء عليه تراقعا (١) .

٢ ـ الرسائل الشخصية : وهي كل ماكتبه ابو اسحاق عن نفسه . والذي وصلنا من هذا النوع قليل جدا ، معظمه مقاطع من رسائل نقلتها المصادر ، عالج ابو اسحاق فيها عدة موضوعات كالتهنئة والشكر ، والشكوى والعتاب ، والوصف والمدح والاستماحة والتعزية والادب ، وغير ذلك من الموضوعات . وكما اعتبر الصابي مجيدا في السلطانيات كل الاجادة فقد اعتبر مقصرا في الاخوانيات وكتب التعازي (٢) . وطالما ان النماذج التي لدينا قليلة فلا نستطيع الفصل في هذا الموضوع ، بل سنعرض لذكر السمات العامة لرسائل الصابي المستفادة من رسائله جميعا .

<u>السمات العامة للرسالة لدى الصابي :</u>

لاتخرج رسائل الصابي من حيث بعض سماتها عن اطار عصرها ولا عما يحدده نوعها ، اذ تختلف الرسائل الديوانية في بعض خصائصها عن الرسائل الشخصية مثلا ، وهذا امر طبيعي ، لكن لرسالة الصابي مايميزها ضمن السمات العامة للرسالة في عصره ، اذ ان لكل كاتب طريقة وان السمة الواحدة وان كانت عامة لكتاب العصر لابد ان تبرز في ادب كل كاتب بشكل متميز ، بالاضافة الى ذلك ، نجد ان لرسالة الصابي سمات اختصت بها وحدها . فمما كان الصابي فيه مماشيا لخصائص الرسالة في عصره ، مع تفرده ضمن ذلك في بعض النواحي ، طول الرسالة ، واستعمال الامثال والشعر فيها ، والاكثار من السجع والازدواج ، واستعمال التحميدات والادعية والاقتباس من القرآن الكريم ، ... اما الخصائص الذاتية المميزة للرسالة لديه فتبرز في بناء الرسالة وتصوير الشخصيات وغير ذلك .

---

(١) <u>زهر الاداب</u> ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

(٢) ضياء الدين ابن الاثير ، <u>المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر</u> (تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الاولى ١٣٧٩ه / ١٩٥٩) ج ١ ، ص ٣٣٢ .

١ ـ طـول الرسائـل :

تتميـز الرسالـة لدى الصابي عامة بطولها وخاصة رسائل الفتوح والعهـود ، وهذا عائـد الى تشعـب الموضوعات التي تعالجها احيانا ، وانتحائـه فيها منحى تفصيليا استقصائيا ، بالاضافة الى رتابـة الرسالـة الديوانيـة وماتستدعيـهمن التحميد والدعاء والايضاح والشرح وغير ذلـك. كمـا في رسالـة كتبها عن عز الدولـة عند دخوله الموصل وانهزام ابي تغلب الحمداني عنها سنة ٣٦٣ هـ (١) فاننا نلاحظ احتواء مقدمتها على تحميدة ودعاء . اما التحميدة فيمكن ان تقسم الى اربـع تحميدات،في الاولى يحمد الله ويذكر صفاتـه في العظمـة والقدم والعدل والكرم ،ومساعدة الاوليـاء والانتقـام من الاعداء . والتحميدة الثانيـة على ان الله اصطفى محمدا للنبوة فنقـل النـاس من الضـلال الى الهدى والتوحيد ، والتحميدة الثالثـة على انه انتخب امير المؤمنين مـن الاصل الشريف ، اما الرابعـة فهي على ان أهّـل للبويهيين : ركـن الدولـة وعضد الدولـة وعز الدولـة على الحظوة عنده .

وعلى مثل هذه الاطالـة جرى ابو اسحاق في كثير من رسائل الفتح كرسالة فتح بغداد (٢) ورسالـة اسر الدمستـق (٣) ،لكن الاطالـة لدى الصابي غالبـا ما كانت تخدم اهدافـا فـي رسالتـه وهذا ما سنعرض لـه في تحليل نماذج من نثره . وانما نذكر من امثلة هذه الاهداف في المثـل المذكـور سابقـا (اي رسالـة فتح الموصـل) (٤) .

اولا : خلق ثنائيـة متقابلـة في الرسالـة بواسطـة اطالـة المقدمة كما رأينا : فمن ناحيـة لـدينا البويهيون التابعون للخليفـة المنتمي الى محمد رسول الله . وهذا يعطـي شرعيـة للحكم ويجعله ممثلا لله وخليفته على الارض ،يقابله من ناحية اخرى جماعة من المرتدين

---

(١) انظر الرسالـة رقم (١) في ملحق الشواهد .
(٢) رسائل الصابي ، ص ١٧ ـ ٤٢ .
(٣) المصدر نفسـه ،ص ٦٤ ـ ٧٥ .
(٤) انظر الرسالـة رقم(١) في الملحـق .

العاصين المنكرين لشرعية الحكم ، الخارجين عن الطاعة لحاكم بغداد ومن ثم للرسول محمد عليه السلام ومن ثم لله سبحانه • هذا السياق المنطقي في رسائله : الله ، النبي ، امير المؤمنين ، البويهيون ، يظهر النصر كنتيجة تؤكد على ان طاعة الامير الصالح هي من طاعة الخليفة الصالح الذى يؤيد ما اداه النبي عن الله ﴿ اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ﴾ (١)

ثانيا : الافاضة في شرح اسباب حملة عز الدولة على الموصل وذكر اعمال ابي تغلب وسيئاته ، يخدم امرين : تغطية حقيقة موقف عز الدولة حيث يبدو بريئا من كل رغبة شخصية دفعته الى الموصل كاللهو والصيد وجمع الاموال ، ثم ان الصابي لا يكتفي بتبرئة ساحة عز الدولة حتى يجعل ذهابه ضروريا حيث يظهر بمظهر الحاكم الشرعي الذى ينفذ احكام الشريعة •

الامر الثاني هو اضعاف موقف ابي تغلب ، فذكر سيئاته ثم الاستطراد في ذكر ما جرى بينه وبين والده واخوته يخدم في ادانته فيبدو في الرسالة بصورة المناقض تماما لما يجب ان يكون كما جاء في القرآن الكريم • فبدل ان يكون القائد المسلم المرابط في الثغر ينحط الى مرتبة عامل من عمال صاحب الروم او بطريق من بطارقته يهديه الخمر والصلبان ، لذا تجب مقاتلته شرعا •

ثالثا : يخدم التطويل في الاتاحة لعناصر فنية بالبروز في الرسالة كرسم الشخصيات والتطوير التصاعدى في الاحداث •

ونظن ان الاطالة من مستلزمات اسلوب الصابي الذى يسير على وتيرة واحدة ويتميز بالهدوء النسبي ، او كما قال التوحيدى : " لا يثب ولا يرسب ، ولا يكل ولا يكهم " (٢)

٢ ـ الترابط في تركيبة الرسالة : البنية الخارجية والبنية الداخلية •

على ان طول رسائل ابي اسحاق لم يفقدها وحدتها والترابط القائم بين اجزائها ، والذى

---

(١) سورة النساء (٤) : ٥٩ •
(٢) الامتاع ، ج ١ ، ص ٦٧ •

يجعل كل قطعة من الرسالة تخدم هدفا لدى الكاتب ، وسيتبين لنا ذلك في تحليلنا لطبيعة تركيب الرسالة اي البنية الخارجية والبنية الداخلية لها .

فاما البنية الخارجية فهي متشابهة في معظم الرسائل حيث تتألف الرسالة عنده من ثلاثة اقسام : المقدمة ، والموضوع أو القضية ، والخاتمة . وغالبا ما تبدأ المقدمة بأما بعد ، وتتضمن حكمة تختصر موضوع الرسالة او القضية التي ستعرض فيها كقوله في رسالة تعزية لمحمد بن العباس (١) :

" الدنيا ، اطال الله بقاء الرئيس، اقدار ترد في اوقاتها ،وقضايا تجرى الى غاياتها . ولا يرد منها شيء عن مداه، ولا يصد عن مطلبه ومنحاه ... " . وقد تقترن الحكمة بالتحميد والدعاء في الرسائل الديوانية ، وقد يستعملان دونها كما رأينا في مقدمة كتاب فتح الموصل . والتحميد غالبا ما يتضمن ذكر صفات الله وحكمته والاشادة بالاسلام وبنبيه محمد عليه الصلاة والسلام .

ونجد شكلا آخر للمقدمة هو البدء بـ " كتبت" أو " كتابي " ثم يذكر تاريخ الرسالة او مكان المرسل . لكن مع اختلافات اشكال المقدمة نجدها تحتوى التحميد والدعاء بشكل شبه دائم يتبعه التمهيد لعرض الموضوع الذى غالبا ما يبدأ بالقول : وقد عرف مولانا ... او وقد كان كذا .. حتى اذا انتهى من عرض القضية افضى الى الخاتمة التي قد تكون حمدا او دعاء وقد تكون طلبا لطيفا او امرا بالقيام بعمل ما ، وقد تتضمن تاريخ كتابة الرسالة .

هذا هو الشكل الغالب على رسائل ابي اسحاق وان كنا نجد له بعض الاستثناءات كأن نجد له رسالة تجاوز فيها المقدمة الى الموضوع مباشرة كقوله في رسالة استماحة الى الصاحب (٢) . " انما اعتذر الى سيدى ،اطال الله بقاءه، من تأخر كتبي عن حضرته ... " .

اما اذا كانت الرسالة جوابية فقد تبدأ بالمقدمة المعهودة وهنا يقسم الموضوع الى جزئين : يتضمن الاول تلخيصا لمضمون الرسالة المتسلمة يبدأ بقوله : ووصل كتاب مولانا ... وينتهي بالقول " وفهمته " ليبدأ بالرد عليها وهو الجزء الثاني من الرسالة .

---

(١) الرسالة في الحصرى ،زهر الاداب، ج ٤ ،ص٣٥ — ٣٦ .
(٢) رسائل الصابي ،ص٤٠٤ — ٤١١ .

فالبنيــة الخارجية للرسالة الصابئية بسيطــة وان اختلفت في بعض اشكالها ٠ اما البنيــة الداخليــة فانها لا تخلو من بعض التعقيد وغالبا ما تبنى على الثنائيــة ،ولا يستبعد ان يكون لهذا البناء علاقة بحياة الصابي الشخصية وبدين الصابئــة الذي يؤ من به ٠

فمن ناحية حياة الصابي ووضعه في بيئته ، فهو صابئ يعيش بين المسلمين ويتسلم مركـــزا في دولتهم فهو ظاهرا يتصرف كأحدهم : في عمله كاتبا ،يفهم القوانين والانظمة الاسلامية ويتخذ جانب الحاكم المسلم الذي يعمل له ،ثم في علاقاته مع المسلمين بحسن معاملته لهم ومشاركتهم صيام رمضان وبحفظ القرآن وغير ذلك ٠ فالظاهر بسيط ،اذ انه يبدو كأحد المسلمين ، لكن الحقيقة التي اصر عليها ابو اسحاق وسجلتها المصادر انه بقي على معتقده ،بل كان من المتشددين فيه ٠ وهنا يبدو التعقيد في شخصيــة الصابي حيث انه يعتنق ديانة يقر باعتناقــه اياها لكنه لا يبدي الكثير من فروضها او مفاهيمها ،ويتحدث بلســان ديانــة اخرى لو آمــن بها حق ايمان لكان اعتنقها خاصة مع ما قد تحمل له من تسهيـــلات في العيش واعتــلاء المناصــب ٠

اما من ناحية ديانة الصابئــة فان هذه الديانة تحمل نوعا من الثنائيــة من وجود ظاهر لها وباطن ٠ فالظاهر بسيط : توحيد الله ،وايمان ما بالنجوم والكواكب ،والباطن معقد تختلط فيه النظريات الفلسفيــة بالطقــوس الوثنيــة ، بالاسرار التي لا يعرفها الا القلة منهم ، مع شعور بالتميز عن بقيــة الناس فلا يطلع على دين الصابئــة احد ،وبالتالــي لا يسمح لأحد بالدخــول فيــه ٠

هكذا نجد ان الصابي عاش الثنائيــة في شخصيته على مستوى علاقته بالاسلام والمسلمين ،ومستوى معتقده الديني ـ قبل ان تظهر في تركيبــة رسائلــه ، فنلاحظ مثلا في رسالة اسر الدمستق (١) ٠ انــه ادخل سياقا خارجيا على النص ليفيد منه في خلق صورة موازيــة للوضع الذي يريد ابرازه في الرسالـــة ، فهو حين ركز في مقدمته على صفات الله ،الذي ينصر اولياءه ويذل اعداءه ، والذي اختار الاسلام دينا لهذه الامة واظهره على الدين كله ونصره ، واصطفى محمدا وفضله ، وبعثه رسولا فصدع برسالته واستنقذ الامة

(١) انظر الرسالــة رقــم (٢) في الملحــق ٠

من الضلال ووحدها ،يكون قد ادخل سياقا خارجيا ربطه باشخاص الرسالة بشكل مواز .

فاذا وجود الخليفة هو استمرار لرسالة محمد ،والعمل تحت راية الخليفة عمل تحت راية الاسلام ومن اجل عزته . ثم جعل ركن الدولة اساس الشجرة البويهية وعز الدولة استمرارا له ،وجعل العلاقة بين شخصية الخليفة وشخصية عز الدولة هي ان الاولى حافز للثانية والثانية دعامة للاولى . الاولى تمثل القوة الروحية والثانية القوة العملية فكأنهما معا يمثلان محمدا الذى جمع بين القوتين . ثم نرى الوضع الذى تتحرك فيه الشخصيات المتوازية نفسه : فحال الامة قبل الاسلام من الكفر والضلال كحال الروم الذين يعيثون في الارض فسادا . ثم انه لم يكتف برسم هذه المتشابهات حتى اعاد الى الاذهان بداية الصراع مع الروم حين وضع المعركة التي يصفها في الرسالة في الاطار الذى جرت فيه وقعة مؤتة التي جرت بين المسلمين والروم وهزم فيها المسلمون ، لكن لينهي هذه المعركة بنتيجة معكوسة : انتصار اولياء الله وانهزام اعدائهم . وسنورد المقطع المتشابه في وصف بداية المعركة بين السيرة والرسالة . ففي السيرة يتحدث الكاتب حول المسلمين : " ثم مضوا حتى نزلوا معان ، من ارض الشام ، فبلغ الناس ان هرقل قد نزل مآب من ارض البلقاء ، في مئة الف من الروم ،وانضم اليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلي مئة الف منهم ، .. فلما بلغ ذلك المسلمين . اقاموا على معان ليلتين يفكرون في امرهم ..." (١) . وفي الرسالة يقول الصابي : " ووردوا ظاهر آمد يوم الثلثاء ... فعرفوا صحة خبر الدمستق لعنه الله وحصوله على افواه الدروب في خمسين الف رجل منهم عشرون [الفا] من المدججة وذوى المراتب المقدمة ،وتلوم اصحابنا بها يريحون والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون مرة تقدم بهم الآجال ،ومرة تحجم بهم الاوجال ..." (٢) .

اذا ،سياق الرسالة قائم على الموازاة بين حالتين وشخصيتين لابراز الحالة التي يريد شرحها في الرسالة واعطائها معنى روحيا عميقا يتجاوز الحروب العادية بين الدول ليكون حربا للحق على الباطل والهدى على الضلال ،مما يبلغها مستوى الرسالية ، هذا ما يعطي قيمة للتحميدات في المقدمة والتي تبدو

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية (تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ،مصر ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٥ / ١٩٥٥) ج ٢ ،ص ٣٧٥ .

(٢) رسائل الصابي ،ص ٧٢ .

لأول وهلة طويلة وخارجة عن موضوع الرسالة • وقد ارتبطت هذه الثنائية في الرسالة المذكورة بنوع من التطوير التصاعدى للاحداث بلغ بها الى مرحلة حاسمة وهي المعركة التي يريد تصويرها والتي تشكل حلا للقضية المطروحة •

شكل آخر من الثنائية نجده في رسالة فتح الموصل وهي الثنائية القائمة على المقابلة والتضاد ،لا الموازاة ، حيث لا يجرى التركيز على شرعية الحكم وارتباطه بالله ورسوله بقدر ما هو على ابراز الناحية المقابلة لذلك وهي اعداء الحكم اى ابو تغلب ومن معه من الكفار ، وقد بلغت هذه المقابلة حد القلب حيث تتطور شخصية ابي تغلب سلبيا حتى تبلغ مرحلة لا تطور بعدها الا بفعل خارجي ، وهي عقدة القضية فكانت المعركة التي ووجه بها هذا العاصي الحل لها •

ابو تغلب قائد مسلم عهد اليه بحماية الثغور ومجاهدة الروم فلاطف " طاغية الروم "وقاد اليه الخيل العتاق " مما يساعده على المسلمين وحمل اليه الخمر وصلبان الذهب • هذا التقرب الى صاحب الروم حول ابا تغلب الى ان يشبه عاملا من عمالها وبطريقا من بطارقته وهنا تبلغ الشخصية غاية في السلبية بحيث تصبح في جملة اعداء الله • فملاطفة الروم ،كما يرى الصابي ،تخالف قوله تعالى : ﴿ يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ (١) • ونقله الخيل من ديار المسلمين الى ديار اعدائهم نقيض قوله تعالى: ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (٢) ،اما اهداؤه الخمر والصلبان فيخالف قول الله عز وجل: ﴿ انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ (٣) • هنا لم يبق الا ان يصدر الحكم

---

(١) رسائل الصابي ،ص ١٣٣ . سورة التوبة (٩) : ١٢٣ •

(٢) المصدر نفسه.سورة الانفال (٨) : ٦٠ •

(٣) المصدر نفسه • سورة المائدة (٥) : ٩٠ •

على هذه الشخصية فتكون المعركة •

وقد اتبع الصابي هذا الاسلوب في غير رسالة ،منها مثلا رسالة الظفر بروزبهان سنة ٣٤٥ هـ (١) ،حيث يعمد الى السرد التطويري للاحداث ، وينحو منحى تصاعديا في ابراز ملامح الشخصية معتمدا التناقضات • ومن يقرأ الرسالة يجد انها قائمة برمتها على التناقض بين معان عدة : كالنعم والنقم ،والشاكر والكافر ،والمطيع والعاصي ،بين شخصية روزبهان المنافق الجاحد وشخصية معز الدولة المحسن الحليم ، بين ظاهر روزبهان وباطنه ، بين جيش روزبهان وجيش معز الدولة • وهكذا تتفاعل هذه التناقضات حتى تكون المعركة التي جرت بين معز الدولة وروزبهان قمة هذا الصراع بين المتناقضات، يأتي بعدها الحل وهو انتصار الاولياء وهزيمة الاعداء وهو الحل الدائم في رسائل الفتوح لدى الصابي •

اذا ابو اسحاق يعتمد في البنية الداخلية للرسائل على الثنائية المتوازية او المتقابلة كما يعتمد على السرد التطويري للاحداث وللشخصيات ، فيسير باحداثه وشخصياته في طريق التعقيد لبلوغ نقطة معينة تشكل عقدة القضية وغالبا ما يكون الحل بفعل خارجي كالمعركة مثلا •

٣ ـ تصوير الشخصيات :

من اهم الشخصيات التي رسمها الصابي في رسائله شخصية المنافق ذي الثنائية المتقابلة : ظاهر وباطن • هذه الشخصية كما صورها ابو اسحاق في شخصية روزبهان المنافق موافقة لما جاء في القرآن الكريم من وصف للمنافقين •

شخصية روزبهان هي ابرز ما يبدو في رسالة الظفر بروزبهان وقد سخرت لاجل ابرازها بعض الاحداث والشخصيات الاخرى • فنحن نتعرف بهذه الشخصية منذ بداية امره حين كان صغيرا فرفعه

---

(١) انظر ال[illegible] (٣) في الملحق •

معز الدولة وكرمه حتى " تقطعت بمنافسته انفاس النظراء " (١) • لكنه عصى واتبع هواه وغيه فسقطت عنه النعمة • فتنحرف اليه وهو في القمة حائزا على الثقة والقوة وحوله الرجال والاولياء • ويكيد له الحساد لكن سيده لا يقبل عليه كيدا ويفسح له مجال العودة عن نفوره، وهنا تبرز لديه صفة الايغال في العصيان فيستمر على عناده وغيه ويعلن ما كان خافيا ، فيبدو في اوج قوته في العصيان والسلبية وتبلغ الشخصية غاية علوها ليسقط بعد المعركة في صورة الاسير الذليل الخاضع •

بمقارنة ملامح هذه الشخصية مع صفات المنافقين في القرآن نجد تشابها كبيرا : روزبهان المنافق يخفي ما لا يظهر : فقد " اظهر لنا غرورا من سعيه في الخدمة وكدحه، وسرابا لامعا من وفائه ونصحه ، وهو يدب الضراء ويسر حسوا في ارتغاء ، ويوكي على الغش عيابه ويحنو على النكث ضلوعه وحجابه ، ولا يبدي لنا بادية وفاق ، الا عن خافية نفاق ••• " (٢) يقابل هذا في القرآن الكلام عن صفة الخداع لدى المنافقين ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون ﴾ (٣) •

ــ الصفة الثانية هي التظاهر بالطاعة واسرار الكيد والمؤامرات : ففي الرسالة يتصل روزبهان بأخيه لاطلاق سجينين في القلعة كانا من المتمردين ، ثم يتنصل من ذلك ويذم فعلة اخيه ويدعي الموالاة والطاعة ، وقد وصف فعل المنافقين في القرآن بالقول ﴿ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ﴾ (٤) •

ــ من صفات روزبهان الكفر بالنعمة والاساءة الى من احسن ، فقد احسن اليه معز الدولة ورفع من قدره ومكانته " وانتهينا في الانافة بقدره والاشادة بذكره ، والتفخيم لامره ، ••• الى الغاية التي لا تسمح بها نفس باذل ، ولا تسمو اليها همة آمل ، فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، " نزت به بطنته وادركته

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٥٥ •

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩ •

(٣) سورة البقرة (٢) : ٩ •

(٤) سورة البقرة (٢) : ١٤ •

شقوتــــه،ونــــزغ له شيطانـــه، ... فنصب اشراكه وحبائله، واعمل مكايده ومخاتلـــه ..." (١)

وفـي القرآن ﴿ وما نقمــوا الا ان اغناهــم الله ورســولــه من فضله ﴾ (٢) .

— ومن صفاته ايضا ان اسراره الكيد يجعله يشعــر بأنـه متهم،فنجده يذكر بحرمانه مما جعـل

معز الدولة يحلـف له ايمانـا كثيرة يؤمنه ويهدئ من نفـوره " وادعى من تنكـر نالـه، وتغيرنا

عن العناية به،مواصفاتنا الى افساد المفسدين عليه، وايحاش الموحشين منه، (٣) .. وفـــي

القرآن يقــول سبحــانه يصــف المنافقيــن من آيـة ﴿ .. يحسبــون كل صيحة عليهم ... ﴾ (٤) .

— ثم ان آفـة المنافــق صفـة مركـوزة في طبيعته وهي تؤدي الى نهاية مهلكـــة: " .. ابـى

لــه ضعف العقل والنحيــزة،ولؤم الطبع والغريــزة، الا اصرارا على طيشه وسفهــه،واستمرارا فـي

طيخــه وعمهــه، ...." (٥) ثـم يقــول واصفا اياه " دالفا دلــوف الجاهل بريــــــــــــه ،

الذاهـــــــل عــن رشـده،المركـــوس في غيــــه،المسوق الى حتفــه، .. اوردته قحة الاديم

---

(١) رسائل الصابي ،ص ٥٠ .

(٢) سورة التوبــة (٩) : ٧٤ .

(٣) رسائـل الصابي ،ص ٥٣ .

(٤) ســورة المنافقـــون (٦٣) : ٤ .

(٥) رسائـــل الصابي ،ص ٥٥ .

ورقة الدين موارد هلكة لاصدر عنها ،واقتحمت به قحم خطة لا انفراج لها ،والله في ذلك كله ناصرنا وخاذله ،ومظفرنا وقاتله ، ومعلينا ومسقطه ، ... " (١) وفي القرآن ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ،ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون﴾ (٢) ٠

ثم نجد ابا اسحاق يفيض في سرد الاحداث ليبرز ابعاد هذه الشخصية وسماتها مع انها شخصية المنافق العاصي في حين تختفي شخصية معز الدولة البر والخير ٠ هذا التمادى في ابراز جوانب الشخصية بالاضافة الى تركيز الصابي في مواضع كثيرة من الرسالة على ان الله ينزع النعمة من كافريها واستشهاده بالآية ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (٣) ٠ يجعلنا نتصور ان هدف الصابي انما يفسره ويدل عليه هذه الفكرة التي اذا طبقت على وقائع الرسالة تعني ان روزبهان الذى جاءته النعمة وكفر بها كان عقابه من الله ان يخسرها وان يعوض عنها البؤس والشقاء ٠ وهكذا يكون هو الذى قتل نفسه بأن جنى عليها لكفره بالنعمة ٠ وما دور شخصية معز الدولة الا دور الوسيط او الاداة التي اتاحت لهذه الشخصية تطورها ثم قتلها ٠ اذ هو الذى انعم الله بواسطته على روزبهان وبواسطته اذله الله واسقطه ٠

شخصية ثانية اجاد ابو اسحاق في رسمها هي شخصية الكافر الذى عصى الله وخالف امامه وقتل والده وقطع رحمه ٠ هذه هي شخصية ابي تغلب الحمداني في رسالة فتح الموصل

---

(١) رسائل الصابي ،ص٦٠ ٠

(٢) سورة البقرة (٢) : ١٠ ٠

(٣) سورة النحل (١٦) : ١١٢ ٠

وهنا لايترك ابو اسحاق شخصيته تلقى مصيرها بنفسها وتصل الى غايتها المحتومة ٠ انما يهيىء لوجود قوة خارجية تعيد هذه الشخصية الى صوابها وذلك بعد ان تحاكم وتحشد كافة الادلة التي تدينها ثم يصدر الحكم عليها تماما كهيئة المحكمة ٠

تمثل شخصية ابي تغلب المرتبة الاولى في معاني الرسالة في حين تساهم شخصية عز الدولة في محاولاته لتقويمه ومعاملته له ، في ابراز سمات هذه الشخصية فتشكل المحرك لها المساعد على ظهورها خاصة في الجزء الاول من الرسالة حيث يبدو تحاور الشخصيتين وتفاعلهما ، وذلك بشكل تطويري تنتهي فيه كل شخصية في جانب ، فعز الدولة يحاول تأليف المعاذير لابي تغلب ويحاول اصلاحه ثم يلومه ويوسط وزيره لرده الى الجادة ولما يستمر ابو تغلب في غيه يستعمل عز الدولة الحزم معه فينهزم الى الموصل ٠ اما ابو تغلب فقد اظهر اولا القبول والتبصر حتى اذا تقلد اعمال ابيه منع المال وخان العهد ،ثم ازداد طمعا وشرها واصرارا على الخطأ ثم كاشف بالخلاف والشقاق ٠ ابو تغلب الذى برز مكاشفا يسقط سريعا وينهزم امام جيش بختيار ويظهر عمله في اغراق سفن عز الدولة عمل جبان هارب ٠ هنا ينتهي كل مايمكن للصابي ان يقوله عن ابي تغلب مما جرى له مع عز الدولة ٠ لكنه لما كان يريد ادانة الرجل عمد الى البحث عن اشياء اخرى فيه ليوظفها ضده ، فوجد ان اختيار والده له وتقديمه على اخوته لم يكن لكفايته ولا اعتمادا على رأى والده وحزمه ، انما اتباعا لهوى امه ٠ فلما هيئت له فرصة القدرة والقوة تحول الى ذئب كاسر فجزى والده جزاء ام عامر لمجيرها ضاربا بكل القيم الانسانية والوصايا الالهية عرض الحائط ٠ وقد ارفق الصابي ذكر هذه الحادثة بما اوصى به القرآن الكريم من طريقة معاملة الوالدين فبدت النقيض الفاضح لبشاعة عمل ابي تغلب ٠ لكن هذا ، كما يقول الصابي ،لم يرض ابا تغلب فغدر باخويه ٠

وهـذا تصعيـد وتطوير لصفـــة العقـوق والقسوة التي يتميـز بها ، انها عظيمـــة من العظائم ، لكن الاعظم منهـا اغفـــال ابي تغلب حفظ الثغـور وجهاد الـروم ،بل على العكس ،لقد هادنهم وارتكـــب المحرمـــات من اهدائهم الخيل والخمـــر والصلبـــان . وهذا مايضع ابا تغلـــب في خانـــة عمال صاحب الـروم بل وبطارقتـه اى انه قد تخلى كليـا عن دينـه عندما استحل مـــا حرّم اللـــه .

ويـرى الصابي ان ما اتهم بـه الرجل عظيـم جدا وخطير فيعمد الى التدليل عليـــه استنادا الى كتـاب اللـــه ، حيث يفصّـــل التهم واحدة واحدة ، ويظهر من القرآن ما يتنافـــى معها ثم يعـود لذكر فعلتـــه مع عز الدولـــة من التضييق على رجالـــه وتغريقـــه لسفنهـــم . فيبـــدو هذا الفعـل صغيـرا بجانب ما اتهمـه بـه حتى الان . ثم وبعد هذه الادلة الدامغـة يصدر الحكم على ابي تغلب . الحكم بالقتـل او الرجـوع الى الحق . فيبدو الموضوع باسره وكأنـــه مرافعـة قضائيـــة يدلي بها محام قدير يشرح القضيـة مبينـا ادلة الادانـة استنادا الى آيـات قرآنيـــة وكأنها مواد قانونيـة ،وبعد الالتفـاف على الخصـم من جميع الجهات يصدر الحكم عليه .

عدة عوامل استعملها ابو اسحاق في الرسالـــة ادت الى نجاحـه في تصوير ما اراد تصويره من هذه الشخصيـــة منها اعتماده المنحى التصعيدى وذلك في الارتفاع باعمال ابي تغلـب من العظيـم الى الاعظـــم ، واستعمال عبارات تؤدى هذا المعنى كقولـــه : " ولم يرض فضـل اللـــه (اى ابو تغلب) بما اتاه حتى ... " او قولـه : " واعظـم من هذا خطبـا واوعـــر مسلكـــا ولحبـــا ... " ومن هذه العوامل استناده الى القرآن الكريـم حيـث ان آياتـــه قد دعمـــت معانيـــه لكونها النقيض لاعمال ابي تغلب خاصة وانه كان يتبعها باساليب بلاغيـــة كالاستفهـام الانكا ر ى واستعمال القسـم كقـوله : "فبأى وجـه يلقى الله قاتل والد حدب قد امـــر الا ينهره ؟ وبأى لســـان ينطق يوم يسأل عما استجازه فيـه وفعلـه . تاللـــه لو ان بمكانـــه

عـدوا لهما قد قارضهما الذحول (هنا يتحدث حول ابي تغلب واخيه المشارك في نعلمته) وقارعهما عن النفوس، لقبح بهما ان يلؤما ذلك اللؤم عند الظفر به، .. " (١) ، او قولـه :

" فهل يجتمع في احد المساوى، ما اجتمع في هذا الناد العاند ، والشاذ الشارد ؟ وهـل يطمع من مثله في حق يقضيه اوفرض يؤديه ، او عهد يرعاه ، او ذمام يحفظه ، وهو لله عاص، وللامامة مخالف، ولوالده قاتل ، ولرحمه قاطع ، كلا والله بل هو الحقيق بأن تثنى اليه الأعنة ، وتشرع نحوه الاسنة ، وتنصب له الارصاد ، وتشحذ له السيوف الحداد ، ... " (٢) .

ثم ان معرفة الصابي بالاحكام الشرعية قد هيأت له اصدار الحكم الشرعي على المجرم وهو القتل او الافاءة الى الحق فيكون حكمه شبيها بحكم الراجع عن الردة ، المحمول على ظاهر الشريعة (٣) . ونجد ان نجاح ابي اسحاق في تصوير شخصية ابي تغلب بصورة المرتد المارق جعله

---

(١) رسائل الصابي ، ص ١٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٤ .

(٣) قتال اهل الردة : " هو ان يرتد قوم حكم باسلامهم سواء ولدوا على فطرة الاسلام او اسلموا عن كفر فكلا الفريقين في حكم الردة سواء فاذا ارتدوا عن الاسلام الى اى دين انتقلوا اليه مما يجوز ان يقر اهله عليه كاليهودية والنصرانية ، او لا يجوز ان يقر اهله عليه كالزندقة والوثنية لم يجز ان يقر من ارتد اليه لان الاقرار بالحق يوجب التزام احكامه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من بدل دينه فاقتلوه فاذا كانوا ممن وجب قتلهم بما ارتدوا عنه من دين الحق الى غيره من الاديان لم يخل حالهم من احد امرين : اما ان يكونوا في دار الاسلام شذاذا وافرادا لم يتحيزوا بدار يتميزون بها عن المسلمين فلا حاجة بنا الى قتالهم لدخولهم تحت القدرة ويكشف عن سبب ردتهم فان ذكروا شبهة في الدين اوضحت لهم بالحجج والادلة حتى يتبين لهم الحق واخذوا بالتوبة مما دخلوا فيه من الباطل فان تابوا قبلت توبتهم من كل ردة وعادوا الى حكم الاسلام كما كانوا ، والحال الثانية ان ينحازوا الى دار ينفردون بها عن المسلمين حتى يصيروا فيها ممتنعين فيجب قتالهم على الردة بعد مناظرتهم على الاسلام وايضاح دلائله ويجرى على قتالهم بعد الانذار والاعذار حكم قتال اهل الحرب في قتالهم غرة وبياتا ومصافتهم في الحرب جهارا وقتالهم مقبلين ومدبرين ومن اسر منهم جاز قتله صبرا ان لم يتب ولا يجوز ان يسترق .. " (الماوردي ، ص ٥١ ـ ٥٣) وانظر للمزيد من التفصيل المصدر نفسه (ص ٥٤ ـ ٥٥) والاحكام السلطانية ، لأبي يعلى (ص ٣٥ وما بعدها) .

ينجح في الوصول الى هدفه من تغطية السبب الرئيسي في مضي عز الدولة الى الموصل وهو طمعه في اموالها وغلاتها وقصده للتصيد واللهو في طريقه (١) . فاستطاع ان يظهر عز الدولة بمظهر الحاكم العادل الذى دفع الى الحرب لأجل تطبيق احكام الشريعة واعادة الحق الى نصابه .

٤ ـ الاسلوب القصصي :

غالبا ما استعمل ابو اسحاق هذا الاسلوب في رسائله الديوانية عامة ،وفي ما يتعلق بالفتوح والاخبار عنها والظروف التي ادت اليها كقمع احد العاصين او الكفار خاصة . اذ انه يستعمل في هذه الحالة الترتيب التاريخي للاحداث فتسير على نسق مع اسلوبه الهادىء المتزن ، الذى تثير فيه الحيوية براعته في الوصف ،وبعض التقلبات في الاسلوب ،كالانتقال من الخبر الى الانشاء ، او استعمال الاسلوب الخطابي ،والتعبيرات القوية القصيرة المدى ،فلنقرأ سرده لحادثة قتل توزون للمتقي لله في رسالة كتبها الى الطائع لله يحذره فيها من البقاء مع الاتراك لما سبق لهؤلاء ان فعلوه بالخلفاء قبله : (٢) .

" وهذا المتقي لله رضوان الله عليه بالامس قد اخذت له على توزون بيعة مستأنفة مؤكدة عند عوده من الشام الى العراق ، واشهد على نفسه الله جل اسمه ،وانبياؤه ، وملائكته ،ثم القضاة والشهود ، والشيوخ والوجوه ،بالوفاء له بما ثبت فيها ،فما وقعت عليه عينه ،حتى غدر به ،ونقض ميثاقه ، وفعل في امره ما هو معروف مشهور من حيث لم يمهله فواقا ،ولا ابلعه ريقا ، ولا طلب عليه علة ، ولا ركب فيما احله به حجة ولا شبهة ،فاتق الله ايها الامير ،وقاك الله في نفسك النفيسة ،ودولتك الهاشمية ، واخرج من قبضة من لا يؤمن عليك ،بل هو معتقد ما قدم ذكره فيك " (٣) .

---

(١) مسكويه ،تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .
(٢) الرسالة في رسائل الصابي ،ص ٣٤٨ ـ ٣٥٤ ،وانظر الحادثة في مسكويه ، تجارب الامم ،ج ١ ،ص ٦٩ وما بعدها وابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ،ص ٤١٨ وما بعدها .
(٣) رسائل الصابي ،ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

ونجد نماذج من هذا الاسلوب القصصي ،يعتمد فيه العبارات القصيرة القوية الوقع في وصفه للمعارك بشكل خاص،وسنرى امثلة ذلك في كلامنا حول الوصف الملحمي (١) ٠

٥ ـ براعة في الوصف : النفس الملحمي

مما يميز اسلوب ابي اسحاق ايضا براعة في الوصف تتجلى في الدقة الصحوية بحيوية في السرد ،فلنقرأ كيف يصف ابو اسحاق مثلا عاقبة الجاهل ،الكافر بالنعمة ، وندمه حين لا ينفع الندم :

" فلا يلبث ان يصبح متردياً بردا' بغيه ،مقتنعا (متقنعا) قناع خزيه ، مأخوذا من مأمنه وحرزه ، مستنزلا عن نخوته وعزه ،ماثلا عرشه بعد السمو ،مخفوضاً عماده بعد العلو ،مهتوكا حجابه وذراه ، مستباحا حريمه وحماه ،مستمرا ما كان استحلاه ،مستوبيا ما كان استمراه ،كابيا ليديه وفمه ، مغضيا الى عواقب حسرته وندمه ،عاثرا لا يستقيل ،سقيما لا يبل ، كسيرا لا ينجبر ، مضيما لا ينتصر ٠٠٠"(٢) ٠

ويعتمد الصابي احيانا التصعيد في الوصف الذى يقوم على السرد التاريخي والتقطيع المسجوع كما في وصفه لاحد الفتوح : " حتى استنزلهم عن معقل بعد معقل ،واستباحهم في موبل بعد موبل ، وقتل حماتهم ،وافنى كماتهم ،واباد خضراءهم وغبراءهم ،وعفى معالمهم وآثارهم ،والجأهم الى الاذعان وطلب الامان ،وتسليم الرهائن ،والافراج عن الذخائر ،والاستقامة على سواء الدين ،والدخول في عصمة المسلمين "(٣) ٠

وللصابي رسالة مهمة في وصف متصيد جمع فيها بين وصف الصيد ووصف الطبيعة ، (٤) ٠

وقد يعتمد اسلوبا هزليا ساخرا في وصفه ،اذ اننا نجد له رسالة كتبها الى بعض اصدقائه وكان اهدى

---

(١) اقرأ شاهدا آخر على ذلك المقطع رقم (٤) في الملحق ٠
(٢) رسائل الصابي ، ص ٤٥ وانظر شاهداً آخر على ذلك المقطع رقم (٥) في الملحق ٠
(٣) رسائل الصابي ،ص ٨٤ ـ ٨٥ ٠
(٤) انظر نموذجا منها في الملحق المقطع رقم (٧) ٠

اليه جملا ،لم يكن بالصفة التي كان ينتظرها ابو اسحاق ،فكتب له الرد واضعا الرسالة في اطـــار من الجديـــة حين بدأها بوصف رسالة صديقه بالبــلاغــة والاصابــة وجمال الخط والاسلوب الــــى ان يبلغ وصف الجمل الهزيل السقيم فيجد انه لا يصلح لشيء (١) ٠

وللصابي فقرات في وصف المعارك اجاد فيها كل الاجادة ، الا ان قصرها ،وقطعه لسياقها بذكر امور اخرى كتاريخ المحـــركـــة ، قللا من زخم النفس الملحمي الذى يسيطر عليها ٠ من ذلـــك المعركـة التي وصفها في رسالة فتح بغداد ،وسنعرض لها في تحليل الرسالة ،والمعركـة التي اسر فيها الدمستق وقد قدم لها بذكر معركتين صغيرتين سبقتاها (٢) ٠ وتتميز بروح ملحمية من ابرز خصائصها :

اولا : يظهر الصابي ان المسلمين يحاربون من اجل نصرة الاسلام ورفع الحق على الباطل ،اى انهـــم يحاربون تحت راية عقيدة او مبدأ ٠ فيما الكفار هدفهم السلب والظلم والغزو ٠ وكان الانتصار لاصحاب العقيدة الصحيحة ٠ فالعنصر الاخلاقي في الملحمة نجده هنا دينيا ونلاحظ انه كان بين الاســرى جماعــة من اصحاب المراكز الدينيـــة ٠

ثانيا : تدخل قوة عظيمة في المعركة نصرت الاولياء وهزمت الاعداء وهي الله ٠ والنصرة الالهية للاولياء نجدها في معظم الحروب التي يصفها الصابي ٠

ثالثا : المشاهد التي تصور المعركة مشاهد ملحمية : أعداد الجيوش،استعار المعركـة،ذكر الاسلحة المستعملة، ذكر النار التي تنتظر الكافرين والرؤوس التي ارسلت الى بغداد ٠

---

(١) انظر الرسالة رقـــم (٨) في الملحـــق ٠
(٢) انظر رسالة اسر الدمستق (رقم٢) في الملحق ٠

اما المقاطع التي تخفف من زخم المعركة فمنها ذكر النعمة في النصر، وانفاذ الكتب من الخليفة وعز الدولة الى ابي تغلب وغير ذلك . على ان الروح الملحمية وان كانت تسيطر على وصف الصابي للمعارك الا اننا نجد ان الروح الاسلامية تطغى عليها وتطبعها بطابعها . يتبين لنا ذلك اذا قارنا معركة الظفر بروزبهان (١) مع معركة بدر الاسلامية كما وردت في السيرة النبوية لابن هشام وسنجد وجوه شبه كثيرة بين المعركتين وكأن الصابي استوحى فكرة معركته ومشاهدها من معركة بدر . ابرز وجوه الشبه بين المعركتين :

اولا : ان وقعة بدر جرت يوم الجمعة صبيحة السابع عشر من رمضان (٢)، والمعركة على روزبهان جرت الاثنين انسلاخ شهر رمضان . وفي ذكر الصابي لهذا التاريخ واغفاله ذكر تواريخ اخرى في الرسالة مثل تاريخ انطلاق معز الدولة ،تركيز منه على اهمية هذا الشهر وبركته على المسلمين، ولأن معركة بدر التي جرت فيه كان النصر فيها حليف المسلمين كما في هذه المعركة التي اعتبر فيها ان جماعة معز الدولة تمثل المسلمين الحقيقيين فيما جماعة روزبهان تمثل المنافقين اعداء المسلمين الخارجين عن طاعتهم . وليست هذه المرة الوحيدة التي يقرر فيها الصابي ايمان قوم بالاسلام، وهم جماعة الامير الموطد لحكم الخليفة ، وكفر قوم آخرين، وهم اعداء الامير الخارجين على الحكم . واذا عجبنا من كون الصابي يقرر هذا وهو غير مسلم نجد الجواب في انه دائما كان يتخذ جانب الامير الذي يعمل له ويتكلم بلسانه وفي انه ، نتيجة لسيطرة الفكر الاسلامي على كتاباته، كان يعمد في رسائله دائما الى اضفاء صفة الشرعية على حكم البويهيين وذلك في انهم يدعمون الخليفة الذي هو خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الحكم واقامة

---

(١) انظر الرسالة رقم (٣) من الملحق وانظر ايضا رسائل الصابي ، ص ٥٩ - ٦٢ .

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٢٦ .

احكـــام الديـــن ،ورســـول الله هو الذى بعثه الله ليخرج الناس من الظلمات الى النور ،وبهذا يربط بيـــن وجود الخليفة وبين الرسالة الالهيـــة فاذا في وجوده استمرار لها في الحياة والخروج على الامير الداعم لبقاء هذه الرسالة وممثلها ، الخليفة ،خروج عن احكام الدين وبالتالي كفر •

ثانيا : اعتبـــار جماعـــة معز الدولـــة بمثابـــة الجماعة المسلمة ،وجماعة روزبهان المنافقـــة الخارجـــة على الدين مشابه لوضع المسلمين في حربهم للمشركين ويدخل ضمن هذا المفهوم اشياء تفصيلية متشابهة :

أ ـ اعتبار اصحاب معز الدولة في جهاد للمنـــافقين ، يقابله في بدر وعد الرسول عليه السلام لمـــن يستشهد من المسلمين في المعركة بالجنة حين قال : " والذى نفس محمد بيده ،لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ،مقبلا غير مدبر ،الا ادخله الله الجنـــة " (١) •

ب ـ اعتبار النصـــر من عند الله في قول الصابي " انزل الله نصره على اوليائه ،وشفع لهم وعده بوفائه " (٢) • يقابلـــه وعد الله للرسول بمناصرته • فالرسول بعد ان عدل صفـــوف اصحابه اخذ يناشـــد ربـــــه ما وعده من النصر (٣) ويقابله ايضا تدخل الملائكة في المعركـــة الى جانب الرسول (٤) • وفي المعركتين نلاحظ اسناد افعال القتل والاسر الى الله ،ففي رسالة الصابي : " فانهزم الخائن هزيمة قوض الله بهـــــا عـــــروشـــــه ، وفـــــض جيوشـــــه ،وفلـــــل وساوســـــه وابطل هواجسه " (٥) •

---

(١) ابن هشام ، السيرة ،ج ١ ،ص ٦٢٧ •
(٢) رسائل الصابي ، ص ٦١ •
(٣) ابن هشام ،السيرة ،ج ١ ، ص ٦٢٧ •
(٤) المصدر نفسه ،ص ٦٣٣ ـ ٦٣٤ •
(٥) رســـائـــل الصابي ،ص ٦١ •

وفي السيرة : " فقتل الله تعالى من قتل ممن صناديد قريش، واسر من اسر من اشرافهم " (١) ٠

ثالثا : تشابه في التركيب السردى لاحداث المعركتين خاصة في سرعة اعلان هزيمة الاعداء ٠ ففي

الرسالة يذكر الصابي لمحة عن المعركة والكسر والقتل ثم لا يلبث ان يعلن نصر الاولياء وهزيمة الاعداء (٢) ٠ اما في السيرة فتذكر لمحات من القتال الفردى (المبارزة) ثم تصرف افراد معينين في المعركة ثم امر الرسول اصحابه " فقال : شدوا ، فكانت الهزيمة " (٣) ٠ يتبع ذلك استطراد او تفصيل في ذكر مشاهد الاسر والقتل بعد الهزيمة في الحالتين ٠

رابعا : تشابه في بعض المشاهد من المعركتين : من ذلك لحاق جماعة معز الدولة بروزبهان والاحاطة به كاحاطة المسلمين واولهم بلال بأمية بن خلف ٠ ففي الرسالة : " واحاطوا به وملكوه ٠٠٠ وتباكوا عليه تباكي المتنافسين في الاثرة المتشاحين على الظفر ٠٠٠ " (٤) ٠ وفي السيرة : " فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة ٠٠٠ " (٥) ٠ ومن ذلك ايضا مشهد الخوسيني في الرسالة صريعا مجندلا قضى على اثر جراحه (٦) ، شبيه بمشهد ابي جهل الذى وجد على آخر رمق ثم قضى (٧) ٠

ونجد بين رسائل ابي اسحاق وصفا للمرأة رأينا ان نشير اليه لانه الوصف النثرى الوحيد في المرأة — فيما لدينا من رسائله — ثم لما يبدو فيه من صناعة في الاعتناء بالسجع والجناس لم يستطع الصابي اخفاءها ٠ يقول :

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٢٨ ٠

(٢) رسائل الصابي ، ص ٦٠ — ٦١ ٠

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٢٨ ٠

(٤) رسائل الصابي ، ص ٦٢ ٠

(٥) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٣٢ ٠

(٦) رسائل الصابي ، ص ٦٢ ٠

(٧) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٣٥ ٠

مشوقة القد ،اسيلة الخد ،ساجية اللحظ،ناجية اللفظ، صادقة الدعج ، ظاهرة الغنج ، حوراء الطرف،قنواء الانف،مائلة الردف، جائلة العطف، راجحة الشكل ،بارعة الشكل ،مليحة النحر ،صحيحة الصدر ،دقيقة الخصر ،مشرقة الثغر ،جعدة الشعر، مريضة النظر ،كثيرة الخفر ، شديدة الكحل ، بينة الخجل ،نقية اللون، خمصانة البطن، ... "(١) .

٦ ـ طول العبارات والسجع والازدواج والتوازن الموسيقي .

من خصائص نثر الصابي التي تبدو في رسائله والتي تشكل هي او بعضها سببا من اسباب طول هذه الرسائل ،استعماله العبارات الطويلة ، مما يبعد كلامه عن التوثب والحدة عامة ويسمه بالهدوء والانسياب الا انه لم يعدم العبارات القصيرة المسجوعة كما ذكرنا في حديثنا عن الاسلوب القصصي والوصفي،وهنا يمكن ملاحظة خاصة مهمة في اسلوب ابي اسحاق وهي امكان تأثره باسلوب القرآن الكريم من ناحية طول العبارات وقصرها ،حيث انه يستعمل العبارات الطويلة لشرح الامور التي تحتاج الى شرح وايضاح ، وتقرير وافهام، فيما يستعمل العبارات القصيرة ليعبربها عن احداث شديدة الوقع كالمعارك. ففي القرآن نجد ان الآيات المدنية التي نزلت لتضع اصول الشريعة وتقررها في الاذهان تمتاز بطولها وهدوئها ، اما الآيات المكية التي كانت تصدع بالعقيدة التوحيدية وتهدم الكفر وتهدد اربابه فقد امتازت بالقصر والشدة .

ويقرن الصابي استعماله للعبارات الطويلة باستعماله للسجع والازدواج مما يخلق توازنا موسيقيا متناغما يقصر العبارات الطويلة ، ويغنيها بالحيوية والحركة ،كقوله : " لا اعدم الله موالينا السادة الامراء الاخذ بنواصي اعدائهم طوعا ممن اطاع وخضع ، وكرها ممن خالف وخلع ،وسلما ممن

(١) ابن حمدون ،التذكرة (٧٦٩) ،الورقة ١٠٥ أ ـ ١٠٥ ب ،والرسالة كاملة في المصدر نفسه ،الورقة ١٠٥ ب ـ ١٠٦ أ .

سالم وتابع،وحربا ممن حارب ونازع(١)، وقد يصل شغف الصابي بالازدواج احيانا حدا يجعله يقرن بين جملتين تتوازن اجزاؤهما توازنا متسقا كقوله من رسالة : " ... فما يلوذ بجانبنا لائذ ،ولا يعوذ بعقوتنا عائذ ، الا كانت عليه يد من الله كالئة واقية ،وعين كالئة راعية ،وكانت السلامة له مضمونة ،والعاقبة عليه مأمونة،ولا ينجم بمنابذتنا ناجم ،ولا يعزم على مباينتنا عازم ، الا قطع الله دابره ،وجب غاربه ،وكدر شمسه ، وازهق نفسه ، وطمس نوره ،واظلم بدره ، وكانت دعائمه مخفوضة ، ومرائره منقوضة ،والهلكة عليه مكتوبة واللعنة به معصوبة ، ... " (٢) .

٧ ــ حمل المعنى على نظيره ونقيضه :

استعمال السجع والازدواج ،وان بدا عفويا غير متكلف عند الصابي ، الا انه قد جره في احيان كثيرة الى تكرار المعاني نفسها بالفاظ جديدة . وقد اخذ عليه ضياء الدين ابن الاثير هذه الخاصة (٣) ،واعطى عدة امثلة على ذلك من كلامه . منها من رسالة فتح بغداد قوله : " الحمد لله الذى لا تدركه الاعين بألحاظها ولا تحده الالسن بالفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها ،" (٤) . وقوله في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : " لم ير للكفر اثرا الا طمسه ومحاه ،ولا رسما الا ازاله وعفاه " (٥) . وقال ابن الاثير انه لا فرق بين مرور العصور

---

(١) لقاح الخواطر ،الورقة ٩٤ أ . وانظر شواهد اخرى المقطعين رقم (٩ و ١٠) في الملحق .
(٢) رسائل الصابي ،ص ٤٦ وانظر شاهدا آخر على ذلك المقطع رقم ١١ في الملحق .
(٣) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .
(٤) المقطع في رسائل الصابي ،ص ١٩ .
(٥) المصدر نفسه ،ص ٢٢ .

وكرور الدهور ،كما انه لافرق بين محو الاثر وعفاء الرسم (١) . والقاعدة التي اعتمدها ابن الاثير في نقده هي اعتقاده بضرورة " ان تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها ،فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه " (٢) . لكن ابن الاثير لا يلبث ان يشير الى ان هذا العيب ليس مقصورا على الصابي بل يجرى على المفلقين من الكتاب امثال ابن العميد وابن عباد حيث ان اكثر المسجوع من كلامهم وكلام الصابي على هذا الشكل (٣) . ويحط . ابن الاثير شواهد اخرى من كلام الصابي كقوله : "يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ،ويسير تدبيره وهو ثاو لم يبرح " (٤) . وكلا هذين سواء (٥) . وامثال هذا كثير في كلام ابي اسحاق لكن هذه الخاصة في النثر او الشعر ، قد لا تكون عيبا كما ذكر ابن الاثير ،بل انه لا بد للكاتب احيانا في المزاوجة بين الفصلين من استعمال شعبة من الاطناب ولا يعتبر ذلك عيبا (٦) . ثم ان اعادة المعنى بكلمات

---

(١) ابن الاثير ، المثل السائر ،ج ١ ،ص ٢٨٢ ونقل القلقشندي قوله في صبح الاعشى ، ج ٢ ،ص ٣١٦ .

(٢) المثل السائر ،ج ١ ،ص ٢٧٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) رسائل الصابي ،ص ٦٩ .

(٥) المثل السائر ،ج ١ ،ص ٢٨٤ وانظر شواهد اخرى من كلام الصابي في المصدر نفسه ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(٦) جاء في كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري (مصر ،مطبعة محمد علي صبيح ، الطبعة الثانية ، دون تاريخ) ص ١٨٥ : " ولا بد للكاتب في اكثر انواع مكاتباته من شعبة من الاطناب يستعملها اذا اراد المزاوجة بين الفصلين ولا يعاب ذلك منه ،وذلك مثل ان يكتب : عظمت نعمتنا عليه ، وتظاهر احساننا لديه ،فيكون الفصل الاخير داخلا في معناه في الفصل الاول وهو مستحسن لا يعيبه احد . ولما احيط بمروان ،قال خادمه باسل : من اغفل القليل حتى يكثر والصغير حتى يكبر ،والخفي حتى يظهر ، اصابه مثل هذا . وهذا كلام في غاية الحسن وان كان معنى الفصلين الاخيرين داخلا في الفصل الاول " . ويقول (ص ١٨٦) : " ومما هو اجل من هذا كله قول الله عز وجل ﴿ ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر البغي ﴾ فالاحسان داخل في العدل ، وايتاء ذي القربى داخل في الاحسان ، والفحشاء داخل في المنكر ، والبغي داخل في الفحش " .

جديدة يستوجب سعة لغوية فائقة لدى الكاتب • وكون الصابي يكثر من استعمال هذا الاسلوب دليل على قدرته اللغوية وتملكه لمنابع الكلام وحسن تصرفه فيه ، اضافة الى ما قد يفيده ، هذا الاسلوب من تقرير للمعاني في ذهن السامع او القارئ ، خاصة ان الصوت الموسيقي الذي يحدثه وقعها يزيل الى حد ما ، ما يمكن ان يحدث من املال او ضجر للقارئ •

يستفاد مما تقدم ان الصابي يتملك ناصية الكلام ويتصرف به كيف شاء ، وقد رأينا كيف يزاوج بين الجمل ويوازن ويعيد استعمال المعاني بألفاظ جديدة ، مما يعني سعة باعه بمعرفة المترادفات ، وسنرى الآن وجها آخر للتوسع اللغوي لديه يبدو في استعماله المتضادات وذلك بعدة طرق منها ابراز المعنى بقرنه مع نقيضه لتبيان البون بين الحالين من ذلك قوله :

" والله في ذلك كله ناصرنا وخاذله ، ومظفرنا وقاتله ، ومعلينا ومسقطه ، ومديلنا ومورطه " (١) •

وقد يستعمل النقيض منفيا لتأكيد المعنى • كقوله : " عاثرا لا يستقيل ، سقيما لا يبل ، كسيرا لا ينجبر ، مضيما لا ينتصر " (٢) •

ومن طرق استعمال النقيض لدى الصابي ابراز المعنى برفعه عن المتناقضات ، من ذلك قوله في دعاء : " ويجعل رايته منصورة على اعدائه ، صغروا ام كبروا ، وكلمته العليا عليهم ، قلوا ام كثروا ، ويمكنه من نواصيهم ، سالموا ام حاربوا ، ويقودهم الى التسليم له ، رضوا ام كرهوا ، ••• " (٣) • وقوله : " والله يحرسه دانيا مقتربا ، ونازحا مغتربا ، وحالا قاطنا ، ومرتحلا ظاعنا " ••• (٤) •

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٦٠ ، وانظر شاهدا آخر المقطع ١٢ في الملحق •
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ • وانظر شاهدين آخرين على اقتران النقائض لدى الصابي المقطعين ١٣ و ١٤ من الملحق
(٣) رسائل الصابي ، ص ٨٥ ــ ٨٦ •
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ ــ ١٠٦ •

٨ ــ دقـة في اختيـار الالفـــاظ : القوة والرقـة والاغــراب :

لا يمنعنا السياق الواحد الذي يسير فيه كلام الصابي ،والعبارات الهادئـة المتزنـــة التي تميز اسلوبـه ، من ان نلاحظ بعض التلون الاسلوبي تبعا للموضوع المطروح ،وذلك عائد الـــى دقتـه في اختيار الفاظـه وتعابيره ومناسبتها للموضوع، فتختلف احيانا بين القوة في مواضع القوة، وبين الرقـة واللين في مواضع اللين •

اكثر ما نجد الفاظ الصابي القوية الوقع، ضمن عبارات قصيرة التقطيع في وصفه للمعارك، من امثلة ذلك قوله : " بل هو الحقيق بأن تثنى اليه الاعنـة ،وتشرع نحوه الاسنـة ، وتنصب لــــه الارصاد ،وتشحذ له السيوف الحداد ، ليقطع الله بهـا دابره،ويجب غاربـه ، ويصرعـه مصرع الاثيـــم المليـم،المستحق للعذاب الاليم " (١) •

ومن كلام الصابي الرقيق العذب قولـه : " لانك ما زلت مستودع سرنا وجهرنا ، ومشتكى حزننا وبثنـا ، والكبير الاثير عندنا ،والخصيص المكين لدينا ، ومن نستضيء في ظلم الخطوب برايـه ،ونستجن من سهام النوائب باخلاصه وولائـه ،ونخرج اليه بخفيـة الصدر ، وحوجـاء النفـــس ٠٠٠"(٢) •

على ان الفاظ الصابي لم تكن في معظم الحالات تخلو من الغريب،من امثلة ذلك قولـه : " واظهر لنا غرورا من سعيه في الخدمة وكدحـه ،وسرابا لامعا من وفائه ونصحه ،وهو يدب الضراء ويسر حسوا في ارتغاء ، ويوكي على الغشر عيابـه ،ويحنو على النكث ضلوعـه وحجابـه ،ولا يبدي لنـــا بادية وفاق ،الا عن خافيـة نفـــاق ٠٠٠" (٣) •

---

(١) رسائل الصابي ،ص ١٣٤ ،وانظر شواهد اخرى المقاطع ١٥ و١٦ و١٧ في الملحق •
(٢) رسائل الصابي ،ص ٣٨٥ ،انظر شاهدا آخر المقطع ١٨ من الملـحق •
(٣) رسائل الصابي ،ص ٤٩ ، وانظر شواهد اخرى المقطعين ١٩ و٢٠ من الملحق •

٩ ـ المجـــــاز :

يكثـــر الصابـي من استعمال المجاز مما يحيط ادبـه بظلال من الاخيلـة والصور ،مــــن امثلتـــها قولــه : " وكان الغامط لأنعامنا ،الجاحد لاحساننا ،المتردي من ذروة طاعتنا ،الهاوي في هوة معصيتنا ،الخالع ربقـة ذمتنا ،النازع جنة مشايعتنا " (١) ،وقولــــه : (٢) " ... بأن تعود تلك البقية عنكم الينا ، (٣) عود الانياب الى افواهها ، والاظفار الى براثنها ،والنصول الى اجفانهـــا ، والسهام الى كنائنها ".

١٠ ـ سيطرة المفاهيم الاسلامية : التحميدات ،التضمين والاقتباس من القرآن والحديـث .

ابو اسحاق الصابي هو الكاتب الرسمي للدولة العباسية ذات الطابع الديني في الحكم ،وهذا ما يجعل معرفته بالقرآن والحديث والاحكام الشرعية ضروريـة لممارسة عمله كما يجـب . ولكن با اسحاق لم يكتف بالمعرفـة السطحية بهذه الامور علـى ما يبدو ،بل نراه قد حفظ القرآن ،واستوعب الثقافـة الاسلامية بحيث صارت الآيات القرآنيـة والمعاني الاسلامية ،تصدر عنه تلقائيا حتى في رسائله الشخصيـة مع انـــه لا يدين بالاسلام . كما يلاحظ من خلال رسائله انه جعل الاسلام قاعدة تقاس بها الامور كافـة : السياسيـة والادارية والشخصيـة . فان وصف حاكما جاء وصفه مطابقا لما يقره الاسلام ،وان ذكر عاصيا ندد به علـــى اساس انه مخالف للاسلام ، وان اراد الاعـلاء من شأن قائد جعله حاميا للاسلام ذابا عنه ،معليا لكلمـــة الحق على الباطل ،وان وصف حربا خاضتها الدولة جعلها جهادا في سبيل الله ، ... وهكذا فالروح

---

(١) رسائل الصابي ،ص ٤٨ ـ ٤٩ ، وانظر شواهد اخرى المقطعين ٢١ و ٢٢ من الملحق .

(٢) رسائل الصابي ،ص ٤٠١ واليتيمـة ،ج ٢ ،ص ٢٥٣ .

(٣) في اليتيمـة : "عادوا الى الحضرة".

الاسلامية هي المسيطرة على رسائله التي نجد فيها معاني الثواب والعقاب،وان العقل هو المؤهل لحمل التكاليف، وان الشيطان يزين الشر للانسان ،بالاضافة الى ذكر صفات الله من الخلق والعلم والمشيئة والعطاء والقدرة ٠٠٠ والى ذكر الانبياء والملائكة ٠ اما في رسائل العهود والتقليدات فنجد تنظيما لأمور الدولة كما تقره النظم والاحكام الاسلامية ٠

هذا هو المعنى العام لسيطرة المفاهيم الاسلامية ،وهي خاصة امتازت بها رسائل ابي اسحاق على رسائل غيره من الكتاب الذين درجوا على ادخال الآيات القرآنية في رسائلهم ٠ ثم اننا نجد اشكالا خاصة لهذه السيطرة تبدو في التحميدات الطويلة التي ترد في مقدمة بعض الرسائل ، ثم تضمين الرسائل آيات من القرآن الكريم بشكل كثيف احيانا ، او احاديث نبوية ٠

أ ـ التحميدات :درج ابو اسحاق على ادخال التحميدات الطويلة في الكثير من رسائله الديوانية ٠ هذه التحميدات تتضمن احيانا معاني موافقة لمضمون الرسالة ، كمقدمة كتاب انشأه عن الطائع لله سنة ٣٦٤ الى ولاة الاطراف بعد زوال الوحشة بينه وبين الامراء ، يسقط فيه اللائمة عنهم ويضعها على المعا ليك العصاة (١) ،وقد وصفه ابن الاثير بالاحسان في هذا الموضع كون التحميدة مناسبة لموضوع الكتاب (٢) ٠

"اما بعد ،فالحمد لله ناظم الشمل بعد شتاته ، وواصل الحبل بعد بتاته ،وجابر الوهن اذا انثلم ، وكاشف الخطب اذا اظلم ،القاضي للمسلمين بما يضم نشرهم ، ويشد ازرهم ،ويحفظ الالفة عليهم ، وان شابت ذلك في الاحيان شوائب من الحدثان ،فلن يتجاوز بهم الحد الذى

---

(١) رسائل الصابي ،ص ٢٣٢ ٠

(٢) ابن الاثير ،المثل السائر ،ص ٢٦٣ (المطبعة البهية) ٠

يوقظ غافلهم، وينبه ذاهلهم، ثم انهم عائدون الى افضل ما اولاهم وعودهم، ووثق لهم، ووعدهم، من ائتمان سربهم، واعذاب شربهم، واعزاز جانبهم، واذلال مجانبهم، واظهار دينهم على الدين كله ولو كره المشركون " (١) .

ويمكن ان يدرج في المجال نفسه تحميدة كتاب اسر الدمستق سنة ٣٦٢ (٢) هـ وان تميزت ببعض التطويل كما ان هناك غير شاهد على التحميدة المناسبة لموضوع الكتاب (٣) .

لكن ما اخذ على الصابي هو ايراده بعض التحميدات التي اعتبرت بعيدة عن موضوع الرسالة ولا تمت اليه بصلة . وابلغ شاهد على ذلك هو التحميدة التي افتتح بها كتاب فتح بغداد (٤) والتي سنعرض لها لدى تحليل هذا الكتاب . والذي يحدث في هذه التحميدات ان الصابي حين يبدأ بذكر الله سبحانه ينصرف عن ذكر قدرته واعماله وربطها بما يجرى على الارض مما يريد الحديث عنه، فيغرق في ذكر صفاته واعماله عامة، ومن ذلك ايضا التحميدة التي قدم بها لرسالة فتح الموصل (٥) .

على ان هذه التحميدات يمكن ان تشكل نوعا من الاستطراد يعود بعده ابو اسحاق ليربطها بموضوع كتابه، وقد لاحظنا سابقا انها قد تمثل سياقا خارجيا يورده الصابي لأجل غاية فنية يرومها ، كما في رسالة اسرا لدمستق او فتح الموصل وغيرها . ثم ان الصابي يحاول ان يضفي على السلطة الحاكمة الطابع الروحي، وغالبا ما كان يتوصل الى ذلك عن طريق الذكر التدريجي لصفات

---

(١) رسائل الصابي، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٤ .

(٣) انظر رسالة عن المطيع لله الى بعض ولاة الاطراف عند طاعة عبد الملك بن نوح في القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٦، ص ٤٠٦ .

(٤) رسائل الصابي، ص ١٧ .

(٥) رسائل الصابي، ص ١٢٠ — ١٢١ والقلقشندي، صبح الاعشى، ج ٦، ص ٨٣، وقد اثبتت في الملحق الرسالة رقم (١) .

الله واعماله ثم لصفات نبيه محمد واعماله ومدح الاسلام،ثم لذكر الخليفة الذى يشكل وجوده امتدادا لوجود الرسول اذ يرتبط فيه بالنسب،ثم للسلطة البويهية التي تثبت هذا الحكم وتدعمه • وكان يريد ان يقول ان الخليفة ممثل الله على الارض،فهو خليفة لرسوله،والبويهيون اولياؤه،فيما يضع اعداءهم في الخانة المقابلة، فهم معادون لله وبالتالي كفار فجار، وقد اشرنا الى هذه المعادلة لدى الصابي من قبل •

هذا هو الدور الذى تؤديه التحميدات الصابية والتي تعتبر بحد ذاتها على درجة من الجمال الفني،حيث يدرج المضمون الفلسفي والديني في عبارات جميلة وواضحة وربما هذا دليل على تفقه الصابي بالعلم الالهي ويمكن ان تعتبر تحميدة فتح بغداد من اهم تحميداته اذا اخذت بمعزل عن موضوع الكتاب •

ب ـ التضمين من القرآن الكريم : وكان هذا معروفا في رسائل عصره الا ان ابا اسحاق استعمله بشكل كثيف واتخذ لديه عدة اوجه ، منها الاستشهاد بالآية القرآنية مع الاشارة الى ذلك وهذا عام وشواهده كثيرة في كلامه وخاصة في العهود والتقليدات كقوله في احد العهود (١): " قال الله جل ثناؤه وتقدس ذكره : * فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا * (٢) وقال عز وجل : * كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر * (٣) • وذم قوما فقال : * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه * (٤) و * الله يقول الحق وهو يهدى السبيل * " (٥) •

---

(١) رسائل الصابي ،ص ١٩٧•
(٢) سورة مريم (١٩) : ٥٩•
(٣) سورة آل عمران (٣) : ١١٠•
(٤) سورة المائدة (٥) : ٧٩•
(٥) سورة الاحزاب (٣٣) : ٤•

ويلاحظ انه قد اورد الآيــة الاخيرة دون اشارة الى انها آيــة .

وجه آخر للتضمين القرآني هو حين يذكر الكاتب آيــة قرآنيــة في معرض الكلام دون اشارة الى كونـــها آيــة . وامثلة ذلك كثيرة عنــد الصابي ايضا . واحيانا نجده يتصرف في الآيـــات كأن يجمع بين آيتين مع الحذف منهما كقولـه في احدى تحميداته يذكر الله : " بالغ امره بلا مؤازره ومضي حكمه بلامظاهر * ذلكـم الله ربكم فادعوه مخلصين له الدين *" (١) . هذه الآيــة جمعهـــا الصابي من الآيتين ٦٤ و ٦٥ من سورة غافر : * ... ذلكـم اللــه ربكـم فتبارك الله رب العالمين* * هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين * . ومن ذلك قوله في ذكر الكافر بالنعمــة :" فلا يلبث ان ينزع سرابيلها صاغرا ،ويتعرى منها حاسرا ، ويجعل الله كيده في تضليل ، (٢) ويورده شر المورد الوبيل ، * ان الله لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين* (٣) ،وهنا ايضا يجمع بين جزئين من آيتين مختلفتين : الآيــة ٨١ من سورة يونس * فلما القوا قال موسى ما جئتم به السحر ان اللـــه سيبطلـه ان الله لا يصلح عمل المفسدين * والآيــة ٥٢ من سورة يوسف* ذلك ليعلم اني لم اخنـــه بالغيب وان الله لا يهدى كيد الخائنيــن * .

الوجه الثالث للاستفادة من القرآن ،والذى يدل على تشبع الصابي من المعاني القرآنيــة ، يظهر في استعمال التعابير القرآنيــة في معرض الكلام كقولــه (٤) : " ولا ينكصــون عن يوم معركـــة ، ولا يلقون بأيديهم الى التهلكـة " . والتعبير من قولـه تعالى * انفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم

(١) رسائل الصابي ،ص ٦٥ ــ ٦٦ .

(٢) التعبير مستوحى من الآية القرآنية * الم يجعل كيدهم في تضليل * : سورة الفيل (١٠٥) : ٢ .

(٣) رسائل الصابي ،ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

(٤) المصدر نفسـه ، ص ١٥٢ .

الى التهلكـة﴾ (١) ومن ذلك ايضا قوله في تحميدة: "وجنبنا مجاهل الغواية السائقـة من عصاه الى جحيم النار وحصير الكفار" (٢) وفي القرآن﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ (٣) . وقولـه: "ويجعل كلمتنـا عليه العليا ويدنا فوقـه الطولـى" (٤) والله تعالـى يقول﴿ وجعل كلمـة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ (٥) . ومن ذلك قوله : "اجراها على ايدى الاشقياء الذيـن تبت ايديهم" (٦) وفي القرآن : ﴿ تبت يدا ابي لهب وتب﴾ (٧) . ويقول الصابي في رسالـة شخصية يبرىء نفسه فيها من بعض الاكاذيب : "فلا تقبل على نبأ الفاسق ولا تفارق في بصيرة الواثق ." (٨) . وفي القرآن: ﴿ يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادميـن﴾ (٩) وامثال هذا كثير جدا فهو يستفيد من البلاغة القرآنية وما قد يحيط بهذه التعابير من معان وما لها من وقع في السمع والذهـن وما لها من خلفيات متعلقـة بمناسبـة النزول . فالذى يقرأ : "لاتقبل على نبأ الفاسق" تعود الى ذهنه تلقائيا صورة الفتنة التي كان يمكن ان تحدث بين المسلمين والاذى الذى كان يمكن ان تتعـرض له احدى فئاتهم ظلما لو لـم يستدرك الرسول الامر بأن بعث من يتبين له النبأ الصحيح (١٠

(١) سورة البقرة (٢) : ١٩٥.
(٢) رسائل الصابي ، ص ٢٢٩.
(٣) سورة الاسراء (١٧) : ٨.
(٤) رسائل الصابي ، ص ٤٨ .
(٥) سورة التوبة (٩) : ٤٠ .
(٦) رسائل الصابي ، ص ٢٣٣.
(٧) سورة اللهب (١١١) : ٢.
(٨) لقاح الخواطر ، الورقـة ١٩٤أ .
(٩) سورة الحجرات (٤٩) : ٦.
(١٠) انظر الحادثة في سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٣٣٤١.

فيتبين له مقدار خطورة الاقبال على نبأ الفاسق للارتباط بين هذا التعبير وتلك الحادثة ،وكون هذا التعبير من الكلام الالهي . وفي قوله "على ايدى الاشقياء الذين تبت ايديهم" يتبادر الى الذهن صورة ابي لهب عم الرسول وعدوه والدعاء الذى اطلقه الله عليه بالتباب والبوار (١) . فكيف بنا اذ نقرأ جمعه لعدة تعبيرات قرآنية تدل على العذاب الذى يلحق الباغين والكافرين حين يقول في تحميدة: "وعصمنا من مراكب اهل البغي المزلة لاقدامهم ،الجالبة لحمامهم ،المذلة لآبائهم ،الصارعة لجنوبهم ،الصائرة بهم الى العذاب الاليم ،والحال الذميم ، وسكنى الجحيم ، وشرب الحميم" (٢) .

ج - الحديث النبوي : واستعماله قليل وطريقته في ذلك كما في استعمال الآيات ،اما بالاشارة الى ذلك او اقتباسا دون اشارة من الطريقة الاولى قوله : "ورسوله صلى الله عليه وسلم **يقول** : "**ضالة المؤمن** حرق النار" (٣) . او قوله : "**وبالاثر** عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم" (٤) .

اما الاقتباس دون اشارة الى ذلك كقوله : فان المستحب في الحدود ان تقام بالبينات ،وتدرأ

---

(١) انظر في ظلال القرآن ،ج ٦ ،ص ٣٩٩٩ - ٤٠٠٠ .

(٢) رسائل الصابي ،ص ٤٥ - ٤٦ . وانظر في هذه المعاني من القرآن سورة النازعات (٧٩) : ٣٧و ٣٨ و٣٩ . وسورة محمد (٤٧) : ١٥ وسورة النبأ (٧٨) : ٢٤- ٢٥ وسورة يونس (١٠) : ٤ .

(٣) في من لا يحضره الفقيه لابي جعفر محمد بن علي القمي (تحقيق حسن الموسوي الخراساني ، النجف ، مطبعة النجف ،الطبعة الرابعة ، ١٣٧٨ هـ) ج ٣ ،ص ١٨٦ ،يرد الحديث كما يلي : "اياكم واللقطة ،فانها ضالة المؤمن وهي حريق من حريق جهنم" .

(٤) رسائل الصابي ،ص ١٠٣ ،وقد ورد الحديث في المصدرين التاليين : ابو داود سليمان بن الاشعث السجستاني في سنن ابي داود (تعليق عزت عبيد الدعاس ، حمص ،نشر محمد علي السيد ،الطبعة الاولى ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م) ج ٣ ،ص ١٨٣- ١٨٥ وابو جعفر محمد بن يعقوب الكليني ، الاصول من الكافي (تعليق علي اكبر الغفاري ،طهران ،مكتبة الصدوق ، ١٣٨١) ج ١ ،ص ٤٠٣ .

بالشبهات (١) وفي الحديث النبوي: "ادرؤا الحدود بالشبهات" (٢) وكذلك قوله عن القرآن: "وهو احد الثقليـن اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا" (٣) • وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قولـه: "اني تارك فيكم امرين ان اخذتم بهما لن تضلوا: كتاب الله عز وجل واهل بيتي عترتي" • (٤) •

١١ ـ الامثال والشعر ضمن الرسـالـة :

على ان ثقافـة الصابي ، كما تبدو في الرسائل ، لم تكن مقصورة على العلوم الاسلامية كالقرآن والحديث والفقـه والتاريخ ، وانما نجد ان القاعدة الثقافيـة التي كان يرتكز عليها اوسع من ذلك يعود في بعض جوانبها الى ما قبل الاسلام ربما ، وتبدو في استعماله لبعض الامثال القديمة والشعر مع الاحاطـة بثقافـة العصر وآدابه • وربما امكننا القول ان وعي الصابي لثقافة العصر رده الى هذه الاصول القديمة حيث كان استعمال الشعر والامثال في اثناء الرسائل شائعا بل كان مدعاة للادلال بسعة الروايـة كما كان عند ابن العميد مثـلا (٥) •

---

(١) رسائل الصابي ، ص ١٥٤ •

(٢) مسند الامام ابي حنيفة (تحقيق صفوة السقا ، حلب ، مكتبة ربيع ، الطبعة الاولى ١٣٨٢/١٩٦٢) ص ١٤٩ • وقد جاء في سنن الحافظ ابن ماجـه (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مصر دار احياء الكتب العربية ، ١٣٧٣/١٩٥٣) ج ٢ ، ص ٨٥٠ الحديث كما يلي: "ادفعوا الحدود ما وجدتم له مدفعا" وقد ضعـف •

(٣) رسائل الصابـي ، ص ١٧٣ •

(٤) الكليني ، الاصول من الكافي ، ج ١ ، ص ٢٩٤ وقد ورد الحديث مع بعض الاختلاف في صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج (مصر ، مطبعة محمد علي صبيح ، ١٣٣٤ هـ) ج ٧ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ •

(٥) خليل مردم ، ابن العميد (دمشق ، مكتبة عرفـة ، مطبعة الاعتدال ، ١٣٥٠/١٩٣١) ص ٤٥ •

الشواهد على استعماله للامثال كثيرة منها قوله في رسالة يذكر فيها نهاية بختيار وانه جنى على نفسه : " فلم يلبث ان دارت عليه الدائرة، وصلي بالنائرة، التي يداه اوكتاها ، وفوه نفخ لها ، ..." (١) . واصل هذا المثل : " يداك اوكتا وفوك نفخ " (٢) ويقال لمن يجني على نفسه الموت . ومن ذلك ايضا قوله عن عز الدولة الى الفتكين التركي يبين مكانته عنده : " ونخرج اليه بخفية الصدر ، وحوجاء النفس، والعجر والبجر التي يحتشم فيها الاخ الشقيق ، والوالد الشفيق " (٣) . واصل المثل : " اخبرته بعجرى وبجرى " يضرب لمن تخبره بجميع عيوبك ثقة به (٤) .

وسنرى كيف يجمع الصابي احيانا بين غير مثل ويقرنهما بمعان متشابهة ليخرج لنا صورة غنية وافية بما يريد ، وذلك في تصويره لشخصية المنافق : " واظهر لنا غرورا من سعيه في الخدمة وكدحه ، وسرابا لامعا من وفائه ونصحه ، وهو يدب الضراء (٥) ويسر حسوا في ارتغاء (٦) ،

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٢٧٥ .

(٢) المفضل الضبي ، امثال العرب (تعليق احسان عباس ، بيروت ، دار الرائد العربي ، الطبعة الاولى ، ١٤٠١/١٩٨١) ص ١١٧ و ابو الفضل احمد بن محمد الميداني ، مجمع الامثال (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٤/١٩٥٥) ج ٢ ، ص ٤١٤ . وحكاية هذا المثل " ان رجلا كان في جزيرة من جزائر البحر ، فاراد ان يعبر على زق نفخ فيه فلم يحسن احكامه ، حتى اذا توسط البحر خرجت منه الريح فغرق ، فلما غشيه الموت ، استغاث برجل ، فقال له : يداك اوكتا وفوك نفخ " . مجمع الامثال ج ٢ ، ص ٤١٤ .

(٣) رسائل الصابي ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

(٤) الميداني ، مجمع الامثال ، ج ١ ، ص ٢٣٧ . معنى المثل : " اصل العجر العروق المتعقدة . والبجر : ان تكون تلك العروق في البطن " . المصدر نفسه .

(٥) اصل المثل : " يدب له الضراء ويمشي له الخمر . والضراء : الشجر الملتف في الوادي ، والخمر : ما واراك من جرف او حبل رمل . يضرب للرجل يختل صاحبه . " (الميداني ، مجمع الامثال ، ج ٢ ، ص ٤١٧) ،

(٦) اصل المثل : " يسر حسوا في ارتغاء ويرمي بامثال القطا فؤاده . الارتغاء : شرب الرغوة . قال ابو زيد والاصمعي : اصله الرجل يؤتى باللبن ، فيظهر انه يريد الرغوة خاصة ، ولا يريد غيرها ، فيشربها ، وهو في ذلك ينال من اللبن . يضرب لمن يريك انه يعينك ، وانما يجر النفع الى نفسه . " (الميداني ، مجمع الامثال ، ج ٢ ، ص ٤١٧) .

ويوكي على الغمر عيابه (١) ويحنو على النكث ضلوعه وحجابه" (٢) .

هكذا استفاد ابو اسحاق من استعمال الامثال التي هي جمل او عبارات تختصر حادثة تروى وبذلك تعبر عن المعنى بأفضل مما تفعله الجملة العادية، اذ ان الامثال اكتناز للحادثة والمعنى بمختصر من اللفظ الذى غالبا ما يكون غريبا لقدم هذه الامثال .

اما بالنسبة لتضمين الرسالة من الشعر فقد كان ذلك على وجهين : الاول منهما تضمين الرسالة ابياتا شعرية كاملة للصابي او لسواه من الشعراء . كقوله في رسالة كتبها عن نفسه الى عضد الدولة : "واما ما ارتآه وامضاه مولانا اطال الله بقاءه، وتمم علاءه . من اتمام المسير الى تلك الديار للزيادة في الاستظهار، فقد كان اغناه عن كل شيء بأثره . البيت الذى هو احق به ممن قيل فيه :

"قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت   لك المهابة ما لا تصنع البهم" (٣)

وقوله في رسالة يذكر الفتنة بين الاتراك والديلم: " وما كان الفريقان كلاهما . الا كما قال البحترى: (٤) "وفرسان هيجاء تجيش صدورها   باحقادها حتى تضيق دروعها (٥)

---

(١) العيبة وعاء من ادم، يكون فيها المتح، والجمع عياب، والعرب تكني عن الصدور والقلوب التي تحتوى على الضمائر بالعياب (اللسان، مادة : عيب) .

(٢) رسائل الصابي، ص ٤٩ .

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٥ والبيت للمتنبي من قصيدة في سيف الدولة الحمداني .ديوان ابي الطيب المتنبي، بشرح ابي البقاء العكبرى، (ضبط وتصحيح، مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحافظ شلبي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥/١٩٣٦) ج ٣، ص ٣٦٥ .

(٤) رسائل الصابي، ص ٤٠٠ وديوان البحترى (القسطنطينية، مطبعة الجوائب، الطبعة الاولى، ١٣٠٠هـ) ص٣ .

(٥) في الديوان : دروعها .

تقتل من وتر اعز نفوسها ... عليها بأيد ما تكاد تطيعها

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها "

وتكثر ظاهرة استعمال الشعر ضمن الرسائل الشخصية لدى الصابي ، فنراه يضمن احدى رسائله الى عضد الدولة سبعة ابيات شعرية (١) يمدحه فيها ويهنئه بالنصر . وامثلة ذلك كثيرة (٢) .

اما الوجه الآخر لاستعمال الشعر فهو في ما يمكن ان يسمى بحل المنظوم حيث ان الكاتب يستعمل بعض البيت الشعري في معرض النثر ، من ذلك قوله يصف النعم في كتاب : " فان احق النعم بأن يلقي ضيفها العصا ، وتستقر به النوى ، ... " (٣)

وهذا الكلام حل للبيت الشعري :

" فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالاياب المسافر " (٤)

اوقوله يصف الحرب : " وترميهم بكماتها وابطالها ،وتعركهم عرك الرحى بثفالها " (٥) . وهو من قول زهير بن ابي سلمى :

" فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم " (٦)

---

(١) الرسالة في رسائل الصابي ، ص ١١٠ - ١١٣ والابيات ص ١١٢ .
(٢) انظر نماذج من ذلك اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ و ج ٣ ، ص ١١٦ - ١١٧ والحصرى زهر الآداب ، ج ٤ ، ص ٣٧ ولقاح الخواطر ، الورقة ٨٩ ب والعباسي ، معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٧٥ .
(٣) رسائل الصابي ، ص ٤٣ .
(٤) البيت لمعقر بن حمار البارقي . الاغاني ، ج ١٠ ، ص ٤٧ (طبعة بولاق) .
(٥) رسائل الصابي ، ص ٦١ .
(٦) ديوان زهير بن ابي سلمى (تحقيق كرم البستاني ، بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، ١٣٧٩ / ١٩٦٠) ، ص ٨٢ .

وقد اورد الثعالبي في اليتيمة (١) امثلة من اقتباس الصابي من شعر ابي الطيب المتنبي والبحتري .

١٢ ـ المقاطع الحكمية :

تتضمن بعض رسائل ابي اسحاق مقاطع حكمية تتخذ احيانا شكل المثل السائر باستقلاليتها وقصرها وايجازها ، وقد رأينا امثلة ذلك في الحديث حول آرائه وقد لا تكون هذه المقاطع قصيرة وانما تتميز بالغنى في المضمون الحكمي . من ذلك قوله : " فان احق من قمع سلطان الشهوة ، واولى من اضرع خد الحمية ، من ملك ازمة الامور ، واقتدر على سياسة الجمهور " (٢) .

وقوله : (٣) " ولولا فضل الرعاة على الرعايا في بعد مطرح النظرة (٤) ، واستشفاف (٥) غيب العاقبة ، لاستوت الاقدام ، وتقاربت الافهام ، واستغنى المأموم عن الامام " . وقوله : " ربما استظهر العريض (٦) المبطل بفضل بيانه على الفاجر (٧) المحق لعي لسانه " (٨) .

---

(١) اليتيمة ، ج ١ ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .
(٢) رسائل الصابي ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ ولقاح الخواطر ، الورقة ٨٦أ .
(٤) في لقاح الخواطر : "النظر" .
(٥) في المصدر نفسه : "استنساء" .
(٦) عرض الرجل : صار ذا عارضة ، والعارضة : قوة الكلام وتنقيحه والرأي الجيد . اللسان ، مادة : عرض .
(٧) لعلها : "العاجز" .
(٨) لقاح الخواطر ، الورقة ٨٦ ب .

وقوله : ليس بالطاهر عند الله من اقاض الماء على اطرافه ، وجعل النجاسة حشو شغافه (١)

لكنه الجامع بين الامرين ، الفائز بكلتا الحسنيين " (٢) .

وقوله : " رب حاضر لم تحضر نيته ، وغائب لم تغب مشاركته " (٣) .

١٣ ـ القيمة التاريخية :

في رسائل الصابي (الديوانية خاصة) ذكر لمجموعة كبيرة من الاحداث التاريخية ابتداء من عهد معز الدولة وحتى عهد صمصامها مرورا بعهد عز الدولة وعضد ها . فلا بد اذا ان يكون لهذه الرسائل قيمة تاريخية كبيرة كونها تغطي فترة زمنية طويلة . ثم لانها صادرة عن مراجع عليا في الدولة ، لكن هذا السبب بالذات يجعلنا نتساءل الى اي مدى يمكن ان تكون هذه الرسائل صادقة في اثباتها الحقائق . فلدى استقرائنا لمجموعة من رسائل الصابي تبين لنا عدة امور :

---

(١) الشغاف : غلاف القلب ، وهو جلدة دونه كالحجاب وسويداؤه . اللسان ، مادة : شغف .

(٢) لقاح الخواطر ، الورقة ٨٦ ب .

(٣) الثعالبي ، لطائف اللطف (تحقيق عمر الاسعد ، بيروت ، دار المسيرة ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠) ص ١٩ ، ولقاح الخواطر ، الورقة ٨٦ ب .

اولا : كون الصابي يكتب عن السلطة يحتم عليه الا يكتب ما يسيء اليها وبالتالي فقد يعمل على تمويه الحقائق او اغفالها او التلاعب بها وفق ما يتناسب مع مهمته التي هي اعلاء شأن الدولة ونسبة المحامد لها • ففي رسالة فتح الموصل مثلا التي تحدث عن دخول عز الدولة الى الموصل وانهزام ابي تغلب الحمداني عنها ، عمد الصابي الى اخفاء حقيقة الاسباب التي دفعت بعز الدولة الى غزو الموصل سنة ٣٦٣ وهي الطمع بأموالها واللهو والتصيد في طريقه يشجعه على ذلك وزيره ابن بقية الذي كان يحمل الحقد لأبي تغلب (١) ولجأ بالمقابل الى ذكر اسباب اخرى منها منع ابي تغلب الاموال ونقضه العهد ومهادنته الروم ومن المرجح ان تكون هذه الاخبار غير صحيحة بدليل تصدي ابي تغلب في السنة التي سبقتها لقتال الروم واسره لقائدهم الدمستق (٢) • ثم يحول ابو اسحاق زيادة في التمويه ودعما لموقف بختيار على ذكر مساوئ ابي تغلب من قتله والده ومحاربته لاخوته • لكن قتل ابي تغلب لوالده غير مؤكد اذ ان مسكويه يذكر ان ابا تغلب واخاه ابا البركات اعتقلا والدهما وانه مات في سجنه سنة ٣٥٨ هـ (٣) • كما يقول الصابي في هذه الرسالة انه لما دخل عز الدولة الموصل سكنت نفوس اهلها وانسوا به ، (٤) فيما يقول مسكويه ان ابا تغلب كان الاظهر في المعركة لكثرة عدده ولتعصب اهل الموصل له ، وانه لما انحدر عز الدولة عن الموصل تبعه اهلها باللعن والدعاء عليه واخذوا يتبعون اصحابه ويتوثبون عليهم (٥) • هذا نوع من

---

(١) مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ـ ٣١٩ •

(٢) انظر لحادثة في رسائل الصابي ، ص ٦٤ ـ ٢٥ وتجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣١٢ ـ ٣١٣ وابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٧ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ وابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٦٢٢ •

(٣) تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ •

(٤) رسائل الصابي ، ص ١٢٧ •

(٥) تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ •

تمويـه الحقائـق في رسائل ابـي اسحاق والـــذي اتبعـه ليستر حقيقـة فعل بختيار المشين •

ونجد شاهدا آخر على تمويـه الحقائـق او اغفـالها في رسالـة اسر الدمستـق •وحكاية هذه الحادثة ان عظيم الروم غزا في عدد ضخم من جيشـه المسلمين فأوقـع بهم (١) ، فورد المسلمون من هذه المناطق الى بغداد مستنفرين واحاطوا بدار الخليفة واستنفروا المسلمين في المساجـد والاسواق (٢) • فخرجت جماعة من وجوه بغداد الى بختيار الذى كان في الكوفـة منصرفـا الى اللهـو ، مستنكرة اهمالـه امر المسلمين فوعدهم بالغزو (٣) • فبعث بختيار يطالب المطيـع لله بالاموال ليخرجها في طريق الغزو فأجابه المطيع ان تدبير الاموال والرجال ليس له ليكون الغزو واجبا عليه ،وان ليس بين يديه اى شي• مما تنظر به الائمـة ولهم منه الاسم الذى يخطب به فان شاؤ وا ان يعتزل اعتزل • فترددت بينهما المراسلات ووصل الامر ببختيار الى تهديده ، فاضطر المطيع الى التزام اربعمائة الف درهم باع بها ثيابه وبعض انقاض داره (٤) • كما ارسل بختيار الى ابي تغلب صاحب الموصـل يعلمـه عزمه على الغزو ويلزمـه اعداد العلوفـة والزاد فسارع الـى ما سأله (٥) • ثم تذكـر كتب التاريخ ان المعركـة جرت بين الدمستق وهبة الله بن ناصر الدولة اخي ابي تغلب (٦) •

(١) مسكويه • تجارب الامم • ج ٢ ،ص ٣٠٣ وابن الجوزى،المنتظم،ج ٧ ،ص٥٩ ـ ٦٠ و ابن الاثير،الكامل، ج ٨ ،ص ٦١٨•

(٢) المصادر نفسها •

(٣) تجارب الامم،ج ٢ ،ص ٣٠٤ والمنتظم، ج ٧ ،ص٦٠ • والكامل ،ج ٨ ، ص٦١٨ • وانظر في الامتاع (ج ٣ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٩) شرحا وافيا لتفصيل ما دار بين الجماعة وبختيار •

(٤) تجارب الامم، ج ٢ ،ص٣٠٧ ـ ٣٠٨ والكامل ،ج ٨ ،ص ٦١٩•

(٥) تجارب الامم، ج ٢ ، ص ٣٠٤ والكامل ،ج ٨ ،ص ٦١٩•

(٦) تجارب الامم،ج ٢ ،ص ٣١٢ والكامل ، ج ٨ ،ص ٦٢٧•

لنقارن الآن هذه الحقائق برواية الصابي للحادثة ، فبعد ان ذكر غزو الروم للمسلمين اغفل ذكر ورود المسلمين من تلك النواحي مستنفرين واحاطتهم بدار الخليفة ، لأن في ذلك اساءة الى الخليفة والى عز الدولة بختيار فيذكر بالمقابل ورود كتب ابي تغلب مستنجدا مما دفع بالخليفة الى استقدام عز الدولة والجيوش التي برسمه فامتثل بختيار امر امير المؤمنين وانجد ابا تغلب بالرجال الاشداء والابطال الاقوياء ٠ اذا ابو اسحاق يحتال على التاريخ هنا لعدة اسباب : اولها انه يريد ان يغطي الشرخ القائم بين الامراء (عز الدولة) وبين الخلافة ٠ وذلك لان طاعة البويهيين للخليفة اساس في ثبات دولتهم وكما ذكر على لسان المطيع: " وانما لكم مني هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم " (١) ٠ فعندما يتعرض الصابي لذكر هذه العلاقة يغفل الواقع ويذكر المثال : فتصرف بختيار الفعلي ليس التصرف الذى كان يجب ان يحدث بل انه التصرف الصحيح الذى يحفظ للدولة مهابتها وللخليفة سلطته هو ما جاء في رسالة الصابي من ان المطيع استقدم بختيار وبختيار امتثل لأمره ٠ ورأينا ان الصابي قد اغفل ذكر خبر جماعة علماء بغداد ووجوهها الذين خرجوا للقاء عز الدولة في الكوفة وحثه على الدفاع عن المسلمين لما في ذلك ايضا من اساءة الى عز الدولة (٢) ٠ وعلى العكس نجد ان الصابي قد استغل هذا الانتصار وسيلة دعائية

---

(١) مسكويه ، تجارب الامم : ج ٢ ، ص ٣٠٧ ٠

(٢) هذا الخبر اغفله الصابي ايضا في كتابه التاجي ٠ فقد جاء في الامتاع (ج ٣ ، ص ١٥٩) ان الوزير ابن سعدان قال للتوحيدى انه قرأ ما كتبه الصابي في التاجي فما وجد هذا الخبر فأجاب التوحيدى: " لعله لم يقع اليه ، او لعله لم ير التطويل به ، اولعله لم يستخف ذكر عز الدولة على هذا الوجه" ٠ فاما عدم وقوع الخبر اليه مع وجوده في بغداد واتصاله بالسلطة فغير ممكن ٠ واما عدم التطويل به فغير وارد ايضا اذ كان يمكن ذكره عرضا فلم يبق الا الاحتمال الثالث وهو ما ينطبق على هذه الرسالة بشكل اخص لان التاجي كتب بعد وفاة عز الدولة فيما كتبت هذه الرسالة حوله ٠

للسلطـة البويهيـة ولعز الدولـة خاصـة بعد الفتن التـي جرت في بغداد وبعد توغـل الروم في ديار المسلمين ، فقد نسب الى عز الدولـة حسن الخدمـة للخلافـة وبذل الجهد في سبيل ضبط الثغـور والامور ومجاهدة الكفـار واصـلاح البـلاد .

ثـم ان سياسـة القول حتمت علـى الصابي ان يمدح الخليفة بالقول ان الفتوح فـي ايامـه متصلـة والغنائـم متواليـة على المسلمين والرعيـة آمنـة ساكنـة بعدلـه . وهنـا نجد ان الفسحـة بين الواقـع والمثـال الذى حوتـه الرسالـة تثير السخريـة ، اذ ان هذا الكلام يقال فيمن لاحول له ولا طول . وكأن الصـابـي قد تنبـه الى هذا الامر فعزا ذلـك الـى سياستـه وبركتـه ورعايتـه : " فالدهما بسياستـه ساكنة ، والرعيـة برعايتـه آمنـة ، والفتـوح فـي ايامـه متصلـة متقاطرة ، والغنائم على المسلمين ببركته داره متواترة " (١) . ثـم ان هذا الكـلام يقال في وقت حدثت فيه اكبر الفتن في بغداد والتي ادت الى حريق الكرخ والـى القتل والنهب واستباحـة الحرمات وظهور جماعـة العياريـن الذين عاثوا في الارض فسادا (٢) .

كما نرى انه بالرغم من ان هذا الانتصار كان فعليا مـن صنـع الحمدانيين ، لا ابراز فعلـي لشخصيتهما في الرسالـة الامن حيث كونهما الاداة المنفذة لتدابير عز الدولة . فالصابي يريد ان يبرز أن الدور الفعلي في تحقيق الانتصار هو لعز الدولة ولما كان عدم اشتراك عز الدولة فعليا في المعركـة

---

(١) رسائل الصابـي ، ص ٦٧ .

(٢) انظر مسكويـه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦ والامتاع ، ج ٣ ، ص ١٥٠ ـ ١٦١ وابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٧ ، ص ٦٠ وابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٦١٨ ـ ٦١٩ .

يقلل من نجاح الصابي في هذا المجال ، تقد عمد الى التركيز على دور عز الدولة كقائد او مسؤول يدبر الامور بثاقب حزمه ،فحتى لو حرت بعيدة عنه فانما تجرى بتدبيره : " يسافر رأيه وهو دان لم يبرح ،ويسير تدبيره وهو ثاو لم ينزح ،يتناول المعالي بثاقب حزمه ويفترع الهضاب ببعيد همه ،… (١) .

وهكذا نجد ان للصابي من خلال رسالته هدفا يريد تحقيقه ،وغالبا ما يكون اعلاء شأن الدولة والعباسيين فنجده يتلاعب بالاحداث ويطوعها كي تصبح مناسبة للوصول الى هدفه ،وهو ، كما رأينا في المثل السابق ،يحكم تركيبة الحدث حتى يصعب على القارئ ان يجد خرقا في الرسالة ينفذ منه الى مناقضة ما جاء فيها او مخالفته . ولهذا السبب كانت الحقائق في رسائل الصابي تتغير وفقا لاحوال السياسة فنجده مثلا في رسالة تكرمة بختيار سنة ٣٦٦ (٢) قد اعلى من شأن عز الدولة ووزيره ابن بقية فرفع عز الدولة الى مرتبة لايدانيه فيها دان فقال فيه :

" فجدد امير المؤمنين هذه المساعي السوابق ،والمعالي السوامق التي يلزم كل دان وقاص،وعام وخاص ان يعرف حق ما كرم له منها ويتزحزح عن سرير المماثلة له فيها ".(٣)

وعن ابن بقية قال : " وان عرف لنصير الدولة الناصح ابي طاهر حق تقدمه في

---

(١) رسائل الصابي ،ص ٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ،ص٣١٥ .
(٣) المصدر نفسه ،ص: ٣٢٢ .

الكفايــة والغناء ،وابرازه في الاستقــلال والوفــــاء ، وقيامــه بكل مهــــم طــــرق ،ودفــــاعــه لكل ملم ارهــق ، وسد ، من هذه الحضرة التي هي قبـــة الاسلام وواسطتــه ،وسنامـــه وغاربـــه ، مكانـا لم يسدد ، مثله ، ولم يملأه غيـــره " . (١) .

ثم نراه بعد ان غلب عضد الدولة على الامور سنة ٣٦٧ يصف بختيار وابن بقيـــة بالفساد وسوء التدبير : " فما زال بختيار يسيء الاختيار ، ويتنكب الصواب ، ويتجنب الصلاح ،ويمــزق الاموال ، ويعرض الدولــة للزوال ،ويهرج الاوليـاء اشد الاهــراج ، ويحملهم على اعوج المنهـــاج ، ويخــرب الاوطــــان ، ويشتت الاقران ،ويقتل الكفـاة ويستكفـي الغواة ، الى ان بلـغ من فاسد سيرتــــــه ، وضال طريقتــه ،الى ان استكتب محمد بن بقيـــة المحيط بكل خلة دنيـة ، وهو صغير حقير ،ناقص مغرور ، وليس له نصيب من صناعــة ، ولا كفايــة ،ولا حظ من فهم ودرايــة ، فجذب بضبعه من اخس مطارح الاتباع ، واخفض منال الرعاع ،الى معالي الامور التي ليس كفؤا لها ولا حقيقا بشيء منها ،فما تم لعمر الله لبختيار ان يرفعه ، لكن تم عليه ان يتضع معه ، فكانت آثاره كآثار صاحبه ،في اخراب البلاد ، وظلم العباد ،واجتثاث الفروع ،واقتـــلاع الاصول ،وانشاء الملاحم بين الديلم والاتراك من عساكر امير المؤمنين ، واستثارة العيارين والاوغــــاد ، ... " (٢) .

ولا يكتفـي الصابي احيانا بقلب الحقائق حتى يقلب القوانين الشرعية والنظم المعروفــــة والمتبعة ارضاء لمن يكتب له ، فيقول عن البويهيين في احدى الرسائل : " الذين لا تصح الامامـــــة لمن اتخذوه حربا ،وصاروا دونه حزبا ، لكنها انما تخلص من الاسباب المعلة لها ، والعوارض القادحة فيها ،

---

(١) رسائل الصابي ،ص ٣٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ وانظر ايضا : ص ٢٨٢ .

بدخولهم في البيعة ، وانقياد من ورائهم من الكافة " (١) . والذى تشير اليه كتب الاحكام السلطانية ، وما هو معروف، ان الخليفة هو الذى يولي الامراء بواسطة عقد او تقليد ، (٢) وليس الامير هو من يولي الخليفة . اما تولية الخليفة او الامام،او انعقاد الامامة فهناك شروط معتبرة في الامام كما في اهل الاختيار لا بد من تحققها كي تصح الامامة (٣) . ثم انه لا يخرج الامام من الامامة الا شيئان : جرح في عدالته او نقص في بدنه (٤) .

لكن هذا لا يعني خلو رسائل الصابي من ذكر الاحداث الصحيحة لان التلاعب انما حصل في الاسباب المهيئة او الظروف المحيطة بها ،في حين ان ابا اسحاق يذكر احيانا اخبارا تنطبق تماما مع ما يذكره المؤرخون ، كما ينفرد احيانا اخرى بذكر احداث لا نجد لها ذكرا في كتب التاريخ ،او يفصل احداثا اشير اليها في كتب التاريخ اشارة عابرة . ففي رسالة عن الطائع الى ولاة الاطراف بعد فتنة الاتراك وعوده الى داره سنة ٣٦٤هـ (٥) يذكر ابو اسحاق ان المطيع اراد المضي الى عز الدولة وعضدها فتبعه المتمردون الاتراك . وردوه وحبسوه فلما علموا انكاره لفعلهم " نالوه بالهضيمة ،واستحلوا فيه العظيمة " (٦) . فيما يذكر مسكويه الحدث نفسه من رد المطيع وحبسه في الدار ولكن " وكل به فيها توكيلا جميلا " (٧) . كما يذكر الصابي في الرسالة نفسها ان الاتراك

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٢٣٩ .
(٢) الماوردى ،ص ٢٨ .
(٣) المصدر نفسه ،ص ٤ ـ ٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٦ .
(٥) رسائل الصابي ، ص ٢٣٢ .
(٦) المصدر نفسه ،ص ٢٣٦ .
(٧) مسكويه ، تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ٣٢٧ .

اكرهوا المطيع على خلع نفسه لانه " لا يستقل بالنهضة ان طالبوه بها ، ولا بالهزيمة ان عرضوه لها "واضطروا الطائع للانتصاب موضعه (١) . فيما يذكر مسكويه ان المطيع كان يعاني من علة الفالج ويحاول ستر ذلك ثم ثقل لسانه وتعذرت عليه الحركة فانكشف حاله لسبكتكين فدعي الى تسليم الامر لابنه الطائع " (٢) . وهكذا فالخبر صحيح ،لكن الصابي يخضع ظروفه او اسبابه لما يناسب السياسة التي يريد ارضاءها .

ونجد ان الصابي يتفرد بذكر بعض الاحداث كما في رسالة اسر الدمستق ، فالتفصيل الذى عرضت فيه الحادثة جعله يتطرق لذكر احداث لم تذكر في كتب التاريخ كحادثة غزو المسلمين بعض النواحي وتغلبهم على اهلها وتملكهم الكثير من الاموال والسبي وذلك قبل المعركة مع الدمستق . كما انفرد بذكر رد المسلمين للروم عن بعض الحصون التي حاولوا تملكها ، كما انفرد بذكر ابن البلنطس الاسير الثاني بعد الدمستق وهو طريده في الرئاسة ،وذكره ان جماعة الاسرى ضمت عددا من كبار الروم واصحاب المراكز فيهم .

ونجد شواهد اخرى على ذلك في رسالة الظفر ببروزبهان حيث انفرد الصابي بذكر احداث كثيرة منها ان روزبهان قد كتب لاخيه اسفار بالاهواز ليخرج معتقلين كانا في القلعة ،ثم يذكر ما جرى لهؤلاء بعد المعركة من استئمانهم لمعز الدولة . كما تفرد بذكر تفاصيل ما حدث في

---

(١) رسائل الصابي ،ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) مسكويه ،تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ٣٢٧ . ونظن هذا عذرا شرعيا لقول الماوردى (الاحكام السلطانية ، ص ١٨) : " ما يمنع من عقد الامامة ومن استدامتها وهو ما يمنع من العمل كذهاب اليدين او من النهوض كذهاب الرجلين فلا تصح معه الامامة في عقد ولا استدامة لعجزه عما يلزمه من حقوق الامة من عمل او نهضة " .

الاهواز مما سبق المواجهة ،كبعض التدابير المتخذة منها تعيين السهلبي لابي العباس ليلى بن موسى زعيما على الرجال وانه اقفر الاهواز من كل خير وقه بالرجال والاموال الى البصرة وكيف انحاز الخوميني عامل البويهيين على الاهواز الى روزبها ن وان روزبهان استوزره وفوض اليه ، وما الى ذلك من تفصيلات سبقت المعركة .

ومهما يكن من امر ،تبقى رسائل الصابي وثائق تاريخية مهمة ،فحتى لو وجدنا بعض التلاعب في التفصيلات التاريخية الا ان الرسائل اثباتات لدينا على الحقائق التاريخية الكبيرة او العامة لذلك العصر . فرسالة الظفر بروزبهان مثلا وان بنيت على وضع اللائمة على روزبهان وتبيان نفاقه وتزلفه ومكاشفته العداء ، تؤيد لنا عدة حقائق منها :

١ ـ وجود الثورات الدائمة داخل الدولة البويهية : روزبهان واخوه اسفار ،وعمران بن شاهين ..

٢ ـ اهمية المال في استمالة الجنود والرجال واهمية المراكز في استمالة الكبار منهم . اى ان ايا من الثورات كما يبدو لم يكن مبنيا على اهداف او مبادئ يراد تحقيقها انما مجرد صراع على السلطة وطمع فيها يقوم به الكبار ويتبعهم فيه الرجال لكسب المال .

٣ ـ سياسة معز الدولة في تقديم الاتراك على الديلم .

كما ان الرسالة من الطائع لله الى ولاة الاطراف (١) والرسالة منه ايضا عند غلبة عضد الدولة على الامور (٢) وغيرهما ،تشكل ادلة قاطعة على تلاعب الحكام والقواد بالخلفاء ومحاولة كل طرف

---

(١) رسائل الصابي ،ص ٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

ان يكسب الخليفة الى جانبه طوعا او كرها ليكتسب به الشرعية لوجوده وحكمه • اما رسالة عز الدولة الى سبكتكين العاصي سنة ٣٦٤ (١) فهي حجة واضحة على اضطراب الامور في عهد عز الدولة بختيار وتحكم القادة الاتراك بالامور حتى اصبح كالدمية بين ايديهم ، يتلاعبون به وبوزرائه كيف شاؤوا • ومثل ذلك رسالته الى الفتكين (٢) الذى تولى قيادة الاتراك العصاة بعد وفاة سبكتكين • هذه ايضا رسالة مهمة تذكر جوانب لم تذكر في كتب التاريخ حول مسألة العصيان كما تكشف حالة عز الدولة القلقة والضعيفة والتي دفعته بالاضافة الى طلب مساعدة ركن الدولة وعضدها وعدة الدولة ابي تغلب وعمران بن شاهين وغيرهم ،الى ارسال الكتب الى العصاة مستميلا لهم • فكتب الى الفتكين كتابا ارسله مع الشريف الحسين بن موسى فلما تاخر جواب الفتكين شفعه بكتاب ثان هو المقصود هنا يذكر فيه مقام الفتكين واهميته ويخبره بانه سيحله محل سبكتكين وسيكون متفردا بمنزلة كبيرة ،الى غير ذلك من الوعود ، ثم يسأله ان كان لديه شرط آخر عما ذكر فليرسل من يتكلم عنه بذلك فلن يجد عنده خلافا في كل ما يعود بالصلاح والاستقامة والسلامة •

من هنا يتبين لنا ان قيمة رسائل ابي اسحاق الصابي التاريخية كبيرة ،ان في دلالتها على الاحداث والشخصيات او على النظم والرسوم الشائعة من التلقيب والتكنية والخلع والتي تبدو في كتب العهود والخلع والتلقيب •

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٣٣١ •

(٢) المصدر نفسه ،ص ٣٨٤ •

نمـــاذج من نثـــر ابـــي اسحـــاق الصابـــي :

اخترنا لتحليل نماذج من نثر الصابي رسالتين : رسالة فتح بغداد وعهد التطفيـل ،وذلك ان رسالة فتح بغداد تجمع الكثير من خصائص الرسالـة " الصابيـة " ان من حيث المعاني او من حيث الاسلـــوب فتؤلـــف نموذجا عاليا للرسالة عنده ٠ اما رسالـة عهد التطفيل فهي فريدة بيــــن رسائل ابي اسحاق في موضوعها (١) واسلوبها وشخصياتها ولغتها ،اي انها تمثل جانبا آخر من فــن الصابي النثرى جديرا بالاهتمام خاصـة انه ابدى فيه براعـة الاديب الاجتماعي الساخـــــر وقد عهدناه كاتب الديوان الرسمي الجدى ٠

" نسخـة كتاب انشاه ابو اسحاق ابراهيم بن هـــلال الصابـــي

عند فتـــح بغداد وانهزام المماليك عنها في جمادى الاولــــى

سنـــة اربـع وستيـــن وثلثمائـة بشرح الحال ووصف الخــــلاف

الـــى الاميـــر ركـــــن الدولـــــة " (٢)

" اما بعد فان لله قضايا نافـذة ،واقدارا ماضيـة ،فيهن النعم السوابغ والنقـم الدوامغ ٠ فامـا النعـم فيؤتيها عبـاده اجمعين باديـة ،ثم يجتذبها الشاكريـن منهم عائدة ،واما النقـــم فلا تقـع سلفا وابتداء ،لكن قصاصا وجزاء ٠ بعد امهال وانظار ٠ وتحذير وانذار ،فاذا حلت بالقوم الظالمين

---

(١) للصابي رسالة هزلية ثانيـة كتبها عن الوزير ابن بقية الـــى القاضي ابي بكر بن قريعة يعزيــــه عن ثور جلس للعزاء عليه تراقعا وتحـامقـا ٠ الحصرى ٠ زهر الآداب ،ج ٤ ،ص ١٠١ ــ ١٠٣ ٠

(٢) رسائل الصابي ٠ ص ١٧ ــ ٤٢ وانظر الحادثة في مسكوية ،تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ٣٢٣ ــ ٣٤١ وابن الجوزى ٠ المنتظم ٠ ج ٧ ،ص ٦٨ وابن الاثير ،الكامل ،ج ٨ ،ص ٦٣٤ وما بعدها ٠

فقد طوى في اثنائها صنع لآخرين معتبرين،فلا يخلو اهل الطاعة من الثبات والاستبصار،واهل المعصية من الارتداع والازدجار،ومن هناك شهدت العقول الراجحة،ودلت المناهج الواضحة، على ان اولى ما فغر به الناطق فمه وافتتح به كلمه،حمد الله الذي هو الجالب لرحمته ورضاه، والزائد لسخطه وسطاه،والذريعة الموصلة الى الخيرات، والذخيرة النافعة في الملمات،والموئل المانع من لجأ اليه،والمعقل العاصم من عول عليه،والحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين،الوحيد الفريد العلي المجيد،الذي لا يوصف الا بسلب الصفات،ولا ينعت الا برفع النعوت، الازلي بلا ابتداء، الأبدي بلا انتهاء ،القديم لا منذ امد محدود ،الدائم لا الى اجل معلوم معدود ،الفاعل لا عن مادة استمدها ،الصانع لا بآلة استعملها ، الذي لا تدركه الاعين بالحاظها ،ولا تحده الالسن بالفاظها ،ولا تخلقه العصور بمرورها ،ولا تهرمه الدهور بكرورها ،ولا تضارعه الاجسام باقطارها ، ولا تجانسه الصور باعراضها ، ولا تجاريه اقدام النظراء والاشكال ،ولا تزاحمه مناكب القرناء والامثال ، بل هو الصمد الذي لا كفؤ له،والفذ الذي لاتوأم معه، والحي الذي لا تخترمه المنون،والقيوم الذي لا تشغله الشؤون، والقدير الذي لا تؤده المعضلات، والخبير الذي لا تعييه المشكلات، خلق فأحسن واسس فاتقن، ونطق ففصل ،وحكم فعدل . وبرأ البرايا صنوفا وضروبا وقسمها فرقا وشعوبا واختص منها الناس بالالباب والافهام وفضلهم على الجمادات والانعام، واعد لمحسنهم جنة وثوابا ولمسيئهم نارا وعقابا ، وبعث اليهم رسلا منهم يهدونهم الى الصراط المستقيم والفوز العظيم ،ويعدلون بهم عن المسلك الذميم والمورد الوخيم ،فكان آخرهم في الدنيا عصرا ، واولهم يوم الدين ذكرا ،وارجحهم عند الله ميزانا ،واوضحهم حجة وبرهانا ، وابعدهم في الفضل غاية ، وابهرهم معجزة وآية ،محمد صلى الله عليه وسلم تسليما ،الذي اتخذه الله صفيا وحبيبا وارسله الى عباده بشيرا ونذيرا على حين ذهاب منهم مع الشيطان وصدوف عن الرحمن،

وتقطيع للارحام وسفك للدماء الحرام ،واقتراف للجرائم واستحلال للمآثم ،انوفهم في المعاصي حمية ونفوسهم في غير ذات الله ابية ،يدعون معه الشركاء ،ويضيفون اليه الاكفاء ،ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئا ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم يقذف في اسماعهم فضائل الايمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ،ويدعوهم الى عبادة الله باللطف لما كان وحيدا ،وبالعنف لما وجد انصارا وجنودا ، لايرى للكفر اثرا الا طمسه ومحاه ،ولا رسما الا ازاله وعفاه ، ولا حجة مموهة الا كشفها ودحضها ،ولا دعامة مرفوعة الا حطها ووضعها ،حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ،ونصع باوضاحه ،واستنبط الله هذه الامة من حضيض النار ، وعلاها الى ذروة الصلحاء والابرار ،واتصل حبلها بعد البتات ،والتأم شملها بعد الشتات ،واجتمعت بعد الفرقة ،وتواعدت بعد الفتنة ،وفي ذلك يقول له ربه تباركت اسماؤه ،وجلت كبرياؤه : ﴿ ولو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم ﴾ (١) ، فصلى الله عليه وعلى آله الاخيار الطيبين ،الابرار الطاهرين ،صلاة زاكية نامية ،رائحة غادية ،منجزة عدته ، رافعة درجته ،قاضية حقه ، مؤدية فرضه ،والحمد لله تالية بعد ماضيه ،ولاحقة بعد سابقة ،على ان احل مولانا الامير السيد ركن الدولة وسيدنا الملك الجليل عضد الدولة اطال الله بقاءهما بالمحل الذى قصرت عنه الهمم العالية ،ووقفت دونه الاقدام الساعية ،واغضت على فضيلته العيون الرامقة ،واقرت بمزيته الافواه الناطقة ،وجعل اشياعهما العالين المنصورين ،واعداءهما السافلين المدحورين ،فما

---

(١) سورة الانفال (٨) : ٦٣ .

تمتد عنق من لا ثقة بهما الى شرف مرتبة يحتليها ، وغارب مرقبة يمتطيها ، الا نال ذلك في ظلهما ، وبلغه بطولهما ، واحرزه بمتابعتهما ، وحازه بطاعتهما ، ولا تمتد اخرى من عاند عنهما الى مأثرة يترشح لادعائها ، ومفخرة يتوشح برد ائها ، الا عاد تقديره معكوسا ، وتدبيره منكوسا ، وظنه خائبا ، وحسبانه كاذبا ، فهما ادام الله عزهما السيدان اللذان من تذلل لهما عز ، ومن تعزز عليهما ذل ، ومن دخل في ذمتهما سلم ونجا ، ومن خرج عنهما هلك وهوى ، موهبة من الله لهما ولنا فيهما ، وهو بكرمه يربها ويحفظها ، ويكلأها ويلحظها ، والحمد لله تعزيزا بثالثة تبلغ الحق وتقضيه وتمترى المزيد وتقتضيه ، على نعمه اللطيفة بي ، وعوارفه الخاصة لي ، وآلائه الضافية علي ، واياديه الراهنة لدي ، اذ انشأني من دوحة مولانا الامير السيد ركن الدولة اطال الله بقاءه النجيبة ، وبرأني من اعوادها الصليبة ، ووقف بي على سيرها الحميدة وسلك بي طرائقها الرشيدة ، في حماية البيضة وحياطة الحوزة وذب العداة وقمع الطغاة ، وكبح الجامح ، وبعث الجانح ، وتقويم الزائغ ، وتسديد الرائغ والتأدب بالآداب اللائقة بأولى الالباب التي من اشهرها عن مولانا ادام الله عزه وعنا ، واخلقها به وبنا على اثره رب الايادي اذا اوليناها والعوارف اذا اسديناها تصديا لان يقرها الله عندنا باقرارنا اياها عند من تجري له على ايدينا ، فمن ارتبطها بالشكر واستدامها بالنشر وصاحبها بالمعروف والحسنى ، وجاورها بالعفاف والتقوى ، وطأت له اكتافها ، وادرت عليه اخلافها ، واسكنته في ذراها ، وصانته في حماها ، ومن نفرها بالانكار والجحد ، واوحشها بالكفران والغمط ، سلبه الله جمال سربالها ، وعراه من برد ظلالها ، وافضى به الى ندم لا ينفعه منه ان يقرع سنه ولو هتمها ، ولا يغنيه ان يعض ابهامه ولو كلمها ، وبالله نستعيذ من مصارع البغي ، ومواقع الخزي ، واياه نسأل ان يتولانا بهدايته

ويتوخانا بكفايته ، ويوفقنا في مجاري الفاظنا ، وهواجس افكارنا ، لكل ما قربنا اليه ، واحظانا لديه ، واوجب لنا عفوه ، وحجب عنا سطوه ، بمنه وقدرته ، وجوده ورأفته .

وقد عرف مولانا الامير السيد ركن الدولة اطال الله بقاءه حال اللعين سبكتكين فيما كان مولاه الامير السعيد معز الدولة نضر الله وجهه ، ازله اليه من النعم الجسام واهله له من الرتب العظام وانه ، ادام الله تأييده ، وسيدنا الملك الجليل عضد الدولة ، ادام الله عزه ، واتى بعدهما امررنا ذلك له وزدناه عليه واشركناه في دولة كان هو الراتع في اكلائها ونحن المعنيون بكلائتها ، وقد مناه على نظرائه وآثرناه على قرنائه ، واوطأنا عقبه طوائف من الرجال وذللنا له اباءهم وعطفنا عليه ازورارهم والتواءهم ، حتى صار واحد هذه العساكر في اتساع الحال وجموم الاموال وعلو الشان وسمو السلطان ، وانه لم يزل رابضا لوثبة يثبها ، ومرصدا لغرة يهتبلها ومتحليا بموالاة وموافقة قد لبسهما على مداجاة ومنافقة ، ومتجلببا جلباب شاكر طائع ، قد افاضه على جثمان كافر خالع ، ومفسدا لنيات غلماننا ، وساعيا لا يحاشهم منا ، ومضريا لهم على الاشتطاط في المطالبات المجحفة ، والتماس المحاولات المسرفة وارتكاب الهفوات المنكرات ، واحداث الاحداث المحظورات ، ومقررا في نفوسهم انا لهم كارهون ، وعلى الايقاع بهم عازمون ، الى ان كمن ذلك في ضمائرهم ، وقدح في بصائرهم ، ونفرهم بعد السكون ، واخافهم بعد الركون ، فصاروا علينا البا ، ومعه حزبا ، يستخدمهم باموالنا ، ويعدهم للعيث في ديارنا وفنائنا ، ويراعي بهم فرصة النكاية في الدولة التي اليها ينتسب ويعتزى ، والقدح في النعمة التي منها يرتضع ويغتذي ، واستحق جميعهم ما كانوا يحذرون ، واستوجبوا ما كانوا يستشعرون ، ونحن على هذه الهنات منه صابرون ، ولما يثيره من غيظ وامتعاض كاظمون ، لزومنا لمذهبنا في

طاعة المحافظة ، وعصيان الحفيظة ، الا عند الضرورة الداعية ، والمعذرة الواضحة ، حيث يكون الحلم شبيها بالضيم وحريا بالوهن ، فلما ازف شخوصنا الى الاهواز لاستدرار ما تأخر من اموالها ، واستقراء ما اختل من اعمالها ، والنظر في اشياء من مصالحها وتوفر عماراتها اقررناه في الحضرة ، ورفهناه عن ضحاء السفرة ، واتمناه على ما غبنا عنه من خدمة السرير وتدبير الامور ونحن لا نظنه يبلغ حيث بلغ في استيطاء المركب المردى ، واستمراء المطعم الموبي ، ولا تجاوز حدود الدالة المحتملة ، والصغائر المغتفرة ، ولم ندع ان استظهرنا بتجديد عهد بيننا وبينه احكمناه وعقد وكدناه ، فما هو الا ان خلا ذرعه وامتد باعه ، حتى نزت به نوازى البطنة وهدرت على يده شقاشق الفتنة ، واستنفر من الغلمان من كان حاضرا معه ، واستجر وكاتب من كان غائبا عنه ، واستجاش بطوائف من العوام بسطهم واهرجهم واباحهم وامرجهم فغاظت على يده وايديهم نفوس المسلمين ، وانتهكت محارم المستورين ، وسفكت الدماء ، وعظم البلاء ، واتتنا الاخبار بقبيح ما ارتكب ، وعظيم ما احتقب ، وانه اكب على نهب المنازل والمحال ، وتناول الامتعة والاموال ، فاشتمل على الخزائن واستثار من ودائعنا كل كامن ، واقلقني هذا وامضني ، وازعجني وارمضني ، وكتبت الى الامير السيد ركن الدولة والامير الجليل عضد الدولة ، اطال الله بقاءهما ، الكتب التي سبقت بالانهاء له ، والاستصراخ فيه والاستنجاد في استدراكه وتلافيه اذ كان الامر الذى تدبره منسوبا اليهما وكنا فيه تالين لهما ، وكانت الفروق مرتفعة بيننا اهل البيت في النعم اذا تمت والملمات اذا المت ،

فعول الامير السيد ركن الدولة ، اطال الله بقاءه ، في دفع ما ناب وحدث ، وكشف ما اظل وكرث على الامير الجليل عضد الدولة ابي شجاع ، اطال الله بقاءه ، لما عرف من كرم ضرائبه ويمن نقائبه وكمال ادواته وتمام آلاته ، وسداد آرائه ونجاح انحائه ، وانه الطود الرفيع والكهف المنيع ، والسيد الدافع للعظيمة والقرم الذائد للمهضيمة ، ومن لم ترد له قط راية ولا فاتته من مطالبه غاية ، ولا قاربه مبار ولا قارنه مجار ، تنزاح الظلم بغرته وتنفرج الكرب بنجدته ، وتنصاع الحوادث عن كل محلة يحلها وجنبة

يحميها ويكفلها ، فوردت كتبه ، ايده الله ، بأنه مبادر لا يتوقف ومسارع لا يتلبث في جيوشه العميمة الموفورة وعساكره العزيزة المنصورة ، وسرت من الاهواز الى واسط وبثثنا كتبنا الى اهل طاعة مولانا الامير السيد ركن الدولة ، اطال الله بقاءه ومولاته والمتحققين به وبأيامه فانثالوا مغذين نحوي وتوافوا معدين الي ، وعرف اللعين سبكتكين ذلك ، فانحدر عن بغداد فيمن جمع من قضه وقضيضه والف من حشده وعديده قد استلأموا بأسلحتنا وركبوا خيلنا وتظاهرت عليهم كساتنا وآلاتنا وخفقت على رؤوسهم بنودنا ورايتنا ، وليس منه ولا منهم الا من نملك رقه وولاءه ، وكل مال وصل اليه وخير تظاهر عليه ، وظن الخائن ان تم له شيء من مأمول اباطيله ومرجو اضاليله قبل ورود الامير الجليل عضد الدولة ، اطال الله بقاءه ، اذ كان عالما الا قبل له بلقائه ولا تثبت قدمه بازائه ، فلما صار بدير العاقول عقلته فيها جرائره ونقضت فيها مرائره وقصر الحين من خطوه وجثم الحتف على صدره ، وحجزت المنية بينه وبين الامنية ، واعترض صادق المقدور فيه دون كاذب التقدير منه ، واعتل اربعة ايام علة اتت على نفسه ووسدته في رمسه ، واصارته الى سيء اعماله والعقوبة المعدة لا مثاله ، وكان ذلك من الآثار الدالة على حسن صنيع الله لمولانا الامير السيد ركن الدولة ولنا وقضائه بثبات دولتنا وتطاول ايامنا ، وانه عز وجل لا ينصر عدوا يبغينا بالسوء ولا يمهله ، ولا يسلم وليا يحفظنا بالغيب ولا يخذله ، اتماما للنعم التي البسناها ، والمنح التي سوغناها وتنبيها لنا على شكرها والاستدامة لها ، وتحذيرا للناس من تطرقها والطمع فيها اذ كانوا جميعا لا يقدرون على ان يرتجعوا ما اعطى ووهب ، ولا ان يقروا ما انتزع وسلب ، ولم نشكك في ان من بعده من تلك الطوائف يتأمل ويعتبر ويتعظ ويزدجر ، وانهم يفيئون الى التفيؤ بظلنا ويعودون الى اماكنهم من جملتنا فما راعنا الا انتصاب الفتكين الشرابي مولى معز الدولة بموضعه ومنابه في شب النار عنه عن وصية وصاه بها ودلاه بالغرور فيها ، ورأى الغلمان انهم قد قدموا الينا ذنوبا ربما اخذناهم بها وجزيناهم عنها ، فأحجموا عن الطاعة التي تؤمن وتنجي واستمروا على المعصية التي توبق وتردى على يقين من سوء مغبتها ، وبعث الجماعة الينا

فكانت الحرب بيننا وبينها في ظاهر الغربي من واسط ثمانيــة واربعين يوما لا يمضي يــوم منها الا عن نكاية تقذى عيونهم وغصة تشجي حلوقهم وقتل ما حق لهم ونكال نازل بهم ، الى ان تناهــى فشلهم واستحكم وهلهم واتاهم خبر مولانا الملك الجليل عضد الدولــة ، ادام الله عزه ، بتجاوز الاهواز مغذا اليهم ومنصبا عليهم ولما رأوا ان منتهم ضعفت عني علموا ان لاقوام لهم به ، ايده الله ، وبي وايقنوا ان البلاء سريع اليهم وان الدائرة تكون عليهم ، فانهزموا عن واسط ناكصين على الاقدام راجعين الــى مدينة السلام ، مقدرين للتحصن بمشاربهــا وانهارها والاعتصام بأوباشها واوغادها ، واقر الله عينــي بمورد سيدنا الملك الجليل عضد الدولــة ، ايده الله ، الذى حل مني محل الغيث عند اللزبــة والغوث عند الكربــة ، فلما جمع الله شملنا ووصل حبلنا اتفق رأيه ورأى المتبع له على ان سار ، ايده الله ، مــن واسط في الجانب الشرقي ، وسرت في الغربي قاصدين بغداد على تدان في المسايرة وتحاذ فــي المساوقــة ، واتانا عند انتهائنا الى المدائن خبر اولئك الكافرين للنعم المستنزلين للنقم المارقيــن عن عصمة الدين وذمته المستخفين بحقــه وحرمته ، في بروزهم الى النهر المعروف بديالــي ، وعقدهم جسورا عليه ما ظننتهم يجسرون على عبورها ولا يقدمون على تجاوزها ، وانهم جعلوا سوادهم من ورائه وعملوا على المسير جريدة للقاء سيدنا الملك الجليل عضد الدولــة ، اطال الله بقاءه ، تنجزا للحين المكتوب عليهــم والخذلان المجلوب اليهم ، فتوجه ، ايده الله ، نحوهم غداة يوم السبت لاربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى معبى الجيش رابط الجأش ، اصيل الرأى والحزم ، ملتئم التدبير والعزم ورتب اخي ابا الفتح علــي بــن محمد ، ادام الله عزه ، ومن برسمه من الجيش في ميمنتــه التي يقارنها اليمن والنجاح ، وعبده ، وسيدي عمدة الدولــة ابا اسحق بن معز الدولــة ، ادام الله عزه ، وخادمه الناصح ابا طاهر ايده الله ، ومن برسمهما من الرجال في ميسرته التي يصاحبها اليسر والفلاح وصار هو ، اطال الله بقاءه ، وقواده وخاصتــه وحاشيتــه ورجاله قلبا قالبا لما قابلــه ، عاكسا لما واجهه ، ولقيــه اعــداء الله ، وقد اطرحوا الوفــاء

واقلسوا الحياء واتخذوا القحة شعارا ، وكاشفوا بها جهارا ، واعتمدوا معارضته ادام الله تمكينه في فضاء من الارض ظنوا ان سيد ركون فيه المأمول ، وينالون بالجولان في ارجائه السول ، ولم يعلموا انه مع اتساع خرقه وانفساح طرقه ضيق عن عساكره المنصورة غاص بجيوشه الموفورة ، فنشبت الحرب بين الميسرة وبينهم منذ الضحى الى العصر ، واكبوا باجمعهم عليها ، وصمدوا بجدهم اليها لانها دلفت نحوهم مفارقه نظام مصافها مطيعة دواعي احقادها وافضى ذلك ان انجدها سيدنا الملك الجليل عضد الدولة ، اطال الله بقاءه ، بطائفة من رجاله شدت منها وزادت في استظهارها وخيبت طمع الطامعين فيها ، ثم انه ادام الله عزه ، جلى النمة ، وكشف الكربة ، وحقق الحملة ، ونصر الدولة ، وزحف اليهم زحفا ملأقلوبهم رجفا ، واحشاءهم رعبا فأجفلوا اجفال النعام ، واقشعوا اقشاع الغمام ، فأوغل الاولياء المنصورون في طلبهم يستلحمون ويقتلون ويغرون ويقدون حتى الجأوهم الى عبور تلك الجسرر وصادفوا عليها بقية وافرة منهم وخلقا كثيرا من سفلة العوام المضافرين لهم فقتلوا وغرقوا وملك عليهم ما وراء ديالي ، واحرق ونهب جميع سوادهم وسفنهم وآلاتهم ، وحجز الليل عن استقصاء الطلب والاتباع لمن هرب ، فنزل سيدنا الملك الجليل عضد الدولة اطال الله بقاءه الموضع الذى كانوا نزولا فيه وطوى القوم بغداد طيا ، ولم يلبثوا فيها الا فواقا آخذين على سمت الموصل على اختلاف من اهوائهم ، وانتكاث من لوائهم ، قد ادرعوا بالعار والشنار واشتملوا على المذله والصغار ، وانجز الله فيهم وعده ، ونصر عليهم جنده ، واذاقهم وبال المغبة فيما اجترموا ، وسوء العاقبة فيما اكتسبوا ، ودخل سيدنا الملك الجليل عضد الدولة ادام الله عزه ، بغداد وتجاوزناها ، وعسكرنا من الجسانبين في اعلاها ، وعطفنا على سفهاء الرعية بأحلامنا ، وعممناهم بعفونا ، وصفحنا عن الدعار شفيع للابرار ، واشفاق من دخول البرىء مع السقيم واختلاط البر بالاثيم لانهم لما وجدناهم

قد خالفوا موعظة الله اذ يقول : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (١) لم نخالف نحن ادبه في قوله : ﴿ ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى﴾ (٢) .

وكتبت كتابي هذا ، ادام الله تأييد مولانا الامير السيد ، عن تمام الفتح ، وكمال المنح ، وسكون الدهماء ، وشمول النعماء ، وشفاء الصدر ، وادراك الوتر ، واخذ الثأر المنيم ، والظفر بشيطان الفتنة الرجيم ، وتلك عاقبة من ظلم وكفر ، وطغى واستكبر وبغى وتجبر ، والله يقول فيهم وفي امثالهم : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (٣) . فالحمد الله العزيز القهار المتعالي الجبار ، القاضي للحق بالادالة ، وللباطل بالاذالة ، المتكفل باظهار اوليائه ، وكبت اعدائه ، الذي جعل مولانا الامير السيد ركن الدولة ، اطال الله بقاءه ، محفوظا فيما حضره وغاب عنه ، محوطا فيما شهده وبعد منه ، محتوما له بنصرة الراية وعلو الكلمة ، وعز الجانب ، وذل المجانب ، فهنأه الله بهذا الصنع العظيم قدره ، الجليل خطره ، العامة بركته ، الشاملة عائدته ، ولا اخلاه من اجراء مثله للمسلمين على يده ، وايدي اولاده ، ايدهم الله ببقائه ، وعبيده ، وانصاره وجنوده ، وضاعف له المواهب مضاعفة يوفي مستقبلها على الماضي ، ويقصر سابقها عن التالي ، بمنه وطوله وقوته وحوله ، ولو تعاطيت ، اطال الله بقاء مولانا ، شكر انعام سيدنا الملك الجليل عضد الدولة ، ادام الله علوه ، والاعتداد بمننه ، لتعاطيت معجزا وطلبت معوزا لانه ذلل الصعب بعد ابائه ، وهون الخطب بعد اعيائه ، ونظم

---

(١) سورة الانفال (٨) : ٢٥ .
(٢) سورة الانعام (٦) : ١٦٤ .
(٣) سورة النحل (١٦) : ١١٢ .

الامر بعد اختلاله ،وشد الازر بعد انحلاله ، وبذل النفس النفيسة التي لو امكن عوض من غيرها لتعذر فكيف منها مع شرفها ،وكيف لا يفعل ذلك من خصه الله بكرم ضرائبه ، و يمن نقائبه ،وسداد آرائه ، ويمن انحائه ،وانفراده ، عن المساجلين ، وامتناعه على المطاولين ،فما تحل قدمه في موضع الا كان على النوائب محرما ،ومن المحاذر محصنا ،وللفضل الباهر معدنا ،وللخير الطاهر موطنا ، فأحسن الله جزاءه عن ملك صانه ووقاه ،وحريم حاطه وحماه ،واخ لهيف انجده ، وحر صريح استعبده ، ومد علينا اجمعين خصوصا ، وعلى عباده المؤمنين عموما ، ظل مولانا الامير السيد ركن الدولة الذى لانزال بخير ما كان رواقه ممدودا ، وسرادقه مضروبا ،ووهب لنا المزيد في بقائه وعلائه ،واعاذنا من سوء يلم بساحته وفنائه ، انه على ذلك قدير ، وبه جدير ،واقول في شكر اخي ابي الفتح علي بن محمد ،ادام الله عزه ،انه لو حسن ان الغيه ،وامتنع من الافاضة فيه مع بلائه الجميل ،وفعله الجليل ،واجتهاده الشديد ، وتدبيره السديد ،لألغيته لانه انما ذب عن دولة هي له ، وقضى في نصرتها واجبا لمولانا الامير السيد ركن الدولة ،اطال الله بقاءه عليه ،لكني لا استجيز ترك الصدق عن تجرده ، وغنائه ونصحه ووفائه ،وبلوغه اقصى مبالغ المحامي ،وانتهائه الى ابعد غايات المرامي ،واخذه من هذا الفتح باوفر السهم ،واستحقاقه من الاحماد عليه اجزل القسم ،فان رأى مولانا الامير السيد ركن الدولة اطال الله بقاءه ان يعرف ذلك له ويعتقده فيه وينعم بالامر بمكاتبتي بموقع صنع الله في النعمة التي به بدأت ، وعليه سبغت والنائبة التي عنده انحرفت ،وبيده انصرفت ، ويعتمدني في شكر سيدنا الملك الجليل عضد الدولة ، ادام الله تأييده ، بمعونة تتمم تقصيرى عن حده ،وتلافي وتوفي دون فرضه فعل ان شاء الله " .

رسالة فتح بغداد ، كما يبدو فيها ، كتبت عن عز الدولة بختيار الى ركن الدولة يصف له الانتصار على الاتراك ،وكان بختيار الذى ضعف عن ملك الامور والسيطرة على الوضع ،قد

استنجد به في الحرب،كما استنجد بخيره لاستعادة ملكه الذى كاد يفقده بسبب حماقاتـــــه وسياستـــه الخاطئـة • فانجده ركن الدولـة بأن طلب من عضد الدولـة السير اليه على رأس جيشه، كما ارسل وزيره ابا الفتح ابن العميد على رأس جيش آخر • فكتبت هذه الرسالـة الى ركن الدولـــة تعلمـه بما استجد من امر الانتصار والفتح •

يستنتج من سياق الرسالـة ومن معرفـة الاحداث التاريخيـة المرافقـة، ان الصابي عمل على ابراز اربعة امور رئيسيـة جعلها اهدافا للرسالـة :

١ ـ الهدف الاول : اظهار بختيار بصورة الحاكم المهتم بأمور المملكة واظهار بطلان خروج سبكتكين عليه • وقد عمل الصابي على ابراز هذا الهدف بعدة وسائل :

أ ـ البدء بذكر انعام بختيار وابيه معز الدولـة وعمه ركن الدولـة وعضدها كذلك،على سبكتكين وتفضيله على نظرائه، " حتى صار واحد هذه العساكر في اتساع الحال وجموم الاموال وعلو الشان وسمـــو السلطان " • ثم يقارن ذلك بحال سبكتكين الذى كان ينتظر فرصـة ليثور ويستولي على الامور، ثم يحمله مسؤ ولية ثورة الغلمان هذه، فهو الذى افسد نواياهم على الدولـة •

ب ـ تصوير بختيار بصورة الحكيم الصابر الذى يحاول حل الامور بالسلم ولا يلجأ للقـوة الا عنـــد الضرورة الداعيـة " حيث يكون الحلم شبيها بالوهـن " •

ج ـ ستر السبب الحقيقـي الذى ادى ببختيار الى الاهواز، وتعليل ترك سبكتكين في الحضرة بأنه ترفيه له • ثم تصوير سبكتكين بصورة المستغل للامور بغياب سيده •

د ـ وصف الجيش الذى اعتمده سبكتكين بأنه من الغلمان وطوائف العوام، وانه قتل المسلمين وانتهـك المحارم، وسفك الدماء، ونهب المنازل والمحلات، فهم كفار واوباش واوغاد وسبكتكين لعين خائـن •

هـ ـ التركيز على ان سبكتكين يحارب بسلاح بختيار وانعامه وامواله •

٢ ـ الهدف الثاني للرسالة : تبيان اهمية النجدة التي ارسلها ركن الدولة :

أ ـ طلب النجدة من ركن الدولة وعضدها سببه ان بختيار يعتبر ان الامر منسوب لهما وانه تال لهما فيه •

ب ـ الافاضة بذكر اوصاف عضد الدولة ووصف عساكره : فهو صاحب الرأى السديد والقوة والثبات، يرافقه الانتصار حيثما حل بعساكره " العميمة الموفورة " و " العزيزة المنصورة " •

ج ـ ظن الاعداء بأنهم سينتصرون قبل ورود الامير عضد الدولة، فلما علموا بقدومه علموا ان الهزيمة ستكون من نصيبهم •

د ـ وصول عضد الدولة كان مهما جدا لبختيار حيث "حل مني محل الغيث عند اللزبة والغوث عند الكربة، • • • " •

هـ - وصف اقدام عضد الدولة وجيوشه في المعركة، يقابله اندحار الاعداء وانهزامهم •

و ـ الافاضة في شكر عضد الدولة وذكر مناقبه وصفاته والدعاء له وكذلك الدعاء لركن الدولة وشكر وزيره ابي الفتح ابن العميد •

٣ - الهدف الثالث: تبيان ان الحق الى جانب بختيار وعضد الدولة في المعركة بربط الانتصار بأقدار الله، فبعد وصف منن بختيار وعضد الدولة على سبكتكين ووصف عضد الدولة بأفضل الصفات، وسبكتكين بأرذلها يبين الصابي ان الانتصار انما تم بقدرة الله الذى ينصر الحق :

أ ـ يتحدث عن موت سبكتكين فيقول : " وكان ذلك من الآثار الدالة على حسن صنيع الله لمولانا الامير السيد ركن الدولة ولنا وقضائه بثبات دولتنا وتطاول ايامنا ، وانه عز وجل لا ينصر عدوا يبغينا بالسوء ولا يمهله ولا يسلم وليا يحفظنا بالغيب ولا يخذله، • • • " •

ب — ويتحدث عن انهزام الاتراك فيقول : " . وتلك عاقبة من ظلم وكفر، وطغى واستكبر، وبغى وتجبر، والله يقول فيهم وفي امثالهم، ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (النحل ١١٢) .

ج — حمد الله على الفتح : " فالحمد لله العزيز القهار المتعالي الجبار، القاضي للحق بالادالة، وللباطل بالازالة، المتكفل باظهار اوليائه، وكبت اعدائه، ... " . كما انه يحمد الله على ان احل الامراء ركن الدولة وعضدها بالمحل الذى تقصر عنه الهمم " وجعل اشياعهما العالين المنصورين، واعداءهما السافلين المدحورين، ... " .

٤ — الهدف الرابع: ذكر اهمية الفتح والتحول الذى جرى بعده في بغداد :

أ — ذكر استنفار سبكتكين للغلمان واستجاشتهم وكيف بسطهم واهرجهم وامرجهم، فانتهكت على ايديهم المحارم وفاضت نفوس المسلمين وسفكت الدماء ونهبت المنازل والمحال .

ب — دخول عضد الدولة الى بغداد كان مخالفا فصفح عن الرعية كي لا يدخل البرئ مع المجرم . فكانت الرعية ساكنة والنعمة شاملة .

وهكذا استطاع الصابي الوصول الى اهدافه من الرسالة متجاوزا الدقة في سرد الحوادث . وسنحاول مقارنة احداث الرسالة بما جاء في تجارب الامم لمسكويه الذى كان حينذاك مع جيش ابي الفتح ابن العميد (١) يسجل الاحداث عن كثب، لنلاحظ كيف يطوع الصابي الوقائع التاريخية ليرضي سياسة امرائه .

---

(١) مسكويه، تجارب الامم، ج ٢، ص ٣٣٨ .

١ ـ ذكر الصابي ان شخوص بختيار الى الاهواز كان " لاستدرار ما تأخر من اموالها ، واستقراء ما اختل من اعمالها " . فيما يقول مسكويه ان الضائقة المالية التي اصابت بختيار وتعذر استخراج الاموال من اي وجه ، جعل بختيار ووزيره ابن بقية يخرجان الى الاهواز ليستقصيا على واليها ويصرفاه عن البلد ويطالباه بالمال وينكباه (١) .

٢ ـ ذكر ابو اسحاق ان بختيار اقر سبكتكين بالحضرة ترفيها له عن متاعب السفر ، مؤتمنا اياه على ما غاب عنه من خدمة السرير وتدبير الامور ، فيما جاء في تجارب الامم ان بختيار ووزيره كانا ينويان ان يفرقا الاتراك عن سبكتكين ويحتالا عليه من البعد للاستراحة منه وتحصيل امواله واقطاعه (٢) .

٣ ـ يفهم من رسالة الصابي ان سبكتكين كان المبادئ بالعداوة والثورة ومن مسكويه ان بختيار كان الاول في التدبير على سبكتكين .

٤ ـ يقول الصابي في الرسالة : ان " الحرب بيننا وبينها (جماعة الاتراك) في ظاهر الغربي من واسط ثمانية واربعين يوما لا يمضي يوم منها الا عن نكاية تقذى عيونهم وغصة تشجي حلوقهم وقتل ما حق لهم ونكال نازل بهم الى ان تناهى فشلهم واستحكم وهلهم واتاهم خبر مولانا الملك الجليل عضد الدولة . وفي تجارب الامم ان الحرب اتصلت نحو خمسين يوما بواسط وكان الاستظهار فيها للاتراك " واشرف الديلم على الانكسار والهرب دفعات وقتل من الديلم خلق كثير لنقصان جنتهم واستظهار الاتراك عليهم بالاسلحة واشتد على بختيار الحصار واحدق به وصار في مثل كفة الحابل واحاط به

(١) مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

الاتراك من كل وجه ٠٠٠" (١)٠ فأرسل الى ابي تغلب يطلب نجدة والى عضد الدولة يعلمه ان مملكته قد خرجت من يده وكتب اليه في بعض كتبه البيت الذى كتب به عثمان الى امير المؤمنين علي :

فان كنت مأكولا فكن خير آكل والا فأدركني ولما امزق " (٢) ٠

اما الاحداث التي لا تتناقض مع اهداف الكاتب فقد ذكرها ابو اسحاق وهي التي تشكل الفائدة التاريخية من الرسالة ،من هذه الاحداث : شخوص بختيار الى الاهواز وقيام الفتن ،وفاة سبكتكين وانتصاب الفتكين مكانه ،تعويل ركن الدولة على عضد الدولة في الدفاع ، استمرار الحرب بين الاتراك والديلم بواسط ثمانية واربعين يوما ، مسير بختيار وعضد الدولة وتدبيرهم في المعركة وتاريخ المعركة ، تنظيم جيش عضد الدولة ، ٠٠٠٠

هذه اهم موضوعات الرسالة والاحداث التاريخية فيها ،اما اذا تناولنا الرسالة من حيث التركيب فنجد انها مؤلفة من ثلاث وحدات : المقدمة والعرض او الموضوع والخاتمة ٠ المقدمة طويلة تتضمن ثلاث تحميدات :

١ ـ التحميدة الاولى : يتحدث فيها عن صفات الله تعالى فيستطرد في موضوعه ويطيل القول ،دونما اية اشارة الى موضوع الرسالة ٠ ولهذا السبب رأى ابن الاثير ان هذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذى افتتح بها ولكنها تصلح ان توضع في صدر مصنف من مصنفات اصول الدين (٣) ٠ قول ابن الاثير هذا يدل على اعترافه بقيمتها من حيث المعنى والاسلوب ٠ وهي بالفعل يمكن ان تعتبر قطعة فنية جميلة حيث انها قد تناولت موضوعا من ادق الموضوعات واجلها وهو صفات الله

---

(١) مسكويه ، تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ٣٣٦ ٠

(٢) المصدر نفسه ٠ والبيت من قصيدة اصمعية مشهورة للممزق العبدى ٠

(٣) ابن الاثير ، المثل السائر ،ص ٢٦٣ ٠ (المطبعة البهية) ٠

سبحانـــه ، فالنص قد استوعب تسعة اسماء من اسمائه الحسنى، ثم انه نجح في استعمال الاساليب الجماليـة كالسجع والتوازن الموسيقـي • اما بالنـسبـة لعدم مناسبة التحميدة لموضوع الكتاب فهذا صحيح وان كان يقلل من البعد بين الموضوعين وجود تحميدتين اخريين كانت كل منهما تمهـــد للموضـــوع وتدل عليـــه •

٢ ـ التحميدة الثانيـة : تبدأ بقولـه : " والحمد لله تاليـة بعد ماضيـة ،ولاحقـة بعد سابقة •• " يحمد فيها الله على المحل الذي احل فيه ركن الدولـة وعضدها ،وعلى انه نصر اولياءهما ودحـر اعداءهما ،ويشير الى موضوع الفتح اشارة مباشرة حين يقول ان من يعتصم بطاعـة هذين السيد يـن ينجـو وينال مأمولـه ومن عاندهما لقـي وبالا وخاب ظنـه •

٣ ـ التحميدة الثالثة : واولها " والحمد لله تعزيزا بثالثة تبلغ الحق وتقضيه ، ••• " • ويتابـع الحمد على نعم الله له انه ينتسب الى ركن الدولـة ويتبعه في مسالكـه الرشيدة في " حماية البيضة وحياطـة الحوزه وذب العداة وقمع الطغاة " • ويتحدث عن النعمة التي ان ربطها الانسان بالشكر والمعروف رتـــع في حماهـــا وان كفرها وغمطها سلبه الله اياها ويختمها بالدعاء • وفي هذا اشارة واضحـــة الـى الفتـــح •

التـرابط بين اجزاء الرسالـة واضح في حديثـه في المقدمـة عن النعـم التي تأتـــي والنقـم التي تحل جزاء بالظالمين وكافري النعمـة • وهذه الفكرة هي المستنتجـة من احداث الرسالة ومن المعركـة والتي يحاول تأكيدهـا بذكـــر الآيـــة القرآنيـة ﴿وضرب الله مثـــلا قريـــــــة كانــــت آمنـة •••﴾ فالخط العام للرسالـة انطـلاقـا من المقدمـة هو ذكر صفـــات الله وحكمتـه وعدلـه والقاعدة التي يعامل الناس عليها من نعمـة او نقمــة ثم محاولـــة ربط الوقائـــع بهذه الحكمـــة لتأكيد كونها مرتبطـــة بارادة الله ووفق مشيئتـه • ولابراز ذلك بصورة افضل واعمق جمـــل

الرسالـة تسير فـي اتجاهيــن متوازيــين :

١ ـ الاتجاه الاول هو حالـة الرسول محمد صلـى الله عليــه وسلــم •

٢ ـ الاتجاه الثاني هو حالـة عضد الدولـــة •

فالشخصيتا ن موازيـــة احداهمـا للاخرى مع فروقـا ت هي نبوة محمد وكونـــــه آخر الرسل في الدنيـا اما في الاعمال في الحياة الدنيـا فالشخصيتا نتتوازيا ن في محاربتهمــــا للظلـم والكفر ودعوتهما الى الافاءة للديــن والركـــون في كنف الاسلام • فالجماعـة التي ظهـــر فيها محمد توازى الجماعــة التي خرجت على الدولـة والتي حاربها عضد الدولـة : جماعـة كافـــرة ابتعـد ت عن الدين واشركـــت بالله واستحلت المحارم وسفكت الدماء •

الاسلوب الذى اتبعه الرسول في تبليغ رسالته ورد الجماعة الى الحق مواز للاسلوب الذى اتبعه بختيـار ، ثم عضد الدولـة • الرسول كا ن يدعوهم باللطف اولا الى ا ن رأى ضرورة استخدام العنف ، ووجد حوله الانصار والجنود ، بختيار كا ن ينتظر من سبكتكين الافاءة الـى الحـق والطاعـــة ولم يحاول استعمال القوة الا عندما اخفق في استمالتهم وصار اللطف ضعفا فجاء عضد الدولـة ، رمز القوة والحق في الرسالـة •

الرسول عليه السلام كا ن قويا على الكفار حيث انه محى كل اثر للكفر فارتفع الحـــق وانتصر ، وصينت الامـة بانتقالها من حضيـض النار ، ومن الفرقـة والفوضى والعذاب الى الالتئام والبر والامن والدعـة • كذلـك عضد الدولـة كا ن قويـا على الكفار المارقين فقضى على آثارهـــم ونشر الامــــن والسلام حيث حل بعد الفتــح •

الله الذى نصر محمدا والف بين القلوب بعد الشتات،هو الذى نصر عضد الدولة واظهر حقه • الا ان الفارق بين الحالين، بالاضافة الى نبوة محمد والتي يقابلها الى حد ما الدعم والنصرة الالهيين لعضد الدولة ،هو ان عمل الرسول كان مع جماعة مشركة كافرة اساسا • اما في حالة عضد الدولة فالجماعة الكافرة وسبكتكين على رأسها كانت مطيعة راضية هانئة ، فنفضت عنها ثوب الطاعة واظهرت العصيان والكفر •

عرض الصابي للخطين المتوازيين والذى التزم فيه البدء بحالة الرسول واتباعها بالثانية ، والاختصار في الاولى والتفصيل في الثانية كان الهدف منه :

١ ـ جعل حالة الرسول عليه السلام قاعدة او اساسا نضعه في قرارة نفوسنا حتى اذا جاءت حالة عضد الدولة تبادر الى اذهاننا التشابه بين الحالتين مما يعطي ابعادا اخلاقية ودينية للفتح •

٢ ـ ابراز الفتح بصورة العمل الديني الواجب شرعا ،وتكون شخصية البطل فيه ، شخصية المجاهد من اجل نصرة الدين وطمس الكفر • فالصابي قد اعطى الصبغة الدينية لكل ما في الرسالة للوقائع والشخصيات • فالثائر اصبح كافرا لعينا وجماعته خارجة عن الدين ، فيأتي الفتح في ذروة الاحداث عملا واجبا شرعا لاعادة الحق الى نصابه والقضاء على الكفر والفساد ونشر العدل والرحمة • ويأتي بطله بصورة المدافع عن الدين العامل في سبيل الله •

٣ ـ الاختصار في الحالة الاولى والتفصيل في الثانية متعلق بهدف الكاتب من الرسالة ، فلا ضرورة للتفصيل في الحالة الاولى ،لان الفرد (او الجماعة) الذى سيقرأ عليه الكتاب مسلم مقر بهذه الوقائع ،مؤمن بها • فعمله هنا تذكيرى فقط • اما في ذكر الفتح فربما هنالك اختلاف حوله ،بين من يؤيده ومن يناهضه فيصبح التفصيل ضروريا والصبغة الدينية وسيلة اقناعية ،اذ لا خلاف حول هذا الاساس الديني •

هذا هو خط الرسالة بشكل عام ،اما الخاتمة فتتضمن حمد الله على النصر وشكر ركن الدولة على النجدة التي ارسلها وشكر عضد الدولة وابي الفتح .

من اهم ما يبرز من معاني الرسالة : شخصية عضد الدولة ووصف المعركة .

عضد الدولة :

يهيء الكاتب ويمهد لبروز عضد الدولة البطل في ارض المعركة وتحكمه بالاحداث . لذا نجد لدينا مراحل في بروز شخصية عضد الدولة يمكن ان تجعل ثلاثا :

١ ـ عضد الدولة قبل المعركة : تبرز براعة الكاتب في ادخال شخصية عضد الدولة على الساحة ففي حين تكون المحنة في اوجها وجماعة سبكتكين من الرعاع والعوام تسفك الدماء ،وبختيار في قلق وانزعاج شديدين ،يستنجد بركن الدولة وعضدها . وهنا تظهر صورة عضد الدولة لأول مرة في الرسالة حيث يصف منه "كرم ضرائبه، ويمن نقائبه، وكمال ادواته وتمام آلاته ... وانه الطود الرفيع والكهف المنيع ،... " الخ . يرافق ظهور عضد الدولة هنا انتقال من الفوضى والقلق والخوف والقتل والفساد الى ذكر القوة والثبات والنصر وانفراج الكرب والاحداث .

الاشارة الثانية الى عضد الدولة تبين تأثيره في الاحداث بمجرد ذكره . فهو من القوة والبأس حتى ان ذكره يصبح مخيفا مخيبا امل الآمل بالانتصار عليه . فسبكتكين الذى جمع الجيوش حوله ظن انه قد يحقق امنياته قبل ورود عضد الدولة "اذ كان عالما الا قبل له بلقائه ولا تثبت قدمه بازائه ..." .

الاشارة الثالثة اليه قبل دخوله الفعلي في سياق احداث الرسالة تؤكد الفكرة السابقة ولكن هنا مع الفتكين خليفة سبكتكين ،والذى استمر في الحرب مع بختيار مدة ثمانية واربعين

يوما حتى اذا ضعفوا اتاهم خبر قدوم عضد الدولة متجاوزا الاهواز " مغذا اليهم ومنصبا عليهم " " علموا ان لاقوام لهم به وبي وايقنوا ان البلاء سريع اليهم وان الدائرة تكون عليهم ... " فانهزموا عن واسط عائدين الى بغداد . فكان انهزامهم بعد معركة مع بختيار لم يحققوا النصر فيها ثم بعد سماعهم بورود عضد الدولة .

يظهر الكاتب في عضد الدولة هنا صفات البطل المسارع الى الحرب، فقد وصفه وهو في الطريق الى المعركة بانه " مبادر لا يتوقف ومسارع لا يتلبث " فالبطل مسارع الى ارض المعركة التي تنتظر قدومه للبت فيها والفصل .

٢ ـ عضد الدولة في المعركة :

يفصل الكاتب في ذكر المعركة التي خاضها عضد الدولة والتي لم تستمر فترة طويلة، في حين انه اوجز في ذكر المعركة التي جرت قبل وصوله مع انها استمرت فترة ثمانية واربعين يوما ، فيذكر ترتيب عضد الدولة للجيش واتفاقه مع بختيار على خطة في المعركة ثم يذكر خطة الاعداء . هذا التفصيل يقصد منه عرض احداث الفتح الذى هو موضوع الرسالة وابراز شخصية البطل عضد الدولة . ويلاحظ ان الصابي يركز على شخصية البطل الخير فيما عودنا في رسائل اخرى على تصوير شخصية المنافق او العاصي .

يذكر الصابي من صفات عضد الدولة ما يجعله يمثل القائد العسكرى والسياسي ، فالقيادة تستلزم القوة والرأى الاصيل والحزم والعزم والتدبير وهذا ما يجمعه عضد الدولة في شخصه . وكما تدرج ابو اسحاق في ادخال شخصيته الى الساحة، يتدرج هنا ايضا في ذكر صفاته وتأثيره في المعركة .

ـ مجرد وصول البطل وقبل قيامه باى فعل كان مؤثرا حيث انــه حل " محل الغيث عند اللزبـــة والغوث عند الكربــة " • وهذا طبيعي ان يحدث بعد الانتظار الطويل لوصولــه والازمـــة التـــي يعيشها بختيار حين انهزم الاعداء الى بغداد وتحصنوا بها جامعين حولهم عوامهـــا واوباشهـــا مما زاد هم قوة •

ـ قبل بدء الحرب الفعلية بدأ عضد الدولــة بالتدبير فاصبح بختيار متبعا له " اتفق رأيه ورأى المتبـــع له " وبذلك تنتقل القيادة كليا اليه • فهو يحارب بالرأى قبل القوة وها هو يعد الخطة لدخول بغداد ويعمل على ترتيب جيشه وتنظيمــه •

ـ يظهر عمل عضد الدولــة العسكرى في النهاية حيث انجد الميسرة التي فارقت نظامها ودلفت نحــو الاعداء لتشفــي غليلها • وهكذا نلاحظ التدرج في ذكر اعمال عضد الدولــة الى ان يظهر فعليــا في أرض المعركــة حيث " جلى الغمة ، وكشف الكربة ، وحقق الحملة ، ونصر الدولــة ، وزحف اليهـــم زحفا ملأقلوبهم رجفا ،واحشاءهم رعبا ،فاجفلوا اجفال النعام ،واقشعوا اقشاع الغمام، ••• " • فعملــه الفعلــي في المعركــة لم يظهر الا مرتبطـــا بالانتصار الكبير وبهزيمـــة الاعداء •

٣ ـ عضد الدولــة بعد الفتـــح :

القوي في المعركــة صفوح حليم بعدها ، حيث انه عفا عن جميع الرعيــة ،كي لا يظلــم بريئا بمعاقبــة العصاة ،ولا برا بمحاربــة الظالمين ولأنــه ﴿ لا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ (الانعام ١٦٤) •

اذا شخصية عضد الدولــة هي شخصية البطل الحقيقــي الخير ،التي قلما نجدها في رسائل الصابي حيث انه يركز في رسائله اجمالا على شرح حال الماضي • وقد عرض الصابي لملامح هــذه الشخصية ببراعــة فكانت العنصر الذى يخفف من رتابــة الاحداث فيها ويبعث الحيويــة ، حيث ان ظهوره

في الرسالة كان يرافقه دائما تحول في سير الاحداث يبلغ احيانا حد الانقلاب .

المعركة :

جاء وصف الصابي للمعركة التي دارت بين عضد الدولة واتباعه من جهة وسبكتكين والاتراك من جهة اخرى ، منتظم السياق ، وافي التفاصيل ، ملحمي المشاهد .

يبدأ الصابي بذكر موقع كل من الفريقين المتقاتلين ، ثم زمان المعركة ، وكيفية تنظيم عضد الدولة لجيشه ، والمكان الذى دارت فيه المعارك ، ويصف حال الاعداء من القحة وقلة الحياء ، وجيوش عضد الدولة الموفورة والعميمة المنصورة .

تبدأ المعركة بشكل تدريجي ، حيث تنشب بين ميسرة جيش عضد الدولة والاعداء الذين اجتمعوا عليها حتى كادوا ينتصرون ، في هذه النقطة الحرجة ، يتدخل عضد الدولة لانجاد هذه الفرقة ، وهنا تبدأ المشاهد الملحمية والصورة الحقيقية للمعارك : " وزحف اليهم زحفا ، ملأقلوبهم رجفا ، واحشاءهم رعبا ، فاجفلوا اجفال النعام ، واقشعوا اقشاع الغمام " ثم يبدأ الاولياء باتباعهم وتقتيلهم " يستلحمون ويقتلون ويغرون ويقدون " ، ولم يفد الاعداء هربهم لان الاولياء تبعوهم واغرقوا وقتلوا منهم ونهبوا آلاتهم .

بعد هذه الحركية في افعال الحرب من الزحف والرعب والقتل والغرق والهرب ... نصل الى هدوء ما بعد العاصفة بدخول عضد الدولة بغداد وصفحه عن الرعية " وعطفنا على سفهاء الرعية باحلامنا ، وعممناهم بعفونا ، وصفحنا عن الدعار شفيع للابرار واشفاق من دخول البرئ مع السقيم واختلاط البر بالاثيم ... " .

ميـــزات اسلوبيـــة

١ ـ براعـة في الوصف : تبدو في الرسالـة براعة الصابي في الوصف،وذلك من خلال بعض الفقرات الوصفية،من ذلــك :

أ ـ وصف جماعة سبكتكين، حيث افلح في تصويرهم كمجموعـة من الرعاع تثير الفوضى والفتن. " واستجاش بطوائف من العوام بسطهم واهرجهم واباحهم وامرجهم،ففاظت على يده وايديهم نفوس المسلميـــن ، وانتهكت محارم المستورين،وسفكت الدماء،وعظم البلاء ". "

ب ـ وصف عضد الدولـة على انه بطل قوى تحل المشكلات بمجيئـه : " وانه الطود الرفيع،والكهف المنيع،والسيد الـدافـع للعظيمـة،والقرم الذائد للهضيمـة،ومن لم تردد له قط رايـــة ولا فاتته ـــن مطالبه غايـة ... تنزاح الظلم بغرته، وتنفرج المكرب بنجدته، ... فتوجـــه .. معبـــى الجيش،رابط الجأش، اصيل الرأى والحزم، ملتئم التدبير والعزم .. ".

ج ـ وصف الجيوش : " جيوشه العميمـة الموفورة وعساكره العزيزة المنصورة، .. فانثالوا مغذين نحوى وتوافوا معدين السي ... ".

د ـ وصف انهزام الاعداء : " وزحف عليهم زحفا ملأقلوبهم رجفا ،وا حشاءهم رعبا ،فأجفلوا اجفال النعام واقشعوا اقشاع الغمام ... ".

٢ ـ اعتماده على التناقضات كعنصر اساسي في تثبيـــت افكاره وابرازها : ففي تفاصيل الرسالـة وعباراتها نجد الكثير من الطباقات والمقابلات كقولـه : " من تذلل لهما عز، ومن تعزز عليهما ذل ، ومن دخل في ذمتهما سلم ونجا ، ومن خرج عنهما هلك وهوى ". " لا يقدرون على ان يرتجعوا مـــــا

اعطى ووهب، ولا ان يقروا ما انتزع وسلب ...". " فأحجموا عن الطاعة التي تؤمن وتنجي واستمروا على المعصية التي توبق وتردى "... اما في المعنى العام فلدينا الكثير من التناقضات التي حاول ابرازها احيانا بتعاقب الاشياء المتناقضة كالنعم والنقم في المقدمة، اشياع الدولة واعداؤها ، فضل الامراء على سبكتكين وجحده، جيش سبكتكين يثير البلاء بين الناس، وجيوش الامراء تعامل بالصفح والعفو ، عضد الدولة وجيشه مقابل سبكتكين وجيشه، جيش منظم مقابل اوباش واوغاد . كل هذه التناقضات تتيح او تهيء لوجود معركة ينتصر فيها احد الطرفين ، اما القارئ فلا بد له من اتخاذ موقف اذ لا يمكن الجمع بين متناقضين : الجماعة الفاتحة المنتصرة والجماعة المنكسرة.

٣ — السجع ظاهرة عامة في الرسالة : ونجد من ذلك الاسجاع المتوازنة وتلك التي تطول فيها المفاصلة الاولى وتقصر الثانية ، والتوازن هو الاعم الاغلب . من السجع المتوازن قوله : " لانه ذلل الصعب بعد ابائه، وهون الخطب بعد اعيائه، ونظم الامر بعد اختلاله، وشد الازر بعد انحلاله ". وقوله : " لما عرف الله من كرم ضرائبه ويمن نقائبه وكمال ادواته وتمام آلاته، وسداد آرائه، ونجاح انحائه، وانه الطود الرفيع والكهف المنيع، والسيد الدافع للعظيمة والقرم الذائد للهضيمة، ومن لم ترد د له قط راية، ولا فاتته من مطالبه غاية، ولا قاربه مبار ولا تارنه مجار، تنزاح الظلم بغرته وتنفرج الكرب بنجدته، ... " وغيرها كثير . اما الاسجاع التي تطول فيها العبارة الاولى وتقصر الثانية فمنها قوله : " وبالله نستعيذ من مصارع البغي ، ومواقع الخزى ، واياه نسأل ان يتولانا بهدايته، ويتوخانا بكفايته، ويوفقنا في مجارى الفاظنا ، وهواجس افكارنا ، لكل ما قربنا اليه، واحظانا لديه، ... ".

٤ ـ المجاز : من خصائص اسلوب الصابي التي تضفي الجمال على معانيه والفاظه، غنى كلامه بالمجازات وبالتالي بالصور والخيال . شواهد ذلك كثيرة في الرسالة منها قوله : " انه لم يزل رابضا لوثبة يثبها ، .. " وقوله " متجلببا جلباب شاكر طاشع، قد افاضه على جثمان كافر خالع، .. " . " قصر الحين من خطوه، وجثم الحتف على صدره ... " .

٥ ـ استعمال تعبيرات والفاظ غريبة . كقوله : " غارب مرقبة يمتطيها " والمرقبة هي الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب (١) . وقد احسن هنا في تشبيه المرقبة بالبعير لارتفاعها عما حولها ، ووجود الرجل عليها كوجود الراكب على ظهر بعيره . ومن تعبيراته والفاظه الغريبة قوله : " استيطاء المركب المردى ، واستمراء المطعم الموبي " وقوله " نزت به نوازى البطنة ، وهدرت على يسده شقاشق (٢) الفتنة " . وقوله : " عقلته فيها جرائره، ونقضت فيهما مرائره (٣) " وقوله : " حل مني محل النبث عند اللزبة (٤) ، والغوث عند الكربة " وغير ذلك .

٦ ـ استعمال بعض الآيات القرآنية .

---

(١) اللسان، مادة : رقب . والغارب هو ما بين السنام والعنق . وقيل : غارب كل شيء اعلاه، والغارب: اعلى مقدم السنام . المصدر نفسه، مادة : غرب .

(٢) الشقشقة : لهاة البعير ولا تكون الا للعربي من الابل، وقيل : هو شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه اذا هاج، والجمع : الشقاشق . وفي خطبة للامام علي رضي الله عنه : " تلك شقشقة هدرت ثم قرت " . اللسان، مادة : شقق .

(٢) المرير من الحبال ما لطف وطال واشتد فتله، والجمع المرائر . اللسان، مادة : مرر .

(٣) اللزبة : الشدة وجمعها لزب . اللسان، مادة : لزب .

عهـــد التطفيـــــل (١)

" هذا ما عهد علي بن احمد المعروف بعليكا الى علي بن عرس الموصلي ، حين استخلفه على احياء سننه (٢) واستنابه في حفظ رسومه ، من التطفل (٣) على اهل مدينة السلام وما يتصل بها من ارباضها واكنافها (٤) ، ويجرى معها من سوادها واطرافها ، لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ورآه اهلا له من سد مكانه ، والرفاهة (٥) المهملة التي فطن لها ، والرقاعة (٦) المطرحة التي اهتدى اليها ، والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم ، وخصب (٧) الجسوم ، ووردا (٨) على من اتسعت حاله (٩) ،

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج ٧ ، ص ١٥٥ ـ ١٦١ والبغدادي ، التطفيل ، ص ١١٢ ـ ١١٧ و القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٦٠ ـ ٣٦٥ . وقد جاء في المصدرين الاولين انه " كان من نقباء الامير بختيار ، المعروف بعز الدولة ، رجل يسمى عليكا ، وكان كثير التطفيل على جميع اهل العسكر من الحجاب والقواد والكتاب ، ووجوه الخاصة ، والغلمان . وشاع له ذلك عند بختيار ، فرسم له ان يستخلف على التطفيل خليفة ، وتقدم الى ابي اسحاق ، ابراهيم بن هلال الصابي الكاتب ، ان يكتب بذلك عهدا ، لابن عرس الموصلي ، عن عليكا ، وان يجعله خليفته على التطفيل ، فكتب له على طريق الهزل ، عهدا ... " (نشوار المحاضرة ، ج ٧ ، ص ١٥٥ والتطفيل ، ص ١١٢) . يقول القلقشندي في حديثه في الهزليات " وربما اعتنت الملوك ببعضه ، فاقترحت على كتابها انشاء شيء من الامور الهزلية ، فيحتاجون الى الاتيان بها وفق غرض ذلك الملك . كما وقع لمعين الدولة (؟) بن بويه الديلمي في اقتراحه على ابي اسحاق الصابي كتابه عهد التطفل ، لرجل كان عنده ، اسمه عليكا ، ينسب الى التطفل ، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك " . (صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٦٠) .

(٢) في نشوار المحاضرة ، ج ٧ ، ص ١٥٥ والتطفيل ، ص ١١٢ : " سنته " .

(٣) في المصدرين السابقين : " التطفيل " .

(٤) في المصدرين نفسيهما : " وما يتصل بها من اكنافها " .

(٥) في المصدرين نفسيهما : " في هذه الرفاهية المهملة " .

(٦) في المصدرين نفسيهما : " الرقاعية " .

(٧) في المصدرين نفسيهما : " مناعم " .

(٨) في المصدرين نفسيهما : " متوردا " .

(٩) في نشوار المحاضرة ، ج ٧ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ والتطفيل ، ص ١١٢ : " من اتسعت مواد ماله وتفرعت شعب حاله " .

واقدره الله على غرائب المأكولات، واظفره ببدائع الطيبات، آخذا من ذلك كله (١) بنصيب الشريك المناصف، وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض، ومستعملا للمدخل اللطيف عليه، والمتولج العجيب اليه، والاسباب التي ستشرح في مواضعها من اوامر (٢) هذا الكتاب، وتستوفي (٣) الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب، وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

" امره بتقوى الله هي التي الجانب العزيز، والحرز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكالئة، والجنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد، وحيث الامثلة من الازواد (٤)، وان يستشعر خيفته في سره وجهره، ويراقبه (٥) في قوله وفعله، ويجعل رضاه مطلبه، وثوابه مكسبه (٦)، والقربة (٧) منه أربه، والزلفى لديه غرضه، ولا يخالفه في مسعاة قدم، ولا يتعرض عنده لعاقبة (٨) ندم، (ولا يقدم على ما كره وانكره ولا يتقاعس عما احب وامر) (٩) .

(١) في نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ١٥٦ والتطفيل، ص ١١٢: " من كل ذلك " .
(٢) في نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ١٥٦ والتطفيل، ص ١١٣ : " من هذا الكتاب " .
(٣) في التطفيل، ص ١١٣ : " نستوفي " .
(٤) نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ١٥٦ : " حيث لا ينفع الا مثله من الازواد " وفي التطفيل، ص ١١٣: حين لا تنفع حيلة الا مثله من الازواد " .
(٥) في المصدرين السابقين : " مراقبته " .
(٦) في المصدرين نفسيهما : " ملبسه " .
(٧) في المصدرين نفسيهما : " القرب " .
(٨) في التطفيل، ص ١١٣ : لماقبته " .
(٩) ما بين قوسين غير موجود في نشوار المحاضرة والتطفيل .

" وامره ان يتأدب بأدبه فيما يأتي ويذر ، ويقف على حدوده فيما اباح وحظر ، فانه اذا كان ذلك هجيراه وديدنه ، وجرى عليه منهاجه وسننه ، تكفل الله له بالنجاح والصلاح ، وافضى به الى الرشاد والفلاح ، واظفره بكل بغية ، واوصله الى كل مشية ، ولم يخلـه من الفوز بما يرصد ، والحوز بما يقصد ، بذاك وعد ، وكذاك يفعل ، وما توفيقنا الا بالله ، ولا مرجعنا الا اليه " (١) .

" وامره ان يتأمل اسم " التطفيل " ومعناه ، ويعرف منزاه ومنحاه ، ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بمحمود ، (٢) ، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده ، فان كثيرا من الناس قد استقبحه من فعله ، وكرهه لمن استعمله ، ونسبه فيه الى الشره والنهم ، (وحمله منه على التفه والقرم) (٣) ، فمنهم من غلط في استدلاله ، فأساء في مقاله ، ومنهم من شح على ماله ، فدافع عنه باحتياله ، وكل (٤) الفريقين مذموم ، (وجميعهما ملوم ، لا يتعلقان بعذر واضح) (٥) ولا يحتريان (٦) من لباس فاضح ، ومنهم الطائفة التي ترى فيها (٧) شركة العنان : فهي تتدله (٨) اذا كان لها ، وتتدلى عليه اذا كان لغيرها ، وترى ان المنة في المطعم للهاجم الآكل ، وفي المشرب للوارد الواغل ، وهي احق بالحرية ، واخلق بالخيرية ،

---

(١) هذه الفقرة غير موجودة في نشوار المحاضرة والتطفيل .
(٢) في المصدرين السابقين : " بمجهوده " .
(٣) ما بين قوسين غير موجود في المصدرين السابقين .
(٤) في التطفيل ، ص ١١٣ : " وكلا " .
(٥) ما بين قوسين غير موجود في نشوار المحاضرة والتطفيل .
(٦) في نشوار المحاضرة ، ج ٧ ، ص ١٥٦ والتطفيل ، ص ١١٣ : " يتعريان " .
(٧) في المصدرين السابقين : " التي لا ترى شركة " .
(٨) في المصدرين نفسهما : " تبذله " .

واحرى بالمروءة،واولى بالفتـوة وقد عرفت بالتطفيل ، ولا عار فيه عند ذوي التحصيل ، لانه مشتق من الطفل وهو وقت المساء،وأوان العشاء،فلما كثر استعمل (١) في صدر النهار وعجزه ،واوله وآخره،كما قيل للشمس والقمر : قمران (٢) واحدهما القمر،ولابي بكر وعمر : العمران واحدهما عمر ، (وقد سبق امامنا "بيان" رحمة الله عليه،الى هذا الامر سبقا اوجب له خلود الذكر،فهو باق بقاء الدهر،ومتجدد في كل عصر،وما نعرف احدا نال من الدنيا حظا من حظوظها فبقي له منه اثر يخلفه ، وصيت يستبد به الا هو وحده ، فبيان ، رضوان الله عليه،يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها ،فمن بلغ الى نهايته،او جرى الى غايته سعد بنضارة عيشه في يومه ،ونباهة ذكره في غده ، جعلنا الله جميعا من السابقين الى مداه،والمذكورين كذكراه) (٣) .

" وامره ان يعتمد (٤) موائد الكبراء والعظماء بغزاياه (٥) ،وسمط الامراء والوزراء بسراياه ، فانه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها الى الغريبة النادرة ، واذا استقرأها وجد فيها من طرائف الالوان ، الملذة للسان ،وبدائع الطعوم،السائغة في الحلقوم،ما لا يجده عند غيرهم،ولا

---

(١) في نشوار المحاضرة،ج ٧، ص ١٥٦ : " وان كثر استعماله ... " .
(٢) في المصدر نفسه،ص ١٥٧ : " القمران " .
(٣) ما بين قوسين غير موجود في نشوار المحاضرة،والتطفيل .
(٤) في المصدرين نفسيهما : " يتعهد " .
(٥) في المصدرين نفسيهما : " بقراياه " .

ينالــه الا لديهم ، (لحذق صناعتهم ، وجودة ادواتهم ،وانزيـاح عللهـم وكثــرة ذات بينهم ، والله يوفر مــن ذلك حظنـا ،ويسدد نحوه لحظنا ،ويوضـح عليـه دليلنــا ،ويسهل اليـه سبيلنا) (١) .

،وامره ان يتتبـع ما يعرض لموسرى التجار ،ومجهزى الامصار ، من وكيرة الدار ،والعرس والاعذار ،فانهم يوسعون على نفوسهم (٢) في النوائب بحسب تضييقهم عليها في الراتب ، (وربمـا صبروا على تطفيل المتطفلين ،واغضوا على تهجم الواغلين ،ليتحدثوا بذلك في محافلهم الرذلــة ، ويعدوه في مكارم اخلاقهم النذلـة ،ويقـول قائلهم الباجح باتساع طعامــه ، المباهــي بكثــرة حطامــه : انني كنت ارى الوجوه الغريبـة فأطعمها ، والايدى المتدة فأملؤهـا . وهذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسعـة ،وانما ارادت المـن والسمعـة ،فاذا اهتـدى الاريـب الـى طرائقها وصل الى بغيتـه من اعلان قضيتهـا ،وفاز بمراده من ذخائر جنتهــا ،ان شاء الله)(٣) .

" وامره ان يصادق قهارمـة الدور ومدبريها (٤) ، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها ، فانهـم يملكــون من اصحابهم ازمــة مطاعمهـم ومشاربهـم ،ويضعونهـا بحيث يحبون من اهــل موداتهم ومعارفهم ، واذا عدت هذه الطائفة احدا من الناس خليلا (٥)من خلانهـا ،واتخذتـه اخا مــن اخوانها ،سعد بمرافقتها (٦) ،ووصل الى محابــه من جهاتها ، ومـآربــه فـي جنباتهـا .

---

(١) ما بين قوسين غير موجود في نشوار المحاضرة والتطفيل .

(٢) في المصدرين نفسهما : " انفسهم " .

(٣) ما بين قوسين غير موجود في المصدرين السابقين .

(٤) في التطفيل ،ص ١١٤ : " مـد بريهــا " .

(٥) في نشوار المحاضرة ،ج ٧،ص ١٥٧ والتطفيل ،ص ١١٤ : "احدا من الناس من خلانها " .

(٦) في المصدرين السابقين : " سعد بمرافقتها ، و حظي بمصادقتها " .

وامره ان يتعهد اسواق المسوقين، ومواسم المتابعين، فاذا رأى وظيفة قد زيد فيها، واطعمة قد احتشد مشتريها، اتبعها الى المقصد بها، وشيعها الى المنزل الحاوي (١) لها، واستعلم ميقات الدعوة، ومن يحضرها من اهل النسيان والمروة (٢)، فانه لا يخلو فيهم من عارف به يراعي وقت مصيره اليها ليتبعه، ويكمن له ليصحبه ويدخل معه، وان خلا من ذلك اختلط بزمر الداخلين، (وعصب الراحلين) (٣)، فما هو الا ان يتجاوز عتب الابواب، ويخرج من سلطان البوابين والحجاب، حتى يحصل حصولا (٤) قل ما حصل عليه (٥) احد قبله فانصرف عنه الا ضليعا (٦) من الطعام، بريقا (٧) من المدام، (ان شاء الله) (٨).

" وامره ان ينصب الارصاد على منازل المغنيات والمغنين، ومواطن الابليات والمخنثين، فاذا اتاه خبر لجمع (٩) يضمهم، ومأدبة تعمهم، ضرب اليها اعناق (١٠) ابله، وافضى نحوها

---

(١) في نشوار المحاضرة والتطفيل: " المنازل الحاوية ".
(٢) في المصدرين نفسيهما: " اهل اليسار والمروة ".
(٣) ما بين قوسين غير موجود في المصدرين السابقين.
(٤) في نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ١٥٨ والتطفيل، ص ١١٥: " محصلا ".
(٥) في التطفيل، ص ١١٥: " حصله احد ".
(٦) في نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ١٥٨ والتطفيل، ص ١١٥: " الا ضلعا من الطعام ".
(٧) في المصدرين نفسيهما: " نزيفا ".
(٨) ما بين قوسين غير موجود في المصدرين السابقين.
(٩) في نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ١٥٨ والتطفيل، ص ١١٥: " لمجمع ".
(١٠) في المصدرين نفسيهما: " اعقاب ".

مطايـا خيلـه ،وحمل عليها حملـة الحوت الملتقـم ،والثعبا ن الملتهم، والليث الهاصر ، والعقـاب الكاسـر ، (ا ن شاء اللـه) (١) .

" وامره ا ن يتجنب مجامـع العوام المقليـن ، ومحـافـل الرعـاع المقتريـن (٢) ،وا ن لا ينقـل اليها قدمـا ،ولا يعفّر (٣) لمأكلهـا فما ،ولا يلقـي في عتب د ورهـا كيسانـا ، ولا يعد الرجل منهـا انسانـا ،فانها عصابـة يجتمع لها ضيق النفوس والاحلام ،وقلـة الاحتام (٤) والاموال ، وفي التطفيل عليهما اجحاف بها يوسم (٥) ، وازراؤ ، (٦) بمروءة المتطفـل (٧) (يوصـم) (٨) ، والتجنب لها احرى (٩) ، والازورار عنها احجـى (١٠) (ا ن شاء الله) (١١) .

" وامره ا ن يحزر الخوا ن اذا وضع ،والطعام اذا نقـل ، حتى يعرف بالحد س (١٢) والتقريب ، والبحث والتنقيب ،عدد الالوا ن في الكثرة والقلـة ،وافتنانها في الطيب واللذة ،فيقـدر لنفسـه ا ن يشبع مع آخرها ،وينتهي منها عند انتهائها ،ولا يفوتـه النصيب من كثيرها وقليلها ،ولا يخطئـه الحـظ

---

(١) ما بين قوسين غير موجود في نشوار المحاضرة والتطفيل .
(٢) في التطفيل ، ص ١١٥ : " المعترين " .
(٣) في نشوار المحاضرة ،ج ٧ ، ص ١٥٨ والتطفيل ،ص ١١٥ : " يغض " .
(٤) في المصد رين نفسيهما : " ضيق النفوس والاحوال ، وقلة الاحلام والاموال " .
(٥) في المصد رين نفسيهما : " يؤ شـم " .
(٦) في المصد رين نفسيهما : " وازراء " .
(٧) في المصد رين نفسيهما : " المطفـل " .
(٨) الكلمـة غير موجود ة في المصد رين السابقين .
(٩) في المصد رين نفسيهما : " اجد ى " .
(١٠) في المصد رين نفسيهما : " ارجى " .
(١١) ما بين قوسين غير موجود في المصد رين السابقين .
(١٢) في التطفيـل ،ص ١١٥ : " بالحد يث " .

من دقيقها و جليلها . ومتى احس بقلة الطعام، وعجزه عن الاقوام (١)، امعن في اوله امعان الكيس في سحته (٢)، الرشيد في امره، المالي لبطنه، من كل حار وبارد، (وخبيث وطيب) (٣)، فانه اذا فعل ذلك سلم من عواقب الاغمار الذين يكفون تطرفا (٤)، ويقلون تأدبا، ويظنون ان المادة تبلغهم في آخر امرهم، وتنتهي بهم الى غاية سعيهم (٥)، فلا يلبثون ان يخجلوا خجلة الواثق (٦)، وينقلبوا بحسرة الخائب، اعاذنا الله من مثل مقامهم، وعصمنا من شقاء جدودهم، (ان شاء الله) (٧).

" وامره ان يروض نفسه، ويغالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا، ويطوي دونه كشحا، ويستحسن الصمم عن الفحشاء (٨)، وان اتته اللكزة في حلقه، صبر عليها في الوصول الى حقه، وان وقعت به الصفعة في رأسه، صبر عليها لموقع اضراسه (٩)، وان لقيه لاق (١٠) بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، اذ كان قد ولج الابواب، وخالط الاسباب، وجلس مع الخضور، وامتزج بالجمهور، فلا بد ان يلقاه المنكر لامره، ويمر به المستغرب لوجهه،

---

(١) في نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ١٥٩ والتطفيل، ص ١١٥ : "الاقدام".
(٢) في المصدرين نفسهما : "سعيه".
(٣) ما بين قوسين غير موجود في المصدرين السابقين.
(٤) في المصدرين نفسهما : "تظرفا".
(٥) في نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ١٥٩ والتطفيل، ص ١١٦ : "شبعهم".
(٦) في المصدرين نفسهما : "الوامق".
(٧) ما بين قوسين غير موجود في المصدرين السابقين.
(٨) في المصدرين نفسهما : "ويستحسن الصمم عن الفحشاء ويضرب عن اللفظة الخشناء، ...".
(٩) في المصدرين نفسهما : "اغضى عنها لمراتع اضراسه".
(١٠) في المصدرين نفسهما : "ملاق".

فان كان حرا حييا امسك وتذمم ،وان كان فظا غليظا همهم وتكلم ، وتجنب (١) عند ذلك المخاشنة ، واستعمل (٢) مع المخاطب له الملاينة ، ليبرد (٣) غيظه ، ويفل (٤) حده ، ويكف غربه ،ويأمن شغبه ،ثم اذا طال المدى تكررت الالحاظ عليه فعرف ، وانست النفوس به فألف ، ونال من المحال (٥) المجتمع عليها ،منال من حشم وسئل الذهاب اليها (٦) .

" ولقد بلغنا ان رجلا من (٧) العصابة كان ذا فهم ودراية ،وعقل وحصافة ، طفّل على وليمة ،لرجل ذى حال عظيمة ،فرمقته فيها من القوم العيون ،وصرفت (٨) بهم فيه الظنون ، فقال له قائل منهم : من تكون اعزك الله ؟ فقال : انا اول من دعي الى هذا الحق ،قيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : اذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته بنفسي . فجيء به (اليه) (٩) ،فلما رآه بدأه (١٠) بأن قال له : هل قلت لطباخك (١١) : ان يصنع طعامك زائدا على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ،قال : نعم قال : فانما تلك الزيادة لي

---

(١) في نشوار المحاضرة ، ج ٧ ،ص ١٥٩ والتطفيل ، ص ١١٦ : " وان يجتنب " .
(٢) في المصدرين نفسيهما : " ويستعمل " .
(٣) في التطفيل ،ص ١١٦ : " ليرد " .
(٤) في المصدر نفسه : " يفل " .
(٥) في نشوار المحاضرة ، ج ٧، ص ١٥٩ والتطفيل ،ص ١١٦ : " ونال في الحال المجتمع عليها " .
(٦) في المصدرين نفسيهما : " منال من جشم وسيل العنا اليها " .
(٧) في نشوار المحاضرة ،ج ٧، ص ١٥٩ : " من هذه العصابة " .
(٨) في المصدر نفسه والتطفيل ،ص ١١٦ : " تصرفت " .
(٩) الكلمة غير موجودة في المصدرين السابقين .
(١٠) في نشوار المحاضرة ،ج ٧، ص ١٦٠ والتطفيل ، ص ١١٦ : " بدأه بالسلام بأن قال له ... " .
(١١) في المصدرين السابقين " هل قلت ،ايدك الله ،لطباخك ... " .

ولامثالي ، وبها يستظهر (١) لمن جرى مجراي ، وهي رزق (لنا) (٢) انزله الله على يدك (وبك) (٣) ،فقال له : كرامة ورحبا (٤) ،واهلا وقربا ،والله لاجلست الا مع عليه الناس ووجوه الجلساء ،اذ اطرفت (٥) في قولك ،وتغلغلت في فعلك ، فليكن ذلك الرجل اماما يقتدى به (٦) ، (ويقتفى طريقه) (٧) ،ان شاء الله .

" وامره بأن يكثر من تعاهد الجوارشنات المنفذة للسدد (٨) ،المقوية للمعدة ، المشهية للطعام ، المسهلة لسبل (٩) الانهضام ، فانها عماد امره ،وبها انتظامه والتئامه ، اذ كانت (١٠) تعين على عمل الدعوتين ، وتنهض في اليوم الواحد بالاكلتين ،وهو يتناولها كذا (١١) كالكاتب الذي يقط اقلامه ، والجندي الذي يصقل حسامه ،والصانع الذي يحدد آلته (١٢)،والماهر

---

(١) في نشوار المحاضرة ،ج ٧،ص ١٦٠ والتطفيل ،ص ١١٧ : " تستظهر " .

(٢) الكلمة غير موجودة في المصدرين السابقين .

(٣) في المصدرين نفسهما : " انزله الله على يدك وسببه من جهتك ،فقال له ... " .

(٤) في المصدرين نفسهما : " مرحبا بك " .

(٥) في المصدرين نفسهما : أذ قد ظرفت " .

(٦) في المصدرين نفسهما : " فليكن ذلك الرجل لنا اماما نقتدي به وحاذيا نحذو على مثاله " . وفي التطفيل : " حاذيا نحذو على مثاله " .

(٧) ما بين قوسين غير موجود في المصدرين السابقين .

(٨) في نشوار المحاضرة ،ج ٧،ص ١٦٠ : " المنفذة للسدة " وفي التطفيل ،ص ١١٧ : " المنقذة للسدة المقوية للمعدة " .

(٩) في المصدرين السابقين : " لسبيل " .

(١٠) في المصدرين نفسهما : " لانها تعين " .

(١١) في المصدرين نفسهما : " وهو في تناولها كالكاتب " .

(١٢) في المصدرين نفسهما : " يحدد آلاته " .

الذى يصلح ادواته ، (ان شاء اللـه) (١) .

" هذا عهد عليكا بن احمد (٢) اليك ، وحجته لك وعليك (٣) ، لم يألك فيه (٤) ارشادا وتوثيقا (٥) ، وتهذيبا وتثقيفا ، وبعثا (٦) وتبصيرا ، وحثا وتذكيرا ، فكن باوامره مؤتمرا ، وبزواجره مزدجرا ، ولرسومه متبعا ، ويحفظها مضطلعا (٧) ، ان شاء اللـه تعالى (٨) ، والسلام عليك ورحمة اللـه وبركاته " .

---

(١) ما بين قوسين غير موجود في نشوار المحاضرة والتطفيل .
(٢) في المصدرين نفسهما : " هذا عهد علي بن احمد ، المعروف بعليكا اليك " . واليك غير موجودة في التطفيل .
(٣) في المصدرين نفسهما : " وحجته عليك " .
(٤) في المصدرين نفسهما : " لم يألك في ذلك " .
(٥) في المصدرين نفسهما : " توقيفا " .
(٦) في نشوار المحاضرة ، ج ٧ ، ص ١٦١ : " نعتا " .
(٧) في التطفيل ، ص ١١٧ : " مطلعا " .
(٨) الكلمة غير موجودة في نشوار المحاضرة والتطفيل .

" عهد التطفيل " رسالة من النوع الهزلي ، يعطي فيها الصابي نموذجا عن جماعة وضيعة في المجتمع تعرف بالطفيليين (١) ، كثر وجودهم في القرن الرابع الهجرى ،ومن طبيعة الفن الهزلي انه يصور الجانب المضحك من الفعل القبيح للادنياء من الناس(٢) ، فيصور هؤلاء الناس ادنى مما هم في الواقع (٣) . فالعنصر الاول من عناصر الاضحاك او السخرية في الرسالة ،هو التركيز على هذا الجانب الناقص في فئة من الناس غير قليلة اتخذت من هذا النقص او العيب الذى هو التطفيل حرفة لها اصول وقواعد ،ولها ائمة معترف لهم بالسبق الى هذا " الفضل " . وكأن الطفيلي الشهير عليكا يخاف على مهنته من ان تزول اصولها وطرقها فيكتب عهدا الى طفيلي آخر لخلافته وحفظ سننه ورسومه . ففكرة العهد الى من يستخلف في التطفل على مدينة السلام وما يحيط بها هي فكرة هزلية مضحكة .

الاطار الذى وضعت فيه الرسالة اطار جدى ،وهو مطابق للمنهج المتبع في كتابة العهود من البدء بذكر الاسباب التي دعت الى العهد لأحد الاشخاص لصفات جيدة فيه تؤهله للمنصب المعتمد ،ثم التوصية بتقوى الله والتأدب بادابه . وهنا نجد ان السخرية في مقدمة الرسالة تعتمد على المفارقات . فالذى دفع بعليكا الى العهد لابن عرس هو ما توسمه فيه من اخلاق

---

(١) " طفيل الاعراس، وطفيل العرائس : رجل من اهل الكوفة من بني عبد الله بن غطفان كان يأتي الولائم دون ان يدعى اليها ،وكان يقول : وددت ان الكوفة كلها بركة مصهرجة فلا يخفى علي منها شيء ،ثم سمي كل راشن طفيليا وصرفوا منه فعلا فقال : طفّل ،ورجل طفليل : يدخل مع القوم فيأكل من طعامهم من غير ان يدعى ، ابن السكيت،في قولهم فلان طفيلي للذى يدخل الوليمة والمادب ولم يدع اليها ،وقد تطفّل ، وهو منسوب الى طفيل المذكور . والعرب تسمي الطفيلي الراشن والوارش. قال الاصمعي : هو الذى يدخل على القوم من غير ان يدعوه ، مأخوذ من الطفل وهو اقبال الليل على النهار بظلمته " . عن اللسان ، مادة:طفل .

(٢) ارسطوطاليس، فن الشعر (ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣) ص ١٢ .

(٣) فن الشعر ،ص ٩ .

حميدة • لكن الاخلاق الحميدة التي تؤهل المتطفل للخلافة هي " قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، " واتباع الحيل الغريبة اللطيفة للوصول الى الموائد الغنية والشهية •

ثم ان كاتب العهد الى الحاكم او القاضي ، يذكره بالله تعالى ويأمره بتقواه والتأدب بآدابه وهذا طبيعي بل ضروري للحاكم (او الوالي او القاضي •••) الذي تناط به مهمة رعاية امور الناس والحفاظ على حقوقهم ، وفقا لاحكام الشريعة • ومن هنا تأتي المفارقة في العهد الهزلي حيث انه يجب على المتطفل تقوى الله ومراقبته وخشيته والسعي في طلب رضاه وثوابه ، والوقوف على حدوده ، لان هذه الطريق تكفل للمتطفل النجاح والصلاح •

والصابي جعل من " التطفيل " فنا او مهنة امتهنت بسبب عدم فهم الناس لها على حقيقتها ولاعتمادهم في ذلك التقليد والتسليم بما يقال دون البحث والتنقيب عن معنى هذا الاسم • فنسب المتطفل خطأ الى الشره والنهم ، او الى البخل ، مما يجعله يلجأ الى الاحتيال للعيش مع المحافظة على امواله • لكن المسألة ليست بذلك ، انها نوع من الشركة تعطي الحرية للشركاء بحيث يبذل المتطفل اذا كان المطعم له ويأتي عليه اذا كان لغيره • والفضيلة في الطعام " للهاجم الآكل " وفي الشراب " للوارد الواغل " • هذا النوع من الشركة عرف بالتطفيل ، والامام فيه الذي وضع لهذا الفن قواعده واصوله هو بنان (١) الذي اتى في هذا الامر ما خلده على الزمان ، وجعله اماما يقتدى •

---

(١) ذكره الخطيب البغدادي في كتاب التطفيل باسم بنان ، والاختلاف في الاسم عائد ربما الى التصحيف • يقول البغدادي : " كان بنان من اشهر الطفيليين ذكرا وابعدهم صيتا ، وله في التطفيل وحدوده ورسومه وسننه ما ليس لغيره واخباره كثيرة ••• اختلف في اسم بنان ، فقيل عبد الله بن عثمان ، وقيل علي بن محمد ولقبه بنان ويكنى ابا الحسن وكان اصله مروزيا وهو بغدادي الدار ، وقد روى اخبارا اسندها عن جماعة من اهل العلم " (المصدر نفسه ، ص ٨٤) ثم يقول : " وكان بنان حدود سنة ثلاثمائة • " (المصدر نفسه ، ص ٨٨) وللمزيد من التفصيل راجع اخباره في المصدر نفسه ، ص ٨٣ — ١١١ •

اذا ،عنصر الهزل او الاضحاك يعتمد بالدرجة الاولى على المفارقة في صيغة العهد ، حيث تنقلب المقاييس فيصبح التطفل المرذول من الناس نوعا من الصناعة لها فنون وطرائق واصول جديرة بان تحترم وتقدر وتتبع • كما ان لها اماما تذكر اخبار تطفيله كما تذكر سير الملوك ، ويصبح التأدب في تناول الطعام من عمل الاغمار الذين يستعاذ بالله منهم ، والاغضاء عن اللكزة او الصفعة او الفحشاء مرغوبا في سبيل الحصول على وجبة شهية ، واعتماد ما يقوي المعدة على الهضم ويسهل عليها سبيله ، ضروري في تأهيل الطفيلي لاغتنام دعوتين في اليوم الواحد • اما الازراء الذى يمكن ان يوسم به المتطفل فهو اتيان موائد العوام لضيق نفوسها وقلة اموالها • أما ذكر الله دائما في الرسالة ،واستعمال عبارات من امثال : ان شاء الله ،وبالله التوفيق ،وعليه التعويل ،وما شابه وامر الطفيلي بتقوى الله انما القصد منها المفارقة والاضحاك ،اذ انه ليس لدى الطفيلي اى فعل ما يمكن ان ينسب الى التأدب بآداب الله •

وقد تعتمد السخرية بعض العبارات ايضا كتشبيه حضور الطفيلي الى الموائد بالغزوات والسرايا : " وامره ان يحتشد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ،وسط الامراء والوزراء بسراياه ••• " • واما استخباره عن الحفلات التي يحضرها المغنون والمغنيات فقد عبر عنه بنصب الارصاد : وامره ان ينصب الارصاد على منازل المغنيات والمغنين ••• " •

ومن عباراته الساخرة ايضا تصويره قصد الطفيلي للمآدب : " ضرب اليها اعناق ابله ، وانضى نحوها مطايا خيله ،" •• وكأنه في طريقه الى رحلة بعيدة وغنيمة كبيرة تشد لها الرحال • ثم وصف حملته على الطعام " حملة الحوت الملتقم ،والثعبان الملتهم ،والليث الهاصر ،والعقاب الكاسر " • ووصف صبره على الاهانة بالقول " وان اتته اللكزة في حلقه ،صبر عليها في الوصول الى حقه ،وان

وتمت به الصفعة على رأسه ،صبر عليها لموقع اضراسه ،وان لقيه لاق بالجفاء ،قابله باللطف والصفاء "• وفي الحديث حول بيان امام الطفيليين يقول انه يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها • وغير ذلك •

الاسلوب :

يطالعنا الصابي في هذه الرسالة باسلوب مختلف عن كتابته ، فنرى ان الفاظه وتعابيره الفخمة الجزلة التي عهدناها في رسائله الديوانية ، تختفي ليظهر لنا اسلوب يقرب من اسلوب القصص الشعبي من حيث البساطة والسهولة ،مع المحافظة على السجع عامة • والجديد في الاسلوب ايضا ادخال الحوار الى النص من خلال سرده لحادثتين : الاولى ،حديث التاجر الموسر في احد المحافل حول كرمه واتساع طعامه ، والثانية : طريقة دخول متطفل الى احدى المآدب وحيلته اللطيفة في الجلوس مع علية القوم والظفر بالطعام اللذيذ • والتمني الفعلي الذي نجده في هذا العهد هو في تصوير الشخصيات والوقائع •

الشخصيات :

في الرسالة شخصية رئيسة هي شخصية البطل النذل : الطفيلي • ومن الشخصيات الثانوية التي بدت في النص : التاجر المباهي بسعة طعامه ، وكلاء المطابخ وحماليها ،العوام المقلين ، المتأدبين في المأكل، صاحب الدار الحيي والآخر الفظ ،صاحب الدار الذي اكرم الطفيلي •

لدى تحليلنا لشخصية البطل نلاحظ ان الصابي لا يصور طفيليامعينا وانما يعطي المثل الاعلى للطفيلي • وهذا ما يعنيه تصوير الناس في المهزلة ادنى مما هم في الواقع • فالذي نراه في الرسالة هو الطفيلي المثالي في التطفيل ،والذي نجد بعض خصائصه في شخصية

علينا العاهد ،وشخصية ابن عرس المعهود اليه ،وشخصية بيان امام هذا الفن ، وشخصية الطفيلي الذي طلب مقابلة صاحب الدار . من كل هؤلاء نستنتج شخصية الطفيلي المثالي . ونجاح الصابي في تصوير هذه الشخصية عائد اولا : الى اعطاء الصورة المثالية وعدم تصوير طفيلي بعينه . ثانيا : الى تنوع المواقف التي نرى الطفيلي فيها : على موائد الكبراء ، في مآدب التجار ، مع قهارمة الدور ووكلاء المطابخ ، في السوق يستطلع ويراقب ويستعلم ، يستكشف اخبار المغنين والمغنيات ، على المائدة يتلقى الكلمة الخشنة والصفعة على الرحب والسعة ... ثم ان وجود الشخصيات الاخرى المتعددة ، وان كان وجودها ثانويا ، يبرز ملامح هذه الشخصية ويغني النص بالحيوية والحركة ، فيصبح وكأنه مسرحية هزلية متعددة الفصول متنوعة يجمعها وينتظمها وجود البطل الواحد .

من اولى صفات هذا البطل ، التي تؤهله لأن يكون طفيليا : " قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم " . وهذه على ما يبدو صفات طبع الرجل عليها او تعودها حتى اصبحت كالطبع ، فليس كل من يبغي ان يكون طفيليا يصل الى مبتغاه ، انما يجب ان تتوفر فيه هذه الصفات اولا ، ثم يعمل على اكتساب غيرها مما اثر عن الطفيليين المشهورين .

هدف الطفيلي الاول اكتساب طعام وافر لذيذ دون ان يكلف اي شيء بالمقابل ، سوى عناء حيلة لطيفة تمكنه من الوصول الى المأدبة . فأولى غاياته وانبل اهدافه موائد الكبراء والوزراء حيث يجد عليها الالوان اللذيذة والطعوم البديعة السائغة في الحلقوم . اذ ان غنى هؤلاء يجعلهم يتفننون في طعامهم ويحسنون صنعه . ثم يأتي في الدرجة الثانية

التجار الموسرون، وهؤلاء لا ينفقون عادة الا في المناسبات كالوكيرة (١) والعرس والاعذار (٢) .
ومن عادة هؤلاء الصبر على المتطفلين ليكسبوا بذلك الذكر الحسن، فالمتطفل الذكي هو الذي يوصل هذه الفئة الى غايتها من المباهاة بكرمها بأن يحضر مآدبها . هذه الموائد هي التي يليق بالمتطفل قصدها لا مآدب الفقراء ذوي النفوس الضيقة والاموال القليلة .

اما الحيلة في الدخول الى المآدب فمتعددة، فاذا علم الطفيلي مثلا ان فلانا من الناس سيحضر احدى المآدب، كمن له وتبعه اليها، حتى اذا وصل الى المكان، سعى اليه وصحبه ودخل معه . اما اذا لم يكن على معرفة بالمدعوين فينتظر امام مكان الاحتفال ويدخل مختلطا بالداخلين فلا يميز بانه غريب ، فالمرحلة الصعبة في القضية هي تجاوز الابواب، فلا يكاد الطفيلي يخرج من سلطان البوابين والحجاب" حتى يحصل حصولا قل ما حصل عليه احد قبله؟ الآن دخل الطفيلي الى المأدبة، ومن الطبيعي ان يستغرب وخاصة من صاحب الدار، لكنه ذكي يعرف كيف يتصرف للوصول الى هدفه او الى "حقه" . فان كان صاحب الدار فظا غليظا سيتعرض له بالمخاشنة، لكن حفيظته لن تثار، بل يبقى رابط الجأش مؤمنا بحقه فيرد على المخاشنة بالملاينة والصفاء حتى يخفف من حدة صاحب الدار فيكف عنه، ثم لا يلبث ان يؤلف ويعرف، وقد يصل به الامر الى ان يصبح في منزلة من يسأل الذهاب الى المآدب، وقد يصل الى هذه الرتبة منذ الغزوة الاولى ، اذا كان ذا فهم ودراية وحسن التصرف . فهو ريض النفس لا يرد على الفحشاء،

---

(١) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل عند فراغه من بنيانه ، فيدعو اليه . اللسان، مادة : وكر .
(٢) الاعذار : طعام الختان . اللسان، مادة : عذر .

ويتغاضون عن اللكزة والصفعة والجفاء ويقابل ذلك كله باللطف والتسامح .

ثم ان للطفيلي طريقة خاصة في تناول الطعام ، فهو منذ النظرة الاولى الى الخوان يقدر الطعام في الكثرة والقلة والطيب واللذة ، ويقدر لنفسه مقدار مأكله بحيث لا يشبع الا بانتهاء الطعام بعد ان يكون قد مر على جميع الاصناف،اما اذا احس بقلة الطعام فلا يتصرف تصرف المتأدبين في طعامهم،الاغبياء ،لان هؤلاء لا يربحون الا الحسرة والخيبة ، بل يمعن فيه مالئا بطنه من كل صنف .

والطفيلي لا يغزو المآدب ليشبع جوعه فقط ، بل ان الطعام صار لديه هدفا بحد ذاته يتجشم الكثير من المشقات في سبيل الوصول اليه . وعندما يكون الطعام هدفا اولا وجب تقوية المعدة لاستقباله كالصانع الذي يحدد آلاته ويقويها ،او كالجندي الذي يصقل حسامه، ويكون ذلك بتناول الادوية المشهية للطعام، المسهلة للهضم، المقوية للمعدة ، فقد يستطيع تصيد دعوتين في اليوم الواحد ولا بد ان يكون قادرا على القيام بمستلزماتها .

اذا ،اهم صفات الطفيلي ، الذكاء والانتباه في معرفة اماكن الدعوات،ثم الاحتيال في الوصول اليها ، وحسن التصرف والاغضاء عن القوارص،وما يلزم ذلك من الجرأة في مواجهة ما قد يلقاه داخل البيوت من العيون المستغربة لامره،المنكرة لوجوده ،كما ان الجرأة هي من صفاته في الاقدام على الطعام فلا يشبع الا مع آخره، متعهدا معدته بالمقويات والمشهيات .

الشخصيات الاخرى في الرسالة تساهم في تكوين المشاهد او المواقف التي قد يتعرض لها الطفيلي ، فالرسالة غنية بالشخصيات والمشاهد المختلفة • منها مشهد التاجر يفخر امام ضيوفه بكثرة ماله واتساع حاله وبكرمه واحسانه الى الوجوه الغريبة والايدي الممتدة • مشهد آخر : الطفيلي مع اصدقائه اصحاب المطابخ وهم يحملون اليه الطعام الوفير ، ثم الطفيلي في السوق ينظر ويبحث حتى يرى ما يلفت انتباهه من شراء احد الاشخاص للكثير من الاطعمة فيتبعه بخفة الى منزله • وهناك قد يسأل الخدم وعمال الدار عن هذه الدعوة ، زمانها والمدعوين اليها • ثم مجيئه في الموعد المحدد الى المكان ، فان رأى من يعرفه تقدم اليه ودخل بصحبته ، والا دخل مختلطا بجماعة من الداخلين ، وها هو يمسك انفاسه حتى يتجاوز عتبة الدار خوفا من ان يلحظه البوابون ويرموه خارجا ، حتى اذا وصل الى الداخل تنفس الصعداء اذ يرى امامه الخير الوفير من الطعام والشراب •

مشاهد اخرى : وضع الارصاد على ابواب المغنين والمغنيات وترقب اخبارهم ، حتى اذا اتاه خبر عن مأدبة تجمعهم مضى اليها سريعا وحمل على اطعمتها " كالحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ، والليث الهاصر ، والعقاب الكاسر " • ثم مشهد الطفيلي اذا وضع الخوان ، اذ يجيل فيه طرفه ويلحظ اصنافه ، ثم يبدأ بتناول الطعام بشراهة ونهم ، حتى اذا انتهت الاطعمة توقف ، ممتلىء البطن ، سعيدا بالظفر • وبالمقابل نرى الذين يخجلون من الاقدام على الطعام لقلته تأدبا منهم وتعففا •

هذه المشاهد والاشخاص ساعدت في تبيان ملامح شخصية الطفيلي ، واغنت الرسالة بالحيوية والحركة والتنوع •

القيمـــة الاجتماعيـــــة :

هذه الرسالــة الفريدة بين ما لدينـا من رسائـل الصابـي تحمل مـــدلـولات اجتماعية وادبيـة عديـــدة :

أ ـ الادب ينزل الى الواقـع : تتناول الرسالـة مسألة من المسائل الشائعـة في اوساط العامـــة، وتتخذ من الطفيلـي المحتقر في المجالـس والمآدب بطـلا لها في اطـار هزلـي . وهذه الظاهرة عرفت في ادب القرن الرابع الهجري بشكل مميز، فظهرت اخبار المكدين والمتصـوفـة والقصاصيـــن والمتطفلين على صفحـات كتب الادب، ككتاب الامتاع والمؤانســة للتوحيدي، ومنها ما احتل كتبا بكاملها كالمقـــامــــات لبديـع الزمـان الهمذانـي، والتطفيل للخطيـب البغدادي، وبعض هذه الكتب حمل الفاظ العامـة البذيئـة كالمقامات خاصـة، لكن رسالـة الصابـي كونها كتبت بشكل عهد بأمر من الملك، فقد خلت من الالفاظ النابيـة، الا ان اسلوبها كما ذكـر من قبـل بسيط وسهـل .

ب ـ الفقر : الفقر والتفاوت في المستوى المعيشـي في القرن الرابع مشكلـة عاناهـا المجتمـع بسبب تعاقب الايدي على الحكم، واختـلال الامور، من سيطرة القواد على الملوك البويهيين، وسيطـــرة هؤلاء بدورهم على الخلفاء العباسيين ... ثم كثرة الحروب والفتن وما يستلزم ذلـك من اموال طائلـة اعتمد في تحصيلها على كثرة الضرائب، والمصادرات والنكبـات .. حالـة الفقر هذه ادت الـــى ظهور طوائف متعددة فـي المجتمـع تحتال على العيش، منها المكدون والقصاص والصوفيـــة والعيارون والمتطفلـــون . جميـع هؤلاء متسولـــون ولكل طريقتـه الخاصـة فـي ذلك . والتطفيل هو اتيان المآدب دون دعوة مـــن اصحابها ، ولابد ان يكون اساسه وسيلـة يسد بها الفقير جوعـــه ويتناول ما حرمـه من انواع المآكل الشهيـة . ثم ما لبـث التطفيل ان صار ظاهـرة لها ميزات واساليـب خاصة،

كما رأينا في الرسالة ، وصار للمتطفل حيل في اقتناص الدعوات وجرأة في الوصول الى ما يريده من مآكل وكأنها حق له ، او كما قال الصابي : هي شركة العنان (١) . ولم يعد التطفيل وسيلة لسد جوع المتطفل الفقير انما صار صنعة مرغوبة بحد ذاتها ، يحار المتطفل في التفنن باساليبها وحيلها ، ويتخذ لنفسه ائمة يكتسب من اخبارهم ما يعينه على الاحتيال للوصول الى غايته . ويبدو من رسالة الصابي وكأن التطفيل صار ردا سلبيا متعمدا على الاغنياء الموسرين الذين يتمتعون بالاموال والملاذ ، فيعتبر الصابي ان التطفيل هو اكتساب للرفاهة المهملة ، يعود على اصحابه بالاطعمة اللذيذة والاجسام القوية ، واعتبره " ردأ على من اتسعت حاله ، واقدره الله على غرائب المأكولات ، واظفره ببدائع الطيبات ، آخذا من ذلك كله بنصيب الشريك المناصف ، وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض " . فالمتطفل لا يرضى بسد الرمق انما يريد المشاركة والمناصفة . ثم ان شيوع هذه الظاهرة في المجتمع ، جعل الكبراء يوصون بوابيهم وحجابهم بمنع دخول الغرباء . وهكذا تصبح العقبة في وجه المتطفل اجتياز باب الدار .

ج ـ الطبقات الاجتماعية : ظهر في الرسالة ذكر لعدة طبقات اجتماعية هي ، باستثناء المتطفلين الذين هم من العامة ، :

١ ـ الكبراء والوزراء والامراء ، ويتميزون بالغنى والكثرة ، فتجد على موائدهم دائما افضل المآكل " لحذق صناعتهم وجودة ادواتهم ، وانزياح عللهم ، وكثرة ذات بينهم " .

---

(١) شركة العنان : " هو ان يخرج كل واحد من الشريكين دنانير او دراهم مثل ما يخرج صاحبه ويخلطاها ويأذن كل واحد منهما لصاحبه بأن يتجر فيها ، ولم تختلف الفقهاء في جوازه ، وانهما ان ربحا في المالين فبينهما وان وضعا فعلى رأس مال كل واحد منهما ... " . اللسان ، مادة : عنن .

٢ ـ التجار الموسرون : لا يبذخون دائما كالكبراء ،انما فقط في المناسبات والمآدب كالوكيرة والعرس والاعذار . ويبدو ان هذه الفئة حديثة النشوء او الغنى لانها تقتر على نفسها ولا تبذل الا في المناسبات، ولا تصبر على المتطفلين الا ابتغاء الذكر الحسن .

٣ ـ مدبرو المنازل والبوابون والحجاب : يكسب هؤلاء العيش من اعمالهم في القصور ، ولهم سلطة على العامة ، فيتودد الفقراء الى مدبري المنازل ليكسبوا الاطعمة ،والمتطفلون الى الحجاب ليجتازوا الابواب .

٤ ـ المغنون والمغنيات : ولهم دور خاصة للغناء معروفة كما يبدو ،وقد يدعون الى المآدب والمجامع .

٥ ـ العامة من الفقراء : هؤلاء اخس طبقات المجتمع ،فقراء ،مقلين . والمتطفلون منهم الا انهم اذكياء يحتالون على الفقر فيتخلصون منه بالتطفيل .

ى ـ كثرة الدعوات التي تقيمها الفئات المترفة : حتى ان المتطفل يكسب دعوتين في اليوم الواحد ، وهذا يدل على اتساع الشقة بين الاغنياء والفقراء وعيش الفئة الاولى في البذخ والاحتفالات والدعوات، والثانية في الحرمان والقلة . وهناك دعوات معروفة ومعتادة كالوكيرة والاعذار والعرس تقيمها عادة الفئة المتوسطة ،فئة التجار الموسرين ،وقد يجتمع في المآدب المغنيات والمغنون .

هـ - البعد عن الروح الدينية : اعتماد الصابي ذكر مقطعين في اول العهد : احدهما عن تقوى الله والثاني عن التأدب بآدابه ،وربما هو سخرية منه على الحال الدينية في ذلك العصر ،حيث اصبح التمسك بالآداب الدينية والشرعية ليس الا كلاما يقال في مقدمة الرسائل والعهود ، يقال للحاكم والوالي والقاضي كما يقال للطفيلي . والا فما العلاقة بين التقوى والتأدب بآداب الله والوقوف على حدوده ، وبين التطفيل ،حتى يتكفل الله للمتطفل " التقي " بالنجاح ؟ وهل التطفل

اساسا من المستحبات في الدين ؟ فقد روي ان رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يسمح لأحد الاشخاص الذى تبعه الى مأدبة دعي اليها بالدخول الا بعد ان استأذن صاحب الدار فقال له لما بلغ الباب : " ان هذا تبعنا ، فان شئت ان تأذن له ، وان شئت رجع " ٠ قال : " بل آذن له يا رسول الله "(١) وهذا دليل استكراه الدخول الى مأدبه دون دعوة او اذن ٠

---

(١) الامام النووى ، رياض الصالحين (تحقيق شعيب الارنؤوط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٦/١٩٨٦) ص ٣٤١ ٠

كتاب التاجي

وضع ابو اسحاق الصابي كتاب التاجي في تاريخ الدولة الديلمية تلبية لأمر عضد الدولة الذي جمل وضع هذا المؤلف شرطا لاطلاق الصابي من سجنه (١) . وقد عالجنا خلال دراسة حياة ابي اسحاق ظروف وضع هذا الكتاب بالتفصيل ،وخلاصة الامر ان عضد الدولة كان امر باعتقال الصابي وسجنه سنة ٣٦٧ هـ مع ولديه سنان والمحسن ثم امر سنة ٣٦٩ هـ باطلاق ولديه واعطائه ثيابا ونفقة نتيجة لشفاعة وزيره المطهر بن عبد الله . واصدر اليه حينذاك امره بعمل كتاب في مفاخر الديلم . فامتثل الصابي طائعا واخذ يعمل في الكتاب "ويتأنق في تصنيفه وترصيفه ، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه " (٢) .

لكن كتاب التاجي لم يصلنا كاملا ، وانما بقيت منه قطعة قصيرة مجتزأة تحت اسم " المنتزع من كتاب التاجي لابي اسحاق الصابي " (٣) ،وتتضمن اربعة فصول : الاول منها يؤلف آخر احد فصول الكتاب الاصل ويبدو انه مقصور على ذكر اخلاق الديلم ومناقبهم اذ ترد في المنتزع فقرة في ذكر مناقبهم وصفاتهم يتبعها قوله : " ولا بأس في ان نورد في آخر هذا الفصل خبرا او خبرين مما نمى الينا عنهم في المعنى الذي ذكرناه آنفا ثم يورد الخبرين وهما في معنى الشجاعة وحسن

---

(١) ياقوت ،معجم الادباء ، ج ٢ ،ص ٤٢ والقفطي ،تاريخ الحكماء ، ص ٧٥ .
(٢) الثعالبي ،اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٤٤ .
(٣) نشر مع قطعة من كتاب الام لابي القاسم الجيلاني – وجدا في مخطوط واحد – بتحقيق وشرح محمد حسن الزبيدي ،بغداد ،دار الحرية ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

الضيافة (١) . اما الفصل الثاني فيدو انه ذكر كاملا لقوله في اوله: " فصل في مساكن الديلم والجيل ومفاخرهم " (٢) . واما الفصل الذى يليه فهو كامل ايضا ويقول في اوله : " فصل في ذكر اسلام الديلم والجيل ،على ايدى من صار اليهم من العلويين، وتسمية هؤلاء العلويين ،واحدا بعد آخره ونبذ من اخبارهم، " (٣) يليه فصل في خبر ابي جعفر ليلى بن نعمان الديلمي الساهي (٤) ،هو تابع للفصل الذى يسبقه لقوله في آخره: " قال في الاصل وهذا آخر ما انتهى اليه ذكر من خرج من اهل البيت عليهم السلام في هذه الجهة في هذا الكتاب " (٥) .

فالمنتزع عينة من كتاب التاجي سنجمله ،مع قصره، عندئذ في دراسة الناحية الادبية في هذا الكتاب مع الاستعانة بما جاء حوله في المصادر .

الوجه الادبي للكتاب :

من ميزات كتاب التاجي الفريدة جمعه بين التاريخ والادب ما يتيح لنا دراسته مع نتاج الصابي النثرى تاركين المجال في دراسة الناحية التاريخية في الكتاب لاهل الاختصاص بهذا العلم . يتميز التاجي بالبلاغة في الاسلوب مما عهد في اسلوب الصابي وفي ذلك قال الثعالبي حين احال المتطلع الى اخبار عضد الدولة الى الكتاب : " لتجتمع له مع الاحاطة بها بلاغة من قد تسهل

---

(١) المنتزع، ص٢٦ .
(٢) المصدر نفسه،ص ٢٦ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨ .
(٤) المصدر نفسه،ص ٧٣ .
(٥) المصدر نفسه،ص ٨٢ .

له حزونهـا ، ولا ينتـه متونها ، باطاعتـه عيونها (١) " • ووصـــف ابو شـجاع الروذراورى الكتاب بالقـول : " كتاب بديع الترصيف حسن التصنيف، فان ابا اسحاق كان من فرسان البلاغـــة الذيـن لا تكبو مراكبهم ولا تنبو مضاربهم " (٢) • لكن الملاحظ ان الذى اجمعت عليـه المصادر من بـلاغـة الكتاب يفوق ما نراه عند معاينته • فهل هذا النثر المرسل ـ مع بلاغتـه ـ هو ممـا يحمد ابو اسحاق الذى سود الصفحات الكثيرة بالرسائل الفخمـة البليغة، الى تنميقـه وترصيفـه كما جاء في احـــد المصادر (٣)؟ وهل هو مما يستحق ان يقول عنه التوحيدى، احد ائمـــة البـلاغـــة فـــي القرن الرابع الهجرى : " ويزيد على كل من تقدم بالكتاب التاجي ، فانه ابان عن امور وكنى في مواضع، وشن الغارة في الصبح المنير مع الرعيل الاول ، ودل على التفلسف، وعلى الاطلاع على حقائق السياسـة ولو لم يكـــن له غيره لكان به اعرق الناس في الخطابـة، واعرق الكتاب في الكتابـة "؟ (٤)

فاذا تركنا جانبا ما يقول التوحيدى حول معاني الكتاب وركزنـــا على حديثـــه حول بلاغتـه لوجدنا ان التوحيدى يرى ان بلاغـــة الصابي في هذا الكتاب توازى بلاغتـه في الرسائل او توفـــي عليها اذ انه وحده ، كاف ليشهد على ان الصابي من اعرق الكتاب في الكتابـــة • وهنا تبرز لدينــــا عدة تساؤلات : هل صنعـــــة الصابي الفنيـة تظهر في انحاء متفرقـــة من الكتاب تبعا للموضوع وما قد يتيحـه من مجال للتنميق الكلامي لذا هي لم تظهـر في المنتـــزع الذى يعالـج امورا علميـــة بحث كالحديث عن المساكن والاحداث العسكرية المتلاحقـة وما الى ذلـك ؟ ام هل ان التصــــرف

---

(١) اليتيمـة، ج ٢، ص ٢١٧ •

(٢) ابو شجاع، ذيل التجارب، ص ٢٣ •

(٣) اليتيمـة، ج ٢، ص ٢٤٤ •

(٤) الامتـــاع، ج ١، ص ٦٨ •

في الكتاب قد اتى على ما فيه من صنعة فنية ؟

كنا قد اشرنا فيما سبق من هذا البحث (١) الى وجود مقطوعات نثرية بليغة للصابي قيلت في عضد الدولة، يعتمد فيها صيغة الغائب واصفا سلوكه واخلاقه وحزمه وحكوماته ومجالسه وعطاياه، ... وقد وجدنا هذه المقطوعات في مخطوط لقاح الخواطر، ورجحنا ان تكون منتزعة من كتاب التاجي، يدفعنا الى ذلك كونها بصيغة الغائب بعيدة عن ان تكون رسالة موجهة، ثم انها قيلت في مدح عضد الدولة والكتاب التاجي هو اساسا في ذكر محاسنه ومآثره. وفي اننا لم نجد مجالا يمكن ان تكتب فيه مثل هذه الاوصاف التي تتناول كل ما يخص الملك بهذه الطريقة، الا ان تكون في كتاب او رسالة تتحدث عن سيرة هذا الرجل، خاصة انها تمثل فهما سياسية عميقا ووعيا دقيقا لما يجب ان تكون عليه اخلاق الملوك في الحزم والعدل وضبط النفس وقبض ازمة الهوى، وهذا ما يوافق وصف التوحيدي للكتاب، فاذا كان كذلك فيرجح ان يكون في كتاب التاجي. وسنذكر هنا نماذج من هذه المقاطع :

يقول في لقاح الخواطر : " (ومن) (٢) كلامه في ذكر مطاعم عضد الدولة :

" فان دعاه داعي الشهوة الى ما ينهاه عنه ناهي الحمية. لم يقتصر على الاحتماء منه بالانتهاء عنه دون ان يأمر باتخاذه واحضاره مائدته، فلا يزال يحوم عليه ولا يرده ويلاحظه ولا تمتد اليه يده، فاذا قضى وطراً من هذه الرياضة امر برفعه تهوينا لسلطان الهوى وتحصينا لجانب

---

(١) راجع ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٢) كلمة غير موجودة في الاصل.

الرأى وتعويدا للنفس ان تكون حرة غير مستعبدة ومطلقة غير مسفسفة ، وهنالك يجد المطلق والانس من حلاوة النزوع اضعاف ما يجده القوم والنهم من حلاوة الرتوع " (١) .

" وفي وصفه ايضا : " واما مجالس انسه فمعمودة بمحاضرة الخواص المستخلصين والندماء المتأدبين ، وزمانه مقسوم فيما بين امر ونهى يعقدان على التيقظ ، وبين ارتياح وجذل لا يخلوان من التحفظ " (٢) .

وقال في صفته عامة : " ولو هتكت حنايا الصدور وشق عن خبايا القلوب لم يوجد الراضي عن سيرته الا برا تقيا ، والمتسخط عليها الا فاجرا غويا ، اذ هو لطيف الحس ، صدوق الحدس ، ذكي الالحاظ ، سديد الالفاظ ، عفيف الجوارح ، نظيف (الجوانح) (٣) ، قابض يده عن مفارقة الاسام ، مقيد لسانه عن هجر الكلام ، ناظر الى العواقب من بعد ، متناول للغايات عن قرب ، غليظ على اهل العناد ، متعطف لاهل الوداد ، حليم اذا غضب ، (رصين) (٤) اذا طرب ، متعامر على التعنف ، منقاد مع التلطف ، له من مروءته عين على خلوته ومن دينه رقيب على نفسه ، ولعل ظانا يظن ان التقرب اليه دعا الى ان مدحه المادحون بأكثر مما عرفوا فادعوا الزيادة على ما وجدوا وهيهات ما ابعد غايته في الفضائل عن ان يدركها من طلبها واعظم هيبته في الصدور عن ان تهدى له الالسن كذبها ، وانا مع

---

(١) لقاح الخواطر ، الورقة ٩٨ب .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) بياض في الاصل بمقدار كلمتين وقد وضعت الكلمة المناسبة للمعنى .
(٤) بياض في الاصل بمقدار كلمة وقد وضعت الكلمة المناسبة للمعنى .

الاطناب فرطنا وتبلغنا وما بالغنا "(١)٠

فاذا ترجح لدينا كون هذه المقطوعات من التاجي ،نكون قد عاينا عن كتب بلاغة الصابي في الكتاب ، والا فلا نستطيع الا ان نصدق المصادر التي اجمعت على الاشادة ببلاغة الكتاب وحسن تأليفه٠ اما اذا طالعنا ما لدينا من هذا الكتاب اى المنتزع فنلاحظ انه مع ميله فيه الى النثر المرسل لا يخلو من بلاغة في التعبير ،عفوية سلسة ، فلنقرأ هذه الفقرة حول اخلاق الديلم:

" وما قهرهم عبد ،ولا غلبتهم الامم التي كانت محادتهم ،ولا افتتحت بلادهم في اول الاسلام عنوة ، ولا صلحا ،وانما كان اسلامهم منذ عهد قريب ، اختيارا وايثارا وبصيرة وتقيا ،والاحاديث حسنة عنهم في شدة البأس،وغرة الحوادث،وبذل الزاد ، وصون العرض،كثيرة وشهيرة ،حتى انهم يمنعون ان يكون في بلدانهم الخبازون والقصابون ٠ فلا تجد الغرباء والزوار معدلا عن النزول عليهم ، والتضيف لديهم ، وذلك من اشرف الخلائق واجملها ، وافضل الشيم وانبلها "(٢)٠

ثم يذكر الصابي روايتين تشهد على اخلاق الديلم وموضوعهما ،حسن الضيافة وحب البطولة والشجاعة٠ سننقل منهما الرواية الاولى :

" حدثني ، احمد بن علي الطبرى المعروف بالعلوى ،قال : كنت ماشيا مع صديق لي ببلد الديلم في يوم شات فأرخت السماء غرابيلها ، فلما اشتد السيل وتجاوز مقدار احتمالنا ،قال لي عيا بنا الى منزل رجل من الديلم ،بيني وبينه معرفة ضعيفة لكن الضرورة قائدة لنا ، الى

(١) لقاح الخواطر،الورقة ٩٨أ٠
(٢) المنتزع، ص ٢٥ — ٢٦٠

ا ن نستكن عنده ،فملت معه اليه ، فلم يكن في منزلــه ، فخرجــت الينا غرمتــه ،فلما علمـــت انـــا نريــد النزول ،رحبت بنا وادخلتنـا الـى الدار ،وجاءتنا بالنار ،وخدمتنا ومهدت لنا ،وبادرت الى دجاج كان عندها ، فأسوتــه في اقصرب مدة ،وخبزت لنا خبزا من دقيق ارز ابيض نقي ،وجاءت ببقــل من مبقلـــة لها ،وغير ذلك ،مما يكون في منازل امثالها ،وقدمت الينا الطعام واتبعتــه بالفصول ،جميــــع ذلــك بطلاقــة ونشاط وبشر وابتهاج ،ودخل الينا ابن لها ،حسن الوجه والقلب والشباب ، فجلس بنحوة منها وهي مشغولــة عنه بنا ، فسمعناه يقول لها : يا ام لم لا تفعلين لي ،ومن اضيفــه من اخـــوانـــي مثلما فعلت بهذين الحضريين ،وتطعميني مثل ما اطعمتيهما • فحذفتــه بخشبــة من خشب الوقـــود ، وقالت له : قم الى لعنة الله ،فان الخبز الاسود والملـــح كثيرا ن لك ولأمثالــك • يا ليت شعري اى اثر اثرت او اى ذكر جميل اكسبت ، او اى قرن قتلت ،او اى يوم بانت منك فيه نجابـــة او نجدة حتى تخاطبنـي بهذا الخطاب • فخرج من عندها باكيا كئيبـا ، ووافـى رب البيت فخدمنـا كما يخدم العبد اربابـــه •

فلمـا كان الغد ، وقعت صيحة واستنفار ،وتبادر القوم بأعدائهم ، قد صبحوهم للحرب ،وثارت الرجال اليهم من كل وجه ، وخرج ذلك الفتى معهم وتقدم في اول الناس ،فلف كساء على يــد ه ،اذ لم يكن له ترس ،ولم يزل يحمل ويعاود ،ويرمي ويوتر ،حتى قتل ثلاثـــة من اولئـك وعاد الـى امــــــه بثـلاث زوبينات مدمـاة ، فما خاطبتــه • وكان من عاداتهم اذا قتل الرجل رجلا ان يحتفظ بالزوبين الذى قتلـه به ودمـه جامد عليه ،ويجعله في داره ولا يستعمله بعد ذلك ،بل يستعمل غيره ، لكي يجمع هـــذه الزوبينات ،ويعد ،فيكون له بها فخر ، وتلك سنـة لهم ماضيــة وعادة جاريــة ، واذا سئل عن الرجـــل ليعرف اى الرجال هو ،قيل كم زوبينا في داره ،اى كم قتل من اقرانــه • فكلمــا كثرت كانت ادل على فضلـــه "(١) •

---

(١) المنتزع ،ص ٢٦ ـ ٢٨ •

يلاحظ هنا وكأن هذه الرواية قد انتزعت من كتاب في الادب والاخبار ،فهي تحتوى على عدة خصائص القصة كالتمهيد للحدث الرئيس بذكر المناسبة وهي هنا المطر الغزير والسيول التي دفعت بالرجلين الى منزل احد الديلم • ثم ان الاحداث مترابطة بعضها ببعض، فاكرام الام للضيفين جعل الفتى يقارن بين ذلك وبين استقبالها لضيوفه ،وتأنيب الام لفتاها دفعه الى المصير الى الحرب بعزم اشد ••• ثم تبدو في الرواية عدة شخصيات ابرزها شخصية المرأة والتي اراد هنا ان تمثل نساء الديلم كافة ،فهي امرأة تجمع الى البشاشة وحسن الضيافة والكرم الحزم والاقتدار والصلابة • وقد مهد لابراز صفة الكرم لديها بالقول ان العلاقة بين الضيفين وصاحب الدار تقتصر على المعرفة الضعيفة اذ ان الضرورة وحدها دفعت بهذين الرجلين الى الالتجاء لهذا المنزل ، وبالتالي فالمرأة لا تفعل هذا اكراما لاصدقاء زوجها ، بل لان من عاداتهم اكرام الغرباء والضيوف كائنين من كانوا • ثم شخصية الابن الذى يبكي اذا انبته والدته ،لكنه يبدى كل اندفاع وبطولة اذا واجه الاعداء في معركة •

من الملامح الادبية ايضا استعمال بعض الالفاظ والتعبيرات،كقوله : ارخت السماء غرابيلها ، الى ان نستكف عنده، ••• ونلاحظ استعمال السجع احيانا كقوله على لسان المرأة: " يا ليت شعرى اى اثر اثرت، او اى ذكر جميل اكسبت،او اى قرن قتلت ••• وقوله : " وتلك سنة لهم ماضية وعادة جارية، •• " كما انه اجاد الوصف في بعض الحالات مقربا القارئ من الحالة التي يصفها كقوله يصف بشاشة المرأة في تقديمها الطعام لهم : " جميع ذلك بطلاقة ونشاط وبشر وابتهاج " وفي وصف ابنها يقول : " حسن الوجه والقلب والشباب " وفي الحرب : " وقعت صيحة واستنفار ، وتبادر القوم باعدائهم ، وقد صبحوهم للحرب،وثارت الرجال اليهم من كل وجه، ••• " •

اذا يتميز الكتاب ببلاغة في الاسلوب وصنعة فنية دقيقة ، لا نستطيع الحكم عليها بالقول مثلا انها عامة تشمل الكتاب بكامله ، كما لا يمكننا ان نقول انها متفاوتة بين موضع وآخر تبعا للموضوع المطروح ،وذلك لكون الكتاب ليس بين ايدينا ،ولكون الايدى ربما عبثت بالمنتزع منه ،انما اجماع المصادر على بلاغته ،وقرب ما قرآناه منه من النثر الفني ، بالاضافة الى بلاغة ما نرجح نسبته اليه من مقاطع حول عضد الدولة ، كل ذلك يؤكد لدينا ان اسلوب الكتاب ليس علميا مرسلا كما قد يبدو وانما على مقدار من التفنن والصنعة والتنميق .

اما الناحية الثانية التي تظهر الوجهة الادبي للكتاب ، فهي ايراده الشعر والاخبار الادبية ، من ذلك قصيدة لابي الحسن علي بن الناصر في رثاء محمد بن زيد (١) ،وقصيدة محمد بن احمد الوراق في رثاء ليلى بن النعمان الديلمي ، ان كان الصابي هو الذى اضافها (٢) ،اما الاخبار الادبية فمنها ذكره خبر ابي الحسن علي بن الناصر مع ابيه في انه اقصاه ، وآثر اخوته عليه لسلوكه مسالك المترفين من الشرب والسماع واتخاذ الندماء ولعب النرد والشطرنج فمضى ابو الحسن الى آذربيجان وكتب الى ابيه مقطوعة شعرية يعاتبه ،فرد عليه والده بالدعوة الى التوبة ، ثم كان ان تاب بعد مدة وكتب شعرا في ذلك الى والده ،وعودته فيما بعد . (٣) ومن ذلك ايضا ما نقله الثعالبي في اليتيمة :

---

(١) المنتزع ، ص ٥٥ ـ ٥٦ ومحمد بن زيد بن محمد الحسني هو احد العلويين الذين ثاروا على السلطان تلقب بالداعي ودعا الديلم الى الاسلام فأسلم على يده جماعة منهم . ظهر منه افعال جليلة ورحابة صدر وكرم اخلاق . اخباره في المصدر نفسه ،ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ ـ ٨٢ ـ وليلي بن النعمان الديلمي كان صاحب جيش الناصر احد الدعاة العلويين في بلاد الديلم . انظر اخباره في المصدر نفسه ،ص ٧٣ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ،ص ٥٦ ـ ٥٨ .

" وحكى ابو اسحاق الصابي في الكتاب التاجي قال : كان لمعز الدولة ابي الحسين غلام تركي يدعى تكين الجامدار امرد ، وضيء الوجه ،منهمك في الشرب لا يعرف الصحو ، ولا يفارق اللعب واللهو ، ولفرط ميل معز الدولة اليه وشدة اعجابه به ، جعله رئيس سرية جردها لحرب بعض بني حمدان ، وكان المهلبي يستظرفه ويستحسن صورته ،ويرى انه من عدد الهوى ، لا من عدد الوغى ،فمن قوله فيه :

" ظبي يرق الماء في ... وجناته ، ويرق عوده ،

ويكاد من شبه العذا ... رى فيه ان تبدو نهوده ،

ناطوا بمعقد خصره ... سيفا ،ومنطقة تؤوده ،

جعلوه قائد عسكر ... ضاع الرعيل ومن يقوده ،

فما كان بأسرع من ان كانت الدائرة على هذا القائد ،وخرج الامر على ما اشار به المهلبي ... وذكر الصابي ان ابا عيينة المهلبي ،الذي استفرغ نسيبه في صاحبته دنيا ، من عمومة الوزير ، وكان المهلبي يحفظ اكثر اشعاره ويتأسف على ما فاته من زمانه فمن قوله :

" اني وصلت مفاخري بأب ... حاز الفخار وطاول العليا

واجاب داعيه وخلفني ... وحديثه فكأنما يحيا

وتلوت عمي في تغزله ... وشربت ريا من هوى ريا

فكأنني هو في صبابته ... وكأنها في حسنها دنيا

وقوله لما تقلد الوزارة :

" لقد ظفرت والحمد لله منيتي ... بما كنت اهوى في الجهارة والنجوى

وشارفت مجرى الشمس فيما ملكته — من الارض واستأثرته في الرتبة العليا
وعاينت من شعر العيني حلة — تعاون فيها الطبع والمهجة الحرا
فحركني عرق الوشيجة والهوى — لعمي واطت بي الى الرحم القربى
فيا حسرتي ان فات وقتي وقته — ويا حسرة تمضي وتتبعها اخرى
ويا فوز نفسي لو بلغت زمانه — وبغيته دنيا وفي يدى الدنيا
فمكنته من اهل دنيا وارضها — ففاز بما يهوى وفوق الذى يهوى" (١) ٠

هذا ما لم نعتد قراءته في كتب التاريخ فابن الاثير في الكامل قد ذكر خلاف ابي الحسن مع والده وذكر انه شاعر دون ان يورد ايا من شعره (٢) ، ومسكويه ذكر مقتل ليلى بن النعمان (٣) دون ذكر اى كلمة قيلت في رثائه ، وان يكن مسكويه قد اورد الحادثة باختصار شديد فان ابن الاثير قد ذكرها مفصلة ولم يذكر اى شعر فيه ايضا (٤) ٠ من هنا يمكننا ان نستنتج ان كتاب التاجي ليس كتابا تاريخيا عاديا وانما هو تسجيل لمآثر هذه الدولة وهذا ما يجعله يشمل الاحداث والوقائع التاريخية بالاضافة الى غيرها من النواحي والآثار الاخلاقية والاجتماعية والادبية والفنية ٠ لذا نجد في التاجي خبرا روائيا يدل على الكرم ،وقصيدة تقال في الرثاء ،وحادثة بين قائد وابنه

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ،ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ٠
(٢) الكامل ،ج ٨ ،ص ٨٣ ٠
(٣) تجارب الامم ،ج ١ ،ص ٧٦ ٠
(٤) الكامل ،ج ٨ ،ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ٠

كان يمكن ان تختصر ببضع كلمات لو كان المقصود ذكر الحادث فقط • ثم ان ما نقل في اليتيمة حول هذا الغلام القائد وما ذكر من شعر المهلبي قد يعني ان الصابي كان يعمد الى نوع من الترجمة لمن يمر الحديث حوله في السياق التاريخي فيعرف بادبه ويورد نماذج منه • كما انه لما مر في السياق التاريخي ذكر ابي الحسن بن الناصر ذكر انه شاعر واورد الخبر الذى دار بينه وبين والده معطيا نماذج من شعره • ولدينا شاهد آخر على ذلك هو ما نقله الثعالبي في اليتيمة (١) : " وذكر ابو اسحاق الصابي في الكتاب التاجي ان رسائل ابي عبد الله (الحسين بن محمد والد ابي الفضل بن العميد) لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه ابي الفضل " • وهنا الصابي يصدر حكما ادبيا بين كاتبين مما لا يعنى به المؤرخون عادة •

خلاصة الامر ان الصابي لم يستطع ان يخلع عنه الصبغة الادبية حتى عندما كان مؤرخا وهكذا جمع كتابه بين العمل التاريخي والروح الادبية فكان اسلوبه على ما يبدو هو اسلوب الصابي المعهود في التنميق والتزيين الكلامي والبلاغة المشهورة، وهذا اسلوب جديد في الكتابة التاريخية لم يعهد من قبل ،لذا عزا بعض الباحثين (٢) الى الصابي البدء بهذه الحركة التي تبعه فيها العتبي في كتابه "اليميني" (٣) فكان الاثنان سببا لشيوع السجع والتصنيع في الكتابة التاريخية فيما بعد عند العماد الاصفهاني وامثاله مشيرا

---

(١) اليتيمة ، ج ٣، ص ١٥٥ •

(٢) ،وقي ضيف في الفن ومذاهبه في النثر العربي ،ص ٢٢٨ •

(٣) الكتاب مطبوع على هامش شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ ابي نصر العتبي • للشيخ احمد المنيني ،(دون مكان وتاريخ) •

الى اثر الثعالبي ايضا في هذا الجانب بتقديمه للكتاب والشعراء في اليتيمة بمقدمات مسجوعة (١) • لكن لا نشك في ان الصابي هو واضع حجر الاساس لهذه الظاهرة الجديدة في الكتابة التاريخية التي عمت واتسع نطاقها مع تزايد الاتجاه نحو التصنيع الكلامي •

---

(١) الفن ومذاهبه ،ص ٢٢٨ •

الفصل الثالث

الصابي الشاعر

الشعــــر عنـــد الصابـــي

موقـــف الصابي مــــن الشعــــر :

الصابي شاعر اتفقت المصادر القديمة على جودة شعره (١) ،وقد ترك ديوانـا شعريا (٢) يبدو انه ضـــاع (٣) فلـم يبـق من نتاجـه الشعرى الا بضع قصائد ومقطـوعـــات حفظتهـــا المصادر خاصــة يتيمــة الدهــر للثعالبي ومعجم الادباء لياقـوت،سنجعلها عمدتنا في دراســة شعره وتقييمــه • ولا بأس من التوقف هنا عند رأى الصابي في الشعر والذى يبدو في رسالـــــة كتبهـــا في الفرق بين المترسل والشاعر (٤) ، يعرض فيهــــا لوجـوه الاختــــلاف بيـــن الفنيـــن محددا طريق الجودة في كل منهما مفضـلا النثـــر علـــى الشعر •

يعالج الصابي في هذه الرسالة مشكلة شغلت الكثيرين من مفكرى القرن الرابع، وهي مشكلـــــة العلاقــة بين النظم والنثر وامكــان المفـــاضلـــة بينهمــــا (٥) • وقـــد كـــــان منشـأ

---

(١) وصفت بعض المصادر شعر الصابي بالنظم الرائق(الذهبي ، اعلام النبلاء،ج ١٦،ص ٥٢٣، والصفدى ، الوافي بالوفيات، ج ٦،ص ١٥٨) وبالجيد القوى (ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣١٣) وعده مصدران آخران موازيا لنثره بالبـلاغة والجودة (القفطي ،تاريخ الحكماء، ص ٧٥ وابن خلكان ، وفيات الاعيان، ج ١، ص ٥٢) •

(٢) ابن النديم ،الفهرست،ص ١٤٩ ومعجم الادباء،ج ٢، ص ٩٤ والبغدادى ، هدية العارفين، ج ١، ص ٧ •

(٣) لم تذكر كتب الفهارس كتاريخ الادب العربي لبروكلمان وتاريخ التراث العربي لسزكين هذا الديوان •

(٤) اشار التوحيدى الى هذه الرسالة في المقابسات (ص٢٧٢) وجاء نصها في ابن حمدون،التذكرة (٧٧٠ (من الورقة ٧٦أ الى ٧٨أ) وقد اختصر ضياء الدين ابن الاثير بعض ما جاء فيها في معرض الرد عليها في المثل السائر، (نسخة المطبعة البهية، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤) •

(٥) احسان عباس، تاريخ النقد الادبي عند العرب (بيروت، دار الثقافة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م) ص ٢٣٢•

هذه المشكلة كما يرى الدكتور احسان عباس فلسفي الطابع بعد ان عرف هؤلاء المفكرون ما حام حوله الفكر الفلسفي من امر التفاوت بين الخطابة والشعر في حظهما من الصدق والكذب . ثم تعدى الامر الحد الفلسفي الى المناظرات الجدلية التي يذهب كل فريق من المتجادلين فيها الى الاستعانة في تفضيل الشعر او النثر بأمور خارجة عن طبيعتهما احيانا (١) . والذى كان يزيد في الخصومة هو تعصب كل فئة لما تحسنه (٢) ، وربما هذا ما يفسر اساسا وقوف الصابي الى جانب النثر .

يجيب ابو اسحاق في هذه الرسالة سائلا سأله عن السبب في ان " اكثر المترسلين البلغاء لا يغلقون في الشعر وان اكثر الشعراء الفحول لايجيدون في الترسل " ، فيقول : " ان طريق الاحسان في منثور الكلام مخالف طريق الاحسان في منظومه لأن افخر الترسل هو ما وضح معناه واعطاك غرضه في اول وهلة سماعه وافخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه الا بعد مماطلة منه لك وعرض منك عليه ، فلما صارت الاصابتان في الامرين متراميتين على طريقين متباينين ، بعد على القرائح ان تجمعهما فشرقت الى هذا فرقة وغربت الى ذاك اخرى ومال كل من الجميع الى الجانب الموافق لطبعه ... فليس يكاد يوجد الجامع بين الاحسانين الا على شرط يزيد به الامر تعذرا والعذر تنزرا وهو ان يكون طبعه طائعا له ممتدا معه فاذا دعاه الى التطرف معه الى احد الجانبين اجابه وانقاد اليه ، ... " (٣) .

---

(١) عباس ، تاريخ النقد ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .
(٣) ابن حمدون ، التذكرة (٧٧٠) ، الورقة ١٧٦ أ — ب .

ثم يذكر ابو اسحاق السبب الذى جعل الا حسن في معاني الشعر الغموض وفي معاني الرسائل الوضوح ،فيرى ان الشعر قائم على حدود واوزان وانه مفصل الى ابيات كل منها قائم بذاته غير محتاج الى غيره ، اما ما يتفق ان يكون مضمنا بأخيه فهو عيب فيه " فلما كان النفس لا يمكنه ان يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلاهما قليل احتيج الى ان يكون الفضل في المعنى واعتمد ان يلطف ويدق ليصير المفضي اليه والمطل عليه بمنزلة الفائز بذخيرة خافية استثارها والظافر بخبيئة دفينة استخرجها واستنبطها "(١) • ثم يشير الى ان وقفة القارئ على اعجاز الابيات " وضعت لادراك المعنى والفطنة والمغزى وفي مثل ذلك يحسن خفايا الاثر وبعد المرمى "(٢) • ثم يحدد الصابي رأيه في مشكلة كثر الخوض فيها في عصره وهي السرقات فيقول انه " متى خرج الشعر عن سنن الابتداع والاختراع فكان ساذجا مغسولا فقائله معيب غير مصيب فالترك له ادل على العقل واولى بذوى الفضل "(٣) • ومما يؤكد لنا هذه النظرة لدى الصابي الى الشعر قوله في مجال آخر شعرا :

" احسب الشعر يبتدع ابتداعا ... واكره منه مبتذلا مشاعا

ولي رأى غيور في المعاني ... فما آتي بها الا اقتراعا

وقدما كانت الابكار احظى ... من العون التي انتهبت شعاعا"(٤)

---

(١) ابن حمدون ، التذكرة ،الورقة ٧٦ ب ـ ١٧٧ •
(٢) المصدر نفسه ، الورقة ١٧٧ •
(٣) المصدر نفسه ،الورقة ٧٧ ب •
(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ •

اما الترسل فهو كلام واحد " لا يتجزأ ولا يتفصل الا فصولا طوالا وهو موضوع وضع ما يهذّ هذا ويقرأ متصلا،ويمر على اسماع شتى الاحوال من خاصة ورعية وذوى افهام ذكية وغبية،فاذا كان متسهلا متسلسا ساغ فيها وقرب ادنه (١) في افهامها وساوقت الالسن في تلاوته والالباب في درايته...(٢) . وهكذا يرى الصابي ان ما يستحب في الشعر يستكره في النثر والعكس صحيح من ذلك ان ما حسن من الرسائل "ما كان متعلقا بعضه ببعض ومقتضيا تخطفا من الهوادى على التوالي وردا من الاواخر على المبادي ... ومتى خرج الترسل عن ان يكون جليا سلسا ، تعثرت الاسماع في حزونته وتحيرت الافهام في مسالكه،فاظلم شرقه وتكدر رونقه،وكان صاحبه مستكره الطريقة مستهجن الصناعة " (٣) .

اخيرا يجيب الصابي على مسألة ثالثة بالنسبة لهذا الموضوع وهي سبب قلة المترسلين ونباهتهم وكثرة الشعراء وخمولهم ، فيتطرق هنا الى العملية الشعرية ويرى ان الشاعر انما يصوغ قصيدته بيتا بيتا جامعا قدرته على كل بيت منها " وله من الوزن والقافية قائد وسائق يقومان له بأكثر حدود الشعر فكأنه انما يحذوه على مثال او يفرغه في

---

(١) لعلها ادناه .
(٢) التذكرة (٧٧٠)، الورقة ٧٧أ .
(٣) المصدر نفسه،الورقة ٧٧أ ـ ٧٧ ب .

قالب جمال " (١) ٠ اما في الكتابة النثرية فان المترسل " يصوغ رسالته متحددة متجمعة ويضمها من اقطار متراخية متسعة،وربما اسهب حتى يستغرق بالواحدة من رسائله اقدار القصائد الطوال الكثيرة،هذا الى ما يتعاطاه من فخامة الالفاظ اللائقة بأن يصدر مثلها عن السلطان واليه " (٢) ٠ ينتج عن هذا بنظر ابي اسحاق قلة المضطلعين بجودة النثر ٠ اما سبب ارتفاع طبقة المترسلين على الشعراء بنظره فعائد الى الموضوعات التي يتعاطاها اصحاب كل فن فالمترسل يكتب في " جباية خراج اوسد ثغر او عمارة بلاد او اصلاح فساد او تحريض على جهاد او احتجاج على فئة او مجادلة لملة او دعاء الى الفة او نهي عن فرقة او تهنئة بعطية او تعزية برزية،او ما شاكل ذلك من جلائل الخطوب ومعاظم الشؤون ٠٠٠ " (٣) ٠ هذه الموضوعات الجليلة تحتاج الى ادوات كثيرة ومعرفة واسعة فعلو منزلة الكتاب عائد الى خطر ما يفيضون فيه ويذهبون اليه (٤) ٠ اما اغراض الشعر فهي " وصف الديار والآثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء،فليس يجرون مع اولئك في مضمار ولا يقاربونهم في مقدار " (٥) ٠

---

(١) ابن حمدون، التذكرة (٧٧٠)،الورقة ٧٧ ب٠

(٢) المصدر نفسه ٠

(٣) المصدر نفسه، الورقة ٧٨أ ٠

(٤) المصدر نفسه ٠

(٥) المصدر نفسه ٠

يفهم من رسالة الصابي هذه انه يركز على الطبع ، فالطبع هو الاساس وهو الذي يحدد اتجاه الاديب الى احد الفنين الكتابيين النثر او الشعر، ويمكننا اختصار الفروق بين النثر والشعر عند ابي اسحاق بشكل آخر .

اولا : الفضل في الشعر للمعنى ومن اهم ضروراته الابتداع والاختراع، وفي الترسل للاسلوب واهم خصائصه الالفاظ الفخمة .

ثانيا : موضوعات الشعر شخصية وعادية وموضوعات النثر جليلة خطرة .

ثالثا : الوحدة في الشعر هي وحدة البيت لا القصيدة وفي النثر هي وحدة الرسالة كاملة .

رابعا : الفرق في النظم وهو فرق اساسي كما يبدو في رأى الصابي فالشاعر يكتب البيت الشعرى متحددا بالوزن والقافية، وللقارئ وقفة على اعجاز الابيات لتأمل المغزى الذى تحمله وقد جعل هذا سببا يحتم غموض المعنى . اما في الترسل فالرسالة تكتب متحدة وقد تكون طويلة بمقدار قصائد كثيرة وتكون قراءتها متصلة وهذا يستدعي انكشاف معانيها ووضوحها .

لا تؤلف اراء الصابي هذه نظرية متكاملة في النقد انما هي مجرد آراء ساقها في معرض تفضيل النثر على الشعر فهو لم يتطرق للنواحي التفصيلية في هذين الفنين، فلم يتحدث عن غايتهما او تأثيرهما، وقد اغفل بالنسبة للشعر الخوض في الفاظه وبعض معانيه كحظه من الصدق والكذب او علاقته بالاخلاق، كما انه لم يلتفت الى الشاعر وحالته النفسية والى اثر الخيال والعاطفة في الشعر، فبدا العمل الشعرى لديه عملا عقليا : معان تصاغ في الفاظ وتفرغ في قوالب ثابتة .

اما في النثر فقد اقتصر على الاشارة الى الموضوعات التي يعالجها كاتب الديوان

بشكل خاص مغفلا سواها كالاخوانيات والوصف والغزل والوجدانيات والتي تقترب بمعانيها من المعاني الشعرية • لكن ما يمكن قوله حول آرائه هذه انها مستمدة من طبيعة الادب بنثره وشعره وبذلك اختلفت عن آراء معاصريه من المفكرين التي كانت بمجملها ذات طابع فلسفي (١) •

بالاضافة الى ذلك يمكن ان يسجل حول هذه الآراء الملاحظات التالية :

اولا : احسن الصابي الربط بين الشكل الادبي ،نظما او نثرا من جهة ، والمعنى من جهة ثانية ، فالشكل يحدد المعنى • والوقفات على اعجاز الابيات وضعت لادراك المعنى او المغزى وهذا ما يحتم الغموض، اما القراءة المتصلة في النثر فتستوجب السهولة وقرب المأخذ •

ثانيا : تفضيله الابهام والغموض في الشعر ربما يعود الى الثقافة الفلسفية المتأصلة في نفسه التي من خصائصها التعمق وبعد النظر والانشغال بالماورائيات وهو في ذلك معاكس لمعاصره الآمدى (ت ٣٧٠) صاحب كتاب الموازنة الذى حمل نقده صفات "اهل الظاهر" ، على حد تعبير الدكتور عباس،بميله الى المعنى القريب الذى يسلم نفسه الى القارئ اسلاما مباشرا (٢) •

ثالثا : رجح الصابي كفة الصياغة في النثر مع اهتمامه بشرف المعاني ،اما في الشعر فلم يأت على ذكر الصياغة وانما كان تركيزه على المعنى وكيفية تأديته بوضوح ام بغموض وكان

---

(١) انظر عباس، تاريخ النقد ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥ •
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ •

الالفاظ والاوزان والصياغة ادوات ايصال لا غير،وربما كان قصد الصابي في حديثه حول الابتكار والاختراع ان ذلك يكون في تأدية هذا المعنى لا في المعنى نفسه الذي يمكن ان يكون مطروقا من قبل او جديدا لم يسبق اليه ٠

والذي يهمنا الاشارة اليه في هذا المجال اخيرا ، هو مدى تطبيق ابي اسحاق لآرائه هذه على نثره وشعره ٠ قارئ رسائل الصابي يجد ان حديثه حول الترسل هنا تابع من تجربته فيه لان رسائله تتسم عامة بالجلاء والسلاسة والوحدة ، وبالترابط والتسلسل المنطقيين مع فخامة الالفاظ ٠ اما نتاجه الشعري فيختلف عما وصف في الرسالة اذ اننا سنرى خلال دراستنا لانواع شعره وبعض خصائص كل نوع ، ان هذا الشعر بعيد عن الغموض بل انه على العكس من ذلك يقرب من النثر في وضوحه وانكشاف معانيه التي لم تكن بمجملها مبتكرة او مخترعة ، حيث كان ابو اسحاق يقتبس في بعض الاحيان ممن سبقه او عاصره من شعراء كأبي نواس والمتنبي وغيرهما وسنرى فيما بعد شواهد ذلك ، على ان الابتكار او الاختراع الذي جعله اساسا للشعر الجيد لم يكن ليحمي شعره من الوقوع في البرودة في احيان كثيرة ٠ اما حديثه حول وحدة البيت واستقلاليته فهو مما لم يعتمده دائما بل بدا في الكثير من قصائده اتصال البيت الواحد بما يليه وعدم اكتمال معناه الا به والشواهد على ذلك كثيرة منها :

" فلولا رجاء مل ء ارجاء اضلعي ... وعلم يقين بالرعاية والعهد

وان نسيم الانعطاف تهب لي ... هبوب نسيم النرجس الغض والورد

قضيت باحداهن نحبي حسرة ... ولو كان لي قلب من الحجر الصلد

وهبني قد حملتها فأطقتها ... اطاقة صلب العود مصطبر جلد

فمن لي بصبر عن جبينك لا معا — اذا شيم ما بين الساطين من بعد" (١)٠

يلاحظ ان جواب لولا في البيت الاول يأتي في البيت الثالث وان معنى البيت الرابع لا يكتمل الا بما يليه ٠ ومن ذلك ايضا قوله في قصيدة كتبها للشريف الرضي :

" واني على عيث الردى في جوانبي — وما كف من خطوى وبطشر بنانــي

وان لم يدع الا فؤادا مودعا — به نبو بــاق من الخفقــان

تلوم تحت الحجب ينفث حكمة — الى اذن تصغي لنطق لسان

لاعلم اني ميت عاق دفنه — ذماء قليل في غد هو فان"(٢) ٠

موضوعات شعره

عالج الصابي في شعره مختلف الموضوعات كالغزل والخمر والوصف والرثاء والحكمة والشكوى والاستعطاف والتهنئة والاهداء والمديح والهجاء والفخر ٠

الغزل : للصابي مقطوعات قصيرة عدة في الغزل يمكن ان تجعل في نوعين :

الاول : الغزل الغلماني ويتمثل في عدة مقطوعات في غلام له اسود اسمه رشد (او يمن) (٣)

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢٩٦ ٠

(٢) رسائل الصابي والرضي ص ١٦ ٠

(٣) تذكر بعض المصادر هذا الغلام باسم رشد كاليتيمة (ج ٢ ص ٢٦٥) ومعجم الادباء (ج ٢ ص ٧٣) والعباسي معاهد التنصيص (ج ٢ ص ٦٩) والخوانساري روضات الجنات (ج ٢ ص ١٦٦) وبعضها الآخر يذكره باسم يمن كابن خلكان وفيات الاعيان (ج ١ ص ٥٢) والصفدي الوافي بالوفيات (ج ٦ ص ١٦٣) والحنبلي شذرات الذهب (ج ٣ ص ١٠٧) ٠

بالاضافة الى ابيات تتخلل بعض قصائد الخمر في هذا الموضوع • من ذلك قوله في رشد هذا (١) :

" لك وجه كأن يمناك (٢) خطتـ ـه بلفظ تمله آمالي
فيه معنى من البدور ولكن نفضت صبغها عليه الليالي (٣) •
لم يشنك السواد بل زدت (٤) حسنا انما يلبس السواد الموالي
فبمالي افديك ان لم تكن لي وبروحي افديك ان كنت مالي "

وقد نجح الصابي في وصف الجمال الاسود هنا فالغلام يشبه اشراقة البدر لكن لا يمكن تشبيهه به لسواد لونه ، فاحتال الصابي في الجمع بين المتناقضين السواد والاشراق فاذا بغتاء بدر مشرق صبغته الليالي بسوادها •

النوع الثاني : مقطوعات غزلية تتميز بمعظمها بالاباحية والحديث عن اللقاء ، نجد فيها الكثير من الاوصاف القديمة والمعهودة ، كتشبيه وجه الحبيبة بالبدر ، وجسمها بالغصن ، وقد تكرر هذان التشبيهان كثيرا في المقطوعات التي لدينا ، وكذلك تشبيه الاسنان بالبرد او الدر ، والريق بالخمر او الشهد ••• من ذلك قوله : (٥)

---

(١) الابيات في اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ وابن حمدون ، التذكرة (٧٦٩) ، الورقة ١١١ ب ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٧٤ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٥٣ والوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٦٣ وشذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٠٧ وروضات الجنات ، ج ٢ ، ص ١٦٦ •

(٢) في معجم الادباء والتذكرة الحمدونية ووفيات الاعيان والوافي بالوفيات وشذرات الذهب : " يمناي " •

(٣) لم يذكر في التذكرة الحمدونية سوى هذين البيتين •

(٤) في معجم الادباء : " زاد " والبيت الرابع لم يرد في المصدر نفسه •

(٥) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٧١ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٣٩٢ والصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٦١ •

" اقـــول وقد جردتهـا من ثيابهـا ... وعانقتهـا كالبدر فـي ليلـة التـم
لئـن (١) آلمت صدري لشـدة ضمها ... لقد جبرت قلبـي وان اوهنت (٢) عظمي " .

وقولـه : (٣) فديت من لاحظنـي طرفهـا (٤) ... من خيفـة الناس بتسليمتـــه
لما رأت بدر الدجـــى تائهـــا ... وغاظها ذلـــك من شيمتـــه
ازاحـــت البرقـــع (٥) عن وجههـا ... فـردّت البـدر الـى قيمتـــه "

وقولـه : (٦) احشمتها بالعتب عند لقائها ... فتلثمـت من شدة استحيائهـــا
واستكملت صفـة البـدور بطلعـــة ... وبحلـة صبغت بلـون سمائهـا
فبهـت انظـر من لجيـن جبينهـــا ... متخفـرا في لازورد ردائهـــا " .

وقولـه : (٧) هيفاء تحكـي قضيبـــا ... قد جمشتــــه الريـــاح
تفتـــــر عــن سمـــط در ... عليه مســـــك وراح
جردتهـــا واعتنقـــنـــا ... كل لكــل وشـــــاح
باتـــت وكـــل مصــــون ... لـــي مــن حماهـــا مبـــاح
في ليلـة لـــم يعبهـــا ... فـــي الدهـــر الا الصبـــاح "

ومن الواضح ضعف العاطفـة الصادقة في هذه الابيات ، واجمل ما فيها الابيـــات التي يصـف

---

(١) في معجم الادباء ووفيـــات الاعيان والوافـي بالوفيـــات : " وقد " .
(٢) في الوافي بالوفيـات : " وهنـــت " .
(٣) اليتيمـة ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ والتنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج ٨ ، ص ٢٣٢ ومعجـم الادباء ، ج ٢ ، ص ٧٢ والوافـي بالوفيـات ، ج ٦ ، ص ٦١ .
(٤) في نشوار المحاضرة : " سارقني لحظها " .
(٥) في المصدر نفسه : " سلت له البرقع " وفي معجم الادباء : " سرت له البرقـع مـن وجههـا " .
(٦) اليتيمـة ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

فيها تحركات الحبيبة من تسليمتها باستراق النظر اليه او تلثمها حياء وهذه مرات قليلة يصف فيها تحرك الحبيبة بعفوية وطبعية في مقطوعاته ، كما يلاحظ انه يشغل الاحاسيس المختلفة في الوصف كوصفه نم الحبيبة كما يحسه بواسطة العين والانف واللسان فاسنانها سمط در رائحته المسك ومذاقه الخمر ، وقد احسن الصابي في اعتماد المفاجأة وذلك عندما عد الصباح عيبا شوه جمال الليلة .

ومن ابياته الغزلية ايضا بعض المقطوعات التي يحاول فيها التعبير عن عاطفته واشجانه ،

يقول (١) : " تورد (٢) دمعي اذ جرى (٣) ومدامتي فمن مثل ما في الكأس عيني تسكب
فوالله ما ادرى ابا لخمر اسبلت جفوني ام من عبرتي كنت (٤) اشرب "

ومن ذلك ايضا وصفه للحب الذى يربطه باحدى النساء ومحاولته اضفاء معنى روحي على العلاقة بينهما فيرتفع بذلك عن الاوصاف والتشبيهات المادية :

" الى الله اشكو ما لقيت من الهوى بجارية امسى بها القلب يلهج
اذا امتزجت انفاسنا بالتزامنا توهمت ان الروح بالروح تمزج
كأني وقد قبلتها بعد هجعة ووجدى ما بين الجوانح يلعج
اضفت الى النفس التي بين اضلعي بانفاسها نفسا الى الصدر تولج
فان قيل لي اختر ايما شئت منهما فاني الى النفس الجديدة احوج " (٥)

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ والتنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج ٨ ، ص ٢٣٢ ووفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٣٩٢ ، والعباس ، معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٥٩ .
(٢) في معاهد التنصيص : " تشابه " .
(٣) في نشوار المحاضرة : " فاستوى ومدامتي " .
(٤) في المصدر نفسه : " من دمع عيني اشرب " .
(٥) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٧٠ - ٧١ .

يبدو لنا في هذين المقطعين ظاهرة كثيرا ما تلمح في معاني الصابي الشعرية وهي الشعور بالوحدة . ففي المقطع الاول يلاحظ ان التشابه بين الدمع والخمر وحّد بينهما حتى اختلط الامر على الشاعر فلم يعد يدري ان كان ينهمر الخمر من جفونه ام انه كان يشرب دموعه . اما في المقطع الثاني فالظاهرة اكثر وضوحا وتميزا فالوحدة هنا بين المادة والروح وبين الروح والروح فهي وحدة روح وعاطفة وجسد وانفاس، نلمح فيها ما يمكن ان يعد اثرا صوفيا اذ انه يذكر بقول الحلاج :

" انا من اهوى ومن اهوى انا   نحن روحان حللنا بدنا " (١)

وربما هذا ايضا اثر صابئي ، وهو الارجح ،اذ ان فرقة الصابئة الحرنانية التي ينتمي اليها ابو إسحاق ، تؤمن بالحلول وتعتبر ان الله واحد ومتعدد لانه يظهر بالاشخاص ويتشخص بها (٢) .

ومن الغزل ايضا قول الصابي : (٣) .

" هيفاء كالغصن في رشاقته   لفاء (٤) كالدعص (٥) في كثافته
تبخترت والعثان (٦) يكنفها   فكانت البدر وسط هالته "

ويلاحظ ان الصابي هنا يجمع في وصفه بين ضدين الرشاقة والكثافة ،اما تشبيه المرأة بالبدر فهو مما يسترعي الاهتمام لانه يتكرر كثيرا في غزله وربما كان عائدا الى الاثر الصابئي

---

(١) الحسين بن منصور الحلاج ، ديوان الحلاج (تحقيق كامل مصطفى الشيبي ، بغداد ،دار آفاق عربية للصحافة والنشر ،الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤) ص ٧٧ .

(٢) راجع ص ٩ من مقدمة هذا البحث .

(٣) اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٢٥٨ .

(٤) امرأة لفاء : ملتفة الفخذين ، وقيل ضخمة الفخذين مكتنزة . اللسان ،مادة : لفف .

(٥) الدعص : قور من الرمل مجتمع . اللسان ،مادة : دعص .

(٦) العثان والعثن : الدخان . ويقال : عثنت المرأة بدخنتها اذا استجمرت،وعثنت الثوب بالطيب اذا دخنته عليه حتى عبق به . اللسان ،مادة : عثن .

في نفسه والى علمه بالنجوم ، حتى نجده يستمد تشبيهاته من الفلك •

ثم ان غزل الصابي كان يتسم احيانا بالعقلانية وضعف العمق الشعوري حين يصبح معرضا لثقافته الواسعة ولما كان يشتمل عليه عصره من تعدد فكري وديني كمحاولته وصف حبيبه بأن من يراه من اي دين كان ، يرى فيه ما يثبته على دينه • يقول : (١)

" كل الورى من مسلم ومعاهد (٢) للدين منه فيك اعدل شاهد
فاذا رآك المسلمون تيقنوا حور الجنان لدى النعيم الخالد
واذا رأى منك النصارى ظبية تعطو ببدر فوق غصن مائد
اثنوا على تثليثهم واستشهدوا بك اذ جمعت ثلاثة في واحد
واذا اليهود رأوا جبينك لامعا قالوا لدافع دينهم والجاحد
هذا سنا الرحمن حين ابانه (٣) لكليمه موسى النبي العابد
وترى المجوس ضياء وجهك فوقه مسود فرع (٤) كالظلام الراكد
فتقوم بين ظلام ذاك ونور ذا حجج اعدوها (٥) لكل معاند
اصبحت شمسهم فكم لك فيهم من راكع عند الظلام وساجد

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ومعجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٨٦ _ ٨٨ والخوانساري ، روضات الجنات ، ج ١ ، ص ١٦٤ _ ١٦٥ •

(٢) في روضات الجنات ، ج ١ ، ص ١٦٤ : " معاند " •

(٣) في المصدر نفسه : " اتى به " •

(٤) في المصدر نفسه : " شعر " •

(٥) في روضات الجنات ، ج ١ ، ص ١٦٤ : " تعددها " •

والصابئون يرون انك مفرد (١) في الحسن اقرارا لفرد (٢) ماجد

كالزهرة الزهراء انت لديهم مسعودة بالمشتري وعطارد

فعلى يديك جميعهم مستبصر في الدين من غاوي السبيل وراشد

اصلحتهم وفتنتني (٣) وتركتني من بينهم اسعى بدين فاسد •

فالصابي قد تجاوز في غزله في هذا الغلام ما حظرت منه الاديان ورأى ان جماله يدعو الى تثبيت الدين لا الى الفتنة فهو لدى المسلمين دليل على الحور العين، ولدى النصارى دليل على التثليث،ولدى اليهود دليل على صحة التجلي، ولدى المجوس دليل على وجود عنصري النور والظلمة ولدى الصابئة دليل على التوحيد وعلى اثر الفلك على الناس •

الخمر :

للصابي قصيدتان يصف فيهما مجلس الخمر • احداهما الى صديق له يستدعيه ويصف ما عنده من رؤوس الحملان والشراب والفستق والمطرب الممتع،والثانية يشبه فيها مجلس الانس بالمعركة • وله اربع مقاطع اخرى في وصف الخمر والساقي تشتمل على المعاني الخمرية المعروفة كتشبيه الراح بالعذراء ،ووصف الحباب الناتج

(١) في معجم الادباء، ج ٢،ص ٨٧ وروضات الجنات، ج ١،ص ١٦٥ : " فردة " •
(٢) في روضات الجنات، ج ١، ص ١٦٥ : " لسرب " •
(٣) في معجم الادباء، ج ٢،ص ٨٨ : " وقتلتني " •

عن تمكنها او مزاجها وذكر اثرها في النفس من السعادة والراحة وطرد الهم ، نذكر من قصيدته الاولى :

"طباخنا صانع رؤوسا	يسقط في طيبها الخلاف
مبيضة كاللجين لونا	شهية كلها نظاف
واخذها في الرقاق يحكي	صريع حمى له لحاف
نسقى على ذاك روح دن	ارق اسمائها السلاف
عروس دن صفت وطابت	لونا وطعما فما تعاف
كأن ابريقها لدينا	ناكس رأس به رعاف
والنقل من فستق جني	رطب حديث به القطاف
وسمع مطرب مليح	يحرم عن مثله العفاف
فصر الينا غدا بليل	افديك من كل ما يخاف
فانت اصل السرور عندي	وكل ما بعده مضاف" (١)

اما قصيدته في تشبيه مجلس الانس بالمعركة ، فقد سبقه الى ذلك ابو نواس في قصيدة

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

مطلعها : " اذا عبا ابو الهيجا ، للهيجاء فرسانا " (١)

فالفكرة مقتبسة من ابي نواس وان كانت الاوصاف التي يستعملها في القصيدة مختلفة بحيث لا تشابه الا في تشبيه السكارى بقتلى الحرب وجرحاها ٠ والفرق الاساسي بين القصيدتين بالاضافة الى كون النؤاسي مبتدعا والصابي مقلدا هو ان ابا نواس لم يصف المجلس لمجرد الوصف وانما ليتخذ موقفا من الحرب التي تعم الناس بالدمار مفضلا عليها حرب المدام التي يسقط فيها الضحايا ثم لا يلبثون ان ينشروا ٠

بالاضافة الى ذلك نجد عدة معان نواسية في قصائد الصابي منها مثلا حديث الصابي حول اللائمين في مقطع غزلي حيث يقول :

" ايها اللائم المضيق صدري لا تلمني فكثرة اللوم تغرى " (٢)

المأخوذ من قول النواسي الشهير :

" دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء " (٣)

لكن شهرة هذا البيت لابي نواس تجعلنا نعتقد ان الصابي ربما كان يتعمد الاشارة اليه والتذكير به ٠ ومن اقتباسه عن ابي نواس قوله :

" كوكب الاصباح لاحا طالعا والديك صاحا

فاسقنيها قهوة تأ سو من الهم جراحا " (٤)

---

(١) ديوان ابي نواس (تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي ، بيروت،دار الكتاب العربي ، ١٣٧٢/١٩٥٣) ص ١٩٨٠

(٢) اليتيمة،ج ٢ ، ص ٢٥٦ ومعجم الادباء،ج ٢ ، ص ٦٩٠

(٣) ديوان ابي نواس، ص ٦٠

(٤) اليتيمة،ج ٢،ص ٢٦٠ ٠

ويقول ابو نواس في ذلك :

" هات من الراح فاسقني الراحا   اما ترى الديك كيف قد صاحا
وادبر الليل في معسكره   منصرفا والصباح قد لاحا " (١)

ومن خمريات الصابي القليلة التي لدينا قوله :

" صفراء كالتبر جامها (٢) يقق (٣)   شعاعها كالذبال يأتلق
كأن في كف من اتاك بها   ضحى نهار في وسطه شفق " (٤)

فالمظهر الحسي الذى تمثل في الالوان التي اجتمعت في الجام والخمرة والكف لتؤلف وحدة جمالية تجاوزت الجزئيات، ذكر الشاعر بهذا الوجود الكوني الواحد وقد تمثل بالزمن في مفهومه الابدى الذى يتجاوز التتابع الحسي لمختلف الاوقات .

ومن قصيدته في تشبيه مجلس الانس بالمعركة قوله :

" ومجلسنا حومة ارهجت   لزحف الندامى اليها بدار
كأن فكاهاتهم اذ علت   غماغم للحرب فيها شعار
كأن الكؤوس بأيدى السقا   ة سيوف لها بالدماء احمرار
كأن مناديل اكافهم   حمائلها اذ عليهم تدار
كأن المجامر خيل جرت   وقد ثار للند منها غبار

(١) ديوان ابي نواس، ص ٦٨٤ .
(٢) الجام : اناء من فضة . اللسان، مادة : جوم .
(٣) يقق : ابيض شديد البياض ناصعه . اللسان، مادة : يقق .
(٤) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٦٠ .

كأن السكارى رجال الوغى وقد عقرتهم هناك العقار

وقد جدلتهم جروح بهم وجرح المدامة فيها جبار "(١)

واذا قورنت هذه الابيات بابيات ابي نؤاس في الموضوع نفسه يتبين لنا الركاكة في صياغة الفكرة لدى الصابي بحيث انه لم يتوصل الى تمثل المشهد وكأنه معركة حقيقية ، فاستمر في ربط كل حركة او مشهد من معركة المدام بما يشبهه في المعركة الحقيقية ، مقربا بين الحالتين باستعمال اداة التشبيه " كأن " . وليلاحظ الفرق في ابيات ابي نواس :

" اذا عبا ابو الهيجا ء للهيجاء فرسانا

وسارت راية الموت امام الشيخ اعلانا

جعلنا القوس ايدينا ونبل القوس سوسانا

وقدمنا مكان النبـ ل والمطرد ريحانا

فعادت حربنا انسا وعدنا نحن خلانا

بفتيان يرون القتـ ل في اللذة قربانا

اذا ما ضربوا الطبـل ضربنا نحن عيدانا

وانشأنا كراديسا من الخيري الوانا

واحجار المجانيق لنا تفاح لبنانا

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

ومنشـا حربنـا سـاق ... سبـا خمـرا نسقـانـا
ترى هـذاك مصـروعـا ... وذا ينجـر سكـرانـا
فهـذى المـحـرب لا حرب ... تعـم الناس عدوانـا
بها نقتلهـم ثـم ... بهـا تنشـر قتـلانـا " (١)

ونلاحظ ان التشابيه لدى ابي نواس خفية المأخذ ،يعتمد في الكثير منهـا على استعمال الفاظ الحرب " كالكراديس" و "سبـا " و " مصروعـا " و " القتـل " ... كما انـه لا يستعمـل ادوات تشبيه مما يدل على شدة الشبه بين الحالين حتى كأنـه لا يشبه، كتشبيه التفـاح باحجـار المجانيـق، والسكران بالصريع،والايـدى بالقـوس والريحـان بالنبـل والرمـح ...

الوصـف :

المقاطـع التي يخصصهـا الصابـي للوصـف تعالـج في معظمهـا موضوعـات معينـة درج الشعراء في عصره على وصفها وتنافسوا في ذلـك ،اما في عصرنـا فلم تعـد تعنينـا بشيء، كمـا ان وصفها جاف لا قيمـة له طالمـا انه لا ارتبـاط لها بنفسيـة الشاعـر ووجدانـه ، فالوصـف هنـا نوع من النقـل التصويرى لهذه الموضوعـات من حيز الوجود في الواقـع الـى الورق ،والتفنن في تشبيهها بأشياء معينـة . وذلك بخلاف وصفـه الذى يخرج عن شعـور صادق وتعلـق اصيـل حميـم كوصفـه للخمرة في الجـام في الكـف .. وهكـذا نرى لـدى الصابـي شعرا فـي النرجـس

---

(١) ديـوان ابـي نـواس، ص ١٩٨ .

والورد ، وفي شمامة كافور (١) ، وعتيدة الطيب ، وفي الغالية (٢) ، والنافجة (٣) ، وفي المدخنة والشمعة ، والقبج والببغاء والخطاطيف ... وسنثبت نماذج من هذه الاوصاف دون التوقف عند احدها لان ما ذكرنا من خصائص الوصف التصويري لدى الصابي ينطبق عليها جميعها ، قال في عتيدة الطيب :

" وعتيدة للطيب ان تستدعها — تبعث اليك امامها ببشيرها
يلقاك قبل عيانها ارج لها — فكأنه مستأذن لحضورها
نفحاتها لم تدر من كافورها — تأتيك ام من مسكها وعبيرها
مزجت ببعض بعضها فتوحدت — عن ان تقاس بشكلها ونظيرها
لاعيب فيها غير ان نسيمها — مثل اللسان يشيع سر ضميرها " (٤)

وقال في النافجة : " ومشيمة من نسل بط — ن لم تكن من ظهر فحل
اهدت اليك جنينها — من غير تطريق بحمل
بل باقتناص حبائل — بثت لها وبرشق نبل
فغدت بضاعة تاجر — لا تشترى الا ببذل
فيها لنفس قوتها — لكن بشم لا بأكل

---

(١) الشمامات : ما يتشمم من الارواح الطيبة . اسم كالجبانة . (اللسان ، مادة : شمم) والكافور اخلاط تجمع من الطيب تركب من كافور الطلع وكافور الطلعة وعاؤها الذي ينشق عنها ، والكافور نبت طيب الريح يشبه بالكافور من النخل . (اللسان ، مادة : كفر) .

(٢) الغالية : نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن . اللسان ، مادة : غلا .

(٣) النافجة : هي سرة الظبية التي يجتمع اليها فضل دموي من جسمها فيقع فيها الورم ويشتد وجعها حتى تمسك عن الرعي وورود المياه فتسقط عنها ، او ان الظباء تصاد وتذبح وتؤخذ سررها والمسك فيها ما زال دما حتى اذا جف اشتدت رائحتها ، ثم توضع النوافج في مزاود وتخاط . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

حلت محلا لا تسرى الا لذى الخطر الاجل " (١)

وقال عن لسان مدخنة محلاة وامر بنقشها فيها :

" جمعت من حليتي وعرفي ما بين حسن وبين طيب
ادخل في الذيل من محب طورا وفي الكم من حبيب
فكم ترددت بين هذا وذا برغم من الرقيب " (٢) ٠

وقال في الورد : " اما ترى الورد قد حياك زائره بنفحة فرجت عن كل مصدور
كأن انفاسه انفاس غانية معشوقة خالطت انفاس مخمور
تفتحت وجنات في جوانبه كأنما انتزعت من اوجه الحور " (٣)

الرثاء :

للصابي قصيدتان في الرثاء ، احداهما في رثاء ابنه سنان ، والثانية في رثاء ابي الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ٠ قال في رثاء سنان :

" اسعداني بالدمعة الحمراء جل ما حل بي عن البيضاء
يؤلم القلب كل فقد ولا مثل افتقاد الآباء للابناء
هد ركني مثوى سنان وقد كان يهد الاركان من اعدائي
عكست فيك دعوتي اذ افديك برغمي فصرت انت فدائي

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ٠
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ٠
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ ٠

انما كنت فلذة من فؤادي ... خطفتها المنون من احشائي

كنت مني وكنت منك اتفاقا ... والتئاما مثل العصا واللحاء*

وكنت في اليتم فيّ اجمل مني ... فيك للثكل في اوان فنائي*

ولئن كان فيت اخيك واولا ... دكما ما يخض من برحائي*

فلعمرى لربما هيجوا الشو ... ق فزادوا في لوعتي وبكائي*" (١)

تبدأ القصيدة بلفظ "اسعداني" ويتبع ذلك ذكر جلال الرزء، وكأن ذرف العين للدمع هو مما يسعد الثاكل المفجوع الذي لم تعد عيناه تساعدانه على البكاء، بعد ان تركت وفاة ابنه الما في قلبه وضعفا في قواه. وقد خرج الشاعر عن المألوف في الرثاء في زمنه من تأبين الميت وذكر صفاته ومدحه فتركزت معانيه على ذكر اثر وفاة ابنه عليه، والتي آلمت قلبه وهدت ركنه، وعلى وصف العلاقة التي كانت قائمة بين الاثنين : علاقة وثيقة وحميمة الى حد الوحدة. فالميت فلذة من فؤاد الشاعر وكانا متحدين كاتحاد العصا واللحاء بروابط طبيعية — اتفاقا — واخرى ربما فكرية واخلاقية — التئاما.

المقطع الاخير هو الاكثر تأثيرا في القصيدة، ففيه تعبير عن الم الشاعر الذي كان ينتظر الموت لنفسه في شيخوخته فاذا به يلقاه في فلذة كبده. وفي البيتين الاخيرين يغلب الالم والتفجع على الشاعر فيعجز عن السلوة بعد ان كان يظن انه سيلقاها بوجود ابنه الآخر واحفاده. وفكرة هذين البيتين مأخوذة من قول ابن الرومي في رثاء ابنه الاوسط :

(١) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٧٠ والابيات التي تحمل علامة النجمة موجودة في العباسي، معاهد التنصيص، ج ٢، ص ٢٧١.

" ارى اخـويـك الباقيـيـن كليهمـا يكونـا ن للاحزا ن اورى مـن الزنـد

فما فيهمـا لـي سلـوة بـل حـرارة يهيجانها دونـي واشقـى بها وحدى"(١)

نجح الشاعـر فـي هذه القصيدة بالانتقال من ضمير الغائب الى المخاطب وكأ ن الحديث حول هذا الفقيد جعلـه يستعيده اليـه فيتصوره امامه ويخاطبه مخاطبة الحي للحي • ويلاحظ ا ن معانـي القصيدة تدور بين الشاعر والفقيد فقط ولا دخول لاشخاص آخرين باستثناء ابنـه الثانـي واحفـاده • وكأ ن المصيبة قد حولت نظر الشاعر عن العالم من حوله وحصرته في هذا الـذى ضمه التراب، فاذا التفت الى من سواه فالى اقرب الناس اليه واخصهم بـه : اخيـه وابنا يهمـا ، والا لتفـات الى هؤلاء لا يلبث ا ن يعيد الشاعر الى تذكر الميت والبكـاء عليه • لكننـا اذا قارنـا بين تعبير الصابـي عن المـه لفقده ابنـه في هذه القصيدة من جهة، وفي رسالة كتبهـا الى الشريف الرضي ردا على تعزيـة وصلتـه منه من جهـة اخرى، نجد ا ن النثر اداة اكثر طواعية في يد الصابي حتى للتعبير عن خلجات نفسه : " فصادفت مني قلبـا عليـلا وخاطـرا كليـلا ونفسـا قد اثخنتها الرزيـة وولتها المصيبة، واحالتها المحنـة عما كانت عليـه من جلـد وقوة وتمـاسـك ومعرفـة ، ••••" (٢) ويمكـن القول اخيرا ا ن قصيدة الصابي في رثـاء ابنـه

---

(١) يقول الثعالبي في اليتيمة (ج ٢، ص ٤٩) ويتابعه صاحب معاهد التنصيص (ج ٢، ص٧١ ــ ٧٢) ا ن الصابي الم بهذا الشعر بقول ابن الرومي ولم يحسن بعض احسانـه :

" واني وا ن متعت بابني بعـده لذاكره ما حنت النيب فـي نجـد
واولادنـا مثـل الجوارح ايهـا فقدنـاه كا ن الفاجع البين الفقـد
لكل مكا ن لا يسـد اختلالـه مكا ن اخيـه من جزوع ومـن جلـد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ام السمع بعد العين يهدى كما تهدى" •

(٢) رسائل الصابـي والرضـي ، ص ٧١•

نفثة شعورية عفوية املاها خاطر كليل وقلب كليم ، اما قصيدته في رثاء خاله (؟) ثابت بن سنان فقد تسنى له ان يتأنق في صنعها على ما جرت عليه الشعراء في المراثي ، فعبر عن عاطفته بالبكاء والتلهف والزفرات ، مستعملا في تبيان ذلك التنويع في الاسلوب كالانتقال من الخبر الى الانشاء وبالعكس واستعمال النداء والاستفهام ، ثم انه اعمل عقله في استذكار اخلاق الميت ومدحه . من هذه القصيدة :

" اسامع انت يا من ضمه الجدف — نشيج باك حزين دمعه يكف
وزفرة من صميم القلب ميعثها — يكاد منها حجاب الصدر ينكشف
اثابت بن سنان دعوة شهدت — لربها انه ذو غلة أسف
ما بال ليك ما يشفي وكنت به — تشفي العليل اذا ما شفه الدنف
غالتك غول المنايا فاستكنت لها — وكنت ذائدها والروح تختطف
ثوى بمغناك في لحد سكنت به — الدين والعقل والعلياء والشرف
لهفي عليك كريما في عشيرته — مهدا جسمه من نعمة ترف
قد اسلموه الى غبراء يشمله — فيها التراب فمنها الفرش واللحف" (١)

الحكمة :

للصابي بعض الابيات في الحكمة مستقلة على شكل مقطوعات ، او متفرقة داخل قصائد اخرى . ويمكن تسمية هذه الابيات بالخواطر وذلك انها تهيأت للشاعر

---

(١) معجم الادباء ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .

نتيجة تجاربه وتأملاته في الحياة ، ينقصها العمق الانساني والشمولية ، فهي وان كانت تأملات عامة ، انما صاغها واقع عاني منه الشاعر . من ذلك نظرته الى ان افضل الموت اسرعه لان الانسان كلما طال عمره اتيح له التعرض للمزيد من الروعات ، لذا يجب الا يغتبط بالعيش الذى يصاحبه الخوف ثم ينتهي بالوفاة .

يقول : (١)

" اذا لم يكن بد من الموت للفتى ... فأروحه الاوحى الذى هو اسرع
وما طال عمر قط الا تطاولت ... بصاحبه روعات ما يتوقع
فكن عرضا بالعيش لا تغتبط به ... فمحصوله خوف وعقباه مصرع " .

ومن حكمه قوله في احدى المقطوعات :

" الضب والنون (٢) قد يرجى التقاؤهما ... وليس يرجى التقاء اللب والذهب " (٣)

او قوله ان الدهر يقدم الخير والشر والانسان معرض للحالتين : لكسب ما يرجوه او ما يخشاه فيجب الا ييأس من صفاء الدهر وهنائه :

" الا ايها الانسان لا تك آيسا ... من الدهر ان تصفو عليك مشاربه
فان له حتما من الشر واجبا ... وحتما من الخير الهني عواقبه
وان تلق من حتميه ما كنت تبتغي ... فأولى بك الحتم الذى انت طالبه
ستكسب ما ترجو ولو كنت كارها ... ككسبك ما تخشى وانت مجانبه" (٤)

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٢) النون : الحوت . والجمع انوان ونينان ، واصله نونان فقلبت الواو ياء لكسرة النون . (اللسان ، مادة : نون) .

(٣) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

هذه الحكم جميعها شديدة الالتصاق بحياة الصابي الذي كان يتمنى الموت السريع لنفسه فلا يعيش اكثر ويرى المزيد من النوائب ،وكان هو الذي يشكو الفقر فيما هو غني بالادب والعلم،وهو الذي قدم الدهر له الخير والشر وتقلبت به الايام بين سعادة وشقاء ٠ من هنا نفسر صبغة التشاؤم التي تسيطر على حكمه المكتوبة في السجن ويتحدث فيها عن الموت والفقر ، فيما قد تخلو حكمه الاخرى من هذه الصبغة اذ تجده يدعو الى الامل بالناحية الايجابية في الحياة ، والى عدم الخوف من الاقدام والسعي والاجتهاد :

" اتهاب في العزمات ظنا ربما وقيت عنه
وامامك الموت الذي ايقنت ان لا بد منه
هذي سبيل الخائب الـ كابي الزناد فلا تكنه
الدهر خوان ولـ كن كم سعيد لم يخنه
وشقي جد قد تحر ز بالتصون لم يصنه
فاحذر مرارا ان يخو ون ومرة لك فأتمنه
واستبر حظك بالتقلـ ب في المطالب وامتحنه
وابسط رجاء قد قبضـ ت وشق برب واستعنه " (١)

اذا ، خبرة الصابي بالايام جعلته يؤمن بعدم الاغتباط بالخير خوفا من الشر الذي سيعقبه وعدم اليأس امام النوائب فالفرج لا بد آت ٠ اما خبرته بالناس فقد جعلته يبحث فيهم عما وراء الاقوال والكلمات والاوجه :

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ ٠

" لا تـراع المقال من السن الناس   وراء القلوب ماذا تقول "(١)

الشكـوى :

الظروف الصعبة التي مر بها الصابي من نكبة وسجن خلقت لديه ميلا الى الشكوى يعبر بها عن شعوره بالظلم والغبن فنثرت المقطوعات الشعرية التي يشكو بها مما اصابه اذ اجتمع عليه ظلم الحكام وتمثل في سجنه ونكبته وفقره، وظلم الايام وظهر في مرضه وعجزه . وقد افادتنا شكاوى الصابي كثيرا في دراسة حياته وتقلب الايام به ومعرفة شخصيته وتطلعاته . على ان الميل الى الشكوى لم يكن فقط في مقطوعاته الشعرية وانما في الكثير من المقطوعات النثرية التي حفظتها المصادر، والتي طبعت كتاباته الشخصية من نثر وشعر بطابع من الحزن وعدم الاستقرار، مترجحا بين اليأس والامل . فكانت مقطوعاته التي تحمل شكواه من اصدق شعره، واقربه الى نفسه .

من شعره ما يشكو به النكبات ولىلاحظ التأرجح بين اليأس والامل في المقطوعتين الاوليين، يقول (٢) :

" اخرج من نكبة وادخل في   اخرى فنحسي بهن متصل

كأنها سنة مؤكدة   لا بد من ان تقيمها الدول

فالعيش مر كأنه صبر   والموت حلو كأنه عسل "

---

(١) هلال بن المحسن، غرر البلاغة، ص ٣٤١ .

(٢) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٩٢ والعباسي، معاهد التنصيص، ج ٢، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

ويقول في مقطوعة اخرى (١):

" تلوح نواجذي والكأس شربي — واشربها كأني مستطيب

ففوق السر لي جهر ضحوك — وتحت الجهر لي سر كئيب

سأثبت اذ يصادمني زماني — بركنيه كما ثبت النجيب

وارقب ما تجيء به الليالي — ففي اثنائه الفرج القريب" (٢)

ويقول في الحظ الذي خانه في مشيبه (٣):

" عجبا لحظي اذ اراه مصالحي — عصر الشباب، وفي المشيب مغاضبي

امن الغواني كان حتى ملني (٤) — شيخا وكان على صباي مصاحبي؟ (٥)

امع التضعضع ملني متجنبا — ومع الترعرع كان غير مجانبي

يا ليت صبوته الي تأخرت — حتى تكون ذخيرة لعواقبي "

ويقول شاكيا المرض والعجز في اواخر ايامه (٦):

" قد كنت اخطو فصرت امطو — وزاد ضعفي فصرت اعطو

خانت عهودي يدي ورجلي — فليس خطو وليس خط

(١) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٩١ - ٢٩٢ ومعاهد التنصيص، ج ٢، ص ٧٣.

(٢) في معاهد التنصيص: " فرج قريب ".

(٣) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٤٣ ومعجم الادباء، ج ٢، ص ٢٨ - ٢٩ ومعاهد التنصيص، ج ٢، ص ٦٢.

(٤) في معجم الادباء، ج ٢، ص ٢٨ ومعاهد التنصيص: " خانني ".

(٥) في معاهد التنصيص: " لدى الشبيبة صاحبي ".

(٦) رسائل الصابي والرضي، ص ٩٦ - ٩٧.

كل علي كل من يلينـي ... اشال كالثقل او احط
وسوف افضي الى اوان ... علي منه الحمام يسطو
فللمنايا الي قرب ... وللأماني نوى تشط "

الاستعطاف :

ويلحق بشعر الصابي في الشكوى شعره في الاستعطاف والعتاب من حيث ذكر همومه واشجانه لاحد اصدقائه او ثقاته ، او لاحد اولياء الامور ، طلبا للمساعدة او عتابا لمن لم يلتفت اليه ابان محنته ، ويتميز هذا النوع غالبا بغلبة الشعور بالانسحاق خاصة امام ولي الامر الذى ينتظر منه المساعدة او الصفح والغفران ٠ فقد كتب عندما سجنه عضد الدولة الى عبد العزيز بن يوسف وزيره قصيدة مطلعها :

" كفاني علاء حين افخر انني ... اضاف الى عبد العزيز وانسب

ومنها : " عممتم جميع الناس حسنا لمحسن ... وعفوا لذى جرم فغيثوا واخصبوا
فما بال ابراهيم اذ ليس قبله ... ولي عراقي غدا وهو مجدب
مجليهم في حلبة حين ارسلوا ... وسكيتهم في رتبة حين رتبوا
وما لك يا عيني البصيرة غمضت ... جفونك عني حين ابكي وانـدب
وكيف استطبت العيش في ظل نعمة ... غلامك عنها بالعراء يعذب ؟ " (١)

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ٠

وكتب الى عضد الدولة من السجن مستعطفا من قصيدة :

" وحبسك لي جاه عريض ورفعة | وقيدك في ساقي تاج لمفرقي
وما موثق لم تطرحه بموثق | ولا مطلق لم تصطنعه بمطلق
خلا ان اعواما كملن ثلاثة | تعرقت (١) البقيا اشد تعرق
خدمتك مذ عشرون عاما موفقا | فهب لي يوما واحدا لم اوفق
فان يك ذنب ضاق عندي عذره | فعندك عفو واسع غير ضيق" (٢)

وكتب اليه ايضا من السجن وقد خرج الى الزيارة بالكوفة قصيدة مطلعها :

" توجهت نحو المشهد العلم الفرد | على اليمن والتوفيق والطائر السعد

ومنها : " اذا ابصرت عيناي خدا معفرا | لديك نقلت الترب منه الى خدي
واذا سمعت اذناي عنك محدثا | لهجت بتكرير الحديث الذي يبدي
فذكراك جهري حين يطرق زائري | ونجواك سري حين اخلو بها وحدي
فلا تبعدني عنك من اجل عثرة | فان جياد الخيل تعثر اذ تخدي
ومن زل يوما زلة فاستقالها | فذاك حقيق بالهداية والرشد" (٣) .

هذه الشواهد تظهر الصابي في حلة من الذل والمسكنة امام اوليائه ، وكأن كل ما يريده هو الخلاص من سجنه بأية طريقة كانت، ولو بالتملق واراقة ماء الوجه . فالشكوى عنده مصحوبة بالمدح دائما كما يلاحظ، فهو لا يجرؤ على الشكوى الا بعد ان يمدح ، مستمدا معاني المدح من المهانة التي هو فيها ، كما في عد سجن عضد الدولة له رفعة وجاها ، وقيده في

---

(١) عرق العظم يعرقه عرقا وتعرقه واعترقه : اكل ما عليه . اللسان ، مادة : عرق .
(٢) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٦ ــ ٤٧ .
(٣) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

قدمــــه تـــاجـــا يزيـــن رأســـه .

التهنئــــة والاهــــداء :

يقـرب هذا النـــوع من المديـح لتضمنــه اياه،وللصابـي عدة قصائـد قصيـــرة ومقطـوعـــــات في التهنئـة والاهداء، اذ ان مركـــزه في الدولـــة وقربـه من الملوك والامراء، جعله ينتهـز الفرص التي تهيء له الحظوة لديهم،وكانت الاعياد خير موسم لذلك يهدي فيهــا الصابي اولياء الاشعار والمدائـح مرفقـة احيانـا بشيء من نتاجـه كاصطرلاب او زيـج او رسالة في احد العلوم كالهندسـة وعلم النجـوم، ... وغير ذلك . وقد تميـز شعره هذا وشعر المديـح عن بقيـة شعره بحسن الاخراج وفخامة اللفظ،وذلك انه سيواجه بـه الامراء والكبراء وان كانت لا تخلو ، كعامـــة شعره، من التبسط والسهولـــة التي تقربها من النثر.يقـول الصابي مهنئـــا المهلبـي بعيد الفطـر :

" اسيدنا هنئـت نعمـاك بالفطـر | ووقيـت ما تخشـاه من نوب الدهـر
مضـى الصـوم قد وفيتـه حـق نسكـه | ووفـاك مكتـوب المثوبـة والاجـر
كلفـت بذكـر الله فيه فـلا تزل | من الله فيمـا ترتجيـه علـى ذكـر
هجـرت هجـود الليـل فيه تهجدا | وصبرا علـى طول القـراءة للفجـر
فلـو نطقـت ايامنـا باعتقادهـا | لناجتـك لفظا بالدعـاء وبالشكـر "(١)

---

(١) اليتيمـة،ج ٢،ص ٤٦ ـ ٤٧ .

وقولـــه (١): " يا سيدا اضحى الزمـا ... ن بأســره (٢) منــه ربيعـــا

ايــام د هـرك لم تـزل ... للناس اعيـادا جميعـــا

حتى لا وشـك بينهـا ... عند (٣) الحقيقـة ا ن يضيعـا

فأسلـم لنـا ما اشـرقـت ... شمس علـى افـق طلـوعـا

واسعـد بعيـد ما يـزا ... ل اليـك معتقدا رجـوعـا"

وكتب الى صمصام الدولـة مع اصطرلاب اهـداه (٤):

" يعـز علـي ا ن اهـدى نحاسا ... الى من فيض راحتـه نضـار

ولكـن الزمـا ن اجتـاح حالـي ... وانـت عليـه لي اذ جار جار "

ويـلاحظ فـي هذا المقطـع انـه يستغـل الاهـداء والمدح وسيلـة للسؤال .

وكتب الى عضد الدولـة (٥) فـي يـوم مهرجـا ن مع اصطرلاب اهداه اليه (٦):

---

(١) اليتيمـة، ج ٢، ص ٢٧٨ وابن حمدون، التذكـرة (مخطوط برلين، ١١٨٨) الورقـة ١٤٧ ب ومعجـم الادبـاء، ج ٢، ص ٨٢.

(٢) في ابن حمدون، التذكـرة (برليـن) : " بأنسـه ".

(٣) في المصدر نفسـه ومعجـم الادبـاء : " عيـد ".

(٤) اليتيمـة، ج ٢، ص ٢٨٢.

(٥) ينقـل ياقوت (معجم الادباء، ج ٢، ص ٣٤) عن المحسن بن ابي اسحاق ا ن الابيات قيلـت في عضـد الدولـة وعن كتاب الوزراء لهلال بن المحسن انها في المطهر .

(٦) اليتيمـة، ج ٢، ص ٢٧٩ والحصري، زهـر الآداب، ج ٢، ص ٩٣ وابن عبد البر، بهجة المجالس (تحقيق محمد مرسي الخولي، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧ ــ ١٩٦٩) ج ١، ص ٢٧٨ ــ ٢٨٨ والراغب الاصفهاني محاضرات الادبـاء، ج ١، ص ١١٧ (البيت الاخير فقط) ومعجم الادباء، ج ٢، ص ٣٤ ووفيـات الاعيـا ن، ج ١، ص ٣٩٣ ومعاهد التنصيص، ج ٢، ص ٧٣ ــ ٧٤.

"اهدى اليك بنو الآمال (١) واحتفلوا (٢) في مهرجان جديد (٣) انت مبليه (٤)
لكن عبدك ابراهيم حين رأى علو (٥) قدرك عن شيء يدانيه (٦)
لم يرض بالارض مهداة (٧) اليك فقد اهدى لك الفلك الاعلى بما فيه (٨) "

تتميز هذه المقطوعة بطرافة المعنى حين عبر عن الاصطرلاب بالفلك لانه يمثله ، كما ان فيها اثرا للفكر اليوناني في دلالة الجزئيات على الكليات والصابي من المتمكنين بالفلسفة اليونانية .

المديح :

مدح الصابي بشعره كما مدح بنثره ، ممدوحوه كثر منهم : الملوك البويهيون كعضد الدولة وصمصامها ، والوزراء كالمهلبي والصاحب والمطهر . والكبراء كالشريف الرضي ، والاصدقاء من الشعراء والكتاب كابي الفرج الببغاء وغيره .

ويتبين مما لدينا من شعر للصابي في المدح انه لم يكن لممدوح معين اثر على شعره ، بمعنى انه لم يقصر مدحه على شخص معين وجد فيه المناقب العظيمة التي تستحوذ على تفكيره

(١) في الحصرى ، زهر الاداب وابن عبد البر ، بهجة المجالس ومعجم الادباء : "الحاجات" . وفي العباسي ، معاهد التنصيص : "الاموال" .
(٢) في زهر الآداب وبهجة المجالس : "احتشدوا" وفي معجم الادباء ومعاهد التنصيص : "اختلفوا" .
(٣) في بهجة المجالس ومعجم الادباء : "عظيم" .
(٤) في زهر الآداب وبهجة المجالس : "تعليه" وفي وفيات الاعيان : "معليه" .
(٥) في زهر الآداب وبهجة المجالس : "سمو" .
(٦) في زهر الآداب وبهجة المجالس : "يساميه" وفي معجم الادباء : "لا شيء يساميه" .
(٧) في بهجة المجالس والراغب الاصفهاني ، محاضرات الادباء ومعجم الادباء : "يهديها" .
(٨) في محاضرات الادباء : "وما فيه" .

وتجذب شخصيته اليه ،كما اجتذب سيف الدولة المتنبي مثلا . ومن هنا افتقدت قصائده المدحية قوة العاطفة وجيشانها ، فكان يمدح كلا بما يتصف به عامة وبما كان يبغيه منه ويريد التركيز عليه ، كتركيزه على مدح الصاحب بالكرم لانه عرف بعطائه للادباء، وكان رافده الاول بالمال ،ومدح عضد الدولة واصفا اياه بالحزم والعدل في السياسة لانه كان بالفعل حازما وكان يرجو منه العفو عنه في الوقت ذاته ، ومدح الشريف الرضي بشرف النسب وحسن المناقب ،لان هذه صفاته الفعلية ثم ليعزز لديه الحق في الخلافة الذي كان يؤمن به ويسعى اليه . ونقدم بعض النماذج من مدائحه :

قال من قصيدة في عضد الدولة عند مقدمه من الزيارة في الكوفة (١):

" اهلا بأشرف اوبة وأجلها	لأجل ذي قدم يلاذ بنعلها
شاهانشاه تاج ملته التي	زيدت به في قدرها ومحلها
يا خير من زهت المنابر باسمه	في دولة علقت يداه بحبلها
واقمت فينا سيرة عضدية	هيهات لا تأتي الملوك بمثلها
يردي غوى فاجر في بأسها	ويعيش بر صالح في فضلها
مولاي عبدك حالف لك حلفة	تعيا مناكب يذبل عن حملها
لقد انتهى شوقي اليك الى التي	لا استطيع اقلها من ثقلها

(١) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٤ .

طوبى لعين ابصرتك ومن لها ... بغبار دارك جازيا عن كحلها
لو بعتني بجميع عمرى لفظة ... او لحظة بالطرف لم استغلها "

وكتب الى الشريف الرضي قبل وفاته باثني عشر يوما (١):

" ابا كل شيء قيل في وصفه حسن ... الى ذاك ينحو من كناك ابا الحسن
نوحدها للاختصار اشارة ... الى جملة تفصيلها لك مرتهن
وما هي الا كنية لك ارثها ... وان مسها من غير اربابها الدرن
الست لها بعد الوصي وآله ... وانتم اناس فيكم المجد قد قطن
يجاذبكم علياءكم كل حاسد ... به مرض بين الحيازم (٢) قد كمن
فيجري الى غاياتكم طالبا لها ... على غير منهاج وانتم على السنن
توقلتم في كل هضبة سؤدد ... فاوفيت واستعليت منها على القنن
غدوا لك كالابعاض اذ انت كلهم ... كما لا عجيبا مثله قط لم يكن
وان غبت عنهم ظاعنا بان نقرهم ... الى الواحد الفذ الذى عنهم ظعن
واما يباريك المبارى بهيئة ... وزى وملبوس على جسمه حسن
ففي درعك الانسان تمت صفاته ... وجمت معاليه وفي درعه الوثن "

---

(١) رسائل الصابي والرضي، ص ٢٧ ـ ٣٠ واليتيمة، ج ٢، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .
(٢) في رسائل الصابي والرضي، ص ٢٨ : " فوق الحيازيم ".

الهجـــاء :

للصابي بعض المقطوعات في الهجاء، منها ما هو هجاء مقذع يشتمل على الفاظ نابية قبيحة، (١) ومنها ما هو مغرق في الفحش والاقذاع بما فيه من الفاظ المجون والمقاذر (٢)، ومنها عادي يطال النقائص الخلقية. من امثلته :

" يا جامعا لخلال	قبيحة ليس تحصى
نقصت من كل فضل	فقد تكاملت نقصا
لو ان للجهل شخصا	لكنت للجهل شخصا " (٣)

وقال في انسان شريف الاصل وضيع النفس :

" قل للشريف المنتمي	للغر من سرواته
وهو الوضيع بنفسه	وعيوبه وهناته
والظاهر السوءات في	اخلاقه وصفاته
لا تجرين من الفخا	ر الى مدى لم تأته
ان الشريف النفس ليـ	ـست تلك من فعلاته
واحق من نكسته	بالصفع من درجاته

(١) انظر شواهد على ذلك في اليتيمة، ج ٢، ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .

(٢) انظر المصدر نفسه، ص ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٨ والزمخشري، ربيع الابرار (تحقيق سليم النعيمي، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٨٠) ج ٣، ص ٦٠١ - ٦٠٣ ومعجم الادباء، ج ٢، ص ٨٤ و ٨٥ و ٨٨ و ٨٩ .

(٣) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٨٤ .

من مجـــده مـــن غيـــره   وسفالـــه مـــن ذاتـــه " (١)

ومـن الغريـب ان نجد للصابـي ثـلاثـة ابيـات في ذم الدولـة وهو المعروف بالحـذر لشدة ما اصابـه مـن نكبـات على ايدي رجالهـا ،ولا ندري في اي زمـن او مناسبـة قيلـت :

" الا اقـل لأهـل الدولـة السنذلة التي   شـوى داؤ ها فينـا وأعيا دواؤ هـا

لقـد كبسـت الدنيـا على ام وجههـا   فنحن لهـا ارض وانتـم سماؤ هـا

فلا تفرحـوا بالحـظ منها فانـه   قليـل على هذا المحـال بقاؤ ها " (٢)

الفخـــر :

للصابـي في هذا النـوع قصيدتـان ومقطعـان قصيـران . يـرد فـي احـدى القصائـد علـى من يعيـره بالحبس وفي الثانيـة يبين مقامـه من السلطـان وبالتالـي مقـام كـل كاتـب صاحـب ديـوان . وتتميـز هذه القصيـدة بقـوة المعانـي وجمالهـا وحسـن التأليـف . يقول (٣) :

" وقـد علم السلطان انـي لسانـه (٤)   وكاتبـه الكافـي السديـد الموفـق

اوازره فيمـا عرى وامـــده   بـرأي يريـه الشمـس والليـل اغسـق

يجـدد بـي نهج الهدى (٥) وهو دارس   ويفتح بي باب النهى (٦) وهو مغلـق

---

(١) اليتيمـة، ج ٢، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٥ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ والعباسي ،معاهد التنصيص، ج ٢ ،ص ٧٢ والابيات الثلاثة الاخيرة في ابن حمدون ،التذكرة (٢٦٩) ،الورقة ١٤٨ أ .

(٤) فـي معاهد التنصيص : " امينـه " .

(٥) فـي المصدر نفسـه : " العـلا " .

(٦) فـي المصدر نفسـه : " الهدى " .

فيمنـــــاى يمنـــاه ولفظـي لفظـــه | وعينـي لـه عيـن بها الدهـر يرمـق
ولـي نقـر تضحـــى الملـــوك فقيرة | اليها لـدى احداثها حيـن تطـرق
ارد بهـا رأس الجمـــوح فينثنـــي | واجعلهـا سوط الحرون فيعنـق
فان حاولـت لطفـا فمـــاء مـروق (١) | وان حاولـت عنفـا فنـار تألـق "

---

(١) في ابن حمدون، التذكرة (٧٦٩)، الورقة ١٤٨ أ : " مرقـرق ".

قيمــــة شعــر الصابــــي

أ ـ القيمـــة الفنيـــة :

اعطينـا خلال عرضنـا لموضوعـات شعر الصابـي بعض ميـزات كـل نـوع ويبقـى ان نشيـر الـى بعض الخصائـص العامـة التـي تميـز شعـره :

١ ـ الاسلوب النثـرى التقريـرى : الصابـي هو كاتـب بالدرجة الاولـى لا شاعـر، لذا كان الاسلوب النثـرى التقريـرى المتصف بالوضـوح والانكشـاف هو الصفـة الاساسيـة الغالبـة علـى شعره، مما يفقـده الخيـال الشعـرى الموحـي، وقـوة الالفـاظ وغزارتهـا المتمثلـة بوجود المعنـى الكثيـر فـي اللفـظ القليـل، وهو نفسـه ما عابـه الصابـي على بعض الشعراء حيـن يقـول :

" رب شعـر اطالـه طـول معنـا ، وان قـل لفظـه حيـن يـروى

وطويـل فيـه الكـلام كثيـر فاذا ما استعدتـه كان لغـوا

عرض البحر وهو مـاء اجـاج وقليـل الميـاه تلقـاه حلـوا " (١)

فالصابـي عندمـا يطرح فكرة معينـة او معنـى معينـا قلمـا يتـرك لخيـال القارئ او السامـع مجـالا للانطـلاق مـع هذه الفكـرة وتفهمهـا وتحليلهـا ، وانما يتتبعهـا بالتوضيـح والتبسيـط حتـى لا يبقـى فيهـا معمـى فيصبح شعره كلاما عـاديا يفتقد صبغـة الشعر، وسنعطـي بعـض الشواهـد علـى ذلـك، فقد كتـب الـى احد هـم مـع فنجان صفـر :

---

(١) اليتيمـة، ج ٢، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

" تهدى النحاس الى مولى انامله | تهدي النضار الى العافين منتهبا
وكان يلزمنا لولا التعذر ان | يكون اهداؤنا من عينها وهبا
لكن بعدي عن جدواه اصغرني | من كل خير فصار الصغر لي نشبا
وسوف اظفر من اخلاط نائله | بالكيمياء فيضحى صفرنا ذهبا
فليبسط الآن عذرا لست اسأله | في قابل ان انل من خدمة سببا
فقد جرى الماء في عودي بدولته | وكان من قبله مستيبسا حطبا
واقبلت نحوي الآمال آتية | من بعد ما ازمعت من ساحتي هربا "(١)

فاشارته الى ان بعده عن عطائه افقره كان يغنيه عن ذكر البيتين اللذين يليان هذه الاشارة كما ان ذكر انتعاشه بدولته كان كافيا دون البيت الاخير • ومن ذلك ايضا ما كتبه لعضد الدولة مهنئا بعيد الفطر :

"لم اطول في دعوتي لمليك | طول الله في السلامة عمره
بل تلطفت باختصار محيط | بالمعاني لمن تأمل امره
فهي مثل الحروف من عدد الهند | د قليل قد انطوت فيه كثره" (٢)

وهنا يقول انه لم يطول ثم يقول انه يختصر ثم يشبه هذه الدعوة بالهند في قلة عدد الاحرف والكثرة في معناه •

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ •
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ •

٢ ـ التكلف في المعاني • وذلك حين يقصد الاتيان بمعان جديدة لم يسبق اليها ، فيقع في التكلف والبعد عن العفوية ، وقد رأينا شاهدا على ذلك في قصيدة غزلية جمع فيها اسماء بعض الفرق الدينية الموجودة في عصره كالمسلمين والنصارى واليهود والمجوس والصابئة • ونجد شاهدا آخر في محاولته تهنئة المطهر بن عبد الله باليوم الاجود :

" نل المنى في يومك الاجود	مستنجحا بالطالع الاسعد
وارق كمرقى زحل صاعدا	الى المعالي اشرف المصعد
وفض كفيض المشترى بالندى	اذا اعتلى في برجه الابعد
وزد على المريخ سطوا بمن	عاداك من ذى نخوة اصيد
واطلع كما تطلع شمس الضحى	كاسفة للحندس الاسود
وخذ من الزهرة افعالها	في عيشك المقتبل الارغد
وضاه بالاقلام في جريها	عطارد الكاتب ذا السؤدد
وباه بالمنظر بدر الدجى	وافضله في بهجته وازدد ".(١)

ويلاحظ التكلف في تقريب كل فعل يفعله من افعال الافلاك والبروج وصفاتها •

٣ ـ اثر الفكر الصابئي في المعاني : لقد كان لمعتقد الصابي الديني اثره في معاني شعره من ناحيتين : الفكر الفلسفي الصابي وعلم النجوم • اما الناحية الاولى فتبدو في تصويره الوانا من الوحدة بين الاشياء او الاشخاص كما لاحظنا في

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ •

غزله وخاصة المقطع الذى يصور اتحاده بالحبيبة ويقول فيه :

" اذا امتزجت انفاسنا بالتزامنا　　توهمت ان الروح بالروح تمزج

كأني وقد قبلتها بعد هجمة　　ووجدى ما بين الجوانح يلعج

اضفت الى النفس التي بين اضلعي　　بانفاسها نفسا الى الصدر تولج "

وقد تبين التفكير في الوحدة في كثير من المقاطع وقد اشرنا الى ذلك في حينه (١) ٠

واما الناحية الثانية وهي علم النجوم فقد برزت في استمداده الاوصاف من الافلاك فاكثر من تشبيه وجه الحبيبة بالبدر ثم رأيناه في تهنئته للوزير المطهر باليوم الاجود في الفقرة السابقة وقد وصفه بصفات الكواكب ٠

٤ ـ الاقتباس : لم يتورع ابو اسحاق عن اقتباس معان كثيرة سبقه اليها الشعراء المبدعون كأبي نواس والمتنبي وابن الرومي ٠ وقد رأينا بعض الشواهد على اقتباسه من ابي نواس في الخمر وابن الرومي في الرثاء ونعطي شاهدا على الاخذ من معاني المتنبي وذلك حين يقول مادحا الشريف الرضي :

" وقد تستوى الاشخاص في عين من رأى　　وتفترق الاعيان في فهم من فطن

وبين وسيمات الوجوه تشابه　　فكن فاصلا بين التهيج والسمن " (٢)

وهي من قول المتنبي :

" اعيذها نظرات منك صادقة　　ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

---

(١) راجع ص ٢٩٩ ٠
(٢) رسائل الصابي والرضي ، ص ٢٨ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ ٠

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره   اذا استوت عنده الانوار والظلم " (١)

وقد تنبه بعض اصحاب المصادر القديمة كالثعالبي وياقوت وابن خلكان الى اقتباس الصابي فكانوا يشيرون اليه في موضعه ٠ من ذلك اشارة الثعالبي (٢) الى ان بيت الصابي :

" وعاد اليك العيد حتى تمله   بأقصر يوم طاب في اطيب العمر "

مأخوذ من قول ابن الرومي :

" وليطل عمرك مسرورا   بأيام قصار " (٣)

كما نبه ايضا (٤) وتبعه ياقوت (٥) ان قول الصابي في الشيب :

" ولولا انه ذل وهون   لما احتكم المزين فيه نتفا "

مأخوذ من قول ابن الرومي (٦) :

" كفاك من ذلتي للشيب حين بدا (٧)   اني توليت نتفي (٨) لحيتي بيدي "

ويرى ابن خلكان (٩) ان بيت الصابي عن غلامه رشد الاسود مكلما الابيض المستعلي

---

(١) ديوان المتنبي ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ ٠
(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ٠
(٣) المصدر نفسه ٠
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ ٠
(٥) معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٩٣ ٠
(٦) يقول الثعالبي انه من قول الاول دون تسمية ٠
(٧) في معجم الادباء : " اتى " ٠
(٨) في المصدر نفسه : " نتفا " ٠
(٩) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٥٣ ٠

عليـــــه :

" ولوا نمنـي فيــه خالا زانــه ولوا نمنــه فـيّ خالا شانني "

ينظـر الـى قـول ابن الرومـي من جملـــة ابيـــات في جاريتـه السوداء :

" وبعـض ما فضـل السـواد بـه والحـق ذو سلـم وذو نفـق

ا ن لا يعيـب الســواد حلكتـه وقد يعـاب البيـاض بالبهـق " (١)

اذا ، كا ن الصابـي يستفيـد مما جـاء به الشعراء قبلـه وحتى انـه كا ن يستفيـد من بعض معاني القـرآ ن الكريـم ، اذ نـراه ينقـل معنـى سورة الكوثـر فـي بيـت شعر اذ يقـول :

" صـلّ يا ذا العـلا لربك وانحـر كل ضـد وشانئ لـك ابتـر " (٢)

وفـي السورة ﴿ انا اعطيناك الكوثر * فصـل لربـك وانحر * ا ن شانئـك هو الابتـر ﴾ ويكون الاقتباس لديـه معلنـا احيانـا وهو ما يعـرف بالتضميـن ، كقولـه في عبد العزيـز بـن يوسـف :

" ابو القـاسـم عبد العزيـز بـن يوسـف عليـه من العليـاء عيـن تراقبـه

روى ورعـى لمـا روى قـول قائـل " وشبـع الفتى لؤ م اذا جاع صاحبه " (٣)

او قولـه فـي الفخـر :

" معـا ن لو الاعشـى رآهـن لـم يقـل " وبـا ت على النـار النـدى والمحلق " (٤)

---

(١) وفيـات الاعيـا ن ، ج ١ ، ص٣٥٠ .

(٢) اليتيمـة ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ ومعجـم الادبـاء ، ج ٢ ، ص ٨٢ والصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص١٦٢ .

(٣) اليتيمـة ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ ومعجـم الادباء ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٤) اليتيمـة ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ وابن حمدون ، التذكرة (٧٦٩) ، الورقة ١٤٨ أ والعباسي ، معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٧٢ وفيـه : " النـدى والمحـلـق " .

٥ ـ الموقف الوصفي من الموضوع : ربما لان الصابي لم يكن شاعرا يعيش في شعره، لم يتحد بالموضوع الذي يكتب عنه او يقترن به . من هنا خلت قصائده اجمالا من التجربة الشعرية الصادقة ، ومن العاطفة والخيال العفويين، وبدا الشعر لديه صناعة تفترضها المناسبات كمدح فلان او هجو غيره ، او وصف هذا الشيء او ذاك ، فيكتب بما اصطلح على الكتابة به في الموضوع الواحد . كتشبيه الحبيبة بالبدر والاسنان بالبرد والخمر بالعذراء ومجلس الانس بالمعركة وغير ذلك .

ولا بد من التذكير بان الصابي كان يعد الشعر ادنى موضوعا واسلوبا من النثر (١)، ولم يعتبره تجربة حية تعاش، وهذا يفسر لنا بعض الشيء غربته عن موضوعاته في كثير من الاحيان ووصفها بما ألف وعرف، او محاولة تشبيهها بما يقرب منها من اوصاف حسية .

٦ ـ الالفاظ : يتميز شعر الصابي عامة بالرقة في اللفظ والعذوبة وهذا من ميزات لغة العصر، والصابي الذي عاش في بغداد المركز الحضاري الاول في البلاد الاسلامية آنذاك، بما عرف فيها من الترف المادي والفكري، كان رقيق الطبع، رقيق اللفظ وخاصة في انواع شعره التي تعبر عن مظاهر حضارية كالوصف والغزل والخمر والتهنئة والاهداء . فنحن قلما نقف في شعر الصابي على الفاظ بدوية او معان بدوية لذا يمكن القول ان شعر الصابي ابن عصره معنى واسلوبا ، اذ عبر عما فيه من موضوعات ومعان بروح عصرية مثقفة ورقيقة .

---

(١) انظر رسالته في الفرق بين المترسل والشاعر، ابن حمدون، التذكرة (٧٧٠)، الورقة ٧٧ب ـ ٧٨ .

ب ـ قيمة شعره في الدلالة على حياته وشخصيته :

الكثير من شعر الصابي في مختلف الموضوعات ذات اهمية كبيرة في دراسة حياته وشخصيته فقد رأينا ،خلال دراسة حياته في الفصل الاول ،وجود نواح عديدة اغفلت المصادر ذكرها او التفصيل فيها فكانت مقطوعاته الشعرية ،كما النثرية ،خير مساعد لنا في تتميم هذا النقص،ان لم يكن بشكل كامل فالى الحد الذى يزيل الغموض وتتضح معه المعالم الرئيسية • ومما يفيده الشعر وتعجز عنه المصادر الادبية او التاريخية هو صدقه اولا ، اذ ان الشاعر يكتب عن نفسه بنفسه ثم انه يبين لنا الاحداث وانعاكسها على نفسيته في الوقت ذاته مما يساعد على معرفة المزيد من ملامح شخصيته •

ج ـ القيمة الادبية والاجتماعية :

في شعر الصابي ظواهر ادبية واجتماعية شاعت في القرن الرابع الهجرى منها :

١ ـ اكبار البلاغة واصحابها : يبرز من ضمن المناقب التي يوصف بها الوزراء اوالشعراء الفصاحة والبيان ،وتفصل مواطن الجمال فيها • ويبدو هذا في شعر الصابي خاصة في مدحه للوزير المهلبي والشريف الرضي وابي الفرج البيغاء وغيرهم • وكذلك في قصيدته التي يفخر فيها بكونه كاتبا

للسلطان ، يقول الصابي في المهلبي (١) :

" واذا استنطق الانامل جادت ببيان كالجوهر المنضود
في سطور كأنما نشرت يمـ ناه منها عصائبا من برود
فقر لم يزل فقيرا اليها (٢) كل مبدى ببلاغة (٣) ومعيد
ببيان شاف ولفظ مصيب واختصار كاف ومعنى سديد

ويقول فيه ايضا (٤) :

" لك في المحافل (٥) منطق يشفي الجوى ويسوغ في اذن الاديب سلافه
فكأن لفظك لؤلؤ (٦) متنخل وكأنما آذاننا اصدافه "

وقال في الشريف الرضي :

" تدافع عن احسابهم بمهند ى لسان وسيف ذببا عنهم الفتن " (٧)

وكتب الى ابي الفرج الببغاء :

" ابا الفرج استحققت نعتا لأجله تسميت من بين الخلائق ببغا
بيانا منيرا كاللجين مضمنا نضارا من المعنى اذيبا وافرغا

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ والبيتان الاخيران في ابن حمدون ، التذكرة (٧٦٩) ، الورقة ٤٨ ، أ .
(٢) في التذكرة الحمدونية : " اليها فقيرا " .
(٣) في المصدر نفسه : " فصاحة " .
(٤) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ والحصرى ، زهر الآداب ، ج ١ ، ص ٢٥ او العباسي ، معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٧٣ .
(٥) في زهر الآداب : " المجالس " .
(٦) في المصدر نفسه : " جوهر " .
(٧) رسائل الصابي والرضي ، ص ٢٩ .

اذا انا سلمت البلاغة طائعا　　　اليك فأى الناس خالفني طغى" (١)

٢ ـ التواضع والتزلف للوزراء والكبراء : ان اعتماد الكتاب والادباء على الوزراء والكبراء في عيشهم وخوفهم الدائم من النكبات يجعلهم يتزلفون ويتواضعون امام هؤلاء ويعفرون امامهم الجباه ارضاء لهم واكتسابا لعطائهم وابعادا لسخطهم وغضبهم . ويبدو هذا التذلل في الكثير مما كتبه الصابي للكبراء . كقوله للمهلبي :

" وتعلقت بالرئيس الذى صر　　　ت رئيسا مذ عدني في العبيد " (٢)

وقوله لعضد الدولة :

" اهلا باشرف اوبة واجلها　　　لاجل ذى قدم يلاذ بنعلها

فرشت لك الترب التي باشرتها　　　بشفاهها من كهلها او طفلها

لم تخط منها خطوة الا وقد　　　وضعت لرجلك قبلة من قبلها

واذا تذللت الرقاب تقربا　　　منها اليك فعزها في ذلها " (٣)

وقوله للوزير سابور بن اردشير في جواب على كتاب وصله منه متضمنا صلة :

فقبلت اجلالا له الارض ساجدا　　　وعفرت قدام الرسول به خدى

وقابلت ما فيه من الطول والندى　　　بما في من شكر عليه ومن حمد " (٤) .

---

(١) اليتيمة، ج ١، ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٣ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٤ . والبيت الاول في معجم الادباء، ج ٢، ص ٤٢ .

(٤) معجم الادباء، ج ٢، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

ثم ان من محاولات كسب رضا الكبراء اهداءهم الهدايا في المناسبات مرفقة بالمدائح والتهاني .

هذه الهدايا رمزية علمية ، اذ ان الامير او الوزير بغنى عن القيمة المادية للهدية

فالهدايا المادية هي ما ينتظره الاديب منه . اما هدية الاديب او العالم فشيء من

نتاجه الادبي او العلمي .

٣ ـ وضع كتاب الدواوين في هذا العصر : شعر الصابي حول سجنه ونكبته وفقره ،

واستعطافه الامراء للعفو عنه او مساعدته يصور حالة فردية تعكس ظاهرة عامة

يتعرض لها الكتاب في القرن الرابع الهجري حيث ان حياة الكاتب على شيء كثير من

عدم الاستقرار والتعرض للنكبات والمصادرات والسجن .

٤ ـ استقصاء الموضوعات الوصفية : برز لدى شعراء هذا العصر ميل الى الوصف حيث

كانوا يبحثون عن الموضوعات الوصفية ليتباروا في وصفها ويشحذوا ذهنهم في الكتابة عنها

وتنميق الكلام . من هنا اخذت بعض الموضوعات تشكل اغراضا لقصائد او مقطوعات

وصفية . من ذلك : الشمعة والورد وحق الطيب والمدخنة والنافجة ... وتفيد مقطوعات

الصابي الوصفية هذه ، في تبين صفة هذه الادوات التي كان بعضها يستعمل في المجالس

والتي كانت على قدر من الزينة والجمال بحيث يكون وصفها موضوعا للكتابة الشعرية .

من ذلك قوله في الغالية :

" غالية تنتمي لحام — قد استعارت لباس قار

في قدح ينتمي لسام — من سنة البدر مستعار

جامع ما بين ذا وهذا قد اولج الليل في النهار "(١)

وقوله في الشمعة :

" ولا دليل سوى هيفاء مخطفة تهدي الركاب وجنح الليل معتكر

غصن من الذهب الابريز اثمر في اعلاه ياقوتة صفراء تستعر "(٢)

٥ ـ استعمال الالفاظ النابية : وخاصة في الهجاء، فحتى الصابي مع ما كان عليه من مركز اجتماعي وادبي كبير، وما عرف به من التحرج وحسن الاخلاق لم يتورع من استعمال اقبح الالفاظ الماجنة في هجائه .

٦ ـ شيوع الغزل الغلماني : وهذه ظاهرة ادبية واجتماعية اخرى حيث يعلن الغزل الغلماني دون تحرج او استحياء، فالصابي قد تغزل بغلام له اسمه رشد وكتب فيه " المعاني البديعة " على حد قول ابن خلكان (٣) .

٧ ـ الاحتفالات والاعياد : قصائد الصابي في وصف مجالس الخمر تدل على ما كان يدور في هذه المجالس من وجود الندامى والمغنين، واصناف المآكل والمشارب والنقل . ويبدو ان امثال هذه المجالس كانت تعقد حتى في الاعياد الدينية . ففي قصيدة للصابي في تهنئة المهلبي بعيد الفطر يقول :

" وللفطر رسم للسرور وسنة ومثلك من احيا لنا سنة الفطر

---

(١) اليتيمة، ج ٢، ص ٢٦٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٦ وابن حمدون، التذكرة (٧٦٩)، الورقة ١٥٥أ .

(٣) وفيات الاعيان، ج ١، ص ٥٢ .

ولابد فيه من سماع وقهوة   تقضي بها الاوطار من لذة السكر

تواصل قصفا بين يوم وليلة   دراكا فنستوفي الذى فات في الشهر " (١)

ويقول مثل هذا في المطهر بن عبد الله :

" قضيت شهر الصوم بالنسك الذى   هو منك معروف له معهود

اكثرت فيه من تهجد خاشع   ما يطمئن بمقلتيه هجود

فاشرب واسق عصابة قد مسها   عطش وجهد في الصيام جهيد

ارويتها جودا فرو حشاشها   راحا فمنك الجود والناجود " (٢)

فيبدو بالفعل ان شهر رمضان كان ثقيلا لدى كتاب القرن الرابع الهجرى (٣) فلا يكاد يمضي حتى يعودون الى ما الفوه من مجون وخمر .

ولم تكن الاعياد الدينية وحدها المعتبرة ،وانما لاحظنا من قصائد التهنئة ان الامراء جروا على الاحتفال بالاعياد الفارسية ايضا كالنيروز والمهرجان .

اذا ، شعر الصابي غني بالدلالة على الحياة الادبية والاجتماعية في عصره وخاصة على الطبقة المترفة منه التي تحتفل بالاعياد ، وهو يقربنا من فئة الكتاب الذين يعانون الكثير ويتقلبون بين سعادة وشقاء ، وغنى وفقر . اما من الناحية الادبية ، فهو نموذج من

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ،ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ،ص ٢٧٨ .

(٣) مبارك ، النثر الفني ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

ادب هذا العصر ، حيث كثر الجامعون بين الكتابة والشعر ، فهو لا يمثل ناحية ابداعية معينة انما هو بمجمله شعر وصفي خير ما فيه تمثيله للحياة العباسية في عصره ، فهو لا يخرج عن صفات العصر ان بمعانيه او بألفاظه واساليبه •

خاتمـــــــة

يبدو لنا اخيرا ان دراسة حياة ابي اسحاق الصابي لم تكن بالمهمة السهلة، فمع بذل الجهد في البحث في المصادر بقيت بضع نقاط غامضة فيها وعدة علامات استفهام حولها ،والمثير للغموض والشك هو الناحية السياسية من حياته فلا نعلم حقا ان كان ابو اسحاق بريئا مظلوما فيما تعرض له من محن ام انه كان ضالعا في مؤمرات سياسية وقد عرضنا لهذه المسألة في حينه من عدة نواح واشرنا الى عدة احتمالات ممكنة . وقد تظهر هذه الحقائق يوما ما مع انتشار مادة جديدة من المعلومات المختزنة في رسائل الصابي المخطوطة او سواها من المصادر .

اما ابو اسحاق الكاتب، فأبرز ما يميز كتابته ،بالاضافة الى البلاغة العالية والصناعة الانيقة ،هو هذا الفكر المنطقي الدقيق والثقافة الواسعة اللذان يجعلانه متحكما في مادته رابطا بين اجزاء رسالته ،التي غالبا ما تكون طويلة، ربطا محكما فلا يمكن للقارىء ان يجد ثغرة ينفذ منها الى نقض ما يقوله او الاشارة الى نقص فيها . يلاحظ ايضا حسن تمثل الصابي للفكر الاسلامي حيث يظهر في رسائله التصور الاسلامي الصحيح لنظام الحكم وللحاكم العادل ويبدو الارتباط الوثيق بين الدين والسياسة في الاسلام حيث تصبح الامارة ركيزة للخلافة والخلافة استمرار الرسالة النبوة الالهية المصدر .

اما اثر الفكر الصابئي القريب من الفلسفة اليونانية ،فهو موجود وان كان بعيد الملمح ،فقد اشرنا من قبل الى ان الثنائية في الرسائل هي احدى دلالاته، نضيف هنا التقية التي هي من اصول الفكر الصابئي واليوناني الافلاطوني ايضا ، وربما هي التي

مكنت ابا اسحاق من طمس معتقد الصابئة في نفسه ظاهرا والنطق بما يقوله الاسلام بطلاقة وكأنه يعتقده ٠

اما الصابي الشاعر فهو بغدادي رقيق الطبع واللفظ له آراء في الشعر لم يتهيأ له التزامها ،يكون شعره احيانا مرآة لنفسه معبرا عن خلجاتها وسكناتها ثم يبتعد احيانا اخرى ليكون غريبا عليها لا علاقة له بها ٠

هذا باختصار ما ظهر لنا حول ابي اسحاق الصابي الانسان والكاتب والشاعر ،وبهذا نرى تميزه عن معاصريه ، في نكباته المتصلة وبؤسه وشكواه ، وفي تمسكه بالدين والخلق ، يضيف اليهما المجون والغزل الغلماني في وقت واحد ،وفي قدرته على الجمع بين معتقد يبطنه وديانة يدعو لها ظاهرا ويؤيدها ويتكلم باحكامها فابو اسحاق شخصية متميزة وكاتب مبدع وشاعر رقيق عسى الايام ان تظهر لنا المزيد حوله ٠

ثبت باسماء المصادر والمراجع التي ترجمت للصابي او ذكرت اخباره:

المصادر

ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ،ج ٩،ص ١٠٦،

بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٦ / ١٩٦٦.

ابن تغري بردي الاتابكي ،جمال الدين ابو المحاسن يوسف،النجوم الزاهرة في ملوك

مصر والقاهرة،ج ٤،ص ١٦٧، القاهرة : طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية،

١٩٢٩ ـ ١٩٥٦.

ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد ،وفيات الاعيان وانباء ابناء

الزمان،ج ١، ص ٥٢، (تحقيق احسان عباس)، بيروت : دار الثقافة، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢/

١٣٨٨ ـ ١٣٩٢ .

ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي بن احمد ،شذرات الذهب في اخبار من ذهب،

ج ٣، ص ١٠٦ ،مصر : مكتبة القدسي ، ١٣٥٠ .

ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي ،البداية والنهاية في

التاريخ ،ج ١١،ص ٣١٣،مصر : مطبعة السعادة، ١٣٤٨ ـ ١٣٥٨/ ١٩٢٩ ـ ١٩٣٩.

ابن النديم ،ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب الوراق ،الفهرست، ص ١٩١ (تحقيق رضا تجدد)،

طهران : ١٩٧١.

ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل ،المختصر في اخبار البشر،ج ٢، ص١٢٩،

القاهرة : المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٥.

التوحيدي ،ابو حيان علي بن محمد ،الامتاع والمؤانسة ، ج ١ ،ص ٦٨ (تحقيق احمد امين واحمد الزين) ،بيروت وصيدا : نسخة مصورة عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،منشورات المكتبة العصرية ، ١٣٧٣ / ١٩٥٣ .

الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ،يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ،ج ٢ ،ص ٢٤١ ،مكة المكرمة : دار الكتب العلمية ودار الباز للنشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩/١٣٩٩ .

الخوانساري ،محمد باقر الموسوي الاصبهاني ،روضات الجنات في احوال العلماء والسادات، ج ١ ، ص ١٦٣ ، (تحقيق اسد الله اسماعيليان) ، طهران وبيروت : مكتبة اسماعيليان ودار المعرفة ، ١٣٩٠ ــ ١٣٩٢ هـ .

الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ، سير اعلام النبلاء ، ج ١٦ ، ص ٢٣ ، (تحقيق اكرم البوشي واشراف شعيب الارنؤوط) ،بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣/١٩٨٣ .

ــــ ، العبر في خبر من غبر ، ج ٣ ، ص ٢٤ (تحقيق فؤاد سيد) ،الكويت : ١٩٦١ .

الروذراوري ،ابو شجاع محمد بن الحسين ،الذيل على تجارب الامم ،ص ٢١ ــ ٢٤ و ٥٢ (تحقيق هـ . ف . آمدروز) ،مصر : مطبعة شركة التمدن الصناعية ، ١٣٣٤/١٩١٦ .

الصابي ،ابو الحسين هلال بن المحسن ،غرر البلاغة ، مقدمة المحقق ص ١٨ (تحقيق اسعد ذبيان) ،بيروت : دار الكلمة ،الطبعة الاولى ، ١٤٠٣/١٩٨٣ .

الصابي ،غرس النعمة ابو الحسن محمد بن هلال ، الهفوات النادرة ، مقدمة المحقق ص ١٢ ، (تحقيق وتعليق صالح الاشتر) ، دمشق : مطبوعات مجمع اللغة العربية ،الطبعة الاولى ، ١٣٨٧/ ١٩٦٧ .

الصفدي ،صلاح الدين خليل بن ايبك ، الوافي بالوفيات ، ج ٦ ،ص ١٥٨ (باعتناء س. ديدرينغ) ، فسبادن : فرانز شتاينر ، ١٣٩٢/١٩٧٢ .

العباسي ، عبد الرحيم بن احمد ،معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٢ ،ص ٦١ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ،بيروت : عالم الكتب ،ومصر : المطبعة التجارية الكبرى ، ١٣٦٧/ ١٩٤٧ .

القفطي ، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف ، تاريخ الحكماء ، ص ٧٥ (تحقيق جوليوس ليبرت) ، ليبسك : ١٣٢٠/١٩٠٣ .

القلقشندي ،ابو العباس احمد بن علي ،صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج ١ ، ص ٤١ ، القاهرة : المطبعة الاميرية ، ١٩١٣ ـ ١٩١٩/ ١٣٣١ ـ ١٣٣٨ .

ياقوت الرومي ،ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٠ (بعناية احمد فريد رفاعي) ،مصر : مطبوعات دار المأمون ، ١٩٣٦/ ١٣٥٥ .

المراجع

بروكلمان ،كارل ، تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ،ص ١١٩ ، (ترجمة عبد الحليم النجار) ،القاهرة : دار المعارف ،الطبعة الرابعة ، (١٩٧٧ م) .

البغدادي ،اسماعيل ،هدية العارفين، ج ١ ،ص٧ ،استانبول : طبعة وكالة المعارف، ١٩٥١ .

الخاقاني ،علي ، شعراء بغداد ،ج ١ ،ص ٤٨ ، بغداد : مطبعة اسعد ، ١٣٨٢/ ١٩٦٢ .

الزركلي ،خير الدين،الاعلام،ج ١ ،ص٧٨ ،بيروت : دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠ .

كرنكو ، ف. " الصابي ابو اسحاق ابراهيم بن هلال " ، دائرة المعارف الاسلامية ،ج ١٤ ،ص٨٣ ، (ترجمة احمد الشنتناوي) .

مبارك ،زكي ، النثر الفني في القرن الرابع ،ج ٢ ، ص٢٩٠ ،القاهرة : دار الكتب المصرية ، الطبعة الاولى ، ١٣٥٢/ ١٩٣٤ .

المقدسي ،انيس،تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ، ج ١، ص٢٧٥ ، بيروت : منشورات الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية ،مطبعة سركيس، ١٩٣٥ .

Sezgin,Fuat, Geschichte des arabischen Schrifttums Vol.2. P.592, Leiden : E.J. Brill, 1975.

ملاحظة : لم يثبت من هذه اللائحة في قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث الا المصادر والمراجع المستعملة فيه .

لائحة باسماء المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث :

المصادر

ابن ابي اصيبعة ،موفق الدين ابو القاسم احمد بن القاسم ،عيون الانباء في طبقات الاطباء ، (تحقيق نزار رضا) ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ .

ابن ابي سلمى ،زهير ،ديوان زهير بن ابي سلمى (تحقيق كرم البستاني) ،بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٣٧٩ / ١٩٦٠ .

ابن الاثير ، ضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم ، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، ج ١ (تحقيق احمد الحوفي وبدوى طبانة) ،القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٣٧٩ / ١٩٥٩ ، القاهرة : المطبعة البهية ، ١٣١٢ هـ .

ابن الاثير ،عز الدين ابو الحسن علي بن محمد ،الكامل في التاريخ ، ج ٨ و ٩ ، بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .

ابن تغرى بردى ، الاتابكي ،جمال الدين ابو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ج ٤ ، القاهرة : طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ ــ ١٩٥٦ .

ابن جبير ، ابو الحسين محمد بن احمد ،رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار) ، مصر : مكتبة دار مصر ،دون تاريخ .

ابن الجوزى ،ابو الفرج عبد الرحمن بن علي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ج ٧ ،حيدر آباد الدكن : دائرة المعارف العثمانية ،الطبعة الاولى ، ١٣٥٨ هـ .

ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد ، الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج ١، مصر : المطبعة الادبية، الطبعة الاولى ، ١٣١٧ هـ .

ابن حمدون، ابو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي ، التذكرة الحمدونية، ج ١ (تحقيق احسان عباس) ، بيروت : معهد الانماء العربي ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٣ .

ـــــ ، التذكرة الحمدونية ، مخطوط برلين ١١٨٨ .

ـــــ ، التذكرة الحمدونية ، مخطوط رئيس الكتاب ٧٦٩ و ٧٧٠ و ٧٧١ .

ابن حوقل النصيبي ، ابو القاسم محمد ، صورة الارض ، ليدن : بريل ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ .

ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، ج ١ ـ ٦ (تحقيق احسان عباس) ، بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ / ١٣٨٨ ـ ١٣٩٢ .

ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ، بهجة المجالس وانس المجالس ، ج ١ ـ ٢ (تحقيق محمد مرسي الخولي ومراجعة عبد القادر القط) ، القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ .

ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي بن احمد ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ج ٣ ، مصر : مكتبة القدسي ، ١٣٥٠ هـ .

ابن الفقيه ، ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني ، كتاب البلدان ، ليدن : بريل ، ١٩٦٧ .

ابن قيم الجوزية ، شمس الدين ابو عبد الله محمد ، احكام اهل الذمة ، ج ١ (تحقيق صبحي الصالح) ، دمشق : مطبعة جامعة دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٣٨١ / ١٩٦١ .

ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١١،
مصر : مطبعة السعادة، ١٣٤٨ ـ ١٣٥٨/ ١٩٢٩ ـ ١٩٣٩.

ـــــ ، تفسير الحافظ ابن كثير، مصر : مطبعة المنار، ١٣٤٣ هـ ، نسخة مصورة عن
نسخة المطبعة الاميرية بمصر سنة ١٣٠٠ هـ .

ابن ماجه، ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن الحافظ ابن ماجه، ج ٢ (تحقيق
محمد فؤاد عبد الباقي ، مصر : دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٣ / ١٩٥٣.

ابن المعمر ، علي بن يحي بن علي بن محمد بن المعمر، لقاح الخواطر وجلاء البصائر، مخطوطة
جامعة كمبردج رقم Q9 139 .

ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين الافريقي ، لسان العرب، بيروت، دار صادر، دون تاريخ .

ابن النديم، ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب الوراق، الفهرست (تحقيق رضا تجدد)،
طهران : ١٩٧١.

ابن هشام، ابو محمد عبد الملك المعافرى، السيرة النبوية، ج ١ ـ ٢ (تحقيق مصطفى
السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبي) مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ،
الطبعة الثانية، ١٣٧٥ / ١٩٥٥.

ابو حنيفة، الامام النعمان بن ثابت، مسند الامام ابي حنيفة (تحقيق صفوت السقا)،
حلب : مكتبة ربيع، الطبعة الاولى ، ١٣٨٢ / ١٩٦٢.

ابو داود ، سليمان بن الاشعث السجستاني الازدى، سنن ابي داود ، ج ٣ (اعداد وتعليق

عـزت عبيد الدعـاس)، حمص : نشر وتوزيع محمد علي السيد ، ١٣٩١/ ١٩٧١.

ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل ، المختصر في اخبار البشر، ج ٢ ، القاهـرة : المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٥.

ابو نواس، الحسن بن هانئ ، ديوان ابي نواس (تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي) ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٣٧٢ / ١٩٥٣.

ابو يعلى الفراء ، محمد بن الحسين ، الاحكام السلطانية (تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي) ، القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥٧.

اخوان الصفاء ، رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، ج ٤ ، بيروت : دار صادر ، دون تاريخ .

ارسطوطاليس ، فن الشعر (ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي) ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٣.

الاصطخري ، ابراهيم بن محمد الفارسي ، المسالك والممالك (تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني) ، القاهـرة : ١٣٨١ / ١٩٦١.

الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد ، الاغاني ، ج ١٥ (تحقيق عبد السلام هارون) ، القاهرة : دار الكتب المصرية ١٣٧٩ / ١٩٥٩.

البحتري ، ابو عبادة الوليد بن عبيد ، ديوان البحتري ، القسطنطينية : مطبعة الجوائب ، الطبعة الاولى ، ١٣٠٠ هـ .

البلدي ، عبد الرحمن بن محمد ، الكافي في البيزرة (تحقيق احسان عباس وعبد الحفيظ

منصور) ،بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣.

التوحيدي ، ابو حيان علي بن محمد ، الامتاع والمؤانسة ، ج ١ و ٣ (تحقيق احمد امين واحمد الزين) ،بيروت وصيدا : نسخة مصورة عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، منشورات المكتبة العصرية ، ١٣٧٣ / ١٩٥٣.

ـــــ ،مثالب الوزيرين (تحقيق ابراهيم الكيلاني) ، دمشق : دار الفكر ، ١٩٦١.

ـــــ ،المقابسات (تحقيق محمد توفيق حسين) ، بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٧٠.

الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ،لطائف اللطف ، (تحقيق عمر الاسعد) بيروت : دار المسيرة ،الطبعة الاولى ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠.

ـــــ ،يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، ج ١ ـ ٣ ، مكة المكرمة : دار الكتب العلمية ودار الباز للنشر ،الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ / ١٣٩٩.

الحصري ،ابو اسحاق ابراهيم بن علي بن تميم القيرواني ،زهر الآداب وثمر الألباب ،ج ١ و ٢ و ٤ (تحقيق زكي مبارك) ، مصر : المطبعة التجارية الكبرى والمطبعة الرحمانية ، ١٩٢٥.

الحلاج ، ابو المغيث الحسين بن منصور ، ديوان الحلاج (تحقيق كامل مصطفى الشيبي) ، بغداد : دار آفاق عربية للصحافة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤.

الحميري ، محمد بن عبد المنعم ،الروض المعطار في خبر الاقطار (تحقيق احسان عباس) ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٥.

الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي بن ثابت ، تاريخ بغداد ، ج ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، دون تاريخ .

ـــــ ، التطفيل وحكايات الطفيليين واخبارهم ونوادر كلامهم واشعارهم (تعليق كاظم المظفر) ، النجف : المكتبة الحيدرية ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .

الخوانساري ، محمد باقر الموسوي الاصبهاني ، روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ، ج ١ و ٢ و ٦ (تحقيق اسد الله اسماعيليان) طهران وبيروت : مكتبة اسماعيليان ودار المعرفة ، ١٣٩٠ / ١٣٩٢ .

الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ، سير اعلام النبلاء ، ج ١٣ (تحقيق علي ابو زيد) و ج ١٦ (تحقيق اكرم البوشي) و ج ١٧ (تحقيق شعيب الارنؤوط) ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

ـــــ ، العبر في خبر من غبر ، ج ٣ (تحقيق فؤاد سيد) ، الكويت : ١٩٦١ .

الراغب الاصفهاني ، حسين بن محمد ، محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، ج ١ و ٣ و ٤ ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦١ .

الروذراوري ، ابو شجاع محمد بن الحسين ، الذيل على تجارب الامم (تحقيق هـ . ف . آمدروز) مصر : مطبعة شركة التمدن الصناعية ، ١٣٣٤ / ١٩١٦ .

الزبيدي ،محب الدين ابو الفيض محمد بن عبد الرزاق ،تاج العروس من جواهر القاموس ،

ج ١، مصر : الطبعة الاولى ، ١٣٠٦ هـ .

الزمخشري ، محمود بن عمر ،ربيع الابرار ونصوص الاخبار ، ج ٣ (تحقيق سليم النعيمي) ،

بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٨٠.

ـــــ ،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،ج ١ ـ ٢ ،القاهرة ،بولاق ، ١٢٨١ هـ .

السبكي ،تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٢،

مصر : المطبعة الحسينية ،الطبعة الاولى ، دون تاريخ .

الشريف الرضي ،ابو الحسن محمد بن ابي احمد الحسين ، ديوان الشريف الرضي ، ج ١ و ٢،

بيروت :دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٠ / ١٩٦١.

ـــــ ،ديوان الشريف الرضي (بشرح وتعليق كامل سليمان) ، ج ١ ،بيروت :

دار الفكر ومكتبة العرفان ، ١٩٥٦ / ١٣٧٥.

ـــــ ،رسائل الصابي والشريف الرضي (تحقيق محمد يوسف نجم) ، الكويت : ١٣٨٠ / ١٩٦٠.

الشهرستاني ،ابو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل ، ج ١ ـ ٢ (تحقيق محمد سيد

كيلاني) ،بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٢/١٩٨٢.

الصابي ،ابو اسحاق ابراهيم بن هلال ،المختار من رسائل ابي اسحاق الصابي (تحقيق الامير

شكيب ارسلان) ، بيروت، دار النهضة الحديثة ،دون تاريخ .

ـــــ ،المنتزع من كتاب التاجي (تحقيق محمد حسين الزبيدي ، بغداد ،دار الحرية

للطباعـــة، ١٣٩٧ / ١٩٧٧.

الصابـي ،غرس النعمـة ابو الحسن محمد بن هلال ،الهفـوات النادرة (تحقيق صالـح الاشتـر)، دمشـق : مجمـع اللغـة العربية ،الطبعة الاولـى ، ١٣٨٧/ ١٩٦٧.

الصابي ، ابو الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم ،تحفـة الامراء في تاريخ الوزراء ،بيـروت : مطبعـة الآبـاء اليسوعييـن، ١٩٠٤.

ـــــ ،كتـاب التاريخ ، نشـر ملحقا بكتاب تحفـة الامراء في تاريخ الوزراء .

ـــــ ،رسـوم دار الخلافـة (تحقيق ميخائيل عـواد) ،بغداد : مطبعـة العاني ،١٣٨٣/ ١٩٦٤.

ـــــ ، غـرر البـلاغـة (تحقيق اسعد ذبيـا ن)، بيروت : دار الكلمـة ،الطبعة الاولى ،١٤٠٣/ ١٩٨٣.

الصاحب بن عبـاد ، ابو القاسم اسماعيل بن عباد ، الروز نامجـة (تحقيق محمد حسن آل ياسيـن)، ملحق بكتـاب الامثال السائرة من شعر المتنبـي للصاحب ،بغداد : مكتبـة النهضـة الطبعـة الثانيـة، ١٣٨٥ / ١٩٦٥.

الصفـدي ،صلاح الدين خليل بن ايبك ،الوافـي بالوفيـات ،ج ٥ ـ ٦ (باعتنـاء س. ديدرينـغ)، فـسبـادن : فـرانـز شتاينر ، ١٣٨٩/ ١٩٧٠ ـ ١٣٩٢/ ١٩٧٢.

الضبـي ،المفضـل بن محمـد ،امثـال العرب (تعليـق احسـا ن عبـاس)، بيروت : دار الرائـد العربي ، الطبعـة الاولـى ، ١٤٠١ / ١٩٨١.

العباسي ، عبد الرحيم بن احمد ،معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ج ٢ (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) ، بيروت ومصر : عالم الكتب و المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٦٧ / ١٩٤٧ .

العتبي ،ابو النصر محمد بن عبد الجبار ،كتاب اليميني ،مطبوع على هامش كتاب شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ ابي نصر العتبي للشيخ احمد المنيني ، دون مكان وتاريخ .

العسكري ،ابو هلال الحسن بن عبد الله ، الصناعتين الكتابة والشعر ، مصر : مطبعة محمد علي صبيح ،الطبعة الثانية ،دون تاريخ .

الفيومي ،احمد بن محمد بن علي المقرى ،المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ج ١ ،مصر : المطبعة البهية ، ١٣٠٢ هـ .

القاضي التنوخي ، ابو علي المحسن بن علي ،نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، ج ١ و ٣ و ٥ و ٧ و ٨ (تحقيق عبود الشالجي المحامي) ، بيروت : دار صادر ، ١٣٩١ / ١٩٧١ ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

القفطي ،جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف ،تاريخ الحكماء (تحقيق جوليوس ليبرت) ، ليبزك : ١٣٢٠ / ١٩٠٣ .

القلقشندي ،ابو العباس احمد بن علي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج ١ و ٢ و ٦ و ٧ و ١٣ و ١٤ ،القاهرة : المطبعة الاميرية ، ١٣٣١/١٩١٣ ــ ١٣٣٨/١٩١٩.

القمي ،ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه ، من لا يحضره الفقيه ،ج ٣ (اشراف حسن الموسوى الخراساني) ،النجف : مطبعة النجف ، الطبعة الرابعة ، ١٣٧٨ هـ .

الكليني ، ابو جعفر محمد بن يعقوب الرازى ،الاصول من الكافي ،ج ١ (تعليق علي اكبر الغفارى) ، طهران : مكتبة الصدوق ، ١٣٨١ هـ .

الماوردى ،ابو الحسن علي بن محمد ،الاحكام السلطانية ،مصر : مطبعة الوطن ، ١٢٩٨ هـ .

المتنبي ،ابو الطيب احمد بن الحسين ،ديوان ابي الطيب المتنبي ، بشرح ابي البقاء العكبرى ، ج ٣ (تصحيح مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبي) مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥٥ / ١٩٣٦.

المسعودى ،ابو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ و ٢ و ٤ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ، القاهرة : مطبعة السعادة ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٤ / ١٩٦٤.

المقدسي ،ابو عبد الله محمد بن احمد الشامي البشارى ،احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن : بريل ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧.

مسكويه ، ابو علي احمد بن محمد ،تجارب الامم ، ج ١ و ٢ (تحقيق هـ . ف. آمد روز) مصر : مطبعة شركة التمدن الصناعية ، ١٣٣٢/١٩١٤ ــ ١٣٣٤/١٩١٦.

مسلم بن الحجاج ،ابو الحسين، الجامع الصحيح ، ج ٧،مصر : مطبعة محمد علي صبيح ، ١٣٣٤ هـ .

الميداني ،ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري ،مجمع الامثال ،ج ١ ـ ٢ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)،مصر : مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٤ / ١٩٥٥.

النووي ،الامام ابي زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي ، رياض الصالحين (تحقيق شعيب الارنؤوط) ، بيروت : مؤسسة الرسالة ،الطبعة الخامسة ، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

النويري ،شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، نهاية الارب في فنون الادب ،ج ١ ،القاهرة : دار الكتب المصرية ،الطبعة الثانية ، ١٣٤٧ / ١٩٢٩.

ياقوت الرومي ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم الادباء ،ج ٢ و ٤ و ٦ و ٧ و ٩ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ١٧ و ١٩ (بعناية احمد فريد رفاعي)،مصر : مطبوعات دار المأمون، ١٣٥٥/ ١٩٣٦.

ـــــ ،معجم البلدان ،ج ٢ ، بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٥ / ١٩٥٦.

آل ياسين ،محمد حسن ،الصاحب بن عباد حياته وادبه ،بغداد : دار المعارف ،الطبعة الاولى ، ١٣٧٦ / ١٩٥٧.

المراجع

بروكلمان، كارل ، تاريخ الادب العربي ، ج ٢ (ترجمة عبد الحليم النجار) ،القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة ، (١٩٧٧؟) .

البغدادي ،اسماعيل ،هدية العارفين،ج ١،استانبول : طبعة وكالة المعارف، ١٩٥١.

الحسني ، السيد عبد الرزاق ، الصابئون في حاضرهم وماضيهم،دون مكان،الطبعة الخامسة، ١٣٩٨/١٩٧٨.

الحلي ،عبد الحسين،حياة الشريف الرضي ،بغداد : مطبعة الحرية، ١٣٨٨/١٩٦٨.

دراور، الليدي ايثل ستيفانا ، الصابئة المندائيون (ترجمة نعيم بدوي و غضبان رومي) ، بغداد : مكتبة الاندلس، ١٩٦٩.

الزركلي ،خير الدين،الاعلام،ج ١ ،بيروت : دار العلم للملايين،الطبعة الخامسة ١٩٨٠.

ضيف،شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ،القاهرة : دار المعارف، الطبعة الثانية، (؟١٩٧٧).

طبانة ، بدوي ،الصاحب بن عباد الوزير الاديب العالم،مصر : المؤسسة المصرية العامة، ١٣٨٣/١٩٦٣.

عباس،احسان،تاريخ النقد الادبي عند العرب، بيروت : دار الثقافة ،الطبعة الثانية، ١٣٩٨/١٩٧٨.

ـــــــ ،الشريف الرضي ،بيروت : دار بيروت ودار صادر، ١٣٧٩/١٩٥٩.

عليان ، رشدي ، الصابئون حرانيون ومندائيون ،بغداد: مطبعة دار السلام، ١٩٧٦.

فضل الله،السيد محمد حسين، "تأملات حول شخصية الشريف الرضي" ،الثقافة الاسلامية. ٢ (١٤٠٦هـ) ص ١٢ ــ ٢٤.

قطب،سيد ،في ظلال القرآن،ج ١، ٢ و ٦ ،بيروت : دار الشروق ،الطبعة العاشرة، ١٤٠٢/١٩٨٢.

مبارك، زكي ، النثر الفني في القرن الرابع، ج ٢ ، القاهرة : دار الكتب المصرية ،

الطبعة الاولى ، ١٣٥٢/١٩٣٤ .

متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١ و ٢ (تعريب محمد عبد

الهادي ابو ريدة) ، القاهرة وبيروت : مكتبة الخانجي ودار الكتاب العربي ،

الطبعة الرابعة ، ١٣٧٨ / ١٩٦٧ .

مراني ، ناجية ، مفاهيم صابئية مندائية ، بغداد ، مطبعة شركة التايمس ، ١٩٨١ .

مردم ، خليل ، ابن العميد ، دمشق : مكتبة عرفة ، مطبعة الاعتدال ، ١٣٥٠/ ١٩٣١ .

ـــــ ، الصاحب بن عباد ، دمشق : مطبعة الترقي ، ١٣٥١/١٩٣٢ .

دائرة المعارف الاسلامية ، نقلها الى العربية : محمد ثابت الفندي واحمد الشنتناوي

وابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، ج ١٤ ، دون مكان ، (١٩٣٣ ؟) .

Sezgin, Faut, Geschichte des arabischen Schrifttums, vol . 2

Leiden : E. J. Brill, 1975.

Encyclopaedia of Religion and Ethics, James

Hastings, 13vol. New York : Scribner, 1955- 56 .

ملحق

الشواهد النثرية

١ ـ " نسخة كتاب الى المطيع لله

عن عز الدولة ابي منصور عند دخوله الموصل

وانهزام ابي تغلب بن حمدان عنها (١)

" لعبد الله الفضل الامام المطيع لله امير المؤمنين، من عبده، وصنيعته عز الدولة بن معز الدولة مولى امير المؤمنين، سلام على امير المؤمنين ورحمة الله، فاني احمد الى امير المؤمنين الله الذى لا اله الا هو، واسأله ان يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، اما بعد، اطال الله بقاء مولانا امير المؤمنين وادام له العز والتأييد والتوفيق والتسديد، والعلو والقدرة، والظهور والنصرة، فالحمد لله العلي العظيم، الأزلي القديم، المتفرد بالكبرياء والملكوت، المتوحد بالعظمة والجبروت، الذى لا تحده الصفات، ولا تحوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيره مرور زمان، ولا تتمثله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القلوب بخواطرها، فاطر السموات وما تظل، وخالق الارض وما تقل، الذى دل بلطيف صنعته، على جليل حكمته، وبين بجلي برهانه، عن خفي وجدانه، واستغنى بالقدرة عن الاعوان، واستعلى بالعزة عن الاقران، البعيد عن كل معادل ومضارع، الممتنع على كل مطاول ومقارع، الدائم الذى لا يزول ولا يحول، العادل الذى لا يظلم ولا يجور، الكريم الذى لا يضن ولا يبخل، الحليم الذى لا يعجل ولا يجهل * ذلكم الله ربكم فادعوه مخلصين له

---

(١) رسائل الصابي، ص ١١٩ ـ ١٣٥، وانظر الحادثة في مسكويه، تجارب الامم، ج ٢، ص ٣١٥ ـ ٣٢٠ وابن الاثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٣١ ـ ٦٣٤.

الـسـديـق ﴾ (١) منزل الرحمة على كل ولي توكل عليه ،وفوض اليه ،
وأتمر لأوامره ،وازدجر بزواجره ، ومحل النقمة بكل عدو صد عن سبيله وسننه ،
وصدف عن فرائضه وسننه ،وحاد ، في مكسب يده ، ومسعاة قدمه ، وخائنة عينه ،
وخافية صدره ،وهو راتع رتعة النعم السائمة ،في اكلاء النعم السابغة ،وجاهل جهلها
بشكر آلائها ، ذاهل ذهولها عن طرق استبقائها ، فلا يلبث ان ينزع سرابيلها صاغرا ،
ويتعرى منها حاسرا ، ويجعل الله كيده في تضليل ،ويورده شر المورد الوبيل ﴿ ان الله
لا يصلح عمل المفسدين (٢) ولا يهدي كيد الخائنين ﴾ (٣) . والحمد لله الذي اصطفى للنبوة
احق عباده بحمل اعبائها وارتداء ردائها . محمدا صلى الله عليه وسلم ،وعظم خطره
وكرم ،فصدع بالرسالة ،وبالغ في الدلالة ،ودعا الى الهداية ،وتجلى من الغواية ، ونقل
الناس عن طاعة الشيطان الرجيم ،الى طاعة الرحمن الرحيم ،واعلقهم بحبائل خالقهم ورازقهم ،
وعصمة محييهم ومميتهم ، بعد انتحال الأكاذيب والاباطيل ، واستشعار المحالات
والأضاليل ،والتهور في الاعتقادات الذائدة عن النعيم ، السائقة الى العذاب الاليم ، فصلى
الله عليه من ناطق بالحق ،منقذ للخلق ، وناصح للرب ،ومؤد للفرض ،صلاة زاكية نامية ،رائحة
غادية ، تزيد على اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الاعوام والادوار ،

(١) سورة غافر (٤٠) : ٦٤ و ٦٥ .
(٢) سورة يونس (١٠) : ٨١ .
(٣) سورة يوسف (١٢) : ٥٢ .

والحمد لله الذي انتخب امير المؤمنين ، اطال الله بقاءه ، من ذلك السنخ الشريف ، والعنصر المنيف ، والعترة الثابت اصلها ، الممتد ظلها ، الطيب جناها ، الممنوع حماها ، وحاز له مواريث آبائه الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين ، واختصه من بينهم بتطاول امد الخلافة واستحصاف حبلها في يده ، ووفقه لاصابة الغرض من كل مرمى يرميه ، ومقصد ينتحيه ، وهو جل ثناؤه الحقيق باتمام ذلك عليه ، والزيادة فيه لديه ، واحمده سبحانه حمدا ابتديه ثم اعيده ، واكرره واستزيده ، على ان اهل ركن الدولة ابا علي ، وعضد الدولة ابا شجاع مولى امير المؤمنين ، واهلني للاثرة عنده ، ايده الله ، التي يذذنا بها الأكفاء ، وفتنا فيها القرناء ، وتقطعت دونها انفاس المنافسين ، وتضرمت عليها احشاء الحاسدين ، وان اولاني في كل مغزى في خدمة امير المؤمنين اغزوه ، ومنحى انحوه ، وشأى ارأبه ، وشعث المه ، وعدو ارغمه ، وزائغ اقومه ، افضل ما اولاه عباده ، السليمة غيوبهم ، النقية جيوبهم ، المأمونة ضمائرهم ، المشحوذة بصائرهم ، من تمكين يد ، وتثبيت قدم ، ونصرة راية ، واعلاء كلمة ، وتقريب بغية ، وانالة امنية ، وكذلك يكون من الى ولاء امير المؤمنين اعتزاؤه ، وبشعاره اعتزازه ، وعن زناده قدحه ، وفي طاعته كدحه ، والله ولي بادامة ما خولنيه من هذه المثبتة ، وسوغنيه من هذه الموهبة ، وان يتوجه امير المؤمنين في جميع خدمه ، الذابين عن حوزته ، المهيبين الى دعوته بيمن الطائر ، وسعادة الطالع ، ونجاح المطلب ، وادراك الارب ، وفي اعدائه الغامطين لنعمته ، الناقضين مواثيق بيعته ، باضراع الخد ، واتعاس الجد ، واخفاق الامل ، واحباط العمل ، بقدرته .

ولم يزل مولانا امير المؤمنين، اطال الله بقاءه، ينكر قديما من فضل الله بن ناصر الدولة احوالا حقيقا مثلها بالانكار مستحقا من ارتكبها الاعراض، وانا اذهب في حفظ غيبه، واجمال محضره، وتمحل حججه وتلفيقها، وتأليف معاذيره وتنميقها، مذهبي الذي اعم به كل من جرى مجراه، من ناشئ في دولته، ومغتذ بنعمته، ومنتسب الى ولايته، ومشتهر بصنيعته، واقدر ان استصلحه لامير المؤمنين، اطال الله بقاءه، واصلحه لنفسه بالتوقيف على مسالك الرشاد، ومناهج السداد، وهو يريني ان قد قبل وارعوى، وابصر واهتدى، حتى رغبت الى امير المؤمنين، ادام الله عزه، فيما شفعني متفضلا فيه من تقليده اعمال ابيه والقناعة منه في الضمان بميسور بذله، واشارة به على من هو فوقه من كبراء اخوته واهله، فلما بلغ هذه الحال ألط بالمال، وخاس بالعهد، وطرق لفسخ العقد، واجرى الي امورا كرهتها، ونفذ الصبر مني عليها، وخفت ان استمر على الاغضاء عنها، والمسامحة فيها، فيطلع الله مني على اضاعة الاحتياط في امر قلدني امير المؤمنين، اطال الله بقاءه، زمامه، وضمنني دركه، وارخاء لبب رجل فيل في الاعتماد عليه رأيي، وعول في اخذه بما يلزمه على نظري واستيفائي، فتناولته بأطراف العذل ملوحا، ثم بأثباجه منصحا مصرحا، ورسمت لعبد امير المؤمنين الناصح ابي طاهر ان يجد به ويوسطائه وسفرائه في حال، ويدخل عليه من طريق المشورة والرفق في اخرى، وينتقل معه بين الخشونة التي يقفو فيها اثرى، واللين الذي لا يجوز ان يحسه مني، تقديرا لانثنائه، وزوال التوائه، ففعل ذلك على رسمه في التأني لكل

فاسد حتى يصلح ، ولكل آب حتى يسمح ،ولم يدع التناهي في وعظه ،والتمادي في نصحه ،وتعريفه سوء عاقبة اللجاج ،ومغبة الاحراج ،وهو يزيد طمعا في الاموال وشرها ،وعمى في الرأي وعمها ،الى ان كاد امرنا معه يخرج عن حد الانتظار الى حد الرضى بالاصرار ، فاستأنفت ادراع الحزم ،وامتطاء العزم ،ونهضت الى اعمال الموصل وعندي انه يغنيني عن الاتمام ويلقاني بالاعتاب ، وينقاد الى المراد ويتجنب طرق العناد ،فحين عرف خبر مسيري وجدي فيه وتشميري ،برز بروز المخالف المكاشف ،وتجرد تجرد المواقع المواقفه وهو مع ذلك اذا ازددت منه تقربا ، ازداد مني رعبا ،واذا دلفت اليه ذراعا ، نكص عني باعا ،وتوافت الى حضرتي وجوه القبائل من عقيل وشيبان وغيرهما في الجمع الكثيف من صعاليكهما ،والعدد الكثير من صناديدهما ،داخلين في الطاعة ،متصرفين في عوارض الخدمة ،فلما شارفت الحديثة انتقضت عزائم صبره ،وتقوضت دعائم امره ،وبطلت امانيه ووساوسه ، واضمحلت خواطره وعوا جسه ،واضطرب عليه من ثقاته وغلمانه من كان بهم يعتضد ،وعليهم يعتمد ، وبدأوا بخذلانه والاخذ لنفوسهم ،ومفارقته والطلب بحظوظهم ،وحصل بحضرتي منهم الى هذه الغاية زهاء خمسمئة رجل ذوي خيل مختارة ، واسلحة شاكية ،فصادفوا عندي ما املوا من فائض الاحسان ،وغامر الامتنان ، وذكروا عمن وراءهم من نظرائهم التنزي الى الانجذاب والحرص على الاستئمان ،وانهم يردون ولا يتأخرون ، ويبادرون ولا يتلومون ،ولما رأى ذلك لم يملك نفسه ان مضى هاربا على طريق سنجار ، منكشفا عن هذه الديار ،قانعا من تلك الآمال الخائبة ،والظنون الكاذبة ، بسلامة

حشاشة هي رهينة غيها ، وصريعة بغيها ،وكان انهزامه بعد ان فعل فعل السخيف، وكادنا الكيد الضعيف،بأن اغرق سفن الموصل وعروبها ،واحرق جسرها واستقدم الى اهلها ، وتزود منهم اللعن المطيف به اين يمم ،الكائن معه حيث خيم ، ودخلتها يومي هذا ، ايد الله امير المؤمنين،دخول الغانم الظافر ،المستعلي الظاهر ، فسكنت نفوس سكانها ،وشرحت صدور قطانها ،واعلمتهم ما امرني به امير المؤمنين ، ادام الله عزه، واعلى امره ،من تأنيس وحشتهم ،ونظم الفتهم ، وضم نشرهم ، ولم شعثهم ،واجمال السيرة فيهم ،في ضروب معاملاتهم وعلقهم ، وصنوف متصرفاتهم ومعايشهم ،فكثر منهم الثناء والدعاء ،والله سامع ما رفعوا ومجيب ما سألوا .

واجلت حال هذا الجاهل ،ايد الله امير المؤمنين، عن اقبح هزيمة ، واذل هضيمة ، واسوأ رأى ،وانكر اختيار ،لانه لم يلقني لقاء الباخع بالطاعة ،المعتذر من سالف التفريط والاضاعة ،ولا لقاء المصدق لدعواه في الاستقلال بالمقارعة ، المحقق لزعمه في الثبات للمدافعة ،ولا كان في هذين الامرين بالبر التقي ،ولا الفاجر القوى ،بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره ،وفضيحة جبنه وخووره ، متنكبا للصلاح ، عادلا عن الصواب ، قد ذهب عنه الرشاد ،وضربت بينه وبينه الاسداد ،وانزله الله منزلة مثله ممن اساء حفظ الوديعة ، وجوار الصنيعة ، واستوجب نزعهما منه ، وتحويلهما عنه ،وتأملت ايد الله مولانا امير المؤمنين امره بالتجريب ،وتصفحته على التقليب ،فاذا هو الرجل الذى اطاع ابوه فيه هوى امه ،وعصى دواعي رأيه وحزمه ، وقدمه من ولده ،على من هو آنس رشدا ،واكبر سنا ،واثبت جاشا ،واجرى جنانا ، واشجع

قلبا ، واوسع صدرا ،واجدر بمخايل النجابة ،وشمائل اللبابة ،فلما اجتمعت له اسباب القدرة والثروة ، وامكنته منا هز الغرة والفرصة ،وثب عليه وثبة السرحان في ثلة الضان ، وجزاه جزاء ام عامر لمجيرها ،اذ فرته بأنيابها واظافيرها ،واجتمع واخوه من الام ،المرتضع معه لبان الاثم ، المكنى ابا البركات ، على ان نشزا عنه وعقاه ،وقبضا عليه واوثقاه ،واقراه من قلعتهما بحيث يقر العتاة ،وتعاقب الجناة ، ثم اتبعا ذلك باستحلال دمه ،وافاضة مهجته ، غير راعيين فيه حق الابوة ، ولا حانيين عليه حنو البنوة ،ولا متذممين من الاقدام على مثله ممن تقدمت عند سلطانه قدمه ،وتوكدت اواصره وعصمه ،ولا راحمين له من ضعف شيخوخته ،ووهل كبرته ، ولا مصغيين الى وصية الله اياهما به ،التي نصها في محكم كتابه ،وكررها في آيه وبيناته ،اذ يقول : * اشكر لي ولوالديك الي المصير* (١) ، واذ يقول : * وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا * (٢) ، فبأي وجه يلقى الله قاتل والد حدب

---

(١) سورة لقمان (٣١) : ١٤ ،

(٢) سورة الاسراء (١٧) : ٢٣ و ٢٤ ،

قد امر الا ينهره ؟ وبأى لسان ينطق يوم يسأل عما استجازه فيه وفعله؟ تالله لو ان بمكانه عدوا لهما قد قارضهما الذحول وقارعهما عن النفوس، لقبح بهما ان يلؤما ذلك اللؤم عند الظفر به، وان يركبا تلك الخطة الشنعاء في الاخذ بناصيته .

ولم يرض فضل الله بما اتاه حتى استوفى حدود قطع الرحم، بان يتبع اكابر اخوته السالكين خلاف سبيله، المتبرئين الى الله من عظيم ما اكتسب، ووخيم ما احتقب، لما غضبوا لأبيهم، وامتعضوا من المستحل فيه وفيهم، فقبض على محمد بن ناصر الدولة حيلة وغيلة، وغدرا ومكيدة، ونابذ حمدان بن ناصر الدولة منابذة خار الله له فيها بأن اصاره من فناء امير المؤمنين ايده الله الى الجانب العزيز، والحرز الحريز، وان اجرى الله عز وجل على يده الحرب الواقعة بينه وبين المعروف بكنيته ابي البركات، التي لقاه الله فيها نحسه، واتلف نفسه، وصرعه بعقوقه وبغيه، وقنعه بعاره وخزيه، وهو مع ذلك لا يتعظ ولا يتنزع، ولا يقلع ولا يزدجر، اصرارا على الجرائر التي الله عنها حسيبه، وبها طليبه، والدنيا والآخرة مرصدتان له بالجزاء المحقوق عليه، والعقاب المسوق اليه .

واعظم من هذا، ايد الله امير المؤمنين، خطبا، واوعر مسلكا ولحبا، ان من شرائط العهد الذى كان قد عهد اليه، والعقد الذى عقد له، والضمان المخفف مبلغه عنه، المأخوذ عفوه منه، ان يتناهى في ضبط الثغور، وجهاد الروم، وحفظ الاطراف، ورم الاكناف، فما وفى بشيء من ذلك، بل عدل عنه الى الاستئثار بالاموال واقتطاعها، واحرازها في مكامنها وقلاعها، والضن بها دون الاخراج في وجوهها،

والوضع لها في حقوقها ، وان تراخى في امر عظيم الروم مهملا ، واطرح الفكر فيه مغفلا ، حتى هجم في الديار ، واثر الآثار ، ونكى القلوب ، وابكى العيون ، وصدع الاكباد ، واحر الصدور ، فما كان عنده فيه ما يكون عند المسلم القارئ لكتاب الله اذ يقول :

﴿ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (١) .

بل صدف عن ذكر الله لاهيا ، وعدل عن كتابه ساهيا ، واستفسخ ذلك البيع والعقد ، وتنجز الوعيد والوعد ، ولاطف طاغية الروم ، وهاداه ، وساراه ، واعطاه وصانعه بمال المسلمين ، الذى ان سلم دينه ، وصح يقينه ، ان ينفقه في مرابطيهم ، ويذب به عن حريمهم ، لا ان يعكسه عن جهته ، ويلفته عن وجهته بالنقل الى عدوهم ، وادخال الوهن بذلك عليهم . وقاد اليه من الخيل العتاق ما هو عون للكفار على الايمان ، ونجدة للطاغية على السلطان ، وكان فيما اتحفه به الخمر التي حظر الله عليه ان يشربها ويسقيها وتعبده بان يجتنبها ويجتويها ، وصلبان ذهب صاغها له ، وتقرب بها اليه تقربا قد باعده الله فيه عن الاصابة والاصالة ، وادناه من الجهالة والضلالة ، حتى كأنه عامل من عماله ، او بطريق من بطارقته ، فأما نشله عن مكافحته ، ولهجه بملاطفته ، فضد الذى امره الله به في قوله : ﴿يا ايها

---

(١) سورة التوبة (٩) : ١١١ .

الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ (١) ٠ واما ما نقله من الخيل من ديار المسلمين الى ديار اعدائهم فنقيض قوله عز وجل : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (٢) ٠ واما اهداؤه الخمر والصلبان فخلاف عليه تبارك وتعالى اذ يقول : ﴿ انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ (٣) ٠ كل ذلك عنادا لرب العالمين، وطمسا لاعلام الدين، وضنا بما يحامي عليه من ذلك الحطام، المجموع من الحرام، المثمر من الآثام، وقد فعل الآن بي وبالعساكر التي معي ومن يضم من اولياء امير المؤمنين، اطال الله بقاءه، الذين هم اخوته وصحبه ان كان مؤمنا، وانصاره وحزبه ان كان موقنا، من توعير المسالك، وتغريق الدروب، وتضييق الاقوات، واستهلاك الازواد، ليوصل الينا الضر، ويلحق بنا الجهد، فعل العدو المبين، المخالف في الدين٠ فهل يجتمع في احد من المساوى، ايد الله امير المؤمنين، ما اجتمع في هذا الناد العاند، والشاذ الشارد ؟ وهل يطمع من مثله في حق يقضيه، او فرض يؤديه، او عهد يرعاه، او ذمام يحفظه، وهو لله عاص، وللامامة مخالف، ولوالده قاتل، ولرحمه قاطع؟ كلا

---

(١) سورة التوبة (٩) : ١٢٣٠
(٢) سورة الانفال (٨) : ٦٠٠
(٣) سورة المائدة (٥) : ٩٠٠

والله هو الحقيق بان تثنى اليه الاعنة ، وتشرع نحوه الاسنة ،وتنصب له الارصاد ،وتشحذ له السيوف الحداد ،ليقطع الله بها دابره ،ويجب غاربه ، ويصرعه مصرع الاثيم المليم ، المستحق للعذاب الاليم ،ويفي ٔ الى الحق افاءة الداخل فيه بعد خروجه ، العائد اليه بعد مروقه ، التائب المنيب ،النازع المستقيل ،فيكون حكمه شبيها بحكم الراجع عن الردة ، المحمول على ظاهر الشريعة ،والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

فالحمد لله الذى هدانا لمراشدنا ،ووقف بنا على السبل المنجية لنا ، والمقاصد المفضية الى رضاه ، البعيدة عن سطاه ، والحمد لله الذى اعز امير المؤمنين بالنصر ، واعطاه لواء القهر ، وجعل اولياءه العالين الظاهرين ،واعداءه السافلين الهابطين ،وهنأه الله هذا الفتح ،ولا اخلاه من اشكال له تقفوه وتتبعه ،وامثال تتلوه وتشفعه ، واصلا فيها الى ما وصل فيه اليه من حيازته مهنئا لم يسفك فيه دم ، ولم ينتهك محرم ، ولم ينل جهد ،ولم يمسس نصب ،انهيت الى امير المؤمنين ،اطال الله بقاءه ،ذلك ،ليضيف صنع الله فيه ،الى السالف من عوارفه عنده ، واياديه ،وليجدد من شكره جل وعلا ،ما يكون داعيا الى الادامة والمزيد ،مفضيا للعون والتأييد ،ان شاء الله . وكتب يوم الجمعة لتسع ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلثمائة * .

٢ ـ " وكتب عن المطيع لله رحمه الله

الى ركن الدولة ابي علي بخبر اسر الدمستق

سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (١)

" اما بعد ، فالحمد لله ذى المنة والطول ، والقدرة والحول ، والغلبة والصول ، المنفرد بكبريائه ، المنعم على اوليائه ، المنتقم من اعدائه ، رافع الحق ومعليه ، وقامع البطل ومرديه ، ومعز الدين ومديله ، ومذل الكفر ومذيله ، المنزل رحمته على من جاهد في طاعته ، المحل سطوته بمن جاهر بمعصيته ، المتكفل بتأييد حزبه حتى يظفر ، وخذلان حربه حتى يدحر ، الذى لا يفوته الهارب ، ولا ينجو منه الموارب ، ولا يعييه المعضل ، ولا يعجزه المشكل ، ولا تبهظه الاشغال ، ولا تؤوده الاثقال ، الواحد الذى لا شريك له ، الفرد الذى لا قرين معه ، الغني المفتقر اليه ، القوى المعتمد عليه ، بالغ امره بلا مؤازر ، ومضي حكمه بلا مظاهر ﴿ ذلكم الله ربكم فادعوه مخلصين له الدين ﴾ (٢) . والحمد لله الذى اختار لنا الاسلام دينا وآثره ، واظهره على الدين كله ونصره ، وشرعه شرعا لا ينسخ ، وعقده عقدا لا يفسخ ، وجعله حقا لا يدحض ، وامره امرارا لا ينقض ، وقضى له بعز الموافقين وذل المنافقين ، وظهور المعاضدين وثبور المعاندين ، واصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم من اكرم المناسب ، واجتباه من اشرف

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٦٤ ـ ٧٥ ، وانظر تفاصيل الحادثة في مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٩ و ٣١٢ ـ ٣١٣ وابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٧ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ . وفي التوحيدى ، الامتاع (ج ٣ ، ص ١٥٠ ـ ١٥٩) ذكر لما سبق اسر الدمستق من الفتنة في بغداد ولقاء العلماء لبختيار .
والدمستق قائد بيزنطي مسؤول عن الاغارة على الدولة الحمدانية ، يسمى في بعض المصادر : ابن الشمشقيق واسمه جون زيمسكيس . (عن حديث للدكتور احسان عباس) .

(٢) سورة غافر (٤٠) : ٦٤ و ٦٥ .

المحاتد والمناصب، واستخلصه من اسرة هاشم، وفضله على جميع بني آدم، وايده بالملائكة المقربين وبعثه رسولا الى العالمين، فأدى امانة ربه مخلصا، وصدع برسالته مبلغا ملخصا . واستنقذ هذه الامة من الغواية، وعرفها طرق الهداية، وسلك بها سواء المحجة، ودعاها الى الحق باوضح حجة، وعدل بها عن عبادة الاوثان الى طاعة الرحمن، وعن دين الشيطان الى ارشد الاديان، فاصبح الناس على التعاطف والائتلاف عاكفين، وعن التهارج والاختلاف عازفين، اخوانا في ذات الله متوازرين، واقرانا في السعي لرضاه متضافرين، يرمون اعداءهم عن يد وساعد، ويرصدون لهم ارصاد رجل واحد، نعمة من الله اسبغها عليهم، وموهبة ازلها اليهم، اذ يقول جل جلاله وعظمت كبرياؤه : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ (١) . والحمد لله الذى برأ امير المؤمنين من شجر النبوة الطيب، وذرأه من عنصرها الخالص المهذب، وحباه بفضيلة الامامة، ورداه رداء الكرامة، وبوأه منازل اسلافه الطيبين، وحازلهم مواريثهم اجمعين، واهله لعظيم ما استرعاه، واعانه على الاستقلال بما استكفاه، وافترض طاعته على عباده وخلقه، وانهضه فيهم بتأدية واجبه وحقه، واختصه بأمد في الخلافة اطاله، ومدى فات به نظراءه واشكاله، وحبب اليه جواد العدل المنجية، وجنبه عوادل الجور المردية، فالدهماء بسياسته ساكنة، والرعية برعايته آمنة، والفتوح في ايامه متصلة متقاطرة، والغنائم على المسلمين ببركته دارة متواترة، وقد كنفه الله منذ منحه فضيلة هذه الآلاء، وحمله اوق هذه الاعباء منك، كلأك الله، ومن ذويك وولدك وولد اخيك بركن لدولته لا يتزعزع ولا يتضعضع، وعضد لا يفت فيه، ولا توطأ نواحيه، وعز لا يضام ولا يرام، ومؤيد لا يعجز

(١) سورة آل عمران (٣) : ١٠٣ .

ولا ينكل ،وعمدة لا يضعف ولا يفشل ،فرايات امير المؤمنين اين توجهتم بها منصورة ،
وجيوشه انى صرفتموها ظافرة موفورة ،وعوائد الله عليه بكم وعلى ايديكم جارية ،وفوائد ه
اليه ببركتكم ويمنكم متوافية ،وانت حفظ الله النعمة فيك سنخ تلك الاروسة وعظيمها ،
وعميد تلك الجرثومة وزعيمها ، قد أنبت خطيها وشيجك، وقوم اغصانها تخريجك،
وتشعبت شعبها من اصولك ،واحتذت فروعها على تمثيلك، ونساب عز الدولة ابو منصور
مولى امير المؤمنين امتع الله به عنك حرس الله فيك النعمة وعن شيخه معز الدولة ابي
الحسين، تولاه الله باوسع الرحمة، اتم نيابة واوقاها ، وخدم امير المؤمنين في مهمه
اوفى خدمة واشفاها ،لا يذخره نصحا ولا يألوه جهدا في ضبط الثغور وسدها ،ورم
الامور وشدها ،وترتيب الاحراس بمراكزها ، وتسريب البعوث في مقاصدها ،ومجاهدة الكفار
ومقارعتها ،ومناضلة الاعداء ومدافعتها ،واصلاح البلاد وعمارتها ،ورعاية الرعية وسياستها ،
يسافر رأيه وهو دان لم يبرح ،ويسير تدبيره وهو شاو لم ينزح ،يتناول المعالي بثاقب حزمه ،
ويفترع الهضاب ببعيد همه، ويصيب الاغراض بصائب سهمه،ويطبق المفاصل بصواب
عزمه ،والله يمتع امير المؤمنين بك وبه ، ويدافع له عنك وعنه ، فقد ارقدتما طرفه بيقظتكما ،
وارغدتما عيشه بحفظكما ،ووصلتما ايام دعته بدأبكما ،واطلتما زمان راحته بنصبكما ،ولا
يخليه فيكما وفي اهليكما ،من نعمة يمدها الاولى من نعمه عليه ،ومنحة يعتدها العظمى من منحه
لديه ،بلطفه وعطفه ،وجوده ومجده .

وقد عرفت، احسن الله الولاية فيك، ما كان من عظيم الروم لما تطاول بواسط مقام عز الدولة ابي منصور مولى امير المؤمنين، رعاه الله، وثقته ببعد المسافة على ابي تغلب فضل الله بن ناصر الدولة عامل امير المؤمنين في الاستصراخ والاستنجاد، وطول الشقة في الاستنصار والاستمداد، وانتهازه هذه الفرصة، واهتباله هذه الغرة، ومسيره في العدد الجم من الكفار، وتناهيه في الاحتشاد والاستكثار، وتوغله في دار الاسلام الى نصيبين، وايقاعه ونكايته بمن بها من المسلمين والمعاهدين، ووردت في اثر ذلك كتب ابي تغلب الى امير المؤمنين والى عز الدولة مولاه، حفظه الله وتولاه، بشكوى ما نزل به وحل بساحته، والتماس مدد يزيد في عدته ومنته، فأهم امير المؤمنين ما ورد منه طويلا، واقلقه شديدا، وبعثه على استقدام عز الدولة، كلأه الله، والجيوش التي برسمه نصره الله، فثنى عنانه اليها مسرعا مبادرا، ولبى دعوته مجيبا مثابرا، وعاد الى مكانه من الخدمة، ومقره من الحضرة، وامتثل امر امير المؤمنين في انجاد ابي تغلب، بجمع كثيف من الرجال الذين يصلحون للقاء الروم، وبالابطال المختارة من طوائف الاعراب والاكراد، فتوافت هذه الجموع اليه، وتكاثرت لديه، واتفق والمجردون من الحضرة، على استنفاد الوسع والنصرة، وتوكلوا جميعا على رب العالمين، واستنجدوا بشعار امير المؤمنين، واثروا في الطغاة الكفرة، والبغاة الفجرة، اثرا بعد اثر، وظفروا بهم ظفرا بعد ظفر، الى ان ختم الله بورود الكتب مقتصا فيها حال غزاة بعض اصحابنا بنواحي ... وش وطرون وانهم وردوا منها بلادا قد اغتر اهلها بوعورة مسالكها، وخشونة مناهجها، وظنوا ان الامد في بلوغها بعيد، والوصول اليها شاق شديد، فادال الله منهم وجعل الدائرة عليهم، فملكوا قسرا وقهرا، وبولغ

فيهم قتلا واسرا ، وامتلأت ايدى المسلمين من السبي والرجال ، والدواب والبغال ، والاموال والاثقال ، والغنائم والانفال ، وانصرفوا غانمين سالمين ، والحمد لله حمد الشاكرين ، وان عسكرا لاعداء الله خرج مع عدة من عظمائهم المعروفين بالزراورة الى حصن للمسلمين ببدليس وسميرام قد كان شحن بمن يحميه ، ورتب فيه من الرجال من يكفيه ، فلما نازلوه ، واستحكم طمعهم فيما حاولوه ، نهد لهم جميع اولئك الرجال ، واستعانوا بالله ذى الجلال ، فرزقهم النصر عليهم ، وقتلوا عددا يفوت الاحصاء منهم ، ولله الطول ومنه العون ، وتواترت بعد ذلك على ابي تغلب والمنفذين اليه اخبار عسكر ببطن هنزيط ونواحيه ، ومعبر الفرات وما يليه ، وذكر كثرة عدده ، وعدده ، وعظم حشده ، ومدده ، فأنفذ اخاه هبة الله بن ناصر الدولة في معظم الرجال الذين امده بهم عز الدولة رعاه الله ، اذ كانوا اقوى تلك الطوائف المجتمعة لديه ، واولاها بعائدة النصر والظفر عليه ، وفيمن انضوى اليهم من قبائل الاعراب وصناديدها ، وفتاك الاكراد وصعاليكها ، وساروا بصدور منشرحة ، وآمال منفسحة ، ووردوا ظاهر آمد يوم الثلاثاء لثلاث ليال بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، فعرفوا صحة خبر الدمستق لعنه الله وحصوله على افواه الدروب في خمسين الف رجل منهم عشرون الفا من المدججة وذوى المراتب المقدمة ، وتلوم اصحابنا بها يريحون ، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون ، مرة تقدم بهم الآجال ، ومرة تحجم بهم الاوجال ، ثم تدانى الفريقان ، والتقت

حلقتنا البطان في يوم الجمعة الذى ختم الله به شهر الصيام ،وختم فيه بالظهور للاسلام ،فثبت الطغاة اغترارا بوفور عددهم ،ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم ،واخذ الاولياء منهم بالمخنق ،وصدقوهم القتال في المعترك الضيق ،فلما استعرت الملحمة ،وعلت الغمغمة ،ودارت رحى الحرب ، واستحر الطعن والضرب ،واشتجرت سمر الرماح ،وتصافحت بيض الصفاح ،تداعى الاولياء بشعار امير المؤمنين المنصور ، وتنادى الكفار بالويل والثبور ،فنكصوا على اقدامهم مجدين في الهزيمة ،واعتدوا الحشاشات لو سلمت لهم من اعظم الغنيمة ،واستلحمتهم السيوف ،واحتكمت فيهم الحتوف ، واخذ المسلمون منهم الثار ،وعجل الله بارواحهم الى النار ،واسر بعد قتل الوف منهم في المعركة الدمستق رئيس عساكرهم وقائدها ،ومدبر حروبهم ومرتبها ،وما اخذ المسلمون قبله دمستقا ،وذلك من غرائب النعم التي بانت وتوالت في ايام امير المؤمنين طلقا ونسقا وحصل معه المعروف بابن البلنطس وهو طريده في الرئاسة ، ورسيله في السياسة ،وجماعة من البطارقة والزراورة والاراخنة والطراخنة قد اذلهم الله بوثاق الاسر ،واذاقهم وبال الكفر ،وافاء على اوليائه الصالحين من الخيل والسواد والاسلحة والاسلاب ، ما ازدادت به قوتهم ،واشتدت معه شوكتهم ،وانبسط اهل الثغور في جميع غلاتهم مستبشرين ،وانتشروا في مسالكم ومعايشهم آمنين مطمئنين .

ونفذ كتاب امير المؤمنين الى ابي تغلب بن ناصر الدولة ، وكتاب عز الدولة ابي منصور ، تولاه الله ،اليه والى من كان انجده بهم ،بالاحماد على ما عملوه سالفا ، والارشاد الى ما يعملونه آنفا ،وان يتناهوا في التوثق من عدو الله الدمستق ،ومن قرينه ابن البلنطس ، والوجوه المأخوذين معهما المأسورين بأسرهما ،وانفاذ رؤوس من قتل من الاكابر ،دون من

يفوت الاحصاء من الأصاغر ، ففعلوا ذلك ، وورد مدينة السلام من هذه الرؤوس العدد الكثير الذى امتلأت به العيون قرة والصدور شفاء .

فالحمد لله الذى انجز وعده ، واعز جنده ، وجعل رايات امير المؤمنين منصورة وعداته مقهورة ، وهو المسؤول اتمام ما اسدى من عارفة ومنة ، واسباغ ما اولى من موهبة ونعمة ، اعلمك امير المؤمنين ذلك لتأخذ - حفظك الله - بحظك الوافر منه ، وتضرب بسهمك الفائز فيه ، اذ كان نتيجة تدبير عز الدولة ، امتع الله ببقائه ، الذى فضله منسوب اليك ، وجمال اثره عائد عليك ، لتتقدم باشاعته واذاعته والتحدث به واقاضته ، والكتاب بشرحه الى الاعمال التي تليك والاطراف المتصلة بنواحيك ، فيشترك الخاص والعام في الجذل به ، ويستوى القاصي والداني في الابتهاج له ، ان شاء الله " .

٣- " وكتب عن معز الدولة ابي الحسين احمد بن بويه عند ظفره بروزبهان بن وندا خرشيذ العاصي عليه بالاهواز (١)

" اما بعد ، فان احق النعم بان يلقي ضيفها العصا ، وتستقر به النوى ، ويستوطن عاكفا ، ويطمئن محالفا ، نعمة قرنت بالشكر ، وجنبت الكفر ، وتلقيت بالارتباط والاستدامة ، وتنوولت بالتأنيس والاستمالة ، وصادفت كفؤا مطيقا لحملها ، وواليا حقيقا بمثلها ، وناهضا مستقلا بأعبائها ، وناشرا مثنيا بالائها ، فثبت الله عنده اطنابها ، ومكن لديه اسبابها ، واضفى عليه ملابسها ، وساق اليه نفائسها ، وعقد له بها لواء الظفر اين يمم ، ومد عليه رواق النصر حيث خيم ، والله سبحانه يقول : ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ان الله غفور شكور﴾ (٢) . وان اخلقها بان يأبى زورها المقام ، وينبو عن الدوام ، وينعب غرابه بالزيال ، وتحدي ركائبه بالانتقال ، نعمة وقعت عند مسيء لجوارها ، جاهل بمقدارها ، عيي بحراستها ، ملي باضاعتها ، فاتخذها اكبر اعوانه على كيد موليها ، واحصن جنته على حرب مسديها ، غافلا عن عادة الله الجارية ، بنزعها عمن سلك موحش سبيله ، واتبع مضل دليله ، وتعويضه منها بشعار العار والشنار ، وجلباب المذلة والصغار ، فلا يلبث ان يصبح متردياً برداء بغيه ، مقتنعا قناع خزيه ، مأخوذا من مأمنه وحرزه ، مستنزلا عن نخوته وعزه ، مائلا عرشه بعد السمو ، مخفوضا عماده بعد العلو ، مهتوكا حجابه وذراه ، مستباحا حريمه وحماه ، مستمرا ما كان استحلاه ، مستوبيا ما كان استمراه ، كابيا ليديه وفمه ، مفضيا الى عواقب حسرته وندمه ،

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٤٣ - ٦٣ وانظر الحادثة في مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٦ وابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٥١٤ - ٥١٦ .

(٢) سورة الشورى (٤٢) : ٢٣ .

عاثرا لا يستقيل ،سقيما لا يبل ، كسيرا لا ينجبر ،مضيما لا ينتصر ، قد حقت عليه كلمة الله اذ يقول : ﴿ ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (١) ،واذ يقول عز وجل : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا وربك لا يظلم احدا ﴾ (٢) . فالحمد لله الذى نصب لنا معالم الهداية ،وجنبنا مجاهل الغواية ،وجعلنا من العارفين بنعمه ،الشاكرين لمننه ، المستحقين لمزيده ،المعضوديين بتأييده ،وعصمنا من مراكب اهل البغي المزلة لاقدامهم ،الجالبة لحمامهم ،المذلة لآبائهم ، الصارعة لجنوبهم ،العاثرة بهم الى العذاب الاليم ، والحال الذميم ،وسكنى الجحيم ، وشرب الحميم . والحمد لله الذى اعلقنا من طاعة امير المؤمنين ، اطال الله بقاءه ، بالعروة الوثقى ،والعصمة الكبرى ، والسبب المتين ، والحبل الامين ، والكهف المنيع ، والمحل الرنيع ،وقرن مشايعتنا بمشايعته ، ومبايعتنا بمبايعته ،حتى صار وليه وليه ،وعدونا عدوه ، وحربنا حربه ،وحزبنا حزبه ، والقريب منا قريبا منه ،والبعيد عنا بعيدا عنه ،فما يلوذ بجانبنا لائذ ولا يعوذ بعقوتنا عائذ ،الا كانت عليه يد من الله كانفة واقية ، وعين كالئة راعية ،وكانت السلامة له مضمونة ،والعاقبة عليه مأمونة ، ولا ينجم بمنابذتنا ناجم ،ولا يعزم على مباينتنا عازم ،الا قطع الله دابره ، وجب غاربه وكور شمسه ،وازهق نفسه ،وطمس نوره ،واظلم ديجوره ، وكانت دعائمه مخفوضة ،ومرائره منقوضة ،والهلكة عليه مكتوبة ، واللعنة به معصوبة ، تكرمة من الله بها علينا ، واحسن فيها الينا ، وحملنا اوق شكرها ،وطوقنا طوق فخرها ،وآثرنا بفضلها

---

(١) سورة آل عمران (٣) : ١٨٢ وسورة الانفال (٨) : ٥١ .
(٢) الآية ٤٩ من سورة الكهف (١٨) تقول : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا ﴾ .

على كل حاسد لعين، وعدو مبين، وان الله بحكمته الباهرة وقوته القاهرة، ومشيئته النافذة، وعزيمته الماضية، خلق الخلائق من طينة واحدة ابتدعها على صور شتى اخترعها، غير حاذ على مثال، ولا راجع الى استدلال، ولا محتاج الى معين، ولا معتضد بقرين، ولا آخذ بتعريف معرف، ولا مؤتسم بتوقيف موقف. واختص منها الانسان بالعقل الذي هداه بعد الضلالة، وفقهه بعد الجهالة، واهله به لحمل تكاليفه، والتصرف مع تصاريفه. والائتمار لاوامره، والازدجار لزواجره، والاستحقاق لثوابه او عقابه، ورحمته او عذابه، وهو مطلع من كل نفس ذرأها ونسمة برأها، على طاعة مطيعها، واضاعة مضيعها، ونسك ناسكها، وفتك فاتكها، غير ممتنع مع علمه بخوائن العيون، وخفايا الصدور من اسداء النعمة الى الشاكر والكافر، واقرارها عند البر والفاجر، ابتداء بالمنة، واتماما للموهبة، وايجابا للحجة، وتأكيدا للتوثقة، وليجزى كلا منهم عن بينة بما كسب، وبصيرة بما احتقب، واذا فعل ذلك علام الغيوب، ومسيطر القلوب، الذى لا تحتجب عليه الضمائر، ولا تنطوى دونه السرائر، فلا تثريب علينا في ايداع الحسنة عند من نظن به شكرها، ونقدر فيه حفظها، وليس لنا ما لله من علم البواطن الدفينة، والدخائل الكمينة، التي لم يوازه في ادراكها مواز، ولم يساوه في الاحاطة بها مساو، فان اصبنا بالصنيعة طريق المصنع، واودعناها عند خير مستودع، فقد اصمى سهمنا، وانجح سعينا، وصدقت مخيلتنا، وسلمت ذخيرتنا، وان خاب حدسنا وكذبنا حسنا، واخطأت فراستنا، وضلت دلالتنا فالله يظفرنا بمن شذ عنا وبغى، ويمكننا من ناصية من اعتدى وطغى، ويجعل كلمتنا عليه العليا، ويدنا فوقه الطولى، ويعوضنا من تقديرنا فيه المعكوس، وتأميلنا

المنكـــوس،وان يحسل بــه نقمـــة من نقمـه،وقارعـــة من قوارعـه،يضحـى بهـا عبـــــرة لنظرائـه،وعظـة لقرنائـــــه ،فيصلحهـم اللـه لنـا بفســاد،، ويجمعهم بشتاتـــه وانفراد،، ويبصرهـم بعمـا،،وينجيهم بـراد، ﴿ان اللـه مع الذين اتقـوا والذين هم محسنون﴾ (١) ٠

وكان الغامط لانعامنـا ،الجاحد لاحساننـا ،المتردى من ذروة طاعتنا ،الهاوى في هـوة معصيتنـا ،الخالـع ربقة ذمتنـا ،النـازع جنة مشايعتنـا ،روزبهـان بن وند اخرشيـذ ،تصنـع عند نـا فـي تقديـم امـره بالولايـة ،وتنفـق بالكفايـة ، واظهـر لنـا غرورا من سعيـه في الخدمـة وكدحـه وسرابا لامعـا من وفائـه ونصحـه ،وهو يدب الضـــراء ويسـر حسـوا في ارتغـاء ويوكـي علـى الغش عيابـه ،ويحنـو على النكث ضلوعـه وحجابـه ،ولا يبدى لنـا بادية وفـاق ، الا عن خافيـة نفاق ، ولا يطلـع طالعـة وداد ،الا عن خبيئـة عناد ،ولا يبـرز في شيمـة من شيم التقرب منـا ، والتوصـل الى قلوبنـا ،الا كانت غطاء على حيلة يعملهـا ،او غيلـة يرصد لهـــا ، وغشـا، علـى فرصـة ينتهزهـــا ،وغـرة يهتبلهـا ، ونحن نحمل امره على ظاهره، ونظـن غائبـه مثـل حاضره،وباطنـه مثل عالنـه، بل كلمـا زدنـا ه احساننـا وامتنانـا ، زدنـا اليـه سكونـا وركـونـــا ، وكلمـا ارتقينـــا بـه الى منزلـة ورتبـة، ارتقينـا فيه الى مثلهـا من انسـه وثقـة، حتى استبطنـا ه من الحضيض الاوهـد ،الى السنـــا، الامجـد ،وجذبنـا بضبعـه مــن المسقـط

(١) سـورةالنحـل (١٦) : ١٢٨٠

المنحط، الى المرفع المشتط، وانتهينا في الانافة بقدره، والاشادة بذكره، والتفخيم لأمره، والتقديم لقدمه، الى الغاية التي لا تسمح بها نفس باذل، ولا تسمو اليها همة آمل، فلما عز بعد الذلة، وكثر بعد القلة، وبعد صيته بعد الخمول، وطلع سعده بعد الافول، وجمت عنده الاموال، ووطئت عقبه الرجال، وتضرمت بحسده جوانح الاكفاء، وتقطعت بمنافسته انفاس النظراء، نزت به بطنته، وادركته شقوته، ونزغ له شيطانه، وامتدت في الغي اشطانه، فنصب اشراكه وحبائله، واعمل مكايده ومخاتله، وجعل المدخل الى اربه، والمسلك الى غرضه، ان تصدى لمقارعة عمران (١) وضمن ذلك اوكد ضمان، وزعم انه لمجاورته اياه في اعماله، ومقاربته له في اوطانه، قد اطلع على ما لم يطلع عليه غيره من عوراته، واهتدى الى ما لم يهتد اليه سواه من غراته، وموه بأباطيله، وتمادى في اضاليله، وقرب في مواعيده، وزخرف من اقاويله، فأجبناه الى ما طلب، وآثرناه بما خطب، ونطنابه الامر الذى شرع فيه، ورغب الينا في توليه، وضممنا اليه العدد الوافر من قوادنا، والجم الغفير من اوليائنا، واطلقنا يده في انفاق اموالنا، وتناول ذخائرنا، قبولا لما اظهر من الحرص، وتأميلا لاستئصال ذلك اللص، ونحن لا نعلم ان الطالب شر من المطلوب، والقاصد اضر من المقصود، وانهما في سوء النية سيان، وفي خبث الطوية اخوان، فما زال يناوله منازلة المطاول، ويزاوله مزاولة الماطل، لتتراخى به الايام، ويتسق له النظام، ويصل من مراده الى الاتمام والابرام، وهو يختدع من قبله من الرجال، ويعدهم بكل باطل

---

(١) هو عمران بن شاهين صاحب البطيحة. انظر اخباره في مسكويه، تجارب الامم، ج ٢، ص ١١٩ وابن الاثير، الكامل، ج ٨، ص ٤٨١.

ومحـال ،ويحملهـم من طاعتـه والعصيـان لنـا ،ومايلتـه والازورار عنـا ،على كـل خطـة شنعـاء ،وداهيـة دهيـاء ،الى ان استمـال سفهاءهـم اغتـرارا واجترارا ، واستولى بهم على من سواهـم اقتسـارا واضطرارا ، وكـان ابـو محمـد الحسـن ابن فناخسـرو ممن حصل تحت امره ،واعتقلتـه اشراك مكره ، وكتب الـى اخيـه اسفـار بن وندأخرشيـذ المقيم كان في اعمال ضمانـه بالاهـواز باخراج كوركيـر والفتح اللشكـرى (١) مـن القلعـة بجنـد يسابـور التي كانا معتقلين فيها وهما ممن كان الشيطان استفل حزمـه ، واستزل قدمـه ،وعرض دمـه ،واطال ندمـه ،فعصينـا فيهما بواعث الانتقـام والسطـوة ، واطعنـا عواطـف الاغتفـار والعفـو ،ونفسنا بهما عن افاظـة النفـوس، واقتصـرنا في عقوبتهما على اطالـة الحبوس، واقررنا همـا من هذه القلعـة بحيث امنـا وسكنـا واطمأننـا ووثقنـا ،ففعـل اسفـار ما امره بـه ، وامتثـل ما رسمـه لـه ، ثم انكفأ روزبهان عن البطائح بالعساكـر ناكصـا عن محاصرة ذلك الفاجـر ،وقدم الينـا كتبا ينقض بعضهـا بعضـا ،ويخالـف آخـر منهـا اولا ،فبناهـا على ذم فعل اخيه ،والبراءة منه فيه ،وتصـرف تصرف المذكـر لنا بحرمانـه ،المستحفـظ لموالاتـه ، وادعى من تنكرنـا لـه ، وتغيرنـا عن العنايـة به ،واصغائنـا الى افسـاد المفسدين عليـه ، وايحـاش الموحشين منـه ،دعـاوى اتخذهـا سلمـا الى المركـب الصعب الذي ارتكبـه ،وعذرا في المنهج الوعر الذي انتهجـه ،فأجبنـاه جوابا اتبعناه بأمثـال لـه لم نأل في جميعهـا جهدا شديدا ولفظـا سديدا ،في تسكين نفرتـه ،والاهابـة بـه الى مصلحته ،والتوثقـة لـه

---

(١) كوركيـر هو من اكابر القواد ،خرج على معز الدولـة فقاتله واخذ اسيرا وحبس في قلعة رامهرمز ، (مسكويـه ، تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ١١٢ وابن الاثير ،الكامل ، ج ٨ ،ص ٤٦٩) ، اما الفتح اللشكـرى فقد قلده معز الدولـة اعمال تكريت فمال الى ناصر الدولة بالموصل وتقلد تكريت من قبله فقبض عليـه سنـة ٣٣٥ ،واسر في قلعة رامهرمز ايضا ، (مسكويـه ،تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ٨٤ و ١١١ ،وانظر ايضا المصدر نفسـه ص (١٢١) .

بكل ما اخذ الله على انبيائه الصديقين ، وملائكته المقربين ، من عهد محصد وعقد محصن ، ويمين غموس ، لا مخلص للمخل بها ، ولا فسحة للمتأول فيها ، الا تؤاخذه بجريرة ، ولا تعاقب على كبيرة اقترفها ولا صغيرة ، ولا تنقصه من رتبة بلغها ، ولا تبعده عن قربة وصل اليها ، ولا تلحق به ضيما ، ولا نطلق عليه هضما ، ولا ننصر ضدا له ، ولا نمكن خصما منه ، ولا نفسد العارفة عنده ، التي انفقنا في اسدائها الاموال ، وخالفنا في اتمامها العذال ، ولا نشمت به اعداء طالما اشاروا فعصوا ، وتنصحوا فأقصوا ، واننا نغضي له عن كل مال انفقه واستهلكه ، وذخر اجحف به وانتهكه ، ونستأنف به المزيد في الاحسان والصنيعة ، والمنزلة الرفيعة ، ثم تكون حاله في نفوسنا اذا حضرنا بعد النبوة ، ووطىء بساطنا بعد الهفوة ، حال من لا يعترضنا ابدا فيه عارض الشك ، ولا تصغي الى طعن طاعن عليه بصدق ولا افك ، وحذرناه عواقب الكفر النازعة للنعم ، وخوفناه مصارع البغي الجالبة للنقم ، وتلونا عليه آيات القرآن المبصرة ، وضربناه بقوارعه المنذرة ، ودعوناه الى التنزه عن ميسم العاصين ، وشعار المخالفين ، وسوء قالة القائلين ، واحاديث المتحدثين فأبى له ضعف العقل والنحيزة ، ولؤم الطبع والغريزة ، الا اصرارا على طيشه وسفهه ، واستمرارا في طيخه وعمهه ، حتى كأن الوعظ اغراه ، والارشاد اغواه ، فلما حصل بواسط هتك حجاب نفاقه ، واظهر مكنون شقاقه ، وجاهر بالخلاف ، وظاهر وكاشف بالانحراف ، ورحل الى سوق الاهواز عاملا على الاستيلاء عليها ، ودفع ابي محمد المهلبي ، ادام الله عزه ، عنها وتوافى اليها معه اسفار اخوه ومن معه ، فكتبنا الى ابي محمد الحسن بن محمد بمقارعته ان استصوبها ووثق ممن معه بالاستقلال بها ، والانحياز الى البصرة ان خاف منها ، نكولا عن اللقاء او عدولا عن الوفاء ، فأخذ في الحزم في تقديم ما كان قبله من

الامـوال والانفـال والميسـر والازواد ووجـوه اهـل البـلاد الى البصـرة ،ونصب ابا العبـاس ليلـى بن موسـى زعيمـا لمـن كان بالاهـواز من الشحنـة والرجـال ،ووقـف معـه وقـوف الابلاء والاعـذار ، فلمـا احسا منهم بالاسفـاف الى الدنيئـة ،والايضـاع في الفتنـة ، وكـانوا كالغنـم السارحـة التي لا راعـي لها ، ، الساثمـة التي لا سائـق معها ،انجذبا الى البصرة ، ومن تابعهمـا من اهل البصيـرة والنصـرة ،وافرجـا له عن الاهـواز بعد ان كان ابو محمد اصفرهـا من كل خير ،واقفرهـا من كل ميـر ،ودخلهـا الخائـن ، دخـول الكافـر الغادر ،وتنابحـت اليـه كلاب الغـارة الشعـواء ،وتعاوت اليـه ذئـاب الصيلـم الصمـاء ،طمعـا منهـم في الوصـول الـى ما عنـده ، واقامـة سـوق يستنفـدون بهـا حاصلـه ووجـده ، وهو يزداد تماديـا في غيـه ، وتناهيـا فـي بغيـه ،وقبـولا من شيطانـه المارد ،وعصيانـا لنصيحـة الراشـد ،وانحـاز اليـه بالاهـواز محمد بن احمد الخوميني عاملنـا كان عليها بعد مكاتبـة منـه لهذا الخائـن خان معه فيها ، وعن مواطأة بينهما تنجـز العقوبـة بهما فقبلـه واقبـل عليه واستوزره وفـوض اليه ، وكـأن الله قد قضـى عليهمـا بهذا الاجتمـاع فـي المعصيـة ، ان يجتمعـا فـي انصرام المدة ، وعسكر ومن معـه يظاهـر سـوق الاهـواز علـى سمـت الطريـق التي عليها نسيـر اليه ،وتجـاه الجهـة التي منها نرد عليـه ، فلما تحققت عندنـا هذه الاخبـار ، واسفـرت اوضح الاسفـار ،حاكمنـا هذا اللعيـن الى الله العادل حكمـه ، السابـق في الاشيـاء علمـه ،العارف باحساننـا اليـه ، وافضالنـا عليه ، ورفعنـا خسيسته ،وتشريفنـا دنيئتـه ،وانـه قابلنـا مقابلـة العبيـد الابـاق ، وجـازانـا مجازاة الفجـار الفسـاق ،حين ضفـت عليه ملابسنـا ،وكرمتـه مجالسنـا ،وكملـت لديـه فواضلنـا ،وتظاهـرت عليه نوافلنـا ، وقـوت يـده ايادينـا ،وتحاشـدت اليـه موالينـا ،وتوجهنا نحـوه فيمـن كان بحضرتنـا من العساكـر ،واصنـاف الغلمـان الاكابـر والاصاغـر ، مستنصريـن

عليه بكفاية الله التي هي اعز نصير ، ومستظهرين عليه بمعونته التي هي انجد ظهير ، وورد تنا اوائل اعمال الاهواز توجد تنا خواص كل كورة من كورها وعراقيها ، ووجوه كل ناحية من نواحيها ورعاياها ، على ما ينبغي ان يكونوا عليه من الشغف بمورد نا ، والتجرد في نصرتنا ، والدعاء لنا ، والمباينة لعدونا ، فلما ايقن باتيالنا اليه واوجس من اطلالنا عليه ، صار الى عسكر مكرم معرجا عن المواجهة ، معردا عن المناجزة ، مظهرا لاصحابه ان طريقنا كان عليها ، وانه سابقنا اليها ، واتممنا الى سوق الاهواز ، ووضعنا العطاء في الاولياء ، فتشوف الينا من كان استغره منهم بأخذه وتلهق من كان استجره بخدعه ، وخفت ذات يده في الاطلاق ، وانقطعت عن عسكره مادة الانفاق ، وعلم ان الامر له مرهق ، والهلاء به محدق ، فثنى الينا عنقا قد اعتقت اليها الحتوف ، وابرقت نحوها السيوف وقد كان ابو محمد الحسن بن محمد ، وابو العباس ليلى بن موسى ، عادا الى الاهواز ممتثلين بالتعجل الينا ، واللحاق بنا ، امرا صدر اليهما منا ، ووكيدا ورد عليهما من كتبنا ، وبثثنا رسلنا الى اوليائنا الحاصلين مع هذا الخائن الذين كل منهم احد الرجلين : اما مسف الى تناول حطامه ، عازم على خذلانه واسلامه ، او مغلوب على رأيه ، محام عن حوبائه ، طالب لنفسه فرصة الانسلال ، وخلسة الانتقال ، فاستجابوا الى الواجب ، واذعنوا بالحق اللازب ، واقاموا ضروبا من العذر عندنا ، ولاذوا بالعفو والغفران منا ، واستأمن الينا ابو محمد الحسن بن فناخسرو مستقيلا من عثرته ، مستصفحا عن جريرته ، فتلقيناه بالاحسان ، وغمرناه بالامتنان ، وثلم الله به جانب العدو ، وايقن بحلول المكروه والسوء ، وافضى الرأي ان رددنا ابا محمد الحسن بن محمد الى الباسيان ، لنبعده عن مباشرة الحرب ، ونصونه

عن مشاهدة الطعن والضرب بعد ان اتت المفاوضة بيننا وبينه على ما استدعيناه من اجله وان عدلنا الى قنطرة اربق حتى ملكنا وعسكرنا من ورائها جلوسا بالمراصد له وضربا بالاسداد عليه واخذا بمخنقه وتضييقا لطرقه وكر هو الى سوق الاهواز راجعا واقبل منها الينا سارعا دالفا دلوف الجاهل بربه الذاهل عن رشده المركوس في غيه المسوق الى حتفه قد اعجبته نفس محبطة العمل وغرته امنية خائبة الامل واوردته قحة الايسر وزقة الدين موارد هلكة لا صدر عنها واقتحمت به قحم خطة لا انفراج لها والله في ذلك كله ناصرنا وخاذله ومظفرنا وقاتله ومعلينا ومسقطه ومديلنا ومورطه اذ كان سبحانه العالم بأن الجنود المطيفة به جنودنا والبنود الخافقة على رأسه بنودنا وان لنا الثوب الذي سحبه والطرف الذي ركبه والدرع التي ادرعها واللأمة التي استلأمها والعضب الذي انتضاه والسهم الذي امضاه وعبرنا القنطرة اليه في خواص غلماننا الاتراك ونخب من الديلم والجيل الفتاك وذوي صدور منه ومن اصحابنا الخونة حامية وقلوب عليهم ملتظية وايد في جهادهم متفقة واقدام الى لقائهم مستبقة فلم تزل الخيل تطرقهم والكسر يرهقهم والجراح تثخنهم والقتل يمحقهم والحروب تذيقهم حسر حديدها وجلاد صناديدها وترميهم بكماتها وابطالها وتعركهم عرك الرحى بثفالها سحابة يوم الاثنين انسلاخ شهر رمضان الذي ختم الله به شهر الصيام وعظم بركته على الاسلام فلما تراءى الناس هلال شوال وكادت تغشاهم غواشي الظلام انزل الله نصره على اوليائه وشفع لهم وعده بوفائه فانهزم الخائن هزيمة قوض الله بها عروشه وفض جيوشه وضلل وساوسه وابطل هواجسه واستلحمت رجاله السيوف وحرقتهم نار الحتوف واقتسمتهم المكاره شعاعا ايدي سبا بين قتيل مرمل واسير مكبل وهارب

مغلول ، ومستأمن ذليل ، وكان كوركيسر والفتح اللشكري ممن جرى عليهم حكم الأمان ، واعتلق حبل الذمام ، فدخلا في الجملة دخول التائب المنيب ، والراشد المصيب ، وتنمد نا سالف وطارف جرائرهما ، وصفحنا عن قديم وحديث جرائمهما ، وانزلناهما منازل نظرائهما الشامل لهم فضلنا ، الممتد عليهم ظلنا ، واتبع سرعان خيلنا عدو الله الهارب منا فلحقوه وادركوه ، واحاطوا به وملكوه ، وبدر اليه من الغلمان من ضربه ضربات اثرت فيه آثارا لم تجحف و بلغت منه مبالغ لم توغل ، وتباكوا عليه تباك المتنافسين في الأسر ، المتشاحين على الظفر ، الى ان اكب عليه ابو الفوارس شيرزيل بن كندراسن (١) ، فاستخلصه واستحياه ، واستنقذه واستبقاه ، واتانا به اسيرا عقيرا ، خاضعا ضارعا ، بغير عهد يحجز عنه ، ولا عقد يمنع منه ، ولا امان يعلق بحجته ، ولا ضمان يطالب بوثيقته ، ووجد احمد بن محمد الخوميني صريعا مجندلا ، طريحا معفرا ، قد اثخنته ضربة في رأسه ، لم يلبث بعدها الا قليلا حتى قضى نحبه ، ولقي باسود صحيفته ربه ، واجلى هذا الفتح العظيم خطره ، الجسيم قدره ، عن سكون الدهماء ، وشمول النعماء ، وعز الاولياء ، وكبت الاعداء ، وشفاء الصدر ، وادراك الوتر ، واخذ الثأر المنيم ، والظفر بشيطان الفتنة الرجيم ، وتلك عاقبة من ظلم وكفر ، وخان وغدر ، وبغى واستكبر ، وعتا وتجبر ، والله تعالى يقول فيه وفي امثاله : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٢) .

---

(١) شيرزيل هذا هو الذي ارسله معز الدولة على مقدمته للحرب . مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) سورة النحل (١٦) : ١١٢ .

فالحمد لله رب العالمين الذى لا يضيع اجر المحسنين ، ولا يصلح عمل المفسدين ، ولا يهدى كيد الخائنين ، ذى الحجج البوالغ ، والنعم السوابغ ، والنقم الدوامغ ، جبار الارض والسموات ، وعالم الجليات والخفيات ، الذى لا ينجو منه الهارب ، ولا يعجزه الطالب ، ولا يضيمه ضائم ، ولا يروم مغالبته رائم ، واياه نسأل ان يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، صلاة زاكية نامية ، دائمة راتبة ، منجزة عدته ، رافعة درجته ، قاضية حقه ، مؤدية فرضه ، وان يديم لمولانا أمير المؤمنين احسن ما خوله واولاه ، ومنحه واعطاه من نصرة رايته ، واعلاء كلمته ، واظهار من ظاهره ، وتأييد من ظافره ، وان يجعلنا ممن اذا انعم عليه شكر ، واذا ابتلي صبر ، واذا زيد لم يبطر ، واذا نقص لم يقنط ، ولا يخلينا من الكفاية ، وجميل الولاية ، فيما غاب وحضر ، واستسر وجهر ، وبطن وعلن ، واحتجز وبرز ، انه ولي ذلك والقادر عليه ، والمرجو له ، وحسبنا الله ونعم الوكيل " .

٤ ـ " ولم يزل يعمل الحيلة في المفارقة لهم والخلاص منهم ، الى ان يسر الله ذلك واعان عليهم بما اوقعه بين اولئك المخذولين من اختلاف الاهواء ، واختلال الآراء ، وانتكاث العزيمة ، والتياث الصريمة ، فتمزقوا في البلاد كما تمزق الريح رجل جراد ، ولاذ الاكثر منهم بمواليهم ، والجأتهم الفاقة اليهم ، على غير عهد ولا امان ، ولا عقد ولا ضمان ، ... وكتاب امير المؤمنين هذا واعداء الدولة ، وزعماء الفتنة ، بين قتيل مرمل ، واسير مكبل ، وهارب مفلول ، ومستأمن متبول ، قد نزعوا سرابيل الاستكبار ، وادرعوا جلابيب الصغار ، وايقنوا * ان الله لا يهدي كيد الخائنين ، ولا يصلح عمل المفسدين *" (١) .

٥ ـ " وان يفتح لهم بابه ، ويرفع عنهم حجابه ، ويمكنهم من الوصول اليه ، وعرض مظالمهم عليه ، ويبسط لهم وجهه ، ويلين لهم كنفه ، ويبذل بشره ، ويخفض جناحه ، وان يتفقد الكبير والصغير من امورهم ، ويتألف الدقيق والجليل من مصالحهم ... " (٢) .

٦ ـ " فمن رجع القهقرى ، ونزع وارعوى ، فالتوبة تنفعه ، والانابة تنعشه ، والعفو يسعه ، والحلم يغمره ، ومن دام على لجاجه ، واصر على اعوجاجه ، فجيوش امير المؤمنين تطرقه ، وعساكره ترهقه ، والمعاصم تلفظه ، والمعاقل تسلمه ، والشقي من كان معه ، والسعيد من بوئ منه " (٣) .

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ والآية جمع لاجزاء من الآيتين ٥٢ من سورة يوسف و ٨١ من سورة يونس .

(٢) رسائل الصابي ، ص ١٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ .

٧ ـ " وكم (١) من قنبر (٢) اطلقنا عليه بازيا (٣) فعرج الى السماء عروجا ، ولجج في اثره تلجيجا ، فكأن ذلك يعتصم منه بالخالق ، وكأن هذا يستطعمه من خالق (٤) ، حتى غابا عن النظار (٥) ، واحتميا عن الابصار (٦) ، (وصارا كالغيب المرجم ، والظن المتوهم) (٧) ، ثم خطفه ووقع به وهما كهيئة الطائر (٨) الواحد ، فأعجبنا امرهما واطربنا منظرهما (٩) ووردنا المنازل سالمين وولجناها غانمين والغزالة (١٠) مصوبة للغروب مؤذنة بالمغيب ، والجو في اطمار مبهجة من اصائله ، مورسة (١١) من غلائله) " .

---

(١) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ وابن حمدون ، التذكرة (٧٦٩) ، الورقة ٩٤ ب ـ ٩٥ أ وابن المعمر ، لقاح الخواطر ، الورقة ٨٧ ب .

(٢) في التذكرة الحمدونية ، الورقة ٩٤ ب : " وكان قريبامنه قنبرا " وفي لقاح الخواطر : " فأبصرنا فيه قنبرا " .

(٣) في المصدرين السابقين : " يؤيؤا " واليؤيؤ : " اصغر من الخاطف ، وهو كالصقر في جميع حالاته ويفارقه في ثلاثة اشياء : احدهما ان اليؤيؤ صغير ، والصقر كبير . والثاني ان لون رجلي الصقر ازرق واليؤيؤ اصفر . والثالث ان الصقر اذا تقرنص لم يتغير عن حاله كثير تغير ، واليؤيؤ اذا تقرنص صار لون ظهره ازرق ، وصدره كلون صدر الشاهين الكرز " . عن عبد الرحمن البلدي ، الكافي في البيزرة (تحقيق احسان عباس وعبد الحفيظ منصور ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣) ص ٦٣ . وانظر ايضا القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٦١ .

(٤) في التذكرة الحمدونية ، الورقة ٩٤ ب ولقاح الخواطر : " الرازق " .

(٥) في لقاح الخواطر : " الابصار " .

(٦) في المصدر نفسه : " الافكار " .

(٧) ما بين قوسين غير موجود في المصدر السابق .

(٨) في المصدر نفسه : " الطير " .

(٩) ما بين قوسين غير موجود في اليتيمة ونقل عن التذكرة الحمدونية ، الورقة ٩٤ ب ـ ٩٥ أ ولقاح الخواطر ، الورقة ٨٧ ب .

(١٠) في لقاح الخواطر ، " والشمس " .

(١١) في المصدر نفسه : " شفوف مورسة " .

٨ ــ " وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق ، ولفظ مونق ، وعبارة مصيبة ، ومعان غريبة ، واتساع في البلاغة يعجز عنها عبد الحميد في كتابته، وسحبان في خطابته ، وتصرف بين جد امضى من القدر ، وهزل ارق من نسيم السحر ، وتقلب في وجوه الخطاب ، الجامع للصواب ، الا ان الفعل قصر عن القول لانك ذكرت حملا جعلته بصفتك جملا ، وكان المعيدي الذي تسمع به لا ان تراه ، فلما ان حضر رأيت كبشا متقادم الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد افنته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور ، وظننته احد الزوجين اللذين جعلهما نوح في سفينته ، وحفظهما لذريته ، صغر عن الكبر ، وكبر عن القدم ، فبانت دمامته ، وقصرت قامته ، وعاد ناحلا ضئيلا ، باليا هزيلا ، بادي الإسقام ، عاري العظام ، جامعا للمعايب ، مشتملا على المثالب ، يعجب العاقل من حلول الحياة به ، ومن تأتي الحركة فيه ، لانه عظم مجلد مليد ، لا تجد فوق عظامه سلبا ، ولا تلقى يدك منه الا خشبا ، قد طال للكلأ فقده ، وبعد بالمرعى عهده ، لم ير القت الا نائما ، ولا عرف الشعير الا حالما ، وقد كنت ملت الى استبقائه لما تعرفه عن محبتي للتوفير ، ورغبتي في التثمير ، وجمعي للولد وادخاري لغد ، فلم اجد فيه مستبقيا لبقاء ، ولا مدفعا لعناء ، لانه ليس بانثى فتلد ، ولا بفتي فينسل ، ولا بصحيح فيرعى ، ولا بسليم فيبقى ، قلت : اذبحه ليكون وظيفة للعيال ، واقيمه رطبا مقام قديد الغزال ، فانشدني وقد اضرمت النار وحدت الشفار :

" اعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم "

ثم قال : وما الفائدة في ذبحي ولست بذي لحم فأصلح للأكل لان الدهر قد اكل لحمي ، ولا ذي

جلد يصلح للدباغ لان الايام قد مزقت ادمي ، ولا ذي صوف يصلح للغزل لان الحوادث قد حصت وبري ، فان اردتني للوقود فكيف يمزا نفي من ناري ولريقي حرارة حجري بريح تتارى ؟ فلم يبق الا ان تطالبني بذحل او بيني وبينك دم ... " (١)

٩ ـ " اسأل الله تعالى مبتهلا لديه ، مادا يدي اليه ، ان يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من اخواتها بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات ، ليكون كل دهر يستقبله وامد يستأنفه موفيا على المتقدم له ، قاصرا عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر اطوله وابعده ، ومن العيش اعذبه وارغده ، عزيزا منصورا محميا موفورا باسطا يده ، فلا يقبضها الا على نواصي اعداء وحساد ، ساميا طرفه فلا يغضه الا على لذة غمض ورقاد ، مستريحة ركابه فلا يعملها الا لاستضافة عز وملك ، فاشزة قداحه فلا يجيلها الا لحيازة مال وملك ، حتى ينال اقصى ما تتوجه اليه امنيته جامحا ، وتسمو له همته طامحا " (٢) .

١٠ ـ " بل كلما زدناه احسانا وامتنانا ، زدنا اليه سكونا وركونا ، وكلما ارتقينا به الى منزلة ورتبة ، ارتقينا فيه الى مثلها من انسة وثقة ، حتى استبطناه من الحضيض الاوهد ، الى السناء الامجد ، وجذبنا بضبعه من المسقط المنحط ، الى المرفع المشتط ، وانتهينا في الانافة بقدره ، والاشادة بذكره ، والتفخيم لأمره ، والتقديم لقدمه ، الى الغاية التي لا تسمح بها نفس باذل ، ولا تسمو اليها همة آمل ، فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبعد

---

(١) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ .

(٢) اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

صيته بعد الخمول ، وطلع سعده بعد الافول ، وجمت عنده الاموال ، ووطئت عقبه الرجال ، وتضرمت بحسده جوانح الاكفاء ، وتقطعت بمنافسته انفاس النظراء ، نـزت به بطنته ، وادركته شقوته ، ونزغ له شيطانه ، وامتدت في الغي اشطانه ، فنصب اشراكه وحبائله ، واعمل مكايده ومخاتله ... " (١) .

١١ ـ " امره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة ، والجنة الحصينة ، والطود الارفع ، والمعاذ الامنع ، والجانب الاعز ، والملجأ الاحرز ، وان يستشعرها سرا وجهرا ، ويستعملها قولا وفعلا ، ويتخذها رداء دافعا لنوائب القدر ، وكهفا حاميا من حوادث الغير ، فانها اوجب الوسائل ، واقرب الذرائع ، واعودها على العبد بمصالحه ، وادعاها الى سبيل مناجحه ... " (٢) .

١٢ ـ الحمد لله ... المنعم على اوليائه ، المنتقم من اعدائه ، رافع الحق ومعليه ، وقامع البطل ومرديه ومعز الدين ومديله ، ومذل الكفر ومذيله ، المنزل رحمته على من جاهد في طاعته ، المحل سطوته بمن جاهر بمعصيته ، المتكفل تأييد حزبه حتى يظافره وخذلان حربه حتى يدحره ... " (٣) .

١٣ ـ " والحمد لله الذى اختار لنا الاسلام دينا وآثره ، واظهره على الدين كله ونصره ، وشرعه شرعا لا ينسخ ، وعقده عقدا لا يفسخ ، وجعله حقا لا يدحض ، وأمره امرارا لا ينقض ، وقضى له بعز المرافقين وذل المنافقين ، وظهور المعاضدين وثبور المعاندين ... " (٤) .

---

(١) رسائل الصابي ، ص ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

١٤ ـ " فأدى امانة ربه مخلصا ، وصدع برسالته مبلغا ملخصا ، واستنقذ هذه الامة من الغواية ، وعرفها طرق الهداية ، وسلك بها سواء المحجة ، ودعاها الى الحق بأوضح حجة ، وعدل بها عن عبادة الاوثان الى طاعة الرحمن ، وعن دين الشيطان الى ارشد الاديان ، فاصبح الناس على التعاطف والائتلاف عاكفين ، وعن التهارج والاختلاف عازفين ، ... " (١) .

١٥ ـ " ولما نزلت بهم النوازل ، وهبلتهم الهوابل ، واظلهم البوار ، واستمر بهم العثار ، وغشيتهم جيوش امير المؤمنين المنوطة بحامي البيضة ، وراعي الحوزة ، عضد الدولة رعاه الله ، ففرقهم فرقا ، واطارهم شققا ، وقسمهم شعاعا وايدى سبا ، وانجز فيهم مواعيد الله ، واذاقهم سوء عاقبة ظنونهم الكاذبة ، وقتل منهم من اذن الله في تعجيله ، وهزم من املى الله له الى غاية تأجيله ... " (٢) .

١٦ ـ " ونعود معك الى ذكر الحرب التي انت مجتهد في ان تشب بيننا نارها وتطير شرارها ، فيا ليت شعرنا بأي قدم تواقفنا ورايانتا خافقة على رأسك ، ومناليكنا عن يمينك وشمالك ، وخيلنا موسومة باسمائنا تحتك ، وثيابنا محوكة في طرزنا على جسدك ، وسلاحنا مشحوذ لاعدائنا في يدك ، ... " (٣)

١٧ ـ " فلم تزل الخيل تطرقهم والكر يرهقهم ، والجراح تثخنهم ، والقتل يمحقهم ، والحرب تذيقهم حر حديدها ، وجلاد صناديدها ، وترميهم بكماتها وابطالها ، وتعركهم عرك الرحى بثفالها ، .. فانهزم الخائن هزيمة قوض الله بها عروشه ، وفض جيوشه ، وفلل وساوسه ، وابطل هواجسه ، واستلحمت رجاله السيوف ، وحرقتهم نار الحتوف ، واقتسمتهم المكاره شعاعا ايدى سبا بين

(١) رسائل الصابي ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥١ والعباسي ، معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

قتيل مرمل ،واسير مكبل ،وهارب مفلول ، ومستأمن ذليل ... " (١) .

١٨ - " مكان حلولك بفناء امير المؤمنين مكان الديمة الوطفاء ،غب السنة الشهباء ،والنور المنتشر بعد الظلام المعتكر وانحسرت الفتن بلألاء جبينك ، ودرت النعم من اخلاف يمينك ، وجرت الامور على سنن الصواب ،واعتدلت بعد التواء واضطراب ،فأحاطت ربقة الطاعة باعناق كانت خالعة لها ، وحسنت الوفا كانت بعيدة العهد بها ، ونقلت الاحكام منهجا على منهاجها ،وتقومت بعد اعوجاجها في انفراجها ،واطمأنت المضاجع على مهاد العدل والحماية ، ونامت العيون في كنف الذب والكلاية " (٢) .

١٩ - " حتى استطناه من الحضيض الاوهد ، الى السناء الامجد ، وجذبنا بضبعه من المسقط المنحط ، الى المرفع المشتط .. " (٣) .

٢٠ - " نزت به بطنته ،وادركته شقوته ،ونزغ له شيطانه ،وامتدت في الغي اشطانه ،فنصب اشراكه وحبائله ، واعمل مكايده ومخاتله " (٤) .

٢١ - " للنعم شرط من الشكر لا تريم ما وجدته ،ولا تقيم ما فقدته ،وكثيرا ما تسكر الواردين حياضها ،ويعشي عيون المقتبسين ايماضها ،فيذهلون عن الامتراء لدرتها ،ويعمهون عن الاستمتاع بنضرتها ،ويكونون كمن اطار طائرها لما وقع ،ونفر وحشها لما انس ،ولا يلبثون ان يتعروا من جلبابها ، وينسلخوا من اهابها ويتعوضوا منها بالحسرة والغليل ،والاسف الطويل " (٥) .

---

(١) رسائل الصابي ،ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) لقاح الخواطر ،الورقة ٩٦ ب .

(٣) رسائل الصابي ، ص ٥٥ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ،ص ٣٣١ - ٣٣٢ واليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥١ وابن حمدون ،التذكرة (٧٧٠) ، الورقة ١٦٠ أ .

٢٢ ـ " فانها (النفس) امارة بالسوء، صبة الى الغي، صادة عن الخير، صادفة عن الرشد، لا ترجع عن مضارها الا بالشكائم، ولا تنقاد الى منافعها الا بالخزائم، فمن كبحها وثناها نجاها ومن اطلقها واهجرها ارداها "(١).

(١) رسائل الصابي، ص ١٧١ ـ ١٧٢.